رحلات المغامر العربي

الحاج عبد الله وليَمسون المسلماني

تأليف: ستانتون هوپ

ترجمة: د. إنعام إيبش

تحرير وتعليق: د. أحمد إيبش

روّاد المشرق العربي

رحلات المغامر العربي

الحاج عبد الله وليَمسون المسلماني

تأليف

ستانتون هوپ

ترجمة

د. إنعام إيبش

تحرير وتعليق

د. أحمد إيبش

© هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، دار الكتب الوطنية.
فهرسة دار الكتب الوطنية أثناء النشر.

DS244. 5. W5 H612 2011
Hope, Stanton
[Arabian adventurer]

رحلات المغامر العربي الحاج عبد الله وليمسون المسلماني/ تأليف: ستانتون هوب؛ ترجمة: إنعام إيبش؛
تحرير وتعليق: أحمد إيبش. ط. 1. - أبوظبي: هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، دار الكتب الوطنية، 2011.

456 ص. ؛ 24 سم. (رواد المشرق العربي)
يتضمن مراجع ببليوجرافية.

ت د م ك: 3 - 468 - 01 - 9948 - 978

1. Williamson, William Richard, 1872- . 2. شبه الجزيرة العربية — وصف ورحلات.
أ. إيبش، إنعام. ب. إيبش، أحمد. ج. السلسلة. د. العنوان.

ترجمة كتاب: Arabian adventurer

أبوظبي للثقافة و التراث
ABU DHABI CULTURE & HERITAGE

© حقوق الطبع محفوظة
دار الكتب الوطنية
هيئة أبوظبي للثقافة والتراث
«المجمع الثقافي»

©National library
Abu Dhabi Authority
For Culture & Heritage
"Cultural Foundation"

الطبعة الأولى: 1432 هـ = 2011م

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة
عن رأي هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث (المجمع الثقافي)

أبو ظبي - الإمارات العربية المتحدة
ص . ب : 2380
publication@adach.ae
www.adach.ae

رحلات المغامر العربي

الحاج عبد الله وليمون المسلماني

سلسلة
روّاد المشرق العربي

تقدّم «هيئة أبوظبي للثقافة والتّراث» للمكتبة العربيّة بوجه العموم، ومكتبة تراث جزيرة العرب بوجه الخصوص، باكورة نتاجها من هذه السّلسلة الثقافيّة التّراثيّة تحت عنوان: «روّاد المشرق العربي». وهي من خلالها تعكس اهتمامها بتراث الآباء والأجداد، كمصدر فخر لشعب الإمارات وإلهامهم وعنوان أصالتهم وهويّتهم الوطنيّة، وذلك من خلال الحرص على جمع كافّة المصادر المتعلّقة بتراث منطقة الخليج العربي وجزيرة العرب والعالم العربي في آن معاً.

فإذا استعرضنا تاريخ الحركة العلميّة بنشر التّراث العربي المخطوط، الذي يصل مجموعه إلى قرابة 3 ملايين مخطوطة في مكتبات الشرق والغرب، نجد أنّ جامعاتنا ومعاهدنا العلميّة ومؤسّساتنا الثقافيّة على امتداد الوطن العربي، أسهمت بنصيب وافر في خدمة هذا التّراث ونشر أصوله، وخاصّة خلال القرن العشرين. فتألّفت من خلال ذلك مكتبة تُراثيّة عريقة ثمينة وواسعة للغاية، حفظت تراث لغتنا العربيّة في مجالات شتّى، منها على وجه المثال: الأدب العربي، الشّعر، النّحو، الحديث الشريف، الفقه، التاريخ، الفلسفة والفكر الإنساني، الفنون، وسائر العلوم عند العرب من فلك وطبّ وهندسة ورياضيّات وصيدلة وكيمياء. ومنها أيضاً الأدب الجغرافي العربي وأدب الرّحلات.

وما دُمنا بصدد ذكر تُراثنا الجغرافي، فلا بُدّ أن نوكّد على أنّ ثمّة تياراً موازياً له، يضارعه ويستقي منه ويتمّمه، يُضفي بالغ الفائدة والمتعة على تُراث العروبة، ألا وهو:

أدب رحلات الأوروبيين إلى مشرقنا العربي! هذا المبحث مع الأسف لم يتمّ التّركيز الكافي عليه حتى الآن، رغم ما يستحقّه وما يقدّمه من فوائد لمثقّفي العربيّة ودارسي تراثها وتاريخها الحضاري والسّياسي والاجتماعي.

هذه الرّحلات لم تتوقّف أبداً منذ أقدم العصور وإلى انبلاج دعوة الإسلام الحنيف، فطفقت جموع الرّحّالين تتناوب على زيارة المشرق منذ عصر حضارة الإغريق (كرحلة آناباسيس لزينوفون الأثيني، ورحلة هيرودوتوس)، والرّومان (كرحلة إيليوس غالوس). ثمّ في القرون الوسطى حلّ الطمع محلّ الفضول، واجتاحت جحافل الغزو اللاتيني مشرقنا الإسلامي في موجة الحملات الصّليبيّة، فمكثت فيه على الشّريط السّاحلي لبلاد الشام مدّة 200 سنة، وحاولت احتلال مصر وتونس لكنّها ارتدّت على أعقابها.

فلمّا أطلّ القرن السّادس عشر، بدأت مرحلة جديدة في هذه الملحمة الثقافيّة والحضاريّة من علاقات الشرق بالغرب، فتضاعف إلى حدّ كبير عدد الرّحّالين الأوروبيّين، الذين قصدوا المشرق إمّا للتّجارة أو المغامرة أو الاستطلاع، أو لمجرّد الخروج بمؤلّفات إبداعيّة فريدة. أمّا جزيرة العرب، معدن العروبة وأرومة قبائلها، ومهبط الوحي وموئل لغة القرآن الكريم، فلا غرو أنّها نالت من اهتمام رحّالي الغرب وجهودهم المُضنية ومغامراتهم الشائقة الشيء الكثير، عبر خمسة قرون (من القرن السّادس عشر إلى القرن العشرين).. فجابوا بواديها وفيافيها ومجاهلها، ناهيك عن مدنها وبلداتها وقُراها ومضارب بدوها.

هذا الإرث الإنساني الثمين والممتع والمفيد، الذي يضمّ المئات من نصوص الرّحلات النّادرة، تقوم «هيئة أبوظبي للثقافة والتّراث» اليوم بنشر باكورة أجزائه بالعربيّة، في مشروع طموح يهدف إلى نشر أكبر عدد منه، وتقديمه للقارئ العربي بأرقى مستوى علمي من التّحقيق والبحث، وأجمل حلّة فنيّة من جودة الطباعة وتقديم الوثائق والخرائط والصّور النّادرة.

هيئة أبوظبي للثقافة والتّراث

هذا الكتاب

الحاج وليَمسون ومغامراته
في أميركا وآسيا والخليج العربي

قصتنا لهذا الكتاب قصة عجيبة وغريبة لرجل إنكليزي طوّحت به الأقدار شرقاً وغرباً، وتناقلته المغامرات والمخاطر حتى وقع بين أشداق الموت غير مرّة، إنه وليَم ريتشارد وليَمسون معاصر لورَنس العرب وغرترود بِل وهاري سنت جون فيلبي وغلوب باشا (أبي حنيك)، الذي درس الإسلام وارتضاه ديناً فنطق بالشهادتين وحطّت به الرّحال في جنوبي جزيرة العرب.. في عدن أولاً، ثم انتقل إلى الكويت وطاف ببوادي شرق الجزيرة، ثمّ بساحل الخليج يتصيّد اللؤلؤ في أبوظبي والبحرين وغيرهما، إلى أنّ حطّ رحاله أخيراً في البصرة وعاش بها حتى وفاته عام 1958.

حمل هذا الرّحالة المغامر اسماً عربياً منذ كان في العشرين من عمره، هو: عبد الله فضل المسلماني، وما تزال ذريّته إلى يومنا الحاضر في كلّ من البصرة والكويت تحمل الاسم ذاته، شاهدة على تاريخ رجل كبير بطموحاته وأحلامه وإنجازاته، عشق العرب والعروبة وأعجبته عادات البادية وقيمها الرّفيعة، فرأى فيها أسمى معاني الشرف والكرامة والرّجولة، وعاش حياة ملأى بالأحداث الجسام، منذ مطلع تسعينيات القرن التاسع عشر إلى منتصف القرن العشرين.. فشهد أواخر أيام الدّولة العثمانيّة، والانتداب البريطاني في العراق، والعهد الملكي فيه، وتعرّف إلى أكثر أمراء وشيوخ منطقة الخليج العربي فربطته بهم صداقات حميمة ومحبّة متبادلة.

باسمه الاسلامي الجديد عبد الله فضل، استقرّت جوارحه وانشرح قلبه للدّين الذي أحبّه وأحب معتنقيه وأخلاقهم الفاضلة، ولمّا عرفت السّلطات البريطانية بإسلامه أخذت بمضايقته، فسافر إلى بومباي في الهند وفيها تعرّف إلى الكثير من التجّار العرب، وكان كثير التردّد على دواوين عرب الجزيرة من أهل نجد الموجودين في مدينة بومباي، فتعرّف إلى التاجر الكويتي الشيخ يوسف بن عبد الله الإبراهيم خال آل الصّباح حكام الكويت (توفي 1224هـ = 1907 م). أحب الشيخ يوسف هذا الشاب البريطاني المسلم، فتوجّه به إلى الكويت عام 1893 م وضمّه إلى اسرته واعتبره ابناً له، فكان أول أوروبي يتّخذ من الكويت وطناً له ولاولاده ولأحفاده من بعده.

وهناك تعوّد عبد الله الخروج إلى البادية مع عمّه ومعزّبه يوسف الإبراهيم، لذا نجده يعيش في البادية مع عرب الظفير يسكن بيتاً من الشعر ويملك فرساً اصيلة وصقراً قرناساً وعبداً، وفي سنة 1895 تزوّج من هذه القبيلة فتاة اسمها نورة، ويذكر الكولونيل هارولد ديكسون (1881-1959) في كتابه «عرب الصحراء» *The Arab of the Desert* أنّ هذه الفتاة أنجبت له عدّة أولاد، وبمرور الوقت أصبح لسانه طلقاً في اللغة العربية، يتكلمها كأحد بدو الصحراء العرب.

تعرّف عبد الله المسلماني إلى شيوخ البادية، واشتغل في تجارة الابل والخيل وربحت تجارته، وعُرف عنه أنه خبير متميز في اختيار كرائم الهجن وأصائل الخيل العربية. وله قصة ممتعة وأشعار حول فرسه الكحيلة الشهيرة من رَسَن الحمداني الشمّري، تنتشر على صفحات الإنترنت.

في أواخر سنة 1895 وكان في الرابعة والعشرين من عمره حقّق رغبته العارمة في تأدية فريضة الحج، فأدّاها بكل شوق ولهفة على ظهور الإبل كمسلم مخلص لدينه غاية الاخلاص، فأصبح اسمه الحاج عبد الله فضل المسلماني، ولم يكتف بهذه الحجّة الواحدة، فقد كرّرها في عامي 1898 و1936. وفي سنة 1909 استقرّ في مدينة الكويت متحضراً كصاحب مركب وتاجر لؤلؤ وسكن في بيته الذي اشتراه في وسط مدينة الكويت قُبيل الحرب العالمية الأولى، وكان يشجعه ويشدّ من أزره تاجر اللؤلؤ

الكبير والشهير هلال بن فجحان الدّيحاني المطيري، الملقب بـ «ملك اللؤلؤ» (1855-1938).

تـزوّج الحـاج عبد الله فضـل المسـلماني ثـلاث فتيات عربيـات، الأولى من عرب الظفير اسـمها نورة، والثانية من عرب المنتفق اسـمها سارة، والثالثة من بغداد لا نعرف آلها، قيل إنّ اسـمها زهرة، لكن هذا الاسـم يلتبس في كتاب هوپ باسـم سارة زوجته من قبيلة المُنتفق، حيث يرد: Zara.

* * *

يتجلّى في هذه القصة عمق إيمان وأصالة وكرم أبناء جزيرة العرب عموماً والخليج خصـوصاً، ممّا كان دافعاً ومحفزاً لهذا الشاب البريطاني لكي يترك وطنه إنكلترا ليعيش حيـاة الأصالة والبسـاطة، ويختار أن يصبح عربياً مسـلماً بعقله وروحـه وإيمانه ولغته وأدق تفاصيل حياته.. وأظنّ القارئ لهذه السّـيرة سـيراها جديرة بحقّ بأن تكون قصّة لروايـة أو فيلم سـينمائي، رغم أن كثيـراً من أحداث حياة «الحجّي عبـد الله» لم تدوّن وضاعـت من الذاكرة، إلى أن قام بكتابتها علـى عجل (في عام 1947) الكاتب الرّوائي البريطاني ستانتون هوپ، ونُشرت في عام 1951.

أمّا الكاتب وليَم إدوارد سـتانتون هوپ W. E. Stanton-Hope، فهو روائي بريطاني، وكاتب سِيَر، ومؤلفات حول الحرب، وكتب رحلات، كما أنه اشتهر خصوصاً بقصصه الكثيرة للفتيـان. ولد بلندن عام 1889، وهو حائز على رتبة الزمالة في الجمعيّة الجغرافيّة الملكيّـة F.R.G.S.. بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية هاجر إلى أوسـتراليا في حوالي عام 1950، وظلّ بها إلى وفاته في سيدني بمقاطعة نيو ساوث ويلز عام 1961.

من مؤلفاته:

Rolling Round the World for Fun

Gallipoli Revisited

Ocean Odyssey

Tanker Fleet

Richer Dust

Burton of the Bazaars

Forest Flame

والآن، بعد مضي 52 عاماً على وفاة بطلنا الحجّي عبد الله، و49 عاماً على وفاة كاتب سيرته المستر هوب، يسرّنا أن نضم هذا الكتاب الشائق إلى سلسلة روّاد المشرق العربي، ولا ريب أنه يمثّل إضافة هامة وممتعة، وبخاصة بما يتصل بالرّحلات المتعلقة بالخليج العربي، ويزيد من قيمته طابع المشاهدة الشخصية والسّرد الرّوائي الحيّ والصّادق.

ولله الحمد على ما وفق وأعان.

بيروت، 17 أغسطس 2010

د. أحمد إيبش

* * *

سيرة الحجّي وليَمسون
كما يلخّصها حفيده

قبل أن نشـرع في سـرد سـيرة حياته كما رواها سـتانتون هوپ، حرّي بنا أن ننقل ما كتبه عنه حفيده عبد الرّؤوف بن عبد المطلب الفضل المسـلماني، حتى وفاة بطلنا عام 1958:

كان الرحّالة البريطاني وليم وليَمسون، المعروف أيضا بالحاج عبد الله المسلماني، ملاكماً محترفاً ومنقباً عن الذهب في البراري البدائية الأميركية، وتاجراً متنقلاً في البحار الجنوبيـة، ورائـداً في حقل صناعة النفط وخبيراً لامعاً في عـادات قبائل البدو الرحل، وكان أول رحّالة أجنبي تطأ قدماه جزيرة العرب مسـتوطناً بعدما اعتنق الإسلام.

ولد لأبوين بريطانيين، وتم تعميده باسم وليَم ريتشـارد وليَمسـون في مدينة بريستول، غرب بريطانيا عام 1872. وكان منذ طفولته ولداً ثرياً من هواياته تسلق الأشجار وقراءة الكتب، وقبل بلوغه سـن الثانية عشـرة هـرب من بيت والديه مرتيـن. فقرّر والده لدى بلوغه سـن الثالثة عشـرة عملاً بنصيحة أخيه إرسـاله إلى ممارسـة حياة البحار ليختبر صعوبة الحياة ولو لمدة قصيرة ليعود ويستقرّ بعدها على اليابسة.

وعلى ذلك، وجد وليم نفسـه مقلعاً من ميناء بريستول على ظهر المركب أقوندريا ذي الأربع سـواري عام 1885، وبينما كان يتأمل الأفق خلال ابتعاد المركب عن الشاطئ لم يخطـر ببالـه أنه لن يرى عائلته أبداً أو يعود إلى انكلترا أو يعيش ثلثي عمره بين العرب، بل كل ما كان يفكر فيه هو الشعور المثير بأنه على ظهر مركب متجه إلى أستراليا.

وجد نفسـه أصغر أفراد الطاقم سناً، وتبيّن له أن رحلته ستكون محنة وتجربة صعبة

جـداً، ليـس بسـبب الحياة البحرية التقليدية الصعبة، إنما بسـبب تعليمـات والده لرُبّان السـفينة بأن يكون صارماً فـي معاملته. وعليه عندما تخاذل فـي العمل لأول مرة ربطه النوخـذة بأعلى التـاري خلال إعصار بحري شـديد.. ومن خلال تلاحـق العقوبات تركز تفكيـره على وضع خطـة للفـرار. وهكذا سنحت له الفرصة عندما حطّ المركب في ميناء سـان ديغـو على سـاحـل كاليفورنيا للتزوّد بالمـؤن، ففرّ شـاعراً بلذة الحرية بالرغـم من المسـتقبل المجهول فـي غرب أميركا، التـي كانت لا تزال بـلاداً نائية غير متحضّرة.

اتجه وليَمســون مشـياً على الأقدام نحو شمال سان ديغو معتمداً في مصاريفه على أجور عمله في تقليم الأشـجار. ولدى وصوله سـان فرانسيـسكو التحق ببعض أقاربه في مزرعة كبيرة واسـتقرّ معهم. وكان ذلك في أواسط 1880 أي قبل 20 عاما من تحوّل كاليفورنيا إلى هدف للألوف من السـاعين وراء الأصفر الرّنان. وأصبحت هذه الحملة المحمومة للتنقيب عن الذهب التي انتشـر صيتها في جميع أرجاء المعمورة شيئاً يشبه الأسـاطير. اكتشف وليَمسـون أن العمل في هذا المجال يوفر له إمكانيات مثيرة أفضل من حياة راعي بقر (الكاوبوي)، وهكذا اتجه برفقة زميلين له إلى العمل في التنقيب عن الذهـب، وبالرغم من أن فرص النجاح كانت عسـيرة جداً فإنهـم تمكنوا من الحصول على امتياز لمنجم ذهب باعوه آخيراً بربح لا بأس به. وهكذا غادر وليَمسون وفي جيبه مئتا دولار ومعه زميلاه فاتجهوا نحو اكتشاف براري غرب أميركا متجوّلين لعدة شهور على صهوات جيادهم.

وأخيراً وصل وليَمسون نيويورك حيث كان الحديث في أواسط جميع المجتمعات منصبّاً على مشـروع فتح قناة بنما. وعلم بوفرة العمل في هذه المنطقة برواتب وأجور مغريـة، فاتجـه إلـى منطقة بنمـا وعمل مشـرفاً على العمال، واسـتمرّ فـي العمل حتى تفشّـى مـرض الملاريا ممّا أجبره وبعض أصدقائه على مغـادرة المنطقة، واتجهوا إلى كاليفورنيـا حيـث عملـوا في حقل جمـع الفواكه. وقـرّروا لدى انتهاء الموسـم تأليف فرقة مسـرحية متنقلة بين المسـتعمرات لعرض ألعاب السـحر والشـجاعة، وكان دور

وليَمسون الملاكمة فنجح نجاحاً باهراً في هذه الرياضة، حتى أن المشاهدين لقّبوه باسم: «قنبلة بريستول».

كان عمر وليَمسون حوالي 19 عاما عندما تم تخديره في حي تشاينا تاون Chinatown بسان فرانسيسكو، ولدى ارتداد وعيه إليه وجد نفسه على ظهر مركب صيد الحيتان في أعالي البحار متجها نحو محيط القطب الشمالي، وفي محاولة للتكيف مع الوضع الجديد أظهر تفانياً في العمل، مما حدا بالربّان إلى أن يأمر بترقيته. ولدى عودته إلى سان فرانسيسكو اكتسب شهرة واسعة، مما هيأ له الانتقال للعمل في جزر كارولينا حيث عُيّن مسئولا عن محطة المبيعات، وكان جميع سكان الجزر من الإسپان. وعندما ثار الإسپان أوقعوا اللوم على وليَمسون، فاعتقل ونقل إلى السجن في مانيلا، ولكن حسن الحظ وشجاعة القنصل الأميركي أنقذاه من هذه الورطة، علماً بأن القنصل البريطاني رفض التدخل. وبعد هروبه بمساعدة القنصل الأميركي الذي أسلم فيما بعد، أبحر وليَمسون إلى هونغ كونغ ومنها إلى بومباي، ومن ثم إلى جنوب جزيرة العرب، وهنالك بواسطة مسعى والده عُيّن شرطياً في عدن.

وجد الفتى نفسه بعد التجوال غير الهادف طيلة السنوات الماضية ولأول مرة أن بإمكانه أخيراً الاستقرار، ومنذ أن وطأت قدماه اليابسة في عدن انتابه شعور الألفة والتقارب مع العرب وخاصة من ناحية الدين، وكان وهو على ظهر المركب في طريقه من بومباي إلى بلاد العرب قد قرأ صدفة ولعدّة مرات كتاباً عن الدين الإسلامي ألّفه شخص يدعى كوبليم كان قد اعتنق الدين الإسلامي الحنيف، فتمكن بعد ذلك من رؤية الحياة اليومية في المجتمع الاسلامي بوضوح، وراح يفهم ويسمع المؤذن ينادي المؤمنين إلى الصلاة ويراقب أداءها، مما أثار في روحه رغبة عارمة وأكيدة في اعتناق الإسلام.

كان معلمه ومرشده الأول ومترجمه صديقه الصومالي «حسن علي» الذي أعدّ له مراسم اعتناق الدين الإسلامي. ففي صباح أحد الايام من عام 1892 امتطى الرجلان دابتيهما واتجها نحو ولاية لحج القريبة من عدن، وحلاّ ضيفين على السلطان «الفضل

بن علي». وفي اليوم التالي وبحضور أولاد السلطان والقاضي الشرعي، أعتنق وليَمسون الدين الإسلامي ناطقاً الشهادتين وله من العمر 20 عاماً. وأضحى اسمه عبد الله فضل وليَمسون. ولم يندم أبداً على فعله هذا، واستمرّ طوال حياته ممارساً الدين الإسلامي دون مغادرة الأراضي الإسلامية. أما الجالية البريطانية في عدن فقد أصابها الهلع من تصرفاته، وتساءلوا عن خطوته التالية والمشاكل التي قد يثيرها، ولذلك قرروا ألا يترك سلك الشرطة فحسب، بل عليه أن يغادر عدن أيضاً. وعليه عندما حاول وليَمسون تقديم استقالته قيل له إن عليك أن تستوفي هذه الإجراءات في بومباي. أذعن الفتى للأمر الواقع وغادر إلى بومباي حيث قدّم استقالته، وباشر في الإعداد لرحلة العودة، ولكن البريطانيين تدخلوا مرة أخرى ليضيّقوا عليه الخناق، فأخفق في الحصول على مكان في المراكب المتجهة نحو بلاد العرب تحت شتى الأعذار، فلم يجد بدّاً من السفر بصورة سرّية وباسم مستعار.

وبحكم صداقته مع كثير من التجار العرب في بومباي، وأكثرهم تجار خيول من البصرة والكويت، تعرف إلى الشيخ «يوسف الإبراهيم» من أقرب أخصّاء أمير الكويت الشيخ «محمد الصّباح» وخليفته الشيخ «مبارك الصّباح»، وتمكن وليَمسون الذي بدا عربياً بكل معنى الكلمة بلباسه العربي ولحيته السوداء وبشرته البرونزية وبمساعدة الشيخ «يوسف الإبراهيم» من السفر على ظهر المركب التجاري بانكورا المتجه إلى البصرة، مع أنه كان من الصعب تفادي المراقبة البريطانية، حتى أنه سرعان ما وصلت وشاية إلى السلطات البريطانية تفيد بأن العربي المسافر على ظهر مركب بانكورا ليس إلا وليَمسون.. وفورا توجهت فرقة من الموظفين الرسميين لكشف هويته، وأخبروه بأوامر رسمية مفادها عدم ترك المركب إلا لدى عودته إلى بومباي.

تذكر وليَمسون في السنوات اللاحقة قول الشيخ يوسف الإبراهيم: «ياعبد الله إنك بين يدي الله القدير الرحيم، فلماذا لا تذهب إلى البصرة؟ ولماذا لا تأتي معي إلى الكويت؟ إنك من ديننا ولن تخالف التقاليد خلال ضيافتي».

لبّى وليَمسون الدعوة، ولدى وصول البانكورا في طريق عودته إلى بومباي

بمحاذاة شاطئ الفنطاس فرّ وليّمسون من المركب متخفياً بلباس سائس خيل وتمكن من الخلود إلى الراحة في الكويت إذ أصبح غير ملاحق، لأن الاتفاق بين البريطانيين وإمارة الكويت كان لم يتم بعد ولذلك لن يستطيعوا طلب تسليم بريطاني، خاصة وأنه ضيف الشيخ يوسف تحت حماية حاكم الكويت.

صحيح أن الكثيرين من البريطانيين مرّوا وتعرفوا على الكويت ولكن وليّمسون استقرّ بصفة مواطن، واعترافا بهذا الجميل أحب وليّمسون هذا البلد حباً جماً، وكانت البهجة تغمره عندما يتجول مكتشفا أسواق الكويت مشاركاً جلسات المقاهي وديوانيات تجار اللؤلؤ، هذا بالإضافة إلى مواظبته المستمرة على دراسة وقراءة اللغة العربية والقرآن الكريم يومياً، كما أنه راح يستكشف المدن المجاورة متنقلاً شمالاً إلى الزُّبير مما أدى إلى زيادة اهتمامه بالعرب والصحراء.

وكما استمتع بالحرّية والمغامرات والحياة الصارمة في غرب أميركا، فقد استمتع بنفس التجارب في جزيرة العرب، بالإضافة إلى ميزة اكتساب الخبرة في أمور كانت غريبة عليه. ففي غرب أميركا وجد في بعض المناطق المأهولة أن السكان يعيشون في مجتمعات ليس لها تراث وتقاليد، فازدادت أعمال قطع الطرق وتناول الكحول والمسكرات مما أعطى انطباعاً بشيوع الفوضى والاستهتار في أجهزة الحكم، بينما وجد الحال على نقيض ذلك في بلاد العرب. صحيح أنه كانت تقع أعمال غزو بين القبائل، لكن ذلك كان يخضع لقوانين وتقاليد وأعراف بين القبائل التي تحترم مفاهيم شهامة العروبة وقيمها.

أصبح وليّمسون بعد معاشرته لأتباع الشيخ يوسف الإبراهيم ومشاركتهم في صعوبات الحياة اليومية من المعجبين بعادات قبائل البدو وتقاليدهم، وعكف على دراسة هذه العادات والتقاليد ولهجات البدو.

كانت رغبة وليّمسون الأكيدة منذ اعتناقه الدين الإسلامي أداء فريضة الحجّ في مكّة المكرمة، ولدى بلوغه سن 24 من عمره اغتنم هذه الفرصة وتوجه بحماس إنسان معتنق الدين حديثاً إلى مكّة وانضم إلى حملة قوامها ثلاثة آلاف حاج، بلباس

البدو ومزوّداً بالخيام اللازمة وسبعة جمال محملة بالأعتدة والمؤن الضرورية. ومن الجدير بالإشارة اليه كون هذه الحملة كانت آخر حملة تجمع مثل هذا العدد الهائل من الحجّاج قبل استحداث مواصلات السكك الحديدية والسيارة. أعطت هذه الحملة وليَمسون انطباعاً واقعياً عن قوافل الحجّ المشابهة قبل ألف سنة.

قاد الحملة عربي، ممتطياً جملاً أبيض حاملاً بيرق الإيمان المسربل باللون الأخضر، وفي وسطه شعار نجمة وهلالين بيضاوين وقد طُرّز بشهادة «لا إله إلا الله، محمّد رسول الله» فوق سارية طولها عشرة أقدام تنتهي بكرة فضية بحجم جوزة الهند، أما في الليل فيطوى العلم ويُعلق مكانه مصباح مضاء يتدلى منه خطاف متصل بالكرة الفضية. وخلفه سار أمير الحجّ والشيوخ ورؤساء الحملات المشتركة وكبار القوم تتبعهم قافلة خيول وجمال الحجّاج طولها حوالي ثلاثة أميال. وقد قطع الحجّاج مسافة 800 ميل سيراً على الأقدام ليحققوا أمنيتهم في أداء فريضة الحجّ إلى مكّة المكرمة.

لم ينس وليَمسون طيلة حياته هذه الرحلة الرائعة وخاصة كرم وحُسن ضيافة «محمد عبد الله الرشيد» حاكم حائل في إمارة جبل شمَّر، الذي كان في ذلك الوقت في ذروة حكمه لجزيرة العرب، إذ أكرم قافلة الحجّاج لدى وصولها بوليمة غداء تضم الثلاثة آلاف حاج.

اشترك وليَمسون لدى وصول القافلة إلى مكّة في جميع مراسيم فريضة الحجّ من غسل الكعبة المشرفة إلى الطواف والسعي والوقوف على جبل عرفات والأضحية. ومن الجدير بالذكر أن وليَمسون كان أول غربي يؤدي مراسيم فريضة الحجّ علنياً وجهاراً وبإخلاص، وكانت بالنسبة له تجربة لا تضاهى مما جعلته يعيد الكرّة عامي 1898 و1936، ومنذ أدائه فريضة الحجّ أكتسب لقب الحاج عبد الله.

بقي الحاج وليَمسون مقيماً في الصحراء بين القبائل منذ مطلع القرن الحالي، وكان ملمّاً باللغة العربية بطلاقة ويملك جواداً عربياً أصيلاً وجميلاً وثلاثة جمال وصقراً وعبداً نوبياً. كما إنه أصبح خبيراً في الجياد العربية، وعمل بتجارتها كمصدر رزق، يشتري الجياد من سوريا والعراق وبلاد الفرس ويبيع معظمها للجيوش البريطانية في

الهند. وصل في إحدى رحلاته إلى بلوشستان عبر بلاد الفرس ومنها إلى ممرّ خيبر، ومن ثم إلى أفغانستان، كما انتقل خلال رحلة أخرى إلى عُمان وظُفار ثم حضرموت فصنعاء ونجران والحجاز، إلى ان استقرّ به المقام في القدس الشريف مما وضعه في صدارة الروّاد المكتشفين لجزيرة العرب. ولا شك أن وليَمسون واجه مغامرات صعبة وخطيرة خلال تجواله الذي امتد إلى أقصى أراضي بلاد العرب، ففي إحدى الرحلات التجارية وجدت القافلة نفسها وجهاً لوجه مع شرذمة من البدو الطريدين فقام بتنظيم جبهة دفاع ونجح في ردّ المعتدين على أعقابهم.

هذا وبعد مضي عدة سنوات أعطى شيخ قبيلة المنتفق في العراق لوليَمسون السلطة الكاملة لمكافحة مرض الكوليرا الذي تفشى بين أفراد قبيلته، فعزم على عدم مغادرة القبيلة وقبول تحدي هذه المهمة. وبالتالي شرع في ممارسة سلطته في مكافحة المرض، وأمر أفراد القبيلة بالمحافظة على حياة نظامية تختلف عن حياة البدو التقليدية، وذلك لحصر هذا الوباء وإزالته. وبالرغم من نجاحه فقد كان الثمن إصابته بالوباء، لكنه سرعان ما شفي منه.

هذا وإن مدى قبول العرب للحاج وليَمسون كواحد منهم ظهر بوضوح من خلال عرض الشيخ حسين شيخ قبيلة الظفير له بتزويجه إحدى بناته، لإعجابه بشجاعته وجرأته في القتال في صفوف رجاله خلال الغزوات واستيلائه على بعيرين. فاعتذر وليَمسون عن قبول العرض خلال جلسة عربية حول النار قائلاً: «يا شيخ العرب شكراً على هذه الثقة والمحبة، ولكن ألا ترى أن رحلة صيد أفضل من جميع النساء؟». لكن على الرّغم من ذلك، تزوّج وليَمسون فيما بعد عدة نساء عربيات، آخرهن تدعى «سارة» من آل السّعدون، وقد خلّف منهن أحفاداً من بينهم من هو لا يزال حياً يرزق في العراق وواحد في الكويت.

تلاشت المعارضة ضد ولاية الشيخ مبارك الصباح على إمارة الكويت بعد وفاة صديق وليَمسون الشيخ يوسف الإبراهيم عام 1908، مما أفسح المجال أمامه للعودة إلى الكويت، فاشترى قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى بيتاً بالقرب من بوابة

الجهراء، وخلال هذا الاستقرار المؤقت عاوده حنين أيام الشباب ورغبة العودة إلى البحار والعمل في الغوص على اللؤلؤ، فباع قاربه (من نوع البغلة) واستأجر قارب داو حمولته 30 طناً واسمه «فتح الخير» وراح يمخر به عباب الخليج العربي. وبتشجيع من قبل تاجر اللؤلؤ الشهير هلال المطيري تحول وليَمسون ومساعده مصطفى إلى صناعة صيد اللؤلؤ، وتتناقل الشائعات أنهما عملا في تهريب الأسلحة.

أجبر اندلاع الحرب العالمية الاولى الحاج وليَمسون على العودة إلى العراق، وبدلاً من أن تعتقله السلطات البريطانية، رحّبت به وأكرمته لاحتياجها إلى معلوماته وخبراته الواسعة، وعيّنته عميلاً سرياً ضد الأتراك.

بقي وليَمسون يلتزم الصمت حول أيام الحرب، لكن السيدة ڤيوليت ديكسون صديقة العرب وزوجة المستعرب الكولونيل ديكسون أشارت إلى حكاية نادرة عن مغامرات الحاج وليَمسون خلال الحرب قائلة: «أخبرني الحاج وليَمسون أنه عاد إلى بغداد خلال الحرب العالمية الأولى ليجد الكثير من المتسكعين على ضفتي أرصفة مركب نهر دجلة، فشعرت بأن دوري يقترب لأصبح مثلهم، ففي إحدى الأمسيات تمكنت متنكراً بزي الخدم من دخول حفلة القائد التركي، وتمكنت من خلال الحديث الذي دار في الحفلة من جمع معلومات مهمّة والخروج دون أن ينتبه لي أحد».

* * *

عُيّن وليَمسون بعد الحرب مفتشاً لوكالات الخليج التابعة لشركة النفط الإيرانية البريطانية، ومن خلال هذا المركز الجديد تمكن من الاشتراك في أول مرفق للنفط في الخليج، وساعدته شهرته ومعرفته لحكام الجزيرة وشعوبها، واتسع تجواله في المنطقة كدليل ومستشار للجيولوجيين العاملين في عمليات التنقيب عن النفط.

وكان عمل الحاج وليَمسون خلال خدمته مع شركة النفط الإيرانية الإنكليزية بين 1924 و1937 لقيادة تلك البعثات وإنشاء الوكالات على جانبي الخليج العربي وتفقدها والإشراف على بناء مستودعات النفط الصغيرة. وكانت درايته بالسواحل تساعده على

اختيار الأمكنة ومسحها وإعدادها لتصبح مهابط طائرات تستخدم في الأحوال الطارئة، قبيل إنشاء الطريق الجوي المنتظم إلى الهند. كما عمل دليلاً ومترجماً للكوماندر ب. و. غاليين، وهو من كبار موظفي شركة الخطوط الجوية البريطانية لما وراء البحار BOAC والذي كان يرغب في مسح خلجان صغيرة على ساحل عُمان لتكون قواعد في الحالات الطارئة للطائرات المائية العاملة على طريق الهند.

وفي أحدى جولاته على إحدى جزر الخليج غير المأهولة تحطّم مركبه، لكن بحنكته وحسن التدبير وخبرته في إيجاد الطعام عن طريق صيد السمك بصورة بدائية تمكن من البقاء على قيد الحياة.

هذا ولقد عمل الحاج وليَمسون بين عامي 1922-1937 كمساعد ومترجم لآرتشي تشيزَم في شركة النفط الإيرانية - الإنكليزية بالكويت خلال مرحلة المفاوضات للحصول على امتياز التنقيب عن النفط. ولنجاحه في مرحلة التفاوض هذه الصعبة اكتسب وليَمسون شهرة عالمية وشخصية رئيسية لعبت دوراً هاماً في تطوير المنطقة ودخولها عصر الذهب الأسود.

* * *

تقاعد الرّجل أخيراً واستقرّ به المطاف في بستانه الكبير الذي اشتراه في كوت الحجّاج بالقرب من البصرة. وأصبحت هوايته في هذا السنّ المتقدم ولحيته البيضاء المشي في أزقة القرية المغبرة، لكنه كان وقوراً يكنّ له الجميع كل احترام ومحبة لإنجازاته ومغامراته، خاصة أنه مسلم تقي ومخلص. وبالرغم من هذه الشهرة، كان الرجل يفضّل الحياة الهادئة مع أولاده وأحفاده، وانحصر نشاطه في السنوات الأخيرة من عمره في الزراعة والعناية بشجيرات البرتقال والبلح واستقبال العديد من زواره العرب.

* * *

هذه لمحة عن حياة ذلك الولد الإنكليزي الذي تحدّى السلطات على ظهر المركب

البريستولي ذي الصواري الثلاث والذي رعى البقر صغيراً في مزارع كاليفورنيا، المغامر الذي راح يبحث عن الذهب في أراضي نيفادا، الجوّال في الأصقاع الأميركية يغني ويمثل، العامل في شق قناة پنما، البحار الذي خدّروه فخطفوه ليعمل قسراً في سفينة لصيد الحيتان في منطقة القطب الشمالي، التاجر في البحار الجنوبية، أسير الإسپان في مانيلا. الشرطي في سلك الشرطة العدني، المحارب البدوي، وتاجر الجمال والخيول، وربّان الدّاو، ومهرّب الأسلحة، وصياد اللؤلؤ، والعميل في استخبارات الجيش البريطاني خلال الحرب العالمية الأولى، والوكيل المحلي، والموظف لدى شركة نفط عالمية.

كثيرون من العرب الذين عرفوا الحاج المسنّ تمام المعرفة إبّان تقاعده يجهلون الكثير عن تألق أيام مغامراته الأولى وإشراقها. وفي الوقت الذي نرى فيه مآثر الحاج عبد الله فضل الزُّبير يردّدها أفراد القبائل في الصحراء حول نيران المواقد، نجد أن ما يعرفه الحضر أو البدو عن وليَم ريتشارد وليَمسون قليل نسبياً، هذا الرجل الذي أدار ظهره لما يدعوه الناس بالحضارة ليصبح حراً طليقاً يجوب البحار ويسكن القفار.

أما نجاته من الأخطار التي لو توزّعها مئة رجل لزادت عن قدرتهم، فتبدو في نظر بعض الناس أمراً تكتنفه الأسرار وتحيط به العجائب، بينما الأمر بالنسبة للحاج وليَمسون لا يتعدى كونه إرادة الله الذي لا رادّ لإرادته. ولكن مهما يكن من أمر فإن أحداً لا يستطيع أن ينكر على الحاج وليَمسون بسالته وأقدامه وشجاعته التي كانت ولا تزال مضرب الأمثال.

توفي الحاج عبد الله وليَمسون عام 1958 عن 86 عاماً، وله ثلاثة أبناء هم: عبد المطلب وأحمد ومحمد.

* * *

الحجّي وليمـــون في كوت الحجّاج

920.71
W732A

ARABIAN ADVENTURER

The Story of Haji Williamson

by

STANTON HOPE

(W. E. STANTON-HOPE, F.R.G.S.)

With 23 *Illustrations*

ROBERT HALE LIMITED
18 Bedford Square London WC1

غلاف الطبعة الأصلية للكتاب، لندن 1951

مقدمة

بقلم آرتشي تشيزَم

Archie H. T. Chisholm

«نابض بالحيوية» تعبير كثيراً ما يساء استخدامه، لكنه في الحقيقة يصف سيرة صديقي القديم الحجّي عبد الله وليَمسون. لقد مضت اثنتان وعشرون سنة مُذ قابلته أول مرة، وتسع عشرة سنة مذ عشنا وعملنا معاً لمدة ثمانية عشر شهراً في الكويت في جزيرة العرب. مؤخراً لم أعد أراه إلا بشكل خاطف أثناء زيارتي للبصرة. لذلك، عندما أتاح السيد ستانتون هوب Stanton Hope لي الفرصة بقراءة هذا الكتاب وهو لمّا يزل مخطوطاً، سُررت إذ أحييت في ذاكرتي شخصية مميزة كنت قد عرفتها بشكل مباشر، بالإضافة إلى القصص التي رواها عن أيامه الأولى والروايات التي قصّها من عرفوه قبلي بخمس عشرة سنة. لقد أعجبتُ بمهارة السيد ستانتون هوب في عرض صورة كاملة ودقيقة للرجل، الذي بات الآن متقدماً في السن ويعيش فترة تقاعد هادئة، والذي سيصبح لفترة طويلة أسطورة في شرقي جزيرة العرب وفي الخليج العربي.

قد يشعر بعض القراء أن قصة الحجّي تدين بالكثير لروايات الرحالين التي تمتلئ بالمبالغات. لكنني أؤكد على اعتقادي بعكس ذلك، إذ أتذكر أنه في عام 1932-1933 أعاقت الرياح طائرة في الكويت بشكل غير متوقع واستضيف ركابها ليلة لدى الجالية البريطانية. كانت مهمتي أنا والحجّي أن نستضيف سيدين تبيّن أنهما كانا مدرّسين متجهين إلى الهند من بريستول، وهي المدينة التي بدأ الحجّي منها أسفاره قبل أربعين

عاماً، ثم لم يعد إليها أبداً. من خلال سؤاله للغربيّين عدة أسئلة عن مدينتهما المشتركة، بدت معرفته الحقيقية واضحة. وباعتقادي أنه لو أتيحت له مصادفة لقاءات مع أشخاص من الغرب الأوسط الأميركي وكاليفورنيا ومناطق الحيتان في القطب الشمالي وجزر بحر الجنوب وعدن، سيكون الحجّي على دراية بتلك الأماكن في ثمانينيات القرن الماضي وتسعينياته كما هو عليه الأمر بالنسبة إلى التاريخ الوثيق وشخصيات شرقي الجزيرة خلال الخمسين سنة الفائتة.

هذا الكتاب أكثر من تسجيل لمغامرات غير عادية، إذ أنه يضيف الكثير إلى تاريخ وتقاليد مناطق شبه الجزيرة التي أصبحت الآن حاضرة في الأذهان، كما أنه يؤكد على صفتين تشكلان مزيجاً نفيساً من أجل الرّيادة الناجحة وخصوصاً في الشرق الأوسط، ألا وهما الشجاعة الشخصية والاعتقاد الديني الراسخ.

لندن، 1951

* * *

افتتاحية الكتاب

أسطورة تتحوّل إلى حقيقة

في بداية مارس من عام 1947، كان الزورق الآلي *British Integrity* (النّزاهة البريطانيّة) يتقدّم تجاه الساحل عبر ممرّ بحر العرب الذي يُعرف باسم معبر ناقلات النفط. كانت الشمس الجنوبية تصقل سطح البحر، وكانت مدينة المكلاّ تقع في مكان ما على الميناء المختبئ خلف الضباب. ما يزال ذلك اليوم حيّاً في ذاكرتي، ليس بسبب العظمة الفائقة للمشهد البحري، أو الحدث الرائع، وإنما بسبب ما قد يبدو تافهاً بحد ذاته لكنه أصبح مهماً إثر ملاحظة عابرة ألقاها ربان السفينة.

لم تحمل الملاحظة أي معنى خاص في ذاك الوقت، مع ذلك قُدّر لها أن تؤثّر في حياتي بشكل كبير خلال العامين القادمين، وأن تكون سبباً في إشهار قصة رجل متميّز.

لقد منحتني تلك الرحلة من فالموث Falmouth إلى عبادان أول راحة حقيقية نعمت بها منذ عام 1938. وكان سفري في ناقلة النفط يتمتع بامتيازات عدّة. أدبياً، كانت المهمّات في العراق وبلاد فارس وشيكة، وإذا شاءت الظروف كنت سأزور ثانية أراضي قديمة تشمل أنحاء مألوفة من بلاد ما بين النهرين القديمة التي لم تحظ بذكريات سعيدة خاصة. في العام السابق، أي 1946، كنت قد سافرت وتجوّلت في أنحاء منطقة الكاريبي على متن ناقلات نفط؛ لكن فيما بعد شغل وقتي في البحر بعملي على إنجاز كتاب *Tanker Fleet* «أسطول ناقلات النفط» المفوض به من

قبل مجموعة شِـل الملكيّة الهولنديّـة The Royal Dutch Shell Group. أما هذه الرحلة فكانت مختلفة. لم تكن هناك عجلة تعكّر تلك الأيام المزدهرة، وشعرت بالرضا لنيل راحة من الطقس البارد وكل خيبات الأمل والقسـوة التي حلّت ببريطانيا في فترة ما بعد الحرب.

ثمّة الكثير من المزايا في ناقلة النفط من حيث كونها وسيلة سفر بحرية. أقول ذلك دون تردّد بعد تجربتي لعدة أنواع من السـفن الملاحية والتجارية. كانت سفيـنة «النّزاهة البريطانيّة» *British Integrity* مهيأة بشـكل جيد ومريحة. كانت سفينة مبهجة للغاية، ويعود سـبب ذلك بشكل أساسي إلى شـخصية القبطان كينيدي Kennedy، وهو رجل اسكتلندي مرح قادر على فرض النظام مع كسب الاحترام الودود من قبل طاقمه.

إثر انطلاق ستة أجراس في صباح ذاك اليوم الموعود، اتكأتُ على الحاجز الجانبي للسفينة محدقاً بتكاسل إلى جهة الشاطئ. وراء المدى الواسع للبحر الأزرق المتلألئ كانت جبال حضرموت تتدلى من السـماء فوق الضباب الحار. وهناك كانت مجموعة مـن الدلافين تلعـب صوب الميناء. ومن حيـن إلى آخر، كانـت المياه الزرقاء الشـفافة تعـرض متباهيـة لمعان قنديل البحر الأخضـر بلون التفاح، أو البريـق القرمزي لبراعم بحرية غريبة وكأنها سلـسلة أوراق متشـابكة منجرفة من الحلي البحرية (النبتونية).

كان ما يمكن رؤيته من السّاحل فوق خط البحر المغلف بالضباب يبدو غير حقيقي بشـكل غريب بسـبب مظهره الكالـح. وخلف تلك الجبال المتجهّمـة تقبع الصحارى الواسـعة لجزيرة العرب التي يسـكنها البدو الأعراب؛ وهي مـساحات غير مستكشـفة تغري المغامرين من الأراضي الأخرى بركوب الصّعاب والحرمان من أجل استكشافها الذي تكتنفه بالمخاطر.

كانـت لمناطـق معيّنـة من العالم قـوّة جذب مغناطيسـية لي في أيام شـبابي. اليابان إحداهـا والأخرى يوكون Yukon. بينما لم تكن جزيرة العرب تحمل أي إغراء سـاحر وإنما تجاربي في هذا الجزء من العالم هي ما عزّز سـروري بمشـاركة غير مباشـرة في مغامرة الجزيرة.

مع ذلك، كان ما يمكن رؤيته من ساحل حضرموت من أسفل سطح السفينة الآلية «النّزاهة البريطانيّة» *British Integrity*، يحيي ذلك الشعور الذي يحرّكه منظر المناطق الجبلية في نفسي مُذ كنت صبياً، وهو شعور الفضول لرؤية ما يقع وراءها. كنت أتذكر حوادث مسموعة أو مرويّة عن مستكشفين جسورين توغلوا داخل تلك الأراضي المحرّمة، إلى أن قطع أفكاري الشاردة الكابتن كينيدي آتياً إلى الأسفل لينضمّ إلي.

سرنا معاً على سطح السفينة ونحن نتوقف بعد كل مسافة قصيرة، ثم نتابع السير كما هي طريقة البحارة. كان حديثنا متنوعاً بشكل واسع، واليوم استفضنا بالحديث عن مشهد الجزيرة. لقد تطرّقنا - كما أذكر - إلى الحديث عن غلوب باشا[1] Glubb Pasha وسنت جون فِلبي[2] St. John Philby وفريا ستارك[3] Freya Stark. كان شيئاً مما قيل قد ذكّرني بحادثة في الحُديدة في البحر الأحمر عندما كانت سفينة الحراسة

---

(1) غلوب باشا هو السّير جون باغوت غلوب (1897-1986) Sir John Bagot Glubb، ضابط بريطاني شهير قاد الجيش الأردني بين 1939 - 1956. بعد الحرب العالمية الأولى، كان غلوب انتقل إلى العراق عام 1920 الذي كان تحت الانتداب البريطاني، ثم صار ضابطاً في الجيش العربي وفي عام 1939 أصبح قائداً للجيش العربي الأردني، وبقي في منصبه حتى أعفاه منه الملك حسين بن طلال عام 1956. كان يُعرف بين البدو بلقب "أبو حنيك" بسبب رصاصة أصابته في حنكه وتركت فيه أثراً دام طوال حياته.

(2) هاري سانت جون بريدجر فيلبي (1885-1960) Harry St. John Bridger Philby مستعرب ومستكشف وعميل مخابرات في مكتب المستعمرات البريطاني، شاع عليه لقب عبد الله فيلبي. لعب دوراً محورياً في إزاحة العثمانيين عن المشرق العربي، وأعلن إسلامه وخدم مستشاراً للملك عبد العزيز آل سعود. قام بدور فعالاً في إنشاء شركة أرامكو العملاقة للنفط، ويبدو أنه غيّر ولاءه من بريطانيا إلى الولايات المتحدة الأميركية في ثلاثينيات القرن العشرين. له العديد من المؤلفات القيّمة عن جزيرة العرب.

(3) فريا مادلين ستارك (1893-1993) Freya Madeline Stark رحّالة وكاتبة صحفيّة بريطانيّة شهيرة، ولدت في باريس ودرست في لندن اللغتين العربيّة والفارسيّة، ثم بدءاً من عام 1927 جابت أقطار المشرق بمفردها في مغامرات مثيرة وخطيرة، وتركت مجموعة مهمّة وشائقة جداً من المؤلفات، منها ما يخصّ اليمن والكويت والعراق وسوريا وأفغانستان. وفي سلسلتنا هذه سنقدّم أولاً كتابها الرائع «البوّابات الجنوبيّة لجزيرة العرب» *Southern Gates of Arabia*.

الحربيـة التي كنت في خدمتهـا، تؤمّن دعماً للكولونيل لورَنـس[1] T. E. Lawrence في عملياته ضد الأتراك.

بعد توقف الحديث برهة على متن السفينة، ألقى الكابتن كينيدي عفوياً بالملاحظة التـي كان مـن نتيجتها أن أثرت بشـكل عميق فـي مخططاتي: «هل سـمعت عن أخبار الحجّي وليَمـون؟».

رنّ الاسـم جرسـاً في ذاكرتي، واحتجتُ إلى بعض التفكير لنبش علاقته بالماضي. نعم كنت قد سـمعت بالاسـم ربما وأنا أتنقل في الخليج العربي جيئة وذهاباً على متن سـفينة الحراسـة البحرية، لكن ذلك الأمر كان قد مضى عليه ثلاثـون عاماً. كان كل ما يتعلق بالرجل نفسـه ضـابياً الآن، فطلبت بعض التوضيح.

قال الكابتن: «لا بدّ أنك قد سـمعت عنـه، وكل من أتى هذه الأنحاء يعرف الحجّي وليَمـون بفضل شـهرته على أي حال. إنه لشـيء غريب اسـتثنائي بالنسـبة إلى رجل أبيض أن يعتنق الإسـلام ويصبح من السـكان المحليين في تلـك المناطق. يقولون إنه قد أصبح أسـطورة بين العرب والعراقيين الذين عـاش معظم حياته معهم. وأراهن أنه يعرف عنهم أكثر مما يعرفه أولئك الموظفون السياسـيون والمـستكشـفون الكثر. يا لها من قصة يملكها، لكنه لن يتكلم عنها».

انتهـى الحديـث عند ذلك الحدّ فـي الوقت الحاضر، وأتى أحـد الرجال بتقرير إلى الكابتن بينما نزلتُ أنا لأنضم إلى أحد المسافرين، وهو موظف إداري في شركة نفط، لنشرب جعتنا المعلبة اليومية.

في تلك الليلة، بينما كان طاقم حراس السـفينة يتمتعون بلعب اليانصيب في الهواء الطلـق، ذهبـت وحدي إلى السـطح الخلفي لأدخن الغليون في الفسـحة المتاحة وراء

---

(1) توماس إدوارد لورَنـس Thomas Edward Lawrence (1935-1888) ضابط بريطاني اشتهر بدوره القيادي والاستخباراتي في الحرب التي شنّتها بريطانيا ضدّ الدّولة العثمانيّة في الشرق (1918-1916). لُقِّب بملك جزيرة العرب Lawrence of Arabia. سـنشـر كتابه «ثورة في الصحراء» *A Revolt in the Desert* وكتباً أخرى عنه.

المدخنة. كانت كوكبة صليب الجنوب لم ترتفع في الأفق بعد، والنجوم القليلة المرئية تلتمع بوهن في السماء المخملية. كانت ليلة من الجمال الفاتن حيث ينتشر ضوء القمر كاللؤلؤ فوق البحر الساكن. وتحت حاجز السفينة كان الاضطراب الناتج عن المروحة الثائرة يحدث دوامات من الفضة المصهورة تتضاءل في المشهد لتتدحرج أخيراً كشرائط نجمية متلألئة. هنا كان السلام الذي غدا حلماً في سنوات الحرب المتوحشة. كانت الأغنية الإيقاعية للمحركات تتناغم مع موسيقا Boutique Fantasque المنبعثة من راديو أحد الموظفين المهندسين مما أثار جواً رومانسياً.

لكن ضوء القمر والموسيقا لم يستدعِ رؤية حوريات البحر الشرقية. وعاد الاسم الذي ذكره كابتن كينيدي إلى ذهني من جديد، ربما بفعل العملية المبهمة للعقل اللاواعي خلال فترة النهار. لقد برز الاسم مرتبطاً بأحداث قديمة طواها النسيان وما تزال غائمة، إلا أن إحساسي كان يتعمّق بأنني كنت قد سمعت عن الحجّي وليَمسون مراراً في الخليج وفي الموانئ النهرية لشط العرب، بدأت أتذكر بعض المناسبات المحددة. كان الرجل معروفاً بسمعته من قبل معظم الموظفين البحريين والسياسيين. وكما أذكر، كنت قد سمعت اسمه مرة بطريقة غامضة أثناء وليمة في قصر شيخ المُحمَّرة[1]، وهو المكان الذي يُعرف الآن باسم خُرَّمشهر.

إن كان وليَمسون، كما قال كابتن كينيدي، قد عاش كأحد السكان المحليين بين العرب معظم حياته، فلا بد أن قصّته تحظى باهتمام غير عادي. وإن المرء لا يحتاج إلى خيال قوي ليربط بين الرومانسية الروحية والمغامرة الرفيعة وبين مهنة كهذه. ما هي الظروف الغريبة في شبابه التي دعته إلى التخلي عن أصله ليصبح ذا عرق شرقي؟ لقد أثارت قضية الحجّي وليَمسون تأملاً آسراً لديّ وصممت على البحث عن المزيد من المعلومات.

(1) آخر شيوخ العرب في المحمّرة كان الشيخ خزعل بن جابر الكعبي (1863-1936 م)، كان حاكماً للمحمّرة والأحواز في عربستان خلال الفترة الممتدة بين 1897-1925 م إلى حين أسره الإيرانيون 1925، وتوفي عام 1936. وأمّا قصره المذكور الذي بناه عام 1917 فبقي ماثلاً للعيان إلى أن قامت السلطات الإيرانية بهدمه مؤخراً في عام 2010.

بينما كنت أعيد ملء غليوني، تذكرت حادثة من الماضي البعيد. في إحدى الليالي، في غرين Green في بومباي Bombay، تناول العشاء معي ومع أحد أفراد طاقم الأدميرال غونت Gaunt، موظف في سفينة الإليفانتا *the Elephanta*، وهي سفينة شركة بريطانية هندية. كانت إحدى رواياته تدور حول شخص يدعى ويليامز أو وليَمسون قد سافر إلى البصرة على متن سفينة بريطانية هندية أخرى لكنها أصغر. وفقاً لروايته، كان الراكب الشاب قد اعتنق الإسلام حديثاً وبسبب حماسته المبكرة، استفاض في الحديث عن الموضوع مع الكابتن والموظفين الآخرين. مع ذلك، لوحظ أنه لم يكن ينضم إلى العرب على سطح السفينة في الساعات المحددة للصّلاة.

في أحد الأيام، شاهد الكابتن على ظهر السفينة الشاب بين تجّار خيل عرب مجتمعين قرب باب حجرة المضخات. عندما حانت ساعة الصلاة، بدأ الركاب المسلمون يمدّون سجاداتهم تهيئة لعبادتهم الاعتيادية. وقف وليَمسون وحدّق بثبات كأنه يحدّد موضع مكّة في ذهنه، وأخيراً تناول سجادة الصلاة ونزل الدرج المفضي إلى الطابق في الأسفل.

كان بعد ذلك، كما تتابع الرواية، أن أشار الكابتن بعينه مقرراً أن تصحيح اتجاه البوصلة قد غدا ضرورياً. اتباعاً لأوامره، أديرت الدفة وتمايلت السفينة. لا داعي إلى ذكر أن بعض الموظفين الصغار قد أطربهم الذهاب إلى الشاب المسلم وإخباره، وقد اغتمّ لذلك كثيراً، أن صلواته قد تليت وظهره متجه إلى مكّة المكرمة.

قد تكون القصة مختلقة، وقد تكون صحيحة على الرّغم من إنكار الضحية المزعوم لهذه الدعابة. على كل حال، خطرت القصة ببالي بتداعي الأفكار ودون وعي بينما كنت أتأمل تلك الليلة التي أضاءها القمر، وأنا على ظهر ناقلة النفط.

عندما سنحت الفرصة ثانية للتحدث مع الكابتن كينيدي، أشرت إلى موضوع الحجّي وليَمسون باهتمام متزايد. على ما يبدو، كانت الوقائع التي يعرفها الكابتن قليلة عدا أنه، في فترة من الزمان، كان قد تم توظيف وليَمسون من قبل شركة النفط الإنكليزية الإيرانية وكان في بعض الأحيان يسافر إلى موانئ الخليج على متن ناقلة نفط الشركة

التي تدعى خوزستان *Khuzistan*. لكنه كان قد سمع بشأنه بعض الروايات الغريبة الموثقة تماماً مثل بطولات البارون مونخهاوزن[1] Baron Munchausen.

قال الكابتن: «يقولون إنه سيفعل الأمر ذاته فيما لو نزل بفارس من جديد، ولم يكن أحد يعرف ما يسعى إليه. ربما يمكنك معرفة ذلك لو قابلته. نعم، لا بد أن قصة الحجّي مذهلة ولا بد أن مردودها قد بدا جيداً بشكل كاف لناشر من لندن إذ أرسل من يحاول الحصول عليها، وهناك رجل أدب عالمي يسعى إلى الحصول عليها أيضاً. لكن الحجّي لن يتكلم».

بحكم خبرتي في مهنة مضنية، كنت أنزع إلى السخرية من إشاعات كهذه. لكن في هذه القضية، تأثرت إلى حد كبير لأن الكابتن كينيدي كان يميل عادة إلى التصريح الخفي. بالإضافة إلى ذلك، كان ضليعاً في الأدب وكاتباً متمكناً كما تبيّن لي.

بعد مضي ثلاثة أيام بدا ميناء مسقط في مواجهتنا، وفي الصباح التالي مررنا بجانب جزر سلامة (the Quoins (corners ذات الشكل الإسفيني في مضيق هُرمُز، ومنها إلى الخليج العربي حيث عانيت من الحر مرة وتصببت عرقاً حتى كدت أقضي نحبي في صيفين شديدي الحرارة؛ لكنه الآن، بنسماته المخادعة، يعتبر أحد المنتجعات الصحية. وأخيراً عبرنا قناة روكا Rooka إلى مركب المراقبة آلِرت *Alert* – وهو صديق قديم لي – صعوداً إلى نهر شط العرب مروراً بالفاو إلى ميناء النفط الكبير عبادان.

منحني ذلك الأسبوع الأخير من الرحلة فائدة مميزة بفضل القصص المكرّرة من الماضي عبر الأحداث نصف المنسية والصداقات. وإن المشاهد المألوفة والثرثرة مع أفراد الشركة في السفينة قد استدعت حالة ذهن استرجاعية. مع ذلك، كان ما سمعته عن الحجّي وليَمسون قد علق في ذاكرتي كما يعلق الشوك.

---

(1) البارون كارل فريدريش فون مونخهاوزن Karl Friedrich von Munchhausen (1720-1797م) نبيل ألماني اشتهر برواياته للقصص المطوّلة. جُمعت هذه القصص ونشرت في ألمانيا للمرة الأولى عام 1781، ثم تم نشرها بالإنكليزية في لندن عام 1785. يُكتب اسمه بالإنكليزية: Munchausen ويُلفظ: مُنكوزن.

إن انطباعي عن عبادان يبقى خارج نطاق رواياتي الحاضرة. يكفي أن أقول إن المكان قد تم تحسينه بشكل كبير بفضل مشروع شركة النفط الإنكليزية الإيرانية (كانت تعرف سابقاً بالإنكليزية الفارسية). وبالاعتماد طبعاً على مصافي النفط، فإن مدينة عصرية ذات ميزات متمدنة وخدمة حافلات مجانية تحلّ الآن مكان مقلب النفايات القذر المليء بالبعوض حيث قمت مرة بحركات عبور بهلوانية عبر خطوط الأنابيب لأتجنب الوحل النفطي الأسود.

على الرغم من انشغالي باهتمامات أخرى، قمت بعدة استجوابات في الأماكن التي يحتمل أن أجد فيها أخباراً عن الحجّي. كان واحد أو اثنان من الموظفين القدامى يعرفونه شخصياً، لكن أحداً لم يعرف مكان إقامته. كان جواز سفري قد تم ختمه للسفر إلى العراق، لكنني اكتشفت متأخراً أن هناك انتشاراً للحمى وأن اللقاح الإضافي ضروري لتأمين السماح بالعودة إلى إيران. كما هي عادة الكرم لدى الشركة، رُتبت لي الأمور للذهاب إلى المشفى حيث أعطاني طبيب شاب جرعة مضادة للتيفوس والشهادة الصحية الأساسية. تم الأمر وقادني موظف إلى خُرَمشهر ومن هناك ركبتُ زورقاً بخارياً إلى البصرة عبر النهر.

خلال الأسبوع التالي، تقاسمت غرفة مقابل دينارين في اليوم في فندق مطار شط العرب الماركيل[1] مع عمال نفط وتجّار عابري سبيل. في ذلك الوقت، على الرغم من انشغالي بأمور أخرى، بقي الحجّي وليَمسون هاجسي. أخفقت الاستفسارات الجديدة لكن الانطباع الذي كونته هو أن الرّجل كان شخصية أسطورية في هذه الأرجاء، لكنه مراوغ كالضوء الكاذب will-o'-the-wisp. الحجّي ما يزال على قيد الحياة. لا، الحجّي مات. كان آخر ما سمعناه عن الحجّي في شيبة، وبغداد، وسامرّاء، والكويت، والمنامة (ميناء البحرين). كانت خيبة الأمل تصادفني في كل جولة لكنها

(1) الماركيل تسمية محرّفة لمنطقة المعقل القديمة في البصرة، تشمل الأبلّة وشطّ الترك والسّكك. سكن فيها الأوروبيّون بمطلع القرن العشرين فشاع عليها اسم (الماركيل) أو (كوت أفرنجي)، وكانت بها القنصليّة البريطانيّة التي تطلّ على شطّ العرب، وكان يوجد فيها حوض جاف ترسو عنده السّفن وورشة تعود إلى شكة الفرات ودجلة.

ترافقت بتلذّذ متزايد لأحلّ ما قد أصبح غموضاً معذّباً.

أصبح الجو حاراً جداً ورطباً على غير عادته في ذلك الوقت من العام. كان الاستقصاء يبدو عقيماً وأجور السيارة مكلفة في أثناء تتبع أدلة كاذبة. كنت أتنقل بين القنصلية البريطانية والمصارف والنوادي والمطاعم والأسواق، لأصل فقط إلى طريق مسدود. وبينما كنت أتجوّل في العشار[1] في أحد الأيام، خطر في بالي أن أتصل بالمفوضية السعودية. لن أنسى تلك الزيارة بسهولة. لقد قدّم السفير بنفسه ليرحب بي في غرفة ظليلة مكسوة بالسجاد الفارسي النفيس. كان يجمع بين الوقار واللباقة الأصيلة الأخاذة. وقف بالقرب خادم ذو أثواب بيضاء ليوزع الضيافة من دلّة قهوة ذات ميزاب معقوف.

أجل، كان السفير يعرف الرجل الذي أبحث عنه معرفة وثيقة. كان يمكن إيجاده في كوت الحجّاج لكن ليس من قبل غريب. هل ألجأ إلى استخدام إحدى سيارات المفوضية السعودية؟ طبعاً، مع بالغ السرور. سيذهب معي ترجمان ليريني منزل الحجّي، إذ لا توجد طرقات تسلكها السيارة أبعد من بلدة البصرة القديمة. بصحبة هذا الدليل الذي يعرف الطريق، كان ينبغي للمسير من البصرة ألا يستغرق أكثر من نصف ساعة.

كان يوم أحد كما أذكر، عندما كان المسيحيون يرتاحون من أعمالهم بينما كان المسلمون واليهود مستغرقين في العمل. كان الترجمان شاباً عربياً حليقاً يرتدي حلة بيضاء نظيفة مما يعكس العادات الحميدة لسيّده المهيب. لقد جلس أثناء الرحلة منتصباً وساكناً إلى جانب سائق من سكان البلد بينما استلقيت بسعادة على المقعد الخلفي من السيارة الصالون. لقد ابتسم الحظ أخيراً. كنت أتشوّف إلى تلك المقابلة الممتعة واعتبرت الأمر موافقاً عليه.

---

(1) العشار إحدى مناطق البصرة في جانبها الغربي، تحوّلت في أيامنا إلى المركز التجاري فيها، سمّيت نسبة إلى نهر العشار الذي يفصلها إلى جزئين ويصبّ في شطّ العرب. وكانت بداية فترة ازدهارها في ولاية ناصر باشا السّعدون، حيث انتعشت التجارة وتم تأسيس وكالات الشركات التجاريّة الأجنبية فيها.

بلا شك كان الحجّي وليَمسون شخصية مميزة، وكونه قد عاش كساكن أصلي لعدة سنوات بين أقوام الشرق فلا بد أن ذلك قد أدّى به إلى تبنّي عاداتهم وتشرب الكثير من أفكارهم. كان هذا الاستنتاج البسيط المترافق باستجماع خبراتي الماضية في الشرق يدعوني إلى الحذر. وإن ذهابي إلى رجل كهذا بطلب مباشر لقصة حياته كان يعني فشلاً محققاً. يجب أن يكون شعاري الصبر واللباقة.

نزلت والترجمان في حي ذي رائحة من البصرة القديمة بالقرب من الأسواق، وعادت السيارة إلى المفوضية. بعزيمة مشجعة، مشى دليلي الصامت عبر شوارع ضيقة متعرجة. كانت المحادثة بيننا عقيمة كما تبين لي، فمفرداته الإنكليزية لم تكن تتعدى «جيد» و«ليس جيداً» وكانت عربيتي مقتصرة على عبارتي: «السّلام عليكم» *salaam aleikum* و«إمشِ» *impshi* بالإضافة إلى بعض تعابير الشتم التي لم تكن ذات فائدة في الظروف الحالية.

بعد أن غادرنا البلدة قدمنا إلى مكان نفايات رملي تحدّه نهاية الفرع البدائي المظهر لخط السكة الحديدية القادم من الماركيل. كان هناك بعض العرب يفرغون محتويات الشاحنات بطريقة بليدة كسولة توحي بأنه لو انتهى العمل بسرعة فلسوف تعمّ بطالة هائلة. كنت قد تناولت طعام الإفطار مبكراً وحان الآن وقت الظهيرة، وعلى ما يبدو كنت في طريقي لأفقد وجبة منتصف النهار الاعتيادية. تبع مرافقي ذو الثياب البيضاء بحماسة طريقاً ضيقاً، والغبار يتناثر من صندله الكبير. وجدت الأمر شاقاً للغاية في هذا الحرّ الذي لم أعتد عليه. لقد ازداد عطشي وقل صبري فسألت: «كم يبعد الطريق؟»، قال الدليل: «جيداً» وغرق في الصمت من جديد.

دخلنا حزام أشجار النخيل. كانت الطرقات بين جدران المساكن الطينية المتهدمة تبدو وكأنها لا تقود إلى مكان محدّد. كان ترجماني يجرّ قدميه كأنه يسير في منامه، وهو يعبث بشكل آلي بخيط من الخرزات كهرمانية اللون يحمله في يده اليمنى. ارتفع غبار ناعم من حوافر حمار هزيل يقترب فخاطب دليلي العربي الذي كان يمتطي ورك الحيوان وهو منفرج الساقين. لقد تم تلخيص الحوار المختصر لصالحي بتأكيد كلمة

«جيداً»، لكننا تجولنا لساعة أخرى دون أن نشاهد أية مساكن.

تحول الشك إلى يقين بأن حالنا هو كحال الأعمى الذي يقود أعمى. كان هناك رجل مسن - يبدو بوضوح أنه لم يستعمل الماء والصابون في حياته - قد نهض من ظل جدار من الطين الجاف وظلّ إلى جانبنا. لم يتعدَ الحوار بينه وبين الترجمان أكثر من اثني عشرة كلمة لكنني فهمت منها أن الوضع كان «جيداً» إلى أن توقف كلاهما وأشارا إلى اتجاهين مختلفين. عندها، تلاشى الأمل تماماً بتحديد موقع الحجّي وليَمسون.

بعد فترة قصيرة، وبعد بعض التجوال العقيم، أنقذنا الله على يد ما يبدو رجلاً شرساً من البلوش، مسلحاً بسكين معقوفة. خاطبه دليلي فأجاب بطلاقة، مؤكداً على كلامه بطعنات من سكينه في الاتجاه الذي قدمنا منه. بعد أن قمت بتوزيع لفافات التبغ، اعتلى الرجل شجرة نخيل بواسطة سلك وسير جلدي وبدأ يقطع السعف الميتة. بعد عشرين دقيقة وفقاً لساعتي، اقتربنا من مسكن طيني يكاد يختفي بين المزروعات وتبدّد الصمت بنباح ثلاثة أو أربعة كلاب ذات مظهر خطير.

جاء بلوشي آخر من أبنية ملحقة وكانت نتيجة الحوار الذي دار بالعربية أن قال ترجماني بلهجة مستسلمة «ليس جيداً». يبدو أنه لو كان هذا هو المسكن الذي أبحث عنه، فإن الحجّي ليس هناك. جرع الترجمان الماء من صنبور خارجي، بينما قاومت الإغراء إذ لم أتعرّف المصدر. بدأنا طريق العودة إلى البصرة يرافقنا العربي المسن الذي اعتقدت أن البقشيش سيجعلنا نتخلص منه فما كان منه إلا أن لازمنا أكثر. كنت مستعداً لأنقد ديناراً من يأتيني بنصف لتر من الجعة المثلجة الممزوجة بالليمون.

مع ذلك، قبل أن نمضي أكثر من ربع ميل تغيّر الموقف بشكل غير متوقع. فلقد أتى نحونا بخفة شاب ذو مظهر عربي حاسر الرأس يرتدي ثياباً أوروبية غربية، ثم قال لي: «عفواً من فضلك، هل ترغب في رؤية والدي؟». غمرتني السعادة لدى سماعي شيئاً أستطيع فهمه ثم زادت سعادتي عندما علمت أن الشاب هو أحمد[1]، أحد أبناء

---

(1) هو الحاج أحمد بن عبد الله الفضل المسلماني، توفي إلى رحمة الله يوم 31 يوليو 2010 في البصرة التي بقي فيها عقب وليَمسون، رحمه الله تعالى.

الحجّي. نعم كنت أرغب في رؤية والده، لكن أين هو؟ جلس الترجمان والرجل المسن القرفصاء، على أعقابهما متهيئين كما يبدو للانتظار وقتاً غير محدّد بينما ننهي حديثنا. لكن أحمد تحدث إليهما بالعربية وبدءا السير من جديد بسعادة مماثلة.

مشى أحمد إلى جانبي وهو يشرح لي. كان والده في البصرة وكان دائماً في أيام الآحاد يزور عائلة ابنه الأكبر عبد المطلب. نعم، إن الحجّي بصحة جيدة وسيسرّ برؤيتي.

كان أحمد شاباً ودوداً حسن الحديث. لقد درس في كلية في العشار وعمل كموظف لدى سلطة الميناء في الماركيل. كانت لغته الإنكليزية أصيلة، واكتشفت لاحقاً أنه أصبح يميل إلى الانغلاق بعد أن أثار غضبه الاحتيال السياسي وشروط العمل التي لم يكن موافقاً عليها. كان هنا قد تولّى مهمّة الدليل بشكل كامل، وبعد سلوك طريق مختصرة حرّرتنا من متاهة حدائق النخيل، وجدنا البصرة تغفو في حرارة ما بعد الظهيرة.

أصبح من الواضح أن الرجل المسنّ الدبق قد شكل التصاقاً دائماً بنا، وكان من الضروري أن أنقده خمسين فلساً آخر كبقشيش، وعبارة شفوية مباشرة من أحمد كي نتخلص منه. لم أكن أملك قطعاً نقدية صغيرة، لذلك عرضت على الترجمان نصف دينار إلا أنه رفض أخذه بترفّع ملكي. قام أحمد بترجمة كلمات رحيله؛ لقد اعتبر خدمته لي تشريفاً له ودعا الله أن يوفقني في طلبي.

بعد ذلك، رافقني أحمد إلى المسكن الذي كان والده يمكث فيه. كان المكان يبعد أقل من خمس دقائق عن المنطقة التي توقفت فيها سيارة المفوضية. دخلنا عبر بوابة خلفية وانتظرت في فناء الدار ريثما يدخل أحمد ليعلن عن زيارتي. على الرغم من تأكيده على الترحيب بي، شعرت بالقلق حيال ذلك، إلا أن الشكوك ما لبثت أن زالت عندما ظهر وقادني إلى الداخل.

كان الديوان رطباً ومعتماً بعد أن أُشبعنا من ضوء الشمس في الخارج. وكان الرجل

الـذي أبحث عنـه واقفاً هناك فـي انتظار الترحيب بـي. كان وقاره الهـادئ متناغماً مع جو الغرفة المسـالم، مع ذلك انتابني شـعور من التناقض بفضل القصص التي تذكرتها فجأة والأسـاطير التي كنت قد سـمعتها أثناء بحثي. هنا يقف الأعرابي المقاتل وتاجر الجمال والأسلحة ومستخرج اللؤلؤ والعميل السـري - الرجل الإنكليزي الذي شكلت المغامرات الجامحة بأدواره الأخاذة فيها الهواء الذي يعيش عليه. كان الرجل قد تقدّم في السـن وغزا ثلج الشـتاء لحيته، أما عيناه اللتان طالما حدّقتا في البحار والصحارى وشـاهدتا الكثير من هزل الحياة ومآسيها، فهما الآن بحاجة إلى مساعدة نظارات ذات إطار فولاذي.

كنت أعلم أن وليَمسـون - وهو شـخصية أسطورية من نحو ثلاثين سنة - قد أصبح متقدّماً فـي السـن، وإلا لم أكـن لأتخيل كيف يبدو شـكله. لذلك لم يكـن في مظهره شيء غير متوقع: كان في بنية جسمه متوسط القامة، نحيلاً ومستقيم الظهر، يرتدي بزّة ذات لون أزرق بحري، سترتها مزدوجة الأزرار تشبه قليلاً ملابس البحارة. إن ملابسه أوروبية تضفي صبغة أنيقة، أما سـبحته المعقودة حول معصمه الأيسـر فكانت أصابعه تعبث بحباتها بشكل آلي وهو يمد يده اليمنى بالطريقة الغربية لمصافحتي.

كان هـذا هـو الحجّي وليَمسـون الـذي أتيت لأتعرّف عليه شـخصياً: رجل مسـنّ، حـذر، هادئ الـكلام، قد حظي باحترام كبير من قبل المجتمع المحلي حيث يمضي فترة تقاعـده. ومن خـلال الصداقة التي توطّـدت في العراق، أصبحـت تدريجياً على معرفة بوليَم ريتشارد وليَمسون الشاب الجسور المفتول العضلات الذي كان قد دخل الولايات المتحدة في الثمانينيات، هذا الشاب وليَمسون هو نفسه الذي - بعد مغامرات مذهلة تتدرج من القطب الشمالي إلى البحار الجنوبية - قد تقاعد من خدمة شرطة عدن ليعتنق الإسلام ويعتنق حياة بدوية جديدة باسم Abdullah Fadhil al Mussulmani (عبد الله فضل المسلماني).

لكنني لم أستقِ هذه المعلومات من ديوان البصرة. كنت سـعيداً - كما سـيكون الكابتن كينـدي - بلقائـي لطائر النوء النشـط هـذا، والذي أثارت مهنته الكثير مـن الاهتمام لدى

الناس في الشرق. لقد أثير مطلبي لديه بتلميحات من الغموض والإشاعات حول مغامراته الجريئة، مما فتح شهيتي لأتنزه داخل الحقائق. ربما تكون مهنته الغريبة قد حظيت باهتمام العامة أيضاً. لكن بما أنني قد تدبّرت الطريقة للقاء الحجّي بعد الكثير من التجوال، فقد رضيت في ليلة الأحد تلك بأن أستمتع بصحبته دون أن أزعجه برواية قصة حياته.

أتى الابن الأكبر[1]، ذو الخمسة والثلاثين عاماً والذي يسكن المنزل، داخل الغرفة وقدّم طفلته بلقيس وبقيت جماعة النساء بالحجاب. كان يتكلم لغة إنكليزية شبيهة بلغة أحمد، وكان يلجأ إلى أبيه أحياناً يسأله عن الكلمة المناسبة. أما الحجّي فقد كان طلق اللسان على الرغم من مرور فترات طويلة - دامت إحداها أكثر من اثنتي عشرة سنة - لم يتكلم فيها إلا بالعربية. كان حديثه حديث رجل إنكليزي مثقف وكانت أخلاقه أخلاق عربي أصيل النسب، بدا ذلك واضحاً من اللقاء الأول بالإشارة اللطيفة إلى أن الضيف يشرّف المضيف بقدومه.

شرحت له سبب زيارتي للعراق، ونيّتي في الكتابة عن بعض التغييرات التي حدثت. لا شك أن نصائحه ستلقى الامتنان لدي. عندما علم أنني قد أمضيت سنتين هناك وفي الخليج العربي ما بين عامي 1918 - 1919 استغرق بسهولة في ذكرياته عن الناس والأماكن التي نشترك في معرفتها.

كي لا أطيل الزيارة، غادرت في المساء المبكر وقد كنت بحاجة إلى الاستحمام ونيل وجبة مريحة. رافقني أحمد إلى العشار في باص قديم، ثم مشياً على الأقدام إلى تقاطع طريق في الرباط ليدلني على طريق مختصرة إلى كوت الحجّاج حيث تجوّلت بفشل في أول النهار. بدا سعيداً باستعراض لغته الإنكليزية، لذلك أخذ يقطع وقت المسير بمجموعة من الآراء السياسية التي نسبها إلى «البابا» والتي أبدى بلطف عدم موافقته عليها. لم يحمل الحديث إلا اهتماماً سطحياً ووقعتُ ضحية الالتباس بأن «البابا» كان مصطلحاً أميركياً يطلقه على والده المبجل، إلى أن دلّني تعليق أخير على أنه يقصد قداسة البابا.

---

(1) أي عبد المطّلب بن عبد الله الفضل المسلماني.

في اليوم التالي، قابلت أحمد ودلّني على الطريق المفضي إلى مسكن الحجّي، الذي قُدّر لي أن أجتازه مراراً في أحيان أخرى. كان يمر عبر قرية أضناها الفقر ذات أكواخ من القماش، وعبر الطريق العسكري القديم الذي يصل بين البصرة ومنطقة الماركيل وبجانب مدبغة حيث كانت نساء عربيات حاسرات الرأس يعملن على نتف الصوف من جلود الغنم، غير عابئات بالرائحة المنتشرة. ومن هناك عبر رتابة حدائق النخيل إلى الممر الضيق النائي الذي يقود إلى كوت الحجّاج.

كانت محادثاتي الأولى مع الحجّي كثيراً ما تنقطع، فقد كان حريصاً على أداء الشعائر الإسلامية في أوقات الصلاة وكان عرب مختلفون - من بينهم الوجهاء - يأتون بين الحين والآخر يطلبون استشارته. تملكني انطباع أن السكان المحليين كانوا يعتبرونه حكيمهم وكانوا يقومون برحلات شاقة على ظهور الحمير أو مشياً على الأقدام طلباً لمشورته. دعاني مرة لمرافقته إلى البلدة الصحراوية الزُّبير حيث دعانا صديق قديم له اسمه يوسف إلى وجبة احتجنا بعدها إلى قيلولة دامت ثلاث ساعات. واستطاع الحجّي بصعوبة إقناع مضيفنا بالعدول عن ذبح شاة لكل واحد منا.

«لن يتكلم»، كانت هذه عبارة الكابتن كينيدي. لكن - وبنضوج سريع للصداقة بيننا - تكلم الحجّي وليَمون دون أي ضغط من جانبي. كان أحد أسباب ذلك - كما أغامر بالتفكير - هو أن هناك أموراً مشتركة فيما بيننا. فأنا أيضاً قد سافرت في أنحاء الغرب وأجزاء أخرى من العالم الذي عرفه في أيام شبابه. كذلك قد عشت في الشرق ويمكنني أن أقدم رأياً حول أمور تثير اهتمامه.

تجاذبنا أطراف الحديث، وكانت تجربتي الشخصية مقياساً لحقيقة بعض تجاربه. مرة دار الحديث حول صيد اللؤلؤ في الخليج العربي - وهو موضوع يلقى اهتماماً مشتركاً - وفي مرة ثانية استمتع كثيراً - وهو تاجر الأسلحة القديم - عندما علم أنني سبق أن سافرت على متن سفن شراعية في البحر الأحمر سعياً وراء أسلحة غير مشروعة. تحدثنا عن الكويت التي يعرفها جيداً حيث كانت زيارتي الأولى بدور لا أحسد عليه، إذ كنت وقتها موظفاً بحرياً بريطانياً وحيداً أوكل إلي التحقيق في الجرائم

الموجهة للحملات الأميركية بينما كان يحتل الميناء بضعة آلاف من الوهابيين[1] المتشدّدين القادمين من الصحراء.

بالطبع لم يكن في ذكرياته ما يظهره بمظهر سيء لكنه اتّبع - بعادته الإنكليزية الفطرية - أسلوب التلميح أكثر من أسلوب المبالغة. كان يلجأ بشكل شبه دائم إلى إضفاء جوّ من المخاطر والصّعاب، على عكس من يجعلون من تلّ الخلد مغامرات جبلية. بعد حين تمكنت من التحقق من فترة أمضاها في ساحل عمان مع الكوماندر غالپين Commander Galpin – وهو الآن موظف في شركة خطوط الطيران البريطانية ما وراء البحار British Overseas Airways Corporation – واستنتجت أن الحجّي كان دقيقاً ومتواضعاً في سرده لروايته.

كان من الطبيعي - بعدما أثقلته السنون - أن تخونه ذاكرته في بعض الأحيان، وكان يجد صعوبة في ترتيب أحداث حياة كاملة ترتيباً زمنياً صحيحاً. كانت التواريخ تربكه عادة ما لم ترتبط ارتباطاً وثيقاً بأحداث الحربين العالميتين. وكعادة البدو، كان يتذكر الأحداث دون أن يقدّر الفترة الزمنية بينها. إن هذا الأسلوب - أو فقد الأسلوب - قد أربكني كثيراً أثناء رغبتي في الحصول على تعاقب قطعي. على سبيل المثال، قد يربط مغامرتين صحراويتين دون فاصل بينهما، وكنت أكتشف بعد عدة تساؤلات أن الحادثة التي ذكرها أولاً قد جرت بعد الثانية بعدة سنوات.

مع ذلك، تيقنت أنه قد ولد عام 1872، وترك إنكلترا في سن الثالثة عشرة، وبعد ذلك بما لا يزيد عن سبع سنوات كان قد انقطع في جزيرة العرب عن كل ما يعتبره معظم الغربيين حياة متمدّنة. إلا أن الأمر المميّز حقاً أنه - على عكس من لديهم النزعة للترحال - لم يعد إلى موطنه قطّ، بل ولم تكن لديه أبداً الرغبة بالعودة.

لأسباب متعددة، تمنّيت أن أزور بغداد مجدّداً وان أركب قطار الليل من المحطة الأخيرة في الماركيل. كان النائم ينعم بالتكييف وزجاجة بيرة فالكون Falcon بستة

(1) يستخدم المستشرقون على الدّوام عبارة: الوهابية والوهابيين، والصحيح أن اسمها: حركة الإصلاح السّلفي، ومؤسّسها الشيخ محمّد بن عبد الوهاب.

شـلنات. كان هناك شـيخ جليل قدّم نفسـه بصفة شيخ مشـايخ بني لام، ودعاني بمودّة لأزوره في المشـفى التي كان سـيجري فيها عمليـة صغيرة. لم أره ثانيـة، لكن قُدّر لي بعـد أربعـة أيام مـن الإقامة في فندق السّـندباد Sindbad Hotel أن أرى داخل المشـفى بنفسـي بصفـة مريض، إذ ظهـرت لدي أعراض ذكرتنـي بهجمة التيفوئيـد التي عانيت منها في شـبابي في مسـتعمرة كولومبيـا البريطانيـة British Columbia. تبيّن أنها كانت حالة «Gyppie tummy» أغضبتني لسـببين: الأول أنها أرغمتني على البقاء في الفندق، والثاني أنني تخليت عن وجبات الفندق الممتازة وتحملت غمّ دفع دينارين يومياً ثمن بضع طاسات من حليب الجاموس الخاثر.

بعد الشـفاء، ذهبت لبعض شـؤوني فـي العاصمة الرائعة التي أصبحـت مدينة الضجيج the City of a Thousand and One Noises. لكـن قبـل اتجاهـي إلى الشـمال كنت قد رتبت مع الحجّي وليَمسـون للحصول على مادة هذا السـجلّ، لذلك اختصرت زيارتي إلى بغداد وحجـزت تذكرة على الخطوط الجويـة العراقية من أجل العودة إلى البصرة. قبل سـنوات كنـت قـد قمـت بالرحلة ذات الخمسـة أيام بواسـطة القارب إلى شـط العـرب ودجلة. أما الرحلة الجوية، فقد منحتني فرصة مشاهدة المناظر المألوفة من زاوية جديدة.

حدث أن هبّت ريح عنيفة من الصحراء صباح يوم الرحيل. وبعد إحدى عشرة ساعة من قرار كابتن الطائرة، أقلعنا وسـط غبار يعمي الأبصار ولم نرَ شـيئاً من الأرض لأكثر من مئة ميل. بعد ذلك ظهرت للعيان صورة بانورامية للصحراء تقطعها الأجزاء المتعرجة من دجلة والفرات اللذين يندمجان فيما بعد ليعبرا الألوان التشكيلية للأراضي المغمورة بالمياه التي يسـكنها عرق غريـب من عرب الأهوار (الشّـباخ) Marsh Arabs. وهكـذا عدت إلى فندق المطار في الماركيل لأتابع زياراتي للحجّي في منزله الطيني النائي.

بعد عودتي بحراً إلى إنكلترا في مايو، لم يكن لدي الوقت الكافي للتفكير في قصة الحجّي بسبب العقود التي تنتظر الإنجاز. وعندما سنحت الفرصة، شعرت بعدم قدرتي علـى متابعـة العمل في إنتاج سـجل الأحداث ما لـم أتزوّد بالمزيد مـن التفاصيل. في نوفمبـر من عام 1947، ذهبت في جولة محاضرات لصالح المجلس الثقافي البريطاني

British Council ضمن القوات في سيلان وسنغافورة وهونغ كونغ واليابان. قبل الرحيل، رتبت الأمور مع وزارة الطيران لترك الجولة في العراق في أثناء رحلة العودة الجوية، بهدف الزيارات اللاحقة للحجّي وليَمسون. وهكذا، في يوم بهيج من أوائل فبراير عام 1948، نزلت من طائرة يورك York في الحَبّانيّة، وبعد بضعة أيام اجتزت الصحراء إلى بغداد وركبت القطار إلى البصرة.

على الأرجح، لن أقيم في العراق ثانية وهذا الأمر لا يزعجني. قبل سنوات كنت قد زرت هيت على نهر الفرات وبابل Babylon وأماكن أخرى ذات أهمية أثرية مع صديق فنان هو المرحوم دونالد ماكسويل Donald Maxwell دون أن يواجهنا تهديد جدّي بأيّة مضايقات. هذه المرة، حذّرني موظف في سلاح الجو البريطاني R.A.F هو سيريان ليفاي Syrian Levy بأن أتصرف بحذر في بابل وبعض المناطق الأخرى حيث جرت أعمال شغب. أما أحداث فلسطين، فلم تحسّن الحالة في العراق، بل قامت مظاهرات بشعة في بغداد والبصرة وبدا أنّ هناك خطراً أمنياً على المسافر وحده، هذا الرأي أكّدته حادثة نهبي على يد بعض المجرمين مباشرة بعد وصولي إلى العشار.

من الشائع أن تُتبع ابتسامات الحظ أحياناً بركلات غير ذات سبب على القفا. كان الحظ قد حالفني خلال جولة المحاضرات بينما شهدت عودتي إلى العراق سلسلة من المغامرات العاثرة والإحباطات المحيّرة حتى أثناء استرجاع الماضي. ولا داعي لذكر ما يتعلق بجواز السفر والأنظمة المالية ورخص الشرطة وكل تلك الفوضى البيروقراطية التي تثقل الحكومات بها كاهل المسافر. قد يفيد وصف هذه التجارب في تحذير الآخرين، ويكفي القول هنا إن إحدى المعضلات نتجت عن اكتشافي بأن الحجّي وليَمسون كان قد أنهكه المرض عندما قدمتُ في زيارتي إلى كوت الحجّاج.

لسوء الحظ أيضاً لم يكن يتوقع مجيئي. كنت قد أرسلت إليه رسالة بالبريد الجوي من اليابان لكنها ضلت طريقها في مكان ما. كانت الظروف تتطلب عودتي المبكرة إلى إنكلترا، وكان التأجيل يكلف مالاً. إنها حالة صعبة، لكنني بعد أن تكبّدت مشقة الوصول إلى هنا، لم أكن لأرجع خالي الوفاض.

لحسن حظي، شفي الحجّي واستقبلني يوماً بعد يوم بنفس الودّ الذي كان يظهره لدى زياراتي في العام السابق. كانت لديه مشاكله الخاصة - تتعلق إحداها بابنه محمد إذ التحق بالتجنيد الإلزامي - لكنه ساعدني بصبر لأحصل على مغامراته بشكل منظور وتذكر المزيد من الأحداث حتى تكتمل اللوحة.

كانت محادثاتنا تقام في الديوان الظليل للمنزل الطيني بين أشجار النخيل. كانت النافذة مزودة بقضبان حديدية تمنع التطفل الليلي للمجرمين، وشبك سلكي يبعد البعوض. في الأيام المشمسة، كان المنظر المحدود للحديقة يبدو بظلال ذهبية وتدرّجات زرقاء قد لوّنتها الشمس ببراعة تحت الأوراق الخضراء لأشجار البرتقال التي نجت من فيضان مدمر. وكثيراً ما كان أبو بريص - وهو سحلية صغيرة - يلتصق على الشبك دون حركة، ويقوم بقفزات سحرية يؤديها بسرعة البرق عند اقتراب أية ذبابة.

لم تدخل أية كماليات كتكييف الهواء إلى منزل الحجّي. كانت الجدران الطينية سميكة والسقف مغطى بقصبات مصطفة عرضياً مع عوارض خشبية من الخشب المقاوم للمناخ والمستورد من الهند. استفسرت عن شكل شروط الحياة عندما ترتفع حرارة الصيف إلى 120 في الظل فأجاب: «يبقى المنزل رطباً بشكل لطيف وتكون الحرارة حوالي 112 درجة».

إذا أخذنا بعين الاعتبار انتشار المجرمين المستعدين للقتل بمقدار قليل من تأنيب الضمير كأنهم يقترفون عملية سرقة، فإن هذا المسكن المنعزل في منطقة أشجار النخيل لم يكن ليؤمّن منزلاً آمناً لعائلة. لكنه كان يملك من وسائل الدفاع أكثر من النوافذ ذات القضبان، كان هناك فلاحون يعيشون في مساكن خشنة تبعد مرمى حجر، وهناك غوّاص لؤلؤ سابق اسمه زايد Zaeid وابنه عبد الله، موظفان للعناية بحدائق نخيل الحجّي ويقومان ببعض الأعمال. كما أنّ هناك حارساً مسلحاً ذا أجر زهيد يحوم في الجوار ليلاً أو على الأرجح يغط في سُبات عميق مستنداً إلى جذع نخلة ومعتمداً على نباح الكلاب الطليقة في إيقاظه. بالإضافة إلى ما ذكر كان أهل المنزل يملكون

ترسانة صغيرة من الأسلحة النارية التي انتشر خبرها في الأسواق كي تصبح معلومة شائعة بين من يميلون إلى الإجرام.

كانت أحاديثنا في الديوان المنعزل نادراً ما تخلو من المقاطعة إلا أن جماعة النساء من أهل المنزل لم تكن تدخل هذه الغرفة أبداً أثناء زياراتي. كانت المرأة الوحيدة التي رأيتها في كوت الحجّاج هي زوجة زايد السمراء. إلى جانب زيارات الأصدقاء العرب والوجهاء أو المتسولين، كان الصغيران فوزية ومخلص[1] Mukhlab - وهما بنت ذات ثلاثة أعوام وصبي ذو عامين من ذرّية أحمد - كانا يندفعان داخل الغرفة وخارجها ويتسلقان ركبنا تاركين اللزوجة في كل مكان كما هي طريقة الأطفال. كان الحجّي فخوراً بهما بشكل مفرط. وكان أحمد يأتي أحياناً مع الابن الأصغر محمد وكلاهما رفيق مع والده الذي كانا يناديانه بتسمية «دادي» Daddy عندما يتحدثان الإنكليزية أثناء وجودي. كان أحمد في فترة ما بعد الظهيرة يتمشّى في أنحاء الديوان ويحتضن الطفلة ماجدة (غلوريا Gloria) المتزينة بخلخال صغير من الأجراس. ولا أنسى الكلاب والبط وكل الاحتجاجات والهرولة التي رافقت طردهم الفظ من فوق السجاد الفارسي، كما لا أنسى نباح الكلاب المتكرر وصراخ الببغاء الذي كان على الدوام يتسبب في قطع أي حديث. وبالطبع تأتي ساعة الصلاة الاعتيادية فينعزل الحجّي في غرفة أخرى لأداء فروضه، تاركاً لي نسخة مهترئة من رواية «بيت ذو المسدسين» Two-Gun Pete لأقرأ فيها.

كان ذهني يحتفظ بصورة صديقي الحجّي وليَمسون في وضعيته المألوفة، ساقاه النحيلتان مرفوعتان على أريكة جلدية عريضة ومرفقه الأيمن يستند إلى أحد المسندين.

---

(1) يرد الاسم في الإنكليزية أعلاه: مخلب، وهذا دليل على عجز المؤلف عن ضبط الأسماء العربية في النصّ، أو أنه كان يدوّن بسرعة في المسوّدة أثناء لقائه بالحاج عبد الله. وبعد البحث تبيّن لي أن اسم الولد: مخلص، وهو ابن الحاج أحمد بن عبد الله الفضل المسلماني، وله أخ آخر يدعى مصطفى. ومن اتفاقات الدّهر أن الحاج أحمد ابن بطل كتابنا هذا قد توفي إلى رحمة الله يوم 31 يوليو 2010 أثناء إعداد هذا الكتاب، وكانت وفاته بحيّ الجزائر في البصرة التي بقي فيها عقب وليَمسون. رحمه الله تعالى.

كانت عادة مستقاة من حياته البدوية تحت النجوم العربية؛ وضعية الراحة للبدوي متكئاً إلى سرج جمله فوق رمل الصحراء. كان يرتدي دائماً الكوفية البيضاء، أحياناً مع البزّة الزرقاء وفي أحيان أخرى مع عباءة بنية. كان مسلماً متشدّداً، يحضر إلى مسجد العشار بانتظام، قد تخلّى عن شرب العَرَق arak والمشروبات الكحولية الأخرى، بينما لم يكن ابنه أحمد شديد التعصّب كما تبين لي في إحدى الليالي الزاخرة بالأحداث.

بينما كنت أدخّن غليوني، كان الحجّي يدحرج حبّات السّبحة بين أصابعه دون توقف. والسّبحةThe sibha تُرى بشكل شائع في أيدي العرب، ولها دلالة دينية. يستطيع الشخص المتديّن أن يردّد على حباتها الأسماء الحسنى التسعة والتسعين لله، لكن التجار في بغداد يعتبرون السّبحة ذات استخدام مادي إذ يعتقدون أن الأيدي تظهر المشاعر بوضوح أكثر من العيون. يقول البعض إنها تعطي توازناً ذهنياً وتساعد على التركيز في مقابلات الأعمال.. تماماً كالسيجار لدى المدراء الغربيين. بناءً على ذلك، إن كان للسّبحة تأثير نفسي، فهل يهتم أحد في وول ستريت Wall Street أو في نيويورك بتجربة حبل من الخرز؟

يذكرني هذا الاستطراد البسيط أنه خلال زياراتي للمسكن في كوت الحجّاج كان الحجّي ينتقل من الحديث عن مهنته ليبدي رأيه بشأن أمور الغرب بشكل عام. كان للغته الإنكليزية الراقية نكهة ڤيكتورية. لكن شذوذات اللغة العامية العصرية قد تسرّبت إلى كلامه بشكل طبيعي بعد أن غادر البلد عام 1885 كما تتسرّب العامية الأميركية إلى ثرثرة الشبان من هواة الأفلام. إنه لأمر مفاجئ حقاً بسبب عادة القراءة لديه. عندما لا يقرأ القرآن بالعربية، يأخذ بدلاً عن ذلك قسطاً من الرّاحة ليتجول بين مغامرات الغرب القديمة المدوّنة. من ناحية أخرى، بدا غير مدرك للإصلاحات الاجتماعية التي أسهمت في التغييرات الجذرية في وطنه الأم الذي سرّ يوماً بمغادرته. كان من الصعب إقناعه أن المبدأ القديم «الأغنياء يسحقون وجوه الفقراء» قد استبدل بحكومات تسحق وجوهاً بالجملة في محاولة لصهرها ضمن وحدة متناسقة.

في استطراد آخر، شعرت أن الحجّي بخبرته الفريدة بحياة جزيرة العرب لا يمكن

تخطئتـه. فهذا كان انتقاده لكتابـات ذاك الصنف من الـروّاد المتوهجين الذين يعوّض عن معرفتهم السّـطحية باللغة العربية ما يبدونـه من طاقات باطنية بالغوص في الذهنية العربيّة. هذا النوع يحتاج فقط إلى الارتحال في شـبه الجزيرة لبضعة أسـابيع - أو في الأوروغـواي Uruguay، أو الهند الصّـينيّـة Indo-China، أو بافين Baffin Land - بهذا الهدف من أجل جمع معرفة موسـوعية للبلد والسكان. أحياناً تقود قدرته الخارقة إلى كشـف عادات قبلية مجهولة حالياً، على الرغم من بقائها بشـكل تصويري لأنها قد لا تكون موجودة أصلاً.

في إحدى فترات ما بعد الظهيرة، وبمزاجه المرح أطلعني الحجّي على مقاطع كان قد حدّدها في كتب بعنوان «هذه الـسيدة المستكشفة» و«هذا الـسيد المـستكشف». قال: «هذه الـسـيدة المستكـشفة تناولت الطعام في أطباق ذهـبية داخل خيام قبيلة بدوية فقيرة لم تملك حتى أوان نحاسـية، ولم تجرؤ الـسـيدة على الابتعاد مئة ميل عن الواحة التي تتحـدّث عنها». وبرغـبة شـيطانية فتح كتاباً آخر وأراني واجهتـه. كانت لوحة تصـويرية لشخص همجي بعنوان: «عربي نموذجي». علّق الحجّي: «الخطأ هو أن الشاب كردي وأنا أعرفه جيداً إذ كان سائـس خيلي عندما كنت برفقة الجنال مود General Maude في بغداد. إنها صورة جيّدة، لا بد أنه قد اغتسل قبل التقاطها».

كنـت أستشـفّ انطباعـه عـن الكولونيـل تومـاس إدوارد لورَنـس Colonel T. E. Lawrence - (لورَنـس العـرب) Lawrence of Arabia - وأثناء حديثه ذكر كيف أنه قد اكتسـب المظهـر العربي بشـكل كامل، كما ذكر تألـق أعمال لورَنـس البطولية بتوحيد القبائل العربية وقيادتها ضـد الأتراك. «لكن لم ينبغِ له أن يرشـو الشـيوخ بأموال كثيرة، إنه هدر مخيف للأموال البريطانية. رأيت بنفسـك كيف أهدرت الجنيهات الذهبية في اليمن، وحدث الشيء نفسه في عسير والحجاز إذ أنفق لورنس خمسة أضعاف ما كان ضروريـاً. لا يتوقّـع العرب أن تلبّـى مطالبهم الأولى، ولا حتى الثانيـة أو الثالثة. ينبغي لك أن تـساوم. أنا متأكد تماماً أنه كان بإمكان لورنس أن يحصل على مـساعدة الشيوخ بعُشر المبالغ التي دفعها».

كان بين الحين والآخر يعبّر عن رأيه بمظاهر من السياسة العالمية. لم أكن مهتماً لكن كان من الواضح أنه يملك معرفة جيدة بشؤون الشرق الأوسط عامة والدّسائس القبلية خاصة. وفي أكثر من مرة برزت ديانته الإسلامية التي اعتنقها بإخلاص لأكثر من عشرين عاماً. كان بالتأكيد يستحق لقب الحجّي إذ ذهب إلى الحجّ ثلاث مرات. بالإضافة إلى الحجّ إلى مكّة، كان قد تعبّد في كل الأماكن المقدسة السنّية. وعلى الرغم من كونه متشدداً في تعصّبه، فقد كان واسع الأفق ولا بد من أن العالم سيغدو مكاناً أفضل لو ساد فيه تسامحه. وهو لم يتفوّه أبداً بكلمة ضد اليهود أو المسيحيين المتواجدين بكثرة في العراق.

ناقشتُه مرة بشأن الغربيين غير المسلمين الذين قاموا بالحجّ إلى مكّة متنكرين والخطر المتوقع من مغامرتهم. فقال الحجّي مبتسماً: «خطر؟ لقد كتب الكثير من الهراء واعتقد الناس أفكاراً خاطئة. إن أيّ أحد يذهب إلى مكّة متخفياً هو إنسان أحمق في رأيي، ولكن حياته غير معرضة للخطر إذا تجنّب تدنيس الحرمات. قد يدّعي الإيمان كاذباً والاعتقاد بإله واحد، لذلك يقوم بالحجّ. ولكن من يحكم بذلك غير الله العليم؟ مع ذلك، إن العرب أذكى قليلاً مما يبدون أحياناً. أستطيع إخبارك عن أمثلة سافر فيها الأوروبيون إلى مكّة متنكرين وباسم مستعار، جاهلين تماماً أنهم كانوا معروفين ومراقبين منذ اللحظة التي انضموا فيها إلى القافلة. لم يؤذهم أحد، بل ببساطة تمت مراقبتهم للتأكد من عدم انتهاكهم للمقدسات».

عندما سنحت لي الفرصة، قمت بدعوة الحجّي إلى فندق المطار ثم إلى مطعم أوروبي عندما بدّلت مكان إقامتي. لم يقبل أبداً.. كان قد انقطع تماماً عن المجتمع الأبيض وأعتقد أن الصلة الوحيدة المتبقية له في الأعوام الأخيرة كانت عندما دخل مشفى شركة النفط في عبادان لإجراء عملية الساد في عينه.

سادت إشاعة بأنه كان غنياً بشكل لا يُصدّق، لكن ذلك كان بعيداً عن الحقيقة. كان يملك راتباً تقاعدياً لقاء خدمته في شركة النفط الأنغلو إيرانية كما يملك تسعة جرائب jaribs من الأرض (حوالي عشر فدانات) في كوت الحجّاج. ومن أصل ألف شجرة

نخيـل فقـد أربعمئة في طوفان شـط العرب بالإضافـة إلى العديد من أشـجار البرتقال وكروم العنب.

كان نفـور الحجّي من زيارتي فـي الماركيل يضطرني إلى القيام بزيارته في مختلف أشـكال الطقس. في الأيام المشـمسـة الحـارّة كنت أخوض في الرمـل الناعم، وعندما كانت تمطر كنت أتقدم متعثراً بالوحل اللزج.

كان من السّهل الوصول إلى الرباط بواسطة السيارة أو إحدى الحافلات المتهالكة. كان الربع الأخير من الطريق يحدّه من الجانبين نبات الخطمي hollyhocks المزهر، لم أرَ أبـداً فـي العالم كله طريقاً بهـذا التزيين الجميل. عندما أذهـب بالحافلة كان السـائق العربـي والركاب لا يكفون عن التعبيـر عن اعتقادهم بأنني متّجه إلى المكان الخاطئ. وإلـى أن اعتاد العاملون في مخبز خبز الشـاپاتي chapatti علـى منظري الغريـب، كانوا يومئون إلي بتحذيرات لطيفة لسـلوكي الطريق المحلية. كان من الواضح أنهم يعتقدون أن الطريق لا يقود إلى مكان يرغـب «الفرنجي» *feringhee* بالذهاب إليه.

بالمقارنة مع التحضر النسـبي لطريق الماركيل – العشـار، عدت إلى قرون العصور البابليـة. كانت تحدّ الطريق أكواخ من الحصير، وتلـوّث جانباه بفعل الناس والكلاب الضارية. كان الأطفال العراة يلعبون بالرمال أو الوحل الذي كان آنذاك يفرش الطريق. كمـا أن نسـاء منقبـات ومتشـحات بالسّـواد وذوات حبّـات مـن الخـرز الأزرق حول كواحلهـن البنيـة العاريـة، كن يتمايلـن بحمولتهن الرشـيقة المكوّنة من إنـاء أو حزمة حطـب متوازنة فوق رؤوسـهن. كن يتجمعنّ حـول البئر كالغربان ثـم يتفرقن بعد نيل شـيء من المـاء البارد وبعـض الثرثرة. بعد ذلك ترى نسـاء أخريـات مقرفصات على أعقابهن قرب قنوات الري ذوات المياه الخضراء الراكدة منهمكات في غسل الطناجر والأواني وقطع غريبة من الملابـس.

كان هناك رجل نوبي يشـكل مظهراً ثابتاً بالقرب من أحد جسـور جذوع النخل التي أصبحت ماهراً في عبورها بحركات بهلوانية. فيما عدا الأيام الماطرة، كان يتمدّد على التـراب متكئاً بظهره إلى سـياج من القصب، مبرزاً أسـنانه البيضاء من خلال ابتسـامته

الدائمة. كان لغزاً بشرياً. إن العمل اليومي في القرية ذات أكواخ الحصير يتقدم وينحسر بالقرب من محرابه دون أن يؤثر فيه وكأنه صنم من الأبنوس. لم يكن يطلب صدقة، ولم يتخلَ أبداً عن تحيته لي بعبارة «السّلام عليك».

ما عدا الطريق العسكري القديم والمدبغة كانت الممرّات الضيقة بين الجدران المتهدمة مهجورة عادة. بين الحين والآخر يمر طابور من الحمير، تركل التراب وتنثر الوحل من حوافرها. كان العرب الذين يقودونها يعتبرونني غريب الأطوار لكنهم لم يهملوا أبداً ردّ تحيتي. كان الفلاحون يعملون هنا وهناك بين أشجار النخيل، في موسم يلقحون فيه الأشجار المؤنثة بواسطة الأشجار المذكرة. وبين مسافة وأخرى كانت جمجمة حصان تُعلّق بوضوح على جذع، إما لإخافة العصافير أو لصدّ الجنّ الشريرين الذين قد يؤذون بعداوتهم محصول التمر.

تُعرف البصرة بـ«فينيا الشرق» (أي بندقية الشرق) ولطالما استأجرت زورق بَلَم - وهو الجندول المحلي - لأستكشف الجداول التي تحفّ بها أشجار النخيل وتطل عليها الأزهار والفاكهة. لم يكن هناك ما يضاهي جاذبية ذلك في المنطقة المجاورة لمنزل الحجّي، على الرغم من إسهاب أحمد في وصف جمال الجوار. لكن أحمداً لم يكن قد رأى إلا القليل مما يقارن بالصحراء الرمادية الواقعة وراء حزام أشجار النخيل. في أيام معينة، عندما تكون الشمس منخفضة، كان المنظر يتبدل. كان التوهج الخفيف يغطي حتى الجدران المتهالكة بجمال فني لطيف، وكان السلام ينتشر وكأن المكان جنة عدن حديثة الخلق، وكان طيران عصفور يبدو انتهاكاً للحرمات. هذه المؤثرات الطبيعية للشمس والجو في ساعات المساء الأولى قد حازت على ملاحظات العديد من الكتّاب الذين قدموا إلى العراق وجزيرة العرب ومصر ولم ترد في مكان آخر من العالم بنفس الانبهار الهادئ. لقد استوحى الفنانون بعض الألوان والسّلام من مشاهد الشرق في هذه الحالات لكن الفن البشري لا يستطيع أبداً تصوير الجمال الحقيقي والجو الأثيري أو استلهام مشاعر العمل الفني في الطبيعة.

عندما كنت أعود من كوت الحجّاج عند الغسق أو في الظلام، كان صياد اللؤلؤ

السابق زايد Zaeid أو ابنه الشديد يرافقني للحراسة. كانت هناك حوادث مخيفة قد حدثت في ذاك الطريق النائي. لكم دفع العربي السائر وحده حياته ثمناً لثروة تافهة. وفي إحدى المرات، لمحنا ثلاثة أشخاص أشداء يكمنون وراء الجدار. ربما لم تكن لديهم نية سيئة، ولو كان عكس ذلك فلا شك أن البندقيّة التي يحملها زايد كانت ستمنعهم. لكن من الحماقة أن نخاطر. في نفس المكان تقريباً - كما أخبرني الحجّي بعد ذلك - قام مجرم بشق جمجمة عربي بواسطة عصا ثقيلة، وساعده شريكه ببراعة بسكين طويلة أدّت عملاً أثمر أقل من دينار.

إن ذكري لذلك ليس بهدف القول إن الشجاعة ضرورية لكل من يزور كوت الحجّاج، لكنه يؤكد على أن المنطقة لم تكن مكاناً صحياً يختاره أوروبي عادي لقضاء فترة تقاعده بسلام. في بعض الأحيان كان الحجّي وأحمد يقومان بجولات ليلية على طول الطرقات غير المطروقة المتفرعة بين حدائق النخيل. كان هؤلاء السكان المعزولون معروفين ومحترمين في ناحية البصرة. مع ذلك، كانوا حذرين ولم يهملوا وسائل الدفاع. حدث مرة أن تعرّض الفتى أحمد لكمين ولم يخلّصه منه سوى ذكائه ولباقته المتميزة.

كان ديوان منزل الحجّي واحة بالنسبة لي بعد إنهاكي بقلق الظروف المتنوعة. إحدى الغمامات التي كانت تظلل أعمالي تتعلق بخروجي من العراق بعد أن فقدت حق النقل من القوات الجوية الملكية. كان دخولي إلى البلد سهلاً، أما الخروج منه فقد أصبح محفوفاً بمصاعب غير متوقعة. حتى عندما حاول بعض الأصدقاء من شركة النقل البريطانية نجدتي، تراكمت المصاعب كسحاب يغطي السماء. إن التفاصيل غير مهمّة، لكن الأزمة وقعت عندما اضطررت إلى اتخاذ قرار مفاجئ بمغادرة حيّ الماركيل (المعقل) بمذكرة تمهلني ساعتين. كانت هناك فرصة جيدة للسفر البحري فيما لو تمكنت من عبور النهر في الوقت المحدّد. ولم تكن فرصة أخرى لتسنح قبل أسابيع.

رفض السائق العربي الذي قادني إلى العشار التقدّم أكثر من ذلك. كان من

المفترض أن يأخذني زورق بخاري في الساعة الخامسة من Seda مباشرة إلى سفينة في Bawarda Reach بعد عبادان. وفي الساعة الثالثة كنت أحثّ الخطى إلى محطة الرافدين في العشار. كان إذن الشرطة بمغادرة البلد قد تأخر، ورفض درزن من سائقي السيارات المحليين القيام بالرحلة التي تبعد متني ميل تقريباً. هناك أجزاء من الصحراء يصعب اجتيازها بعد المطر الأخير. جاء دليل أخيراً بالإذن وأفضى مندوب الرافدين برغبته الحارة ببدء الرحلة بمعدل ما يقرب من نصف دينار للميل الواحد. لم يكن هناك وقت للمساومة وفي ذاك الحين - في سبيل مغادرة العراق - كنت سأسرّ بدفع دينار للميل.

قد تبدو مسافة عشرين ميلاً قصيرة لقطعها في ساعة ونصف بواسطة سيارة أميركية قوية. كنا قد اجتزنا عشرة الأميال الأولى في عشرين دقيقة فوق طرقات ومسارات جافة نسبياً. أما الميلان التاليان فقد استغرقا نصف ساعة والسيارة غارقة حتى محاورها في تلال من الطين الذي يشبه الإسمنت غير المتصلب. كانت هناك سيارتان بركابها العرب عالقتين في الصحراء ولم نتمكن من مساعدتهم. قبل سنوات مررت بأزمة يوم مشابه، أتبعته ليلة طويلة برفقة أبناء آوى. إن تكرر التجربة يبدو محتملاً جداً في رحلة Seda هذه، لكن بتقدمنا أكثر بمحاذاة حزام النخيل تمكن سائقي المحلي من الخروج بعد تأخر عشر دقائق فقط. وبعد أن نال أجره الوافر - وإن بدا عليه عدم الرّضا - غادر عائداً إلى العشار تاركاً إياي مع موظفي شرطة عراقيين وموظف جمارك، وهم شاغلو المحطة التي تقع بالقرب من جدول مهجور آخر.

لم يصل أي زورق. وبالنظر المحدود إلى ما وراء مصب الجدول، لم يبدُ قدومه محتملاً. كان نهر شط العرب العظيم في حالة هياج وكانت الريح العاتية تضرب مياهه بقوة. لقد حذرني بعضهم أنه لو ازداد الطقس سوءاً قد لا أتمكن من ركوب ناقلة النفط. وإن الشكليات المطولة التي تتعلق بالموظفين زادت من شكوكي. يبدو أنهم كانوا يريدون الاتصال بالبصرة لأخذ تعليمات تتعلق بأمر معين، لكن خبرتي بنظام الاتصالات العراقي (يشبه بذلك النظام الياباني) لم تعطني الأمل بأن الاتصال قد يتم

قبل عدة ساعات، هذا إذا تم أصلاً. كان من الواضح أنهم يشاطرونني تشاؤمي إذ قرروا العودة إلى منزلهم الذي يفترض أنه في قرية محلية مخبأة في مكان ما في الجوار. وكانت الصورة بالنسبة لي قضاء سهرة وحيدة بجانب الجدول.

علمتني التجربة أنه ما من حالات عُسر في الحياة إلا ويعقبها شيء من اليُسر. جلست على حقيبتي المعدنيتين المصمّمتين للسفر الجوي وأشعلت غليوناً، ثم حاولت فلسفة الأمور المتعلقة بهذا المأزق. كانت السلبيات واضحة كأوراق النخيل في السماء؛ إذا لم تصل وسيلة النقل النهرية سأضطر إلى حمل أمتعتي إلى القرية والمغامرة بإيجاد مأوى خشن، أو أبقى طيلة الليل على الرصيف غير المغطى.. وهو حلّ بديل أقل إمتاعاً. إن العودة إلى العشار تكلف بعض النفقات وتعقيدات متنوعة غير مربحة. أما المزيّة الوحيدة التي أجنيها من كل هذا العناء فهي متابعة اللقاءات مع صديقي الحجّي وليَمسون والتي قد تمتد إلى أجل غير محدود. هذا الأمر - على الرغم من تلهّفي للعودة إلى إنكلترا - سيكون بالتأكيد ذا فائدة إذا كان يتعلق بتدوين قصته. كنت قد أدركت من الزيارات الأخيرة أنه ما يزال هناك الكثير مما لم يُقل، وأن إقامتي لعدة شهور في كوت الحجّاج لم تكن كافية لتزويدي بفهم كامل لحياته بأكملها.

ضاعت الفرصة بالحصول على تلك المزيّة الوحيدة - ودون أسف في حينها - إذ سمعتُ صوتاً ضعيفاً لزورق بحري صغير آتياً من النهر. كان هناك زورق آلي يتأرجح فوق مياه الجدول. لقد تم حل المشكلة الراهنة وصعدت بسرور إلى المركب الذي كان يتلوى مقابل أضواء عبادان بجانب سفينة إل مورو *El Moro*، وهي ناقلة نفط أميركية من طراز T2 تخص شركة النفط البريطانية. تم رفع حقيبتي بحذر على الزورق بواسطة حبل وصعدت بحركة بهلوانية وتعثرت بالسياج الجانبي، لكني شعرت براحة قلبية إذ وطئت قدماي سطح القارب الفولاذي الذي تعود ملكيته لبريطانيا.

بمجرد أن ابتعدنا عن شط العرب بدت الحياة متناسقة بشكل لا حدّ له ومريح للذهن والأعصاب بعد أحداث وتقلبات الشهور القليلة الماضية. إن الرحلة التي تستغرق يومين في الجو امتدت ثلاثة أسابيع عن طريق البحر. وإن مزيّة ناقلة النفط

ذات حمولـة 16,000 طنـاً هي أنني تمكنت من مقارنة المذكرات والتأمل في الأحداث الماضيـة دون أن تزعجني المضايقات التي لا مفرّ منها في سـفينة الركاب. وبالمقارنة مع تجاربي الســابقة بدت الصعوبات والمشاكل التي اعترضتني خلال زيارتين للعراق فـي فتـرة ما بعـد الحرب، بدت ضئيلـة جداً. وباسـترجاعي للماضـي، بـدت كفواصل مسـلية أو في أسـوأ الحالات إزعاجات تافهة. مع ذلك وبسـبب الشرور البشرية كنت أتســاءل أحياناً فيما لو كان من الأفضل إنفاق وقتي ومالي من أجل هدف آخر. بدا هذا الأمر محتملاً بالنظر إلى ناحية الربح المادي. أما من ناحية المصداقية فقد كان مكسـباً لي أن أسـتمتع بصحبة وصداقة رجل اشـتقّت حياته النابضة بالحيوية من مغامرة فردية في التقاليد البريطانية القديمة.

فـي بريطانيـا، وبمرور الزمـن، قد تنقرض سـلالة وليَمـسـون مختنقة داخـل البيت الزجاجي للمثالية الاشـتراكية وشعارها «التـلامة من المهد إلى اللحد». إن مسؤولي التخطيط والقيادات والأنظمة العسكرية تزدري أمثال الحجّي وتعتبره «مجرّد فدرالي» لا يمكن تصنيفه ضمن أية فئة رسمية. مع ذلك، فإن روح المغامرة الحرة ودافع النفوذ الأميركي لم ينبعثا بعد في البلد القديم. إنها ميراث كل الرجال الشـجعان بغض النظر عن عرقهم ولونهم، فهم بجســارتهم تجاه الظروف المعادية كثيراً ما يكتشـفون معاني قيّمة فيها أكثر من كونها مغامرة دون هدف.

مهمـا تكـن أخطاء وعثـرات الحجّي - وقـد كان كتوماً في التحدث عـن هفواته - فإن قصة حياته - كما حرص على روايتها - قد شـكلت اهتماماً كافياً لدي لأستشـفّ إبداعاتها أكثر من البعض الذين قد يجدونها مسلية. في تلك الأيام بوجود جواز السفر وقوانيـن العملات وتصريحات الحجرة والحركة المقيدة من بلد إلى آخر، كانت حياة التجوال الحرّ الذي اتّبعه الحجّي وليَمسـون في شبابه قد غدت مستحيلة. وإن الحربين الكبيرتيـن وما نشـأ عنهما من عوامل قد وضعت الحواجز عنـد اندلاع العداوات بدلاً من فتح بوابات التسامح للحرية الشخصية التي وعد بها السـياسيون علناً.

إن افتخـار أميـركا بحريتها يمكـن تبريره، إذ يحتفظ ذلك البلـد العظيم بطريقة حياة

يجهلها الملايين في البلدان الاستبدادية من أوروبا الشرقية. مع أن الظروف في الولايات قد تغيرت منذ أن عشت وعملت هناك قبل عام 1914، وبدرجة أكبر منذ أن كان الشاب وليَم ريتشارد وليَمسون يبحث عن حظه في الغرب. لذلك كانت المفاهيم الأولى في قصة الحجّي في عالم يعتبر فيه البريطاني الذي لم يبلغ الخمسين جاهلاً شخصياً. أما فترة الحياة العربية في منتصف سنواته وما تلاها فتبقى دون تغيّر يذكر، ماعدا في الكويت عندما حل النفط مكان اللؤلؤ من حيث المكانة التجارية.

تعتبر زيارتي ثانية للعراق بعيدة الاحتمال، كما من غير المحتمل أن يغادر الحجّي البلد الذي أمضى فيه أواخر حياته، لكنني بقيت على اتصال معه عبر البريد الجوي وأحياناً أرسل له كميّات من كتب الغرب ذوات الغلاف الورقي، وهي مادّة القراءة الاستجمامية للمحارب العتيق الذي ما يزال طالباً متحمساً للعمل بالدين الإسلامي.

إن حبل الحبّات السوداء والكهرمانية المبتاع من مكّة، والذي كان الحجّي يعبث به أثناء أحاديثنا في ديوانه، يقبع أمامي على المكتب وأنا أدوّن هذه الكلمات. كانت هدية الفراق، وقد حاولت رفضها ببراعة مدركاً قيمتها المعنوية له. لقد أعطى في هذه السبحة شيئاً من ذاته. عندما أنظر إليها أستطيع رؤيتها ثانية وهي ملتفة حول معصمه بينما تمرّ أصابعه فوقها، وهنا يبرز الحجّي حياً في مخيلتي بطريقة غير عادية[1]. إن تصويره حياً في صفحات مطبوعة هو العمل الذي التزمت به. وكما قال هارولد نيكولسون Harold Necolson: «إن تدوين سيرة الحياة هو تضافر بين الكاتب والموضوع الذي يُقيَّد منذ البداية بتبني زاوية معينة للرؤية». منذ البداية لم أكن مستعداً لأن أرى في وليَمسون ممثلاً ورعاً للعقيدة الإسلامية. إن تحوله الديني لا يمكن تجاهله لأنه مهمّ في حياته، لكن التوازن سيختل بصورة غير عادلة إذا تم التركيز عليه بشكل كبير. من وجهة نظري، الحجّي وليَمسون هو واحد من ملايين المسلمين، وينبع الاهتمام الرئيسي به من كونه شخصية فريدة بسبب عزمه وجرأته وصلابة جسمه التي مكنته من أن يعيش حياة غير

(1) كم يؤلم هذا الوصف اليوم، نقرؤه بالعربية بعد 52 سنة من وفاة الحاج وليَمسون عام 1958، وبعد 49 سنة من وفاة الكاتب ستانتون هوب في سيدني بأوستراليا.

تقليدية مليئة بالمغامرة إلى حد الامتلاء.

بين الحين والآخر كنت أستخدم اسماً وهمياً لشخص أو سفينة من أجل تسهيل القراءة. لم يجد الحجّي من السهل تذكر أسماء كل الأشخاص الذين قابلهم والسفن التي أبحر فيها. إن كتابتي لكلمات وأسماء أماكن عربية بحروف لاتينية قد لا تلاقي الاستحسان في معظم المراجع. على سبيل المثال أفضل الاسم الشائع Bedouin و Bedouins بدلاً من المصطلحات الأقل شيوعاً مثل Bedawi، Bedou وهكذا. إن العديد من الكلمات العربية لا يمكن عرضها بشكل صحيح بالإنكليزية، وليس من الغريب أن نجد اسم مكان مطبوعاً بنصف درزن من الطرق المختلفة. في هذه الصفحات، الكلمة التي شاعت كتابتها بـ «Sheik» (شيخ) ويلفظها الكثير من الغربيين لتتوافق سماعياً مع كلمة «Meek»، تلك الكلمة تعني رئيس قرية أو قبيلة أو أي مجتمع آخر وهي بصوتها الأقرب إلى العربية: «Shaikh». لكن المبدأ العام هو أنني ببساطة قد أرضيت نفسي[1].

كانت الصورة الأخيرة التي التقطتُها للحجّي ذكرى حية لوداعنا المبكر في كوت الحجّاج، صورة صديقي المسنّ تحيط به جذوع أشجار النخيل والجدار المتهدم لفناء زايد. كان يرتدي الكوفية والعقال، وعباءة بنيّة اللون مطرّزة بجدائل ذهبية، وصندلاً جلدياً. كان يحمل سيفاً مستقيم النصل في قرابه، وهو سلاح كان قد أخذه من شيخ قبيلة متعصّب حاول ذبحه به.

كان هذا هو الحجّي عبد الله فضل كما رأيته آخر مرة، البدوي العربي المسنّ الذي يحيا في سلام - بعيداً عن العالم الصاخب - في جنة لا تبعد إلا ساعة عن الجنة الموصوفة في سفر التكوين والقرآن. إنه رجل هرم ناضج بالحكمة هادئ بإيمانه الراسخ بالله وكلام النبي، تؤويه محبة ووفاء زوجته وأبنائه وأحفاده.

---

(1) لكن مع ذلك لم يتمكن المؤلف من التعبير عن الأسماء العربية بشكل صحيح في النص، والكثير من أسماء الأماكن والأشخاص تسبب حيرة في ترجمتها، وبعضها محرّف بطريقة فادحة.

وهنا، عدت بمخيّلتي سنوات إلى الوراء لأسلط الضوء على الشاب وليَم ريتشارد وليَمسون في بداية سيرة حياته وهو طالب مدرسة إنكليزي نشيط يدفعه حبّه للتجول لأن يغامر ما وراء البحار والجبال والأدغال والصّحارى في أراضٍ بعيدة غريبة. إن مدرسة بريستول التي انتسب إليها قد خرّجت العديد من الرجال المتميزين منذ نشأتها لكن - على الأرجح - لم يكن أحدهم أكثر تميّزاً من الرّحالة والمحارب الذي أصبح اسمه أسطورة في تلك الأراضي القديمة العريقة التي تقع ما بين البحر الأحمر والخليج العربي.

* * *

الجزء الأول

الفصل الأول

إلى البحر على مركب شراعي

بالنسبة لولد يعيش في بريستول في الثمانينيات لم يكن بحاجة لأي ملح في دمه حتى يحفز اهتمامه بالبحر. كان يكفيه نظرة فقط إلى أيفون Avon على نسق المراكب الشراعية ذوات الصواري الشامخة بأنواعها: clippers وbarques وschooners. مع أنه كان منعماً بمخيلة أوسع بقليل من مخيلة الثور الأليف، فإن أفكاره لم تكد تكف عن التحليق عبر المحيطات إلى أراضي الذهب والعاج والشاي والتوابل. كان هذا المنظر الشامل لنهر بريستول يتكرّر في العديد من الموانئ وأفواه الأنهار حول الساحل؛ كعامل فعال في إغواء الفتيان البريطانيين إلى صنعة كان مردودها المادي يتناسب عكساً مع المقدار المفرط من الكد والنصب.

سبب آخر وراء عدم معاناة الأسطول التجاري لأي نقص من منتسبين فتيان جدد كان بدون شك الأب الفيكتوري. هذا الشخص، المصوّر بشكل مشرق في *The Barretts of Wimpole Street* ومثيلاتها، منتشر في الكثير من المنازل بما فيها منزل عائلة وليَمسون في بريستول. لذلك، ليس من المفاجئ أن يكون اجتماع السفن الضخمة والأب الفيكتوري قد ولّيا وجه وليَمسون الصغير شطر المياه الزرقاء.

لقد حبا الله بسخائه الفتى وليَم ريتشارد وليَمسون بالقوة والحيوية والشجاعة. واعتبر الناس المتسامحون أن ورطاته الصبيانية لم تكن سوى المنفذ الطبيعي لحيويته

العاليـة. ورثاها أبـوه بكونها محض ضرر لا مبرر له. وجهة النظر هذه، التي اسـتمرّت بإلحاح، سبّبت نخراً في بنية الأسرة. مع أن الوعظ والاحتجاج المعزز باستخدام سخي للعصا شـكّل الطريقة المتعصبـة التقليدية، فإن الأب الفيكتوري قد سـعى من خلالها إلى الهيمنة على الولد المقدام. كانت النتيجة خضوعاً أو تمرداً حسـب شخصية الولد الفطرية. كان وليَمسـون الأصغر، الحجّي المسـتقبلي والذي له أخ أكبر يدعى جورج، قوي الشـكيمة ولا يمكن أن يكون الإكراه بالنسـبة له أسلوب ضبط فعال. ومع أنه كان يؤدي نشاطاته الجسدية دون قيد فإنه وهو محبط بشكل مستمر، شعر بالحاجة الماسّة إلى القدرة على التعبير عن نفسـه أكثر مما كان متاحاً تحت نظام ولي صارم غير مُقدّر.

قادتـه معنوياتـه العاليـة في بعـض الأحيان إلـى الأماكـن العالية؛ المـكان المرتفع المفضـل لديـه كان جسـر كليفتـون المعلق، ذلك البناء الشـامخ الجميـل الممتد فوق مضيـق أيفون. تسـلق هـذا الجسـر أكثر من مـرة تحت نظـرات إعجـاب أصدقائه في المدرسـة وترقب المشاهدين الراشـدين. وفي أثناء عطلته في تشيدَر Cheddar، حيث كان هناك أقرباء لأمه، كان يستمتع بحرية غير مقيدة حُرم منها في بيته. كان هناك خيول للركوب، امتطاها بكل تألق عبر الأرياف، ومع مرور الوقت، بكل براعة.

كانت بلدته بريستول بيئة تزخر بعناصر التشويق. بريسـتول، سـوف تحفظ في الذاكرة، تم تأسيسها في العهد الروماني، وكان ترتيبها الرابع من بين المدن التجارية في إنكلترا فـي أطلس دومسـداي الجغرافـي Domesday، ومنها أبحر جون كابـوت John Cabot في العصور الوسـطى في رحلته التي توّجت باكتشـاف نيوفاوندلاند Newfoundland. كان الولد، مثل سـائر البريسـتوليين، فخوراً جداً بمكان مولده؛ فخراً أقل بآثار المدينة العريقة وإنجازاتها السـابقة منه بحيويتها الدائمة.

إن كان قصور تقدمه في المدرسـة الإعدادية التابعة لكلية كليفتون سـبباً بعدم رضا الإدارة أو والديه، فإنه لم يكن نفس سـبب فشـل أخيه جورج، الذي كان خاملاً جسدياً وذهنياً. لم يكن من السـهل تقييد عقل وليَمسـون الابن الضجور إلى كتب المدرسـة. كانـت أفـكاره تجول باسـتمرار إلى مـا وراء جدران الصـف، سـعياً وراء المغامرة في

البر والبحر تحت سماء صفاؤها سرمدي. كان العديد من الفتيان في بداية المراهقة يتخيّلون مستقبلهم الخاص، أما هو فكان عنده تطلّع غامض للحياة في الهواء الطلق.

كانت وجهة نظر وليَمسون الأب عن ولديه كليهما سيئة، ولم تكن بلا مبرّر لو أن الحكم اعتمد على التقارير المدرسية فحسب. كان بحاجة إلى أقل من ذلك بكثير لإثارة «سخطه القويم»، أو ما يسمّيه القساة طبعه السيء. «مضيعة بحتة للمال الجيد على زوج من المتشردين الميؤوس منهما». كان ذلك رأيه الذي عبّر عنه بشكل مستمر حول الرسوم المنفقة على التعليم. إن التوبيخ والاستنكار الغاضبين، غير المبرّرين دائماً، قد أدّيا إلى النتيجة الحتمية. لقد كرهه الولدان كلاهما. أصبح جورج جباناً وصار يتصنّع الاحترام بتجهّم، بينما تمرّد وليَم وهرب مرتين من البيت قبل أن يبلغ الثانية عشر من عمره. كان يُمسَك في كل مرة ويعاد إلى بيته. لم يسفر الجَلْد الشديد المبرّح اللاحق من الطاغية المنزلي لغرس الانضباط فيه، لكنه جعله أكثر تصميماً على الفرار من تحت السقف الأبوي.

أخذ الهارب ينظر باهتمام متزايد إلى السفن الضخمة. وتبلور ضجره إلى حافز غامر بأن يتلمس خشب السفينة الصلب بقدميه. إن كون والده قبطاناً متقاعداً لم يكن له تأثير كبير على رغبته الجديدة هذه. لقد قدّم له البحر الطريق الأزرق إلى الحرية. بدأ صبر وليَمون الأب ينفد من كثرة إلحاحه. فهو نفسه قد رأى ما يكفي من البحر. وبرأيه أن الولدين كليهما سيكونان بوضع أفضل بالعمل في مكتب بعد ترك المدرسة.

كان أحد إخوة ريتشارد – العم ديك Dick بالنسبة للأولاد - كبير المدراء التنفيذيين في شركة تملك سفينة لنقل الشاي وبواخر أخرى. من الواضح أنه كان لديه تعاطف خفي مع وليَمسون الابن المندفع، لكنه وافق على أن الصبي سيكون بوضع أفضل بعمله على الشاطئ. غير أنه بعد أن أعيد الولد الهائم إلى حظيرته للمرة الثانية، قدّم النصيحة التالية: «أرسله إلى البحر، دعه يذق الخشونة لفترة من الوقت. سرعان ما سيتعب، برأيي، عندئذ سيستقر على الشاطئ دون أيّ ندم».

مضت عدة أسابيع قبل أن يُتخذ القرار. كان هناك الكثير من المقال الذي صبّ في

صالح الاقتراح. لقد أصبح الولد صعب المراس وسيء الخلق في المدرسة والبيت. إن رحلة في البحر ستروّضه بكل تأكيد.

ابتهج وليَمسون الابن وسُرّ سروراً عظيماً بالأفق الذي فُتح له آنذاك، وعاش في دوّامة من الترقب المثير خلال فترة التحضير من أجل تدريبه المهني. ترك البيت دون ندم جدّي ووجد متعة في أول مذاق له للحياة كملمّع للنحاس على متن سفينة آفوندريا *Avondrea* رباعية الصواري، المغادرة إلى استراليا. قال الأب عند الفراق: «آمل يا بني، أن يؤدّي المبلغ الذي يجب علي أن أدفعه قسطاً لتدريبك، إلى محصّلة أفضل من تلك النفقات التي أهدرت على تعليمك».

لقد كان شتاء عام 1885، وكان الصبي وليَمسون في الثالثة عشرة من عمره. كان يوماً مشهوداً عندما انعطفت السفينة خارج رصيف بريستول وهي تُسحب خلال النهر المألوف، ورأى بكل رضا الساحل الإنكليزي وهو ينحسر في التديم الرقيق. لم يكن على الأرجح ليهتم لو علم أنه لن يرى شواطئ إنكلترا ثانية. بأشرعة ممتلئة بالرياح الأطلسية، مخرت السفينة عباب البحر بثبات باتجاه الجنوب على الدرب الطويل إلى الطرف البعيد من العالم.

كانت تلك أيام تناوب أربع ساعات عمل وأربع للاستراحة في المناوبات البحرية - وعمل أربع وعشرين ساعة لو تطلبت الأحوال ذلك. ليس هناك أجر للوقت الإضافي أيضاً. ولقد تم وضع المتدرّب الجديد في نوبة وكيل القبطان، الذي كان من المدرسة القديمة الذين اعتبر أصحابها أن واجبهم للمتدربين يكون قد أُدّي بإخلاص بتبنّيهم دور المؤدب بدلاً من المرشد. لحسن الطالع، بذل آخرون جهداً خاصاً لتعليم الصبي تلك الإنجازات التي من أجلها ومن أجل أمور أخرى تم دفع القسط. كان الوكيل الثاني يدرّبه على فن العقد والجدل، وكان يسمح له بين الفينة والأخرى بأخذ دور على عجلة القيادة تحت الإشراف. وانبرى يلتقط نبذاً من المعرفة من الطاقم فيما يتعلق بالحبال والأشرعة.

بعد عدّة أيام من الخروج من بريستول، أمره ضابط السفينة بتلميع التركيبات

النحاسية. كان الصبي - حتى ذلك الحين - قد تجنّب تلك المهمة المملة. كان لاستجابته الأثر المذهل مثل طلب أوليفر تويست «للمزيد»: «انظر، أنا لم آتِ إلى البحر لأكون خادم منزل». كبح الضابط نفسه عن الرفس. من الممكن أن يكون لرفسة سريعة ارتداد وخيم في وقت لاحق، فالولد ذو قرابة من المدير العام على الشاطئ.

لمّا وجده متعنتاً، رفع الضابط تقريره إلى الوكيل الأول بعواقب أسوأ من ضربة معجلة بحذاء البحر. «اذهب إلى أعلى الصاري، وليّمون»، أمر الوكيل الأول، «وابقَ هناك حتى يؤذن لك بالنزول».

من بين كل الأوصاف عن الأيام السالفة الجميلة في مخر البحار، كان الحَجْر في أعلى الصاري وسيلة فعالة في ترويض المتدرّب الحرون. بقاؤه في أعلى الصاري المتمايل في الطقس الأطلسي اللاذع البرودة كان له أثره في تحطيم معنوياته التي انحسرت متدنّية بشكل غير سوي. تبوأ موقعه الذي لا يحسد عليه في الصباح الباكر ولم يُسمح له بالنزول حتى آخر المساء، ولم يُعط الوقت الكافي ليلبس معطفاً واقياً، فصار نصف متجمّد قبل الغروب بكثير. لقد شلّ تعرضه للقرس الشتوي أعضاءه لدرجة أنه لم يكن قادراً على الحركة حينما انتهت العقوبة، واضطر البحارة إلى إعداد كرسي خاص حتى أنزلوه إلى ظهر السفينة. اعتبر الوكيل الأول الحادثة مناسبة للتحذير من أن أي تمرد إضافي سيستوجب «جرعة أخرى». تبين أن الجرعة الأولى لم تكن فعالة بما فيه الكفاية كالمعتاد، بالكلمات الثلاث التي استطاع المتدرب قولها من بين أسنانه المصطكة: «لا تلميع للنحاس سيدي».

هبّت عاصفة هوجاء في خليج بيسكاي Biscay، وشقت السفينة طريقها بأشرعة مخفضة، مرتعدة تحت وطأة أمواج عملاقة تكسرت إلى رغوة على سطح المركب. كانت محنة للبحارة المتمرسين، وجحيماً على السفينة لصبي غض العود ابن ثلاثة عشر ربيعاً قد غادر موطنه للتو. لكن كل ميل أُحرز بشق الأنفس كان يأخذه بعيداً عن موطنه الذي ارتبط بالكثير من التعاسة. تقبّل العمل الشاق والمنهك والأحوال الخطرة بأسلوب فلسفي مما أكسبه الإعجاب الخفي من الضباط والرجال على السواء. لم

يكــن يتشــكى إلا ضد ما اعتبــره عمل خادم المنزل، وهو وحده مــن الصبية الأربعة في الطاقــم لــم يُطلب منه أبداً تنظيف النحاس طوال الرحلــة. وحتى لا يكون هناك أي أثر مــن التميز، أخــذ الوكيل الأول يــستنبط له المهمات القاسـية مقابـل الامتياز المريب الذي أُحرز بصعوبة.

لقد بدا واضحاً مع تقدم الرحلة أن وليَمســون اليافع لم يكن يــستمتع بالتــساهل من القبطــان لويــد Lloyd أو أيّ مــن الضبــاط نظراً لقرابتــه على الشــاطئ. وبالعكس، كان الربّــان والوكيــل الأول أقســى في معاملتــه من تعاملهما مــع الصبيان الأكبر ســناً. ثقته بنفســـه وصراحته كدرّت بشــكل خاص المتــدرب المتقدم جو بَــكل Joe Buckle. كان بَكل Buckle فتى صلب القبضة، وبتقديره كان طائر القطرس بالمقارنة مع فرخ النورس الــذي خرج لتوّه خــرج من العش. كان من الطبيعي أن يتوقــع احتراماً لائقاً، وعندما لا يكون هذا الاحترام وشيك الحلول، يتحرّك ليطبع ذلك بنمط شبيه بسـلوك البحارة.

كان الضبــاط يغضّون الطرف، فلم يتدخل أحد. كانوا يــستمتعون بمشــاهدة العراك الــذي كان ينشــب كل مســاء تقريباً، لقد كانت التســلية من أي نوع فــي البحر ضرباً من ضروب الرفاهية. الشــيء الوحيــد الرتيب في الأحداث هو أن وليَمســون الصغير كان دائماً الطرف المتلقي للعقاب. وانطلاقاً من مبدأ أن تعطي أكثر من أن تأخذ أكثر بركة، كال بَكل Buckle ضربات الوكز واللكز واللكم من الأســفل إلى الأعلى بســخاء. كونه أطــول وأقــوى وأضلع في فــن القبضات، لم يجد أي صــعوبة بترســيخ نفســه كمقاتل، ولكن دون أن يطبع الاحترام الذي اعتقد أنه يــستحقه.

حينما عبرت أفوندريا خط الاســتواء مصحوبة بالمراسم التقليدية الخشنة، نادراً ما كان الطاقــم يلحــظ المتــدرب الأصغر بدون زخرفــة: عين ســوداء وأذن ثخينة أو أنف منتفــخ. ورغــم ميلهم الطبيعي لدعم الضحيــة فهم لم يحرّكوا أبداً إصبعــاً للدفاع عنه. كانوا يعتبرون إقدامه بديهياً - لا يقدم صبي على مهنة على المراكب دون أن يكون لديه نصيــب رجل من الجســارة - ويعتقدون أن الضــرب الدوري كان معالجة تقنــية جيدة لأيّ ولد انضم حديثاً إلى التدريب. هذه المعالجة جيدة خصوصاً في حالة ملاح ناشئ

أخرق ميّال لأن يكون وقحاً وهائجاً.

لو أن المعاملة الخشنة كانت مفيدة للنفس الإنسانية، لكان للصبي وليَمون سبب وافٍ بأن يكون ممتناً لكل زملائه الملاحين. ولو أنه احتج ضد رفسة أو ضربة غير مستحقة، كان عُرضة لأن يقال له: «آه، ستساعد في أن تجعل منك رجلاً». ثقة زائدة بالنفس، كان يمكنه أن يتدبر أمره بفرح دون المساعدة الممنوحة بحرية زائدة. ولو أن شبحاً ودوداً ارتقى سطح المركب مع المجلس الاستواني للملك نبتون Neptune ومنحه فرصة تحقيق أمنية واحدة بطرق سحرية، لوجد الولد صعوبة بتحديد أي عضو من الطاقم أكثر ما يودّ أن يراه متدلياً من عارضة الشراع. ربما الربّان أو الوكيل الأول. ولكن ليس أصحاب القبضات الخشبية الصلبة المسؤولة عن التغييرات والزخرفات لملامح وليَمون. لأن وليَمون الصغير ما كان ليتنازل عن حقه بالتعامل شخصياً مع جو بَكل Joe Buckle وفق قانون القبضة «عين سوداء مقابل عين سوداء، وسنّ مخلخل مقابل سنّ مخلخل».

في الأسابيع الأولى، بينما كانت ساقاه تعتادان البحر، كان لحماً طرياً بالنسبة للرفاق الكبار. في عراكه الدوري مع بَكل Buckle وأحياناً في الشجار مع ملمّعي النحاس الآخرين، كان في كل المناسبات في وضع غير ملائم. كان يطلب المتاعب ويحصل عليها. ولكن بالرغم من كونه استفزازياً بدون شك، لم يكن لبَكل Buckle العذر الكبير لاستخدامه المستمر لوليَمون كلوح خشبي للتقطيع. وأقل عذراً أن يباشر الاستشاد المنهجي في حين أنه كان مطمئناً أن بمقدوره فعل ذلك بحصانة شبه تامة. كان دائماً يستاء من الظلم بشدّة، لذلك كرهه وليَمون الصغير ولم يضيّع أي فرصة لتعلم كل حيلة في لعبة القتال من أي زميل ملاح يرغب بإعطاء النصيحة.

بينما ربضت السفينة في حالة ركود ونفدت المؤن الطازجة شرع الطاقم، كما هو مألوف، بحمية من «لحم خيل مملح وخبز مقدد». قبل ذلك، منح الطعام الأفضل والعمل الجسدي في الهواء الطلق الصبي جلَداً وفُتلت عضلاته. أخذت إعاقته في الملاكمة تتناقص بشكل تدريجي، لأنه بشكل رئيسي قد استوعب الدروس من

التجارب المريرة، وبدأ بتطبيق تلك الأساليب التي تعلمها من الملاكمين في الطاقم. في النهاية، أتى اليوم الاحتفالي الذي أصبح فيه المانح، وبَكل Buckle غدا المتلقي. صبي صغير نحيل ولكنه قوي بوجه متورّد وقبضات معقودة، وقف إلى الخلف أمام الحشد المعجب من الملاحين المحنّكين الذين أخذوا يراقبون بسعادة الشكل الخائر للمتدرب المتقدم، الذي تم في هذه المرة تغيير معالم وجهه وزخرفته ببراعة فنية نادرة من القبضات. عناد مثل كلب البولدوغ جعله متماسكاً لأجل مهمّة حدّدها لنفسه خلال سلسلة طويلة من الضرب الشديد. الانتصار على عدو على ظهر السفينة كان مكافأة الإصرار، ولكن المعرفة القتالية المكتسبة في هذه الرحلة الأولى له لم تقوِّ شخصيته فحسب من خلال الثقة التي غُرست فيه، بل كان لها عميق الأثر على مستقبله المهني.

كم من الأحيان يمكن لحادث ثانوي أو ملاحظة عابرة أن تغيّر مجرى الحياة بالكامل. بضعة كلمات طائشة، لم تُقصد بها أذناه أبداً، كانت السبب المباشر للصبي ولِيَمسون أن يتخذ قراراً أفضى به إلى حياة الترحال المفعمة بالمغامرة والتي انتهت بسلام نسبي في بستان نخيل في العراق. فرَّغت السفينة حمولتها في سيدني ونيوكاسل - نيو ساوث ويلز، وغادرت بحمولة من الفحم الحجري متوجهة إلى سان دييغو - كاليفورنيا. في صباح بهيّ لأحد الأيام قبالة الساحل الأسترالي، كان الغلام مشغولاً بدلو من السّوجي[1] Soogee في ظل حجرة السفينة عندما توقف الوكيل الأول ليتحدث مع الوكيل الثاني في الجانب مع اتجاه الريح. لم يلحظ أي منهما المتدرب القريب إليهما، وبعد عدّة ملاحظات عامة علّق الوكيل الثاني تعليقاً جعل الصبي ينصت صاغياً.

قال: «يبدو أنك والمعلم قد أثقلتما على الفتى ولِيَمسون، لماذا لا تدعانه وشأنه؟ برأيي هو أفطن المتدربين وأكثرهم ذكاء من بين الذين مرّوا على هذه السفينة قاطبة».

«نعم، إنه ليس بالولد السيئ»، أقرّ الوكيل الأول، «ولكن ذلك كله في مصلحته. سوف يكون هناك عمل على الشاطئ ينتظره عندما نعود إلى بريستول. لا يرغب أبوه

(1) مركّب كيميائي يستخدمه البحّارة لتنظيف الخشب والدّهان على سطح السفينة.

ولا عمّه بأن يلتزم بمهنة على البحر. التعليمات هي أن نجعله يضطرب ويملّ حتى يكون سعيداً بالاستقرار في وظيفة على الشاطئ».

لم يُلقِ الصبي بالاً للملاحظات الإضافية، فقد أُعطي زاداً كافياً لأفكاره يكفيه بقية الرحلة. ورغم أنه الأصغر، فقد كان في كثير من الأحيان يُعطى أخشن المهام وأقذرها، حتى إن بعضاً منها كانت تقريباً فوق طاقته الفجة. لقد تمّ وضعه في أعلى الصاري وجلده بأطراف الحبال. تقبّل بعضاً من المعاملات الجلفة بشكل فلسفي عندما كان يستهين بالسلطة بسلوك مشاكس. ولكن المقدار الكبير من العقوبات غير المستحقة تركته حيران ناقماً. لقد عرف السبب الآن، وكان مصدوماً بالظلم والإجحاف في كل الأمور.

اعتبر الوكيل الثاني صديقه الأوحد. أما الوكيل الأول فكان البلاء الأعظم، وتعمّق كرهه له إلى بغض وضغينة. بينما ظهر وليَمسون الأب في رؤية جديدة وحتى أقل تفضيلاً. لقد امتدّ تأثير طغيانه من منزله في بريستول إلى ما وراء المحيط. مهما كانت الفكرة التي كان يعلل بها نفسه بإتمام الرحلة واتخاذ مهنة البحر، فقد ذهبت الآن أدراج الرياح. شعر بالمرارة من ازدواجية أبيه، وفقد احترامه للعم ديك الشريك في المؤامرة التي زادت من مشقة الحياة على ظهر السفينة.

كان من الممكن، لو أعطي فرصة عادلة، ألا يتخذ الفتى وليَمسون القرار المبرم الذي اتخذه قبل رسوّ السفينة في سان دييغو. لقد عانى الكثير دون تذمّر، وربما تحمّل عنت حياة البحر لفترة أطول من ذلك، لولا أنه سمع مصادفةً الحديث الذي سبب إدراكه الحتمي لظلم وإجحاف أهله ومن أحاط به. لم تكن كل الرحلة بأسرها عملاً ومشقة. كانت هناك فترات ارتقت فيها روحه بالأهازيج التي ينشدها البحارة عند رافعة المرساة أو على الحبال؛ بتحدي السفينة للعواصف الجبارة؛ بجمال الأشرعة البيضاء؛ بالمياه الزرقاء المتلألئة؛ بالسرب اللؤلؤي من السمك الطائر من الأمواج المتقوّسة المزبدة في منطقة الرياح التجارية؛ وبالطيران الرشيق لطائر القطرس فوق مؤخرة السفينة البارزة في البحار الجنوبية. لقد كان في الحقيقة صبياً أكثر عاطفة مما تخيل

أولياؤه، يميل إلى التفكر الهادئ بالله وعجائب الكون كلما تعقب خيط الصيد على أثر السفينة في الماء، أو استلقى على الأرجوحة الشبكية فاتحاً عينيه في أعلى مقدّم المركب قبل أن يمحو النوم ذكريات الألم والمتعة.

لكن مهما احتوى البحر من فتنة له، كان يغمره الإحساس بالظلم الذي اعتلج في صدره منذ أن سمع مصادفةً المحادثة بين الضابطين. لم يشعر أبداً بآلام الحنين إلى الوطن التي كان يعاني منها كثير من الأولاد في سن الغضاضة ممّن أُرسلوا للتدريب على السفن المبحرة. ومع مرور الأيام في البحر، فقدت بريستول الإغراء القليل الذي كانت تبديه له. لقد كان عازماً على أن لا يقع تحت هيمنة أبيه ثانية.

تسارعت أفكاره في مقدمة السفينة فوق الأفق إلى شواطئ أميركا، وطافت باهتياج في الأرض الجديدة من الحرية والفرص المليئة بالمغامرة. تمّ أخذ القرار، ولم يسرّه لأحد. عندما ترسو أفوندريا في سان دييغو كان سيفعل ما يسمّيه البحارة «قفزة الرصيف البحري» ويبقى بعيداً عن الرّصيف المائي حتى تبحر ثانية.

كان ما شعر به من جزع طفيف ذا علاقة بحاجته لمال يمدّه في أيامه الحرجة الأولى. كان من المفترض أن يتلقى المتدرب في الشركة باونداً واحداً في العام. كان قسط من هذا المبلغ الذي لا يُعدّ سخياً يُصرف وفق تقدير ربان السفينة. كان القبطان حصيفاً بشكل استثنائي حتى تلك اللحظة. لغاية الآن، تلقى الفتى وليَمسون شلنين أو ثلاثة شلنات، وتابع بنهجه أفضل السلوك كلما كانوا يقتربون من ساحل كاليفورنيا لتجنب إعطائه العذر بخفض مخصصاته الضئيلة. كان قليل من المتاع جوهرياً في خطة هروبه من السفينة.

* * *

الفصل الثاني

بلوغ اليابسة في كاليفورنيا

لدى وصول أفوندريا إلى سان دييغو، كان هناك التلهّف المعتاد للتنزه على الشاطئ. كان لابدّ من إنجاز مقدار من العمل من قِبل جميع البحارة قبل منح إذن المغادرة بالتناوب، وحكماً غادر بعض الأفراد المبادرين من الطاقم دون إذن ما إن شُدّت حبال السفينة ورست بمحاذاة الرصيف. كبح وليَمون الفتي نفاد صبره. في النهاية تمّ استدعاؤه مع المتدرّب المتقدم إلى حجرة القبطان لويد الذي أعطى كل واحد منهما دولارين وكرّر نصيحته المألوفة بعدم إضاعة الأموال على الخمر والنساء. لم يكن التحذير ضرورياً فيما يهمّ الولد الصغير. كان الدولاران بالكاد كافيين للغرض الذي كان في ذهنه، وليس هناك نيكل واحد يمكن أن يستغني عنه لحياة البذخ في الملاهي الحقيرة.

ما إن حطّت قدماه على الشاطئ لم يعد هناك حاجة لذريعة ليتخلص من المتدرب المتقدّم، الذي كان من الواضح أنه يفضل أن يجوس بمفرده بحثاً عن الجعة والحانات. بكل امتنان استراح من صحبته، ثم قطع وليَمون من المسافات بقدر ما استطاعت أعضاؤه الفتية وقدرته على التحمّل أن تعينه على ذلك. وقد أكسبته بضع أعمال عرضية في مستوطنات بعيدة عن الساحل مأوىً وطعاماً مجانياً، وساعدته على الحفاظ على نقود جيبه. عندئذٍ أخذ يرتحل تدريجياً مشياً على الأقدام باتجاه الشمال، حتى حطّ رحاله في مزرعة صغيرة على بعد عدة أميال من لوس أنجلِس.

كان المكان ملكاً لمستوطن إيطالي، زرع بطيخاً ومنتجات أخرى لتسويقها في

المدينة. لقد ثبت أنها كانت ملاذاً مفيداً، إذ مكّنته من تحديد موضعه ووجهته في البلاد الجديدة. رحّب به المدير وسنحت الفرصة بالحصول على عمالة رخيصة إضافية. كان الفارّون من السفن في الموانئ الجنوبية من كاليفورنيا قد زوّدوا المكان بالرجال وجعلوه مربحاً. كان هناك اثنان أو ثلاثة متدربين سابقين فيما بينهم، فوجد الصبي صحبة متعاطفة ومناسبة. بقي هناك برهة من الزمن بعد أن أبحرت أڤوندريا. في بادئ الأمر أعطي عمل تقطيع الأخشاب إلى قطع متساوية ثم تكديسها وفق قياساتها. كانت الأجرة أقل من المعدّل المعتاد، ولكن كانت وجبات جيدة تقدم والإقامة في بيت العمال. بالتزامه بالعمل وممارسة ضبط النفس في سفراته النادرة إلى لوس أنجلِس، جمع تدريجياً رأس مال بسيط ثم استثمر جزءاً من ادخاره في بندقية مستعملة.

تم اقتناء هذا السلاح المُعتبَر لدى بلوغه سن النضوج في الرابعة عشرة والنصف من عمره. ولقد حَكَمَ القدر أنه في السنوات القادمة سيحتاج إلى الصحبة الدائمة لأسلحة ناريّة أشدّ فتكاً وذلك لأغراض مفعمة بالمغامرة التي لا نهاية لها، دون أن يستردّ أبداً الإثارة من تملك تلك البندقية القصيرة التي اشتراها من المكسيكي الهجين الذي كان في حاجة عارضة لبضع دولارات. قام الصبي بتنظيف تلك البندقية وتزيينها بعناية، فردّت جميل اهتمامه المحب بفتح أفق آخر من الحياة لصاحبها.

أخذ يجوب بقوة وحرية جديدتين في الأرياف في أوقات فراغه، لا يصطاد أكثر من الأرانب الأميركية وطيور الصيد المألوفة. كانت المكافأة المادية من أطايب الطعام المنوعة، ولكن التأثير النفسي كان أكثر أهمية في هذه المرحلة من تطوره. إن البندقية والتجوال الحرّ في براري كاليفورنيا قد أعطياه وعي البالغين في تباين واضح مع عقدة النقص الخانقة التي أحدثتها الحياة لصبي على متن سفينة. بثقة عظيمة في نفسه، أخذ يشعر بعدم الرّضا عن عمل تقطيع الأخشاب الوضيع الأجر في بلاد تقدم آلاف الفرص لرجال ذوي شجاعة وحنكة.

شاور الفتى وليَمون نفسه.. لقد حان الوقت للتقدم. كان عنده من المتاع ما قد يكفيه بقليل من الحرص لعدة أسابيع. ليس لحياة البلدات أيّة جاذبية لديه. ولم تكن

أكثر الذكريات الحيّة في ذهنه عن تلك الكاتدرائية والمحلات الطريفة والمساكن التي كان الغرباء يجدونها مثيرة للاهتمام، أو عن المسارح أو أماكن الترفيه الأخرى؛ بل عن التفاوت في الظروف المعيشية بين الفقير والغني في مدينة مزدهرة جداً تجارياً. تحليل لأسباب الفقر المنتشر في أوساط الكثيرين يمكن أن يبرهن أنه عقار مخدّر للعقل الحساس الذي كان يكوى بسخط حارق. الواقع أنّ ما رآه من ظلم اجتماعي في أوائل فترة صباه في إنكلترا أحدث فيه نُدبة مدى الحياة. لقد أحدث فيه كرهاً للمدن، وأخذ ذلك الكره شكلاً مبالغاً فيه لفترة بعد وصوله إلى كاليفورنيا.

لقد عزّز تعاطفه مع الطبقات المقهورة في العالم القديم المُثُل الاشتراكية التي احتفظ بها طوال سنوات قادمة دون أن يكون على توافق مع السياسة الاشتراكية. مع ذلك، كونه فتى يعشق الحرية وصاحب مبادرة - النوع الذي كان يزدريه الاشتراكيون المعاصرون لأجل الفردية - وجد متعة بالغة في أثير أميركا الحرّ. ولم يكن أبداً، بفضل من الله، مقدراً له أن يقاسي اليد البيروقراطية الخانقة للعمل الحرّ مثل الملايين من مواطنيه في حقبة لاحقة.

كان كل ما أراده الفتى وليَمسون بعد نجاته من الطغيان على ظهر السفينة هو أن يحيا حياته الخاصة من دون تدخلات غير مناسبة. حتى أنه وجد البلدة الممتعة لوس أنجِلِس مرهقة في زياراته القصيرة. لقد كانت بهجته في الهضاب والوديان والسماء الرحبة، وأصبح تقطيع الخشب مملاً كوسيلة لكسب الرزق بسبب رتابته. لم يشاطر أبداً المشردين في كراهيتهم للعمل الشاق. كان كل ما يبغيه هو تغير للمشهد والوظيفة، وأجر أفضل لتحقيق استقلالية أعظم.

بعد إعادة النظر بالأمر، تذكر شيئاً بثّ فيه الأمل من أجل تحسين أوضاعه. كانت فروع من عائلة وليَمسون في بريستول قد ضربت جذورها في عدة أنحاء مختلفة من العالم. تذكّر الصبي أن لديه أقاربَ في كندا والبرازيل وفرنسا، وواحدة - عمّة - قد تزوجت مزارعاً في كاليفورنيا. كان لقبها بعد الزواج هو هاورد، وقد أظهرت التحريات حقيقة أن هناك مكاناً يدعى مزرعة سويت ووتر Sweetwater لصاحبها السيد هاورد

على بعد نحو خمسين ميلاً من المزرعة الصغيرة الإيطالية. لم يكن يعلم إذا كان ذلك منزل عمّته أم لا، لكنه تخلى عن وظيفة تقطيع الأخشاب وتنزه عبر البلاد على أمل بعيد الاحتمال.

لقد حالفه حُسن الطالع، حيث ثبت أن السيدة هاورد هي فعلاً العمّة إيمي. لقد تذكرها بشكل غير واضح فهي التي كانت تمنّ عليه بكريمة الشوكولاتة في نعومة أظافره. كانت نفساً تقية، تؤمن بعودة المسيح المرتقبة وأن السبت هو يوم العطلة، ورغم تفاجئها بزيارته فقد ضاهت الأب للابن المسرف في حرارة ترحيبها. لكن قصة ابن أخيها في القفز على الرصيف صدمتها، وتألّمت حقيقةً عندما علمت أنه عقد النية على عدم العودة إلى بيت أبيه. كانت وجهة نظرها حول طاعة الوالدين منكهة بالكنفوشية أكثر منها بالمسيحية، لكنها أصبحت أقل امتعاضاً لمّا وافق، على مضض، على اتباع نصيحتها والكتابة في بعض الأحيان إلى أهله.

كان المزارع نفسه يكره في قرارة نفسه وليَمسون الأب، وأبدى فهماً وتعاطفاً مع «ويل الصغير»، الذي بدا «ولداً ذا همة عالية وحسّ سليم». وبالطبع يجب على الصبي البقاء في مزرعة سويت ووتر، وللمدة التي تروق له.

كانت الأشهر التي تلت من بين أسعد الأيام التي قضاها في الولايات المتحدة. في البداية قام بالمهام الرتيبة واعتنى بحصان العربة وحصان صغير (بوني) كان يخص بنت هاورد الصغيرة. كان المزارع يدفع له بسخاء، وبعد أن وجده نبيهاً ومجدّاً، سرعان ما أناط به مهاماً ذات مسؤوليات أكبر.

كانت مزرعة سويت ووتر في كاليفورنيا تمثل الفردوس بالنسبة للصبي في تلك الأيام المشمسة، أياً كان التصوّر السعيد الذي تطور بعد بضع سنين نتيجة دراسة المثل الإسلامية. كان لديه كل ما يفضي إلى السعادة لولد له مثل طبعه: عمل شاق ملائم في الهواء الطلق، أفضل الطعام والكثير منه، مصاحبة عمّال المزرعة المرحين، عاطفة آل هاورد الذين كان يعيش معهم. اتسع منكباه واكتسب قوّة الرجال الناضجين، امتطى الخيول مع رعاة البقر، رعى الماشية، تعلم كيف يرمي الوهق ونام في كثير

الأحيان تحت نجوم كاليفورنيا مفترشاً العشب الجاف ومتوسداً سرجه. هنا في الغرب بدأ يتذوق طعم الحياة البدوية في الشرق. تختلف تلال كاليفورنيا اختلافاً كلياً عن الصّحارى العربية، ولكن رعاة البقر الأميركان والبدو العرب إخوة في الروح، وهناك شيء مشترك في نمط حياتهم.

كان جمع الماشية وسوقها من الإثارة بمكان وبكل تأكيد أكثر متعة من ركوب البحر في عاصفة هوجاء. وأصبح الفن الخطر في ترويض الخيول الأميركية الوحشية (البرنق bronco) يستقطب الكثيرين. ابتسم رئيس العمال أحد الأيام قائلاً: «هناك حصان يمكنك محاولة الركوب عليه يا بيلي». «أراهنك بأربع قطع أنك لن تبقى عليه أكثر من دقيقة». كان الصبي يلحف في أن يُسمح له بركوب فرس صغير. كان يقينه بقدراته في حرز منيع، ولو كان يُحكم على المتبارين في بطولة الروديو بمجرّد مدى ثقتهم بأنفسهم لكان من الممكن أن يكون بطل رعاة البقر للولايات الغربية. كان هذا الغرور الفتي في كثير من الأحيان مصدر تسلية لعمّال البقر، وكانوا يستطيبون مشاهدة بعض فصول التنفيس عن هذا العجب. ولكن واحداً أو اثنين لم يكفّا عن تحذيره عندما كان يمتطي بمرح الحصان البرّي الهائج الذي طوّقه رئيس العمال بالحبال.

حيّا صبي ذو بشرة حمراء في ذلك الوقت محنة رقصة الشمس الهمجية لضمان انضمامه لجماعة الشجعان. وبشكل مشابه، رحّب وليَمسون الفتي بامتطاء قاسٍ لإثبات لياقته البدنية كي يُشمل في زمرة رعاة البقر. ولكن الفرق كان في أنه لم يتوقع أي محنة مؤلمة، ذلك أنه ألمّ - حسب ظنّه - بكل الخبرات الضرورية لإخضاع الخيول الجامحة.

مازال هناك أشياء عليه أن يتعلمها. إن برنقاً غير مروض، وعازماً على ألا يُمتطى، يمكن أن يكون نوعاً ما أقل سلامة من اللعب بمتفجرات الديناميت لناشئ صغير غضّ العود يريد أن يبرهن حلول رجولته.

عندما حُرّر الحصان، اكتشف الفتى وليَمسون أمراً ليس بغير شائع بين الأغرار. لم يكن ذلك الشيء مكوّناً من لحم خيول على الإطلاق. لقد كان آلة مجهزة في الداخل

بنوابـض فولاذيـة تعمـل بقوة صاروخيـة، وتندفع بانـدلاع مميت. لم يرَ المشـاهدون الجاثمـون على سـياج المربض وهم يمضغون التبغ سـوى برنقاً وحشـياً ينطلق بعيداً كالبرق ويؤدي المآثر المألوفة من شبطنة الخيول. لقد رأوا الممتطي الصغير يشدّ على الخواصر السـوداء النحيلة بركبتيه، ممسـكاً باللجام بيد وملوحـاً بقبعته بالأخرى على طريقة رعاة البقر التقليدية. لو أن شـهقة الهتاف الوحيد كانت من أجل تشـجيع البرنق، لمـا لزمـت أبـداً، ذلك أن الحصـان لم يكن بحاجـة إلى نخس وهمز أكثـر من ملاوي Malay اندفع مسعوراً عازماً على سفك الدماء. رفس ودار وتمعج وتلوى ثم قفز عالياً بظهر مقوّس.. فعل كل شـيء تقريباً ما عدا الشـقلبة في الهواء. في غضون عشـر ثوانٍ كان الفتى يتشـبث بيديه كليهما وقد جمدت عيناه، وأخذ العرق يتصبب من كل مسـام جسمه، والغرور يتبخر على نحو سريع.

هناك أوقات في التجربة الإنسـانية النكدة عندما يمكن لدقيقة واحدة أن تبدو أبدية؛ كانت تلك واحدة منها. لقد بدا الوقت طويلاً بشـكل مفرط للنقاد القابعين على السـور الذين توقعوا نهاية سـريعة للمشهد. سُـمع رئيـس العمال وهو يغمغم: «بحق المسـيح! سـيقتل الولد!» هو نفسـه مروض متمرّس لأحصنة البرنق ذاتهـا، كان لديه فكرة واعية عمـا يعانـي منـه الفتى. ولكـن بحسّ من التوازن مشـحوذ بالدربة على سـطح السـفن فـي عواصـف المحيطـات الهوجاء، صمد الصبي أمـام عاصفة البرنق بعد أن تشـوّش ذهنه وشـعر بالعري من عظامه ونسـجه. عندئذٍ، ارتمى على الأرض مترهلاً مثل كيس الحبوب فالتف الحصان الشـقي حول نفسـه ومشـقه رفسة نحو رأسـه أخطأته بعرض الأصبع.

تـم تطويق البرنق بالحبال وسـاعدوا وليَمسـون على الوقوف على قدميه، لا شـيء أسوأ من كدمات هنا وهناك. كان مغموماً مما اعتبره إخفاقاً، ولكن روحه التي لا تخمد سرعان ما أكّدت نفسـها. فأعلن قائلاً: «سآخذ فرصة أخرى على ذلك الكييوس (بوني أميركـي هندي cayuse)». أعطاه رئيس عمـال المزرعة نصف دولار وربت على ظهره قائلاً: «لن تفعل!».

عمـل لبعض الوقت كراعٍ للبقر، لكن مزرعة سـويت ووتر لـم تمثل له أبداً أكثر من مـلاذ مؤقـت. كانت عمّته الورعة تجد السّـلوان في حقيقة أنه لم يكـن يبدّد أجره على حفلات السـكر والعربدة الشـهرية في البلدة، مثل معظم العمـال. غير أن هذا القيد لم يكن نتيجة فضيلة فطرية أكثر من عزيمته على توفير مال كافٍ للسعي وراء قدره بعيداً. لقد كان سـعيداً لكنه غير مستقر. كانت الجبال تلوح له عن بعد، فرحّب بالتحدي طلباً للمغامرة في البراري العذراء.

كانـت تلـك الحقبة قبل زمـن طويل بدّل فيهـا جرّاحون تجميليـون أمثال صامويل غولدويـن وهنري فورد وجه أميركا. لم يكن لاسـم المكان «هوليوود» أي مغزى. لم تكن الثروات تجنى من وراء الوجوه الجذابة في التصوير، ولكن في التلال والجداول. إن رجلاً يبغي الذهاب إلى حيث الحصول على الذهب لديه الخيارات الصعبة الثلاثة في وسائل المواصلات: عربة المسـافرين، ظهر الحصان، أو على قدميه. ورحلة يمكن أن تحققها الآن طائرة عصرية في سـاعة ربما كانت تسـتغرق المسـافر آنئذٍ عدة أيام، مع احتمال أن يقع في كمين ويُسلب على الدرب.

كان للشـائعات حـول اكتشـاف الذهـب التأثيـر ذاتـه على نفس وليَمـون كسـائر الأشخاص المغامرين. ولـم يلجم اهتمامه وتشوقه عن الذهاب إلى أعالي البلاد سوى جمع المال اللازم لشـراء كيـوس (حصان صغير) وبغل لحمـل المتاع والعدّة اللازمة للتنقيب. وبعد أن استثمر إلى هذا الحد، أصبـح لديه من المال ما يكفي للمجازفة في المشـروع. تمنّـى له أصدقـاؤه، عائلة هاورد، الحـظ الجيد في حيـن أعربوا عن عميق أسفهم على قراره بمغادرة المزرعة. أضافت عمّته نصيحة دينية حصيفة وتمنّت عليه أن يسـتمر بالكتابة علـى فترات متقطعة إلى أهله في بريسـتول. وعدهـا بالحفاظ على الصلة مع الوطن، وأثبت الوفاء بهذا الوعد، مع مرور الوقت، على أنه خبز يرمى به إلى المياه ليعود بعد حين مغطى بالمربى.

بدا مشـروع التنقيـب من بدايته شـبه مشـؤوم. لقد وافق شـاب يدعى جيم كوك Jim Cook، وكان مسـتخدماً فـي مزرعة أخرى، على الذهاب معـه، واتبع كلاهما الدروب

القديمة بمعنويات عالية. كان كوك شخصاً نحيلاً ضامراً، هاجر مرحاً سعيداً إلى الولايات المتحدة من بريستول، وكان هناك كثير من الأمور المشتركة بين الاثنين إضافة إلى رابطة كونهما أبناء بلدة واحدة. لكن بالرغم من وجوده في أميركا لمدة أطول فإنه مازال ساذجاً أكثر بكثير من وليَمسون، الذي تحلى بطبيعة أكثر قابلية للتأقلم. كان تقدّمهما على استرخاء. في البداية مالا باتجاه المزارع الكبيرة والصغيرة وبكل تأكيد كانوا يجزلون لهما حسن الضيافة. كان الأمر بالنسبة لوليَمسون مذاقاً مسبقاً من كرم الضيافة الذي كان مقدّراً له أن يستمتع به في تجوله اللاحق بين العرب. لم يعزف أي منهما عن القيام بأعمال عرضية أثناء المسير. كانت الأجور عالية في مزارع كاليفورنيا: ستون دولاراً شهرياً، والعمل متوفر بشكل دائم، إضافة إلى علاوة جيدة في وقت الحصاد ومواسم قطف الثمار. تعلم الفتى وليَمسون في مزرعة هاورد كيف يدير محركاً بخارياً صغيراً، وفي إحدى المناسبات عمل بشكل مؤقت كمهندس بأجر قدره أربعة دولارات ونصف في اليوم، بينما كان كوك يكسب أقل من ذلك بقليل فقط كسائق شاحنة. كان أفضل الطعام يقدّم في هذه المزرعة، ولكن العمال النظاميين أضربوا عن العمل لعدم تقديم الزبدة مع كل وجبة. كان هناك دائماً الخيار بين ثلاث أنواع من الخبز: خبز الذرة، اللفائف الساخنة، والخبز العادي، بالإضافة إلى الفواكه الطازجة المطهوة، ويمكن للعامل الحصول على كعكة الحنطة السوداء مع شراب القيقب المركز كما يهوى دون قيد، وفوق ذلك الأجرة الوفيرة من ناحية أخرى. ودائماً أيضاً، ويسكي الجاودار ونبيذ التفاح متوفران مجاناً لمن كان مُبتلى بشرب الكحول.

بعد هذا الفاصل، اتفق الشريكان على تجنّب الحياة الرغيدة بكل تأكيد، كما أخذا يعتبرانها، وحشدا كل طاقاتهما لغرض كسب أرباح طائلة في صحراء نيفادا العامرة بالذهب. اتبعا ثانية الأثر إلى سفوح التلال، متناوبين بالركوب على حصان الكيوس في النهار والتخييم في العراء ليلاً. ولم يكن لقصص الخارجين عن القانون والسطو المسلح على عربات المسافرين أي معنى لهما أكثر من مآثر بوفالو بيل Buffalo Bill الخيالية.

كان الأغـرار في الغـرب يتعلمون عادة بالطريقـة الصعبة، بالتجربة، بـدلاً من إتباع نصائح الكبار، وأثبتت الشـركة الفتية بين وليَمســون وكوك أنها ليســت اسـتثناءً. كانت الإجـراءات الاحترازيـة بسـيطة جـداً كمـا لو أنهـا عملياً غيـر موجودة. فكانـا يعقلان الحصـان والبغل، ويخمدان جمر النار المشـعلة، ويخلعان نعالهما، ويلفّان معطفيـهما كوسـائد، ويجـرّان الأدثرة عليهما ثم يسـتغرقان في نـوم عميق بسـعادة. وفي صبيحة أحـد الأيـام استيقظا ليجـدا أن البغل قـد اختفى، وفقـدا نعالهما وتلاشـت النقود من جيوبهما. سـلبهما المتشـردون خلال الليل بنفس الخفة الصامتة للمخادعين الشرقيين *badmashes*. وعلى الأرجح يعود عدم أخذهم للكيبوس إلى مظهر الفرس الضعيف أكثر منه إلى اعتبار لهما.

بعـد هـذا الـدرس المرير اعتقد جيم كـوك أن الاحتمال بعيد جداً فـي أن يصلا إلى الشـاطئ بأمان وبحوزتهما أي ذهـب قد يحالفهما الحظ بالعثور عليه. كان يفضّل الأمن علـى مقامرة إضـافية، في رأيه، وخضـع لإغراء الأجور العالية في المزارع فقرّر العودة. إلا أن الفتـى وليَمســون ورغم النكســة التي لحقـت به صمّم على المضـي قدماً، وبعد نقاش ودّي، افترق الاثنان.

فـي اليـوم التالـي، وصــل الصبي إلى مســتوطنة حيـث تم اسـتفزازه إلى عـراك مع نصّـاب كان يعمل لدى مشـعوذ يبيع الأدوية السـحرية. في النتيجة، احتـاج النبّاح إلى فترة أسبوعين نقاهة، فعُرضـت فرصة العمل الشـاغر على الفتى وليَمـسـون. أجزل رجل الطبّ، وهو شخصـية نابضة بالحياة بلباس غربي باهظ وقبعة ضخمة، العطاء لوليَمســون من أجل خدماته الصوتية لدى زيارة المســتوطنات على سفوح التلال. لكن الصبي لم يرَ أي مسـتقبل في ذلك، وبعد أن أمّن قدراً كافياً من المال، ترك العمل وشق طريقه عبر سفوح التلال بدوره كمنقّب عن الذهب.

ارتبـط في الدرب بشـريكين اثنين، وقام الثلاثة باختراق صحـراء نيفادا وقد فرضوا لأنفســهم حقاً في الذهب ضمن حقل محـدّد. برهنت عملية الحفر والتنقيب على أنها حياة صعبة بين رجال جلاف قسـاة، جديرة بالاعتبار بشـكل رئيـسي من خلال الفرصة

التـي هيأتها لتنميـة براعته القتاليـة. لـم يكن الذهـب المكتشَـف بأي حال جديراً بالجهد والمعانـاة، ولـم يكن بمقدورهـم إخفاء ابتهاجهم إلا بصعوبة بالغة عندما عرض عليهم منقب مسـنّ ستمئة دولار مقابل الحق. كانوا أقل تهللاً لاحقاً لمّا علموا أن هذا الرجل، أثنـاء العمـل مع ولديه في الحقل الذي اشـتراه، حالفه الحظ واكتشـف فيـه الكثير من الذهب ليصبح فاحش الثراء.

منقبو الذهب "Forty-niners" إبان فورة الذهب في كاليفورنيا

أخذ كل من الشركاء مئتي دولار وذهب في حال سبيله. رحل الفتى وليَمسون بعيداً، وبالتنقيب المتقطع حصل على برهان إضافي لدحض مقولة فريسكو Frisco الشائعة «بأن عموم سلسلة سييرا Sierra الجبليّة مصنوعة من الذهب الخالص». ولم يعد معول التنقيب أكثر من مجرد عذر لاستكشاف بلاد عظيمة لا نظير لها. لم يكن الذهب ليجلب له سعادة أكبر من التي كان يستمدّها من مصروفه المتواضع على الدقيق والفاصوليا واللحم المقدد والقهوة الذي كان بحاجة لها ليقيم صلبه أثناء تجواله. وعندما كانت السعة للمتعة في أوجها في ربيع حياته، عاش أحدَ أحلامه مُذ كان صبياً في المدرسة في واقع رائع من خلال تطوافه بلا همّ وكدر في مرتفعات سييرا والسفوح الخضراء النضرة.

ربما كان الذهب مقياساً للعملات في العالم، ولكن ليس أبداً للذكريات المحفوظة في الأيام السعيدة من الشباب. ما يزال الحاج الهرم المتقاعد في كوت الحجّاج يتوهّج بالمتعة والسرور عندما يعود بذهنه ستين عاماً إلى التجوال في كاليفورنيا لما سمَّاه أيام صباه. كانت تلك الأيام في سييرا تمثل فرصة تم اغتنامها ولم يُتحسر عليها. لم يكن لوليَم وليَمسون أية مسؤوليات تقيّده عن اتباع ميوله، التي لا تنطوي بالضرورة على خلّة عدم تحمل المسؤولية في شخصه.

في سن سريع التأثر، وبالعيش قريباً من الطبيعة أثناء جولات مضنية خلال الجبال، وجد وقتاً لأفكار هادئة وتعلّم كيف يستمتع بصحبة نفسه. أضحت العدائية التي كان يؤكد بها اعتماده على نفسه بين عمّال البقر والمنقّبين في طور السبات، وحلّ محلها صفاء مثل الذي كان مقدّراً له أن يكتشفه بعد حين من الدهر في الصّحارى العربية. ساهمت تجربته في أقصى الغرب كثيراً في تهيئته للحياة في الشرق الأوسط، وهذه البرهة من الحرية دون قيد تحت شمس ونجوم السييرا زودته بزخم فياض بذكريات سارّة تكفيه مدى الحياة.

أعطاه العيش في العراء إحساساً بديعاً بالسعادة، كما أعطاه شذى الصنوبر شهية لم يتمكن من إشباعها إلا بصيد الطرائد. كان له اهتمامات متنوعة في الغابة، الوادي

والعقيق، والرفاهية في غليون الدخان إلى جانب نار المخيم المشتعلة بالقرب من جدول يتلألأ أو شلال. لقد رأى الأسد الأميركي (البوما) والذئب الأميركي (القيوط) والدبّ في مأواها الطبيعي، ووجد تسلية في السلوك العجيب للسنجاب الأميركي والسنجاب الرمادي والأحمر. مرة أو مرتين ارتدّ حصانه الكيوس فجأة لدى سماعه صلصلة خشنة للأفعى ذات الأجراس بعد أن عكّر مزاجها، لكنه لم يتعرض لأي أذى خلال الرحلة أكثر من التهاب نتيجة تعرضه لشجرة لبلاب سامة وللسعات نمل من نوع، علم لاحقاً، أنه يُقدّر أعلى التقدير كطعام شهي مترف عند الهنود. للمرة الأولى في حياته الفتية أبدى أكثر من اهتمام عابر بالأشجار والسرخس والأزهار، ووجد متعة حقيقية في المؤثرات السماوية عند الفجر والغروب كما كان يفعل في كثير من الأحيان في البحر - إنه منبع للحبور الفني نادراً ما يأبه له سكان البلدات.

أخيراً باع الكيوس مقابل مبلغ زهيد واتجه إلى سان فرانسيسكو. وهناك علم أن أجوراً مرتفعة تُعرض على البحارة المتمرّسين. فيمكن لبحار متسب في فريسكو (سان فرانسيسكو) أن يحصل على مئتي دولار كدفعة أولى وأربعين دولاراً في الشهر مقابل الأجر الاعتيادي: خمسين دولاراً كدفعة أولى وعشرين دولاراً في الشهر. بعد كل ذلك، هناك بعض الأشياء يجب أن تذكر عن حياة البحر.

نفدت موارده تقريباً ولا أمل في عمل جيد على الشاطئ، فاعتلى كبحّار محنك ظهر سفينة ذات ثلاثة صواري (بارك) تسير حول رأس هورن قاصدة بوردو. لم تعزز الرحلة من الادعاءات القائلة بأن البحر يؤمّن مهنة مدى الحياة. انزلقت حمولة الحبوب في الأعاصير قبالة رأس هورن، ولعدة أيام كان الوضع حرجاً والسفينة تتأرجح بين النجاة والغرق. وأخيراً لم يكن أفراد الطاقم سعداء بوطء رصيف بوردو فحسب، بل ممتنين إلى أبعد الحدود بأن دفعت أجورهم في الميناء الفرنسي.

بلا هدىً ثانية على أرض أجنبية، تذكر الصبي تلك الفروع من عائلة وليَمسون التي ضربت جذورها في مقاطعة شارانت Charente الفرنسية. امتلك هؤلاء الأقارب مراكب عابرة ولهم حصص في تجارة نبيذ بوردو. بعد الاحتفال بالوصول إلى اليابسة،

لم يضيّع أي وقت بالذهاب إلى آنغوليم Angoulême حيث كانوا يقيمون. لم تلقَ زيارته أيّ حماس ولكنها أدّت إلى قيامه برحلة إلى موانئ إسبانيا والبرتغال ثم العودة إلى فرنسا، عقب ذلك صعد على متن سفينة مواشٍ خارجة من بوردو قاصدة نيويورك.

* * *

الفصل الثالث

ساحل بلاد البربر Barbary Coast

مدركاً تمام الإدراك حينذاك مدى أهمية النفوذ في مسألة الحصول على وظيفة، لم يضيّع الفتى وليَمسون أي وقت فقام بزيارة فيلادلفيا، حيث كان يعيش قريب آخر له؛ العم تيموثي، وهو مواطن مرموق وأحد أفراد الجماعة البروتستانية. باءت هذه الرحلة بالفشل. لم يكن هناك عمل متوفر، وبعد إقامة قصيرة عاد إلى نيويورك حيث تعرَّف بمايك ميرفي، وهو ضابط في فوج الإطفاء وملاكم هاوٍ بارع. لكن أصبح واضحاً أن ميرفي، الذي ظنه قادراً على مساعدته، كان رجلاً مستهدفاً من خلال ارتباطه مع أناس وضعوا نصب أعينهم تنظيف السياسة المحلية من الرشوة والفساد الإداري، ونتيجة لذلك سرعان ما أصبح نفسه بحاجة إلى وظيفة.

في إحدى الأمسيات بعد جولة ودية من الملاكمة بالقفازات، طلب ميرفي من وليَمسون البقاء للعشاء في الشقة. أثارت المحادثة بعد وجبة الطعام نبأ حول بناء القناة عبر مضيق پنما (أول مشروع تحت إشراف دى ليسيبس، ثبت فشله فيما بعد). وفق صحف نيويورك، كان هناك حاجة للعمال وأجور مغرية تدفع في موقع الإنشاء. أفاد أحد التقارير أن خمسين حالة وفاة تحدث يومياً من الملاريا في منطقة القناة، مما أظهر نوعاً ما وضع حالة التوظيف هناك.

تدارس مايك ميرفي وزوجته الشابة ووليَمسون الأمر حتى وقت متأخر من الليل. وأخيراً، بالرغم مما انطوى الأمر على مخاطر، تمّ اتخاذ قرار الذهاب جنوباً على أمل الحصول على عمل جيد الأجرة. تمسكوا بقرارهم في اليوم التالي، وقاموا بالحجز

على رحلة في باخرة تعمل على الخطوط مزمعة على الإبحار إلى پنما بعد أسبوع، وباع آل ميرفي منزلهم تصميماً منهم على عدم العودة إلى نيويورك بأي حال من الأحوال.

كانت الرحلة المتجهة إلى الجنوب خالية من الأحداث، وحصلوا على معلومات موثوقة حول التوظيف أثناء إقامتهم في فندق صغير في كولون Colon. في حين، من البديهي، أن معظم الأعمال اليدوية كانت تؤدّى من قبل العمال المحليين، كانت شركة الإنشاءات دائماً تعاني من نقص في الموظفين، وبحاجة لرجال بيض للأعمال الإدارية وكرؤساء مشرفين على فرق العمل. سادت إشاعات مقلقة حول الفساد المستشري في الإدارة، وعن إمكانية إلغاء مشروع شق القناة برمته.

«بالتأكيد هذه ليست بالبلاد المناسبة لرجل أبيض، يا عزيزتي»، أبدى ميرفي رأيه لزوجته، «وأقل بكثير لامرأة بيضاء. سوف نرى كيف تجري الأمور حتى حين، ثم ربما عندئذٍ نعبر إلى الغرب حيث يعرف بيل اليافع هنا بعض الناس الواعدين».

لم يمضِ على وجودهم في المكان أكثر من يومين، وكانت السيدة ميرفي تؤيد تماماً المغادرة في أقرب وقت.

قال وليَمسون: «إذا تم استخدامنا هنا، سنتمكن من توفير مبلغ ضخم في وقت قصير. عندها دعونا نعبر إلى پنما ومن هناك إلى لوس أنجِلس أو فريسكو. سيكون هناك الكثير من فرص العمل في كاليفورنيا في موسم قطف الفواكه حيث يمكن جني المال الوفير».

لم يجدوا أيّة صعوبة بالحصول على وظيفة كمشرفين على الجانب الكاريبي، حيث كانت الأعمال الإنشائية تتقدم بخطىً سريعة، ولدعم الموارد المالية، التحقت السيدة ميرفي بطاقم التمريض لدى إحدى مستشفيات الشركة. لكن، كما سجّل التاريخ، لم يكن مقدّراً لشركة دي ليسپس أن تعيد النجاح الذي حالفها إبان عملها المميّز في قناة السويس. ساهم المناخ والبعوض الحامل للملاريا في الإخفاق، لكن وليَمسون وآل ميرفي لم يبقوا ليروا الستائر تسدل على المشروع المشؤوم الذي ظل يترنّح حتى مايو

1889. كره مايك العمل والبلاد من البداية، وخوفاً من الآفة المتفشية بين العمّال، أخذ يتزايـد تلهفـه على نقل زوجته الشـابة إلى منـاخ أكثر صـحة. وجعلـت موجة حادة من الملاريا وليَمسون أكثر حماساً لمغادرة هذه المنطقة الموبوءة بالحمى.

ألقى الفشـل الوشـيك بظلاله على العمل وأصيب العمال بالكآبة. وأدّى سوء إدارة جسـيم من قبل الشـركة ببسـاطة إلى تسـريع انهيار المشروع الذي أُسّـس على فرضية خاطئة أن قناة على مستوى البحر كانت قابلة للتنفيذ. رأى وليَمـسون وأصدقاؤه الضوء الأحمر، ولحسـن الطالع فإن الأجور العالية والحرص في الإنفاق مكنهم من توفير ما يكفـي من المال على رأس شـهرين للتحرك باتجاه الغرب. عبروا البرزخ على السـكة الحديديـة التي شـيّدت في عام 1885، واسـتقلوا فـي پنما أول سـفينة متاحة إلى لوس أنجلِس في منزلق آخر مع النصيب المتقلب.

وصلوا إلى كاليفورنيا في أوج موسـم القطاف، وبسهولة انسلّوا في أعمال بالأجور العاليـة السـائدة. لكن تراجعاً في حظهم تبـع هذا الازدهار، وبعد جهود لم تـسـفر عن إيجاد وظائف أخرى، التحقوا بفرقة مسـح في سـاكرامنتو وغادروا إلى موقع في سييرا نيڤادا. نيطت بوليَمسـون وميرفي مسـؤولية أخذ المقاسـات مقابل دولارين في اليوم، وقـد تم الاتفـاق على أن تتلقى السـيدة ميرفي مبلغـاً مماثلاً لدى بلـوغ المخيّم مقابل العمـل كمسـاعدة طباخ. ومع اقتراب الشـتاء، بـدا احتمال عمل طويـل الأجل ومفيد بعيداً جداً. لكن الحالة تطوّرت على نحو أكثر كآبة مما تنبأ له أكثر الأشخاص تشاؤماً. تبين أن فرقة نيويورك المسـؤولة عن اسـتخدام المسّاحين والمهندسين وإرسالهم إلى نيڤادا شـركة وهمية قامت بجمع الأموال العامة عن طريق الدعاية لمشـروع جديد مغرٍ للسـكة الحديديـة. وحدث توقـف طويل لما تبين أنه لا أجرة وشـيكة لفريق المسـح، أخيراً اسـتلم الرئيـس المنهك برقية تبيّن السـبب: لقد أعلنت الشـركة إفلاسها.

اجتمع الضحايا المحاصرون لمناقشة ورطتهم. كانوا بحاجة للمال من أجل عودتهم إلى السـاحل، ولكن الأحوال الاقتصادية هناك لم تكن جيدة، وفق كل التقارير. لمعت خاطرة لوليَمسون في هذا المأزق وقدّمت بارقة أمل.

انبرى قائلاً: «أحسب أن الحياة فاترة جداً للناس في هذه الأرجاء، لماذا لا نحاول كسب القليل عن طريق عروض متنقلة؟ لا يوجد شيء للأهالي في المستوطنات لينفقوا أموالهم عليه سوى تخزين البضائع وخمر الجاودار. قد يسعدون ببعض التسلية والترفيه».

تألفت المجموعة المتواضعة من ستة رجال وأربع نساء، أحد عشر شخصاً بالمجمل بما فيهم هو نفسه. كل ما استمتعوا به من تسلية منذ وصولهم إلى نيفادا هو من ارتجالهم الخاص. كان بمقدور الجميع الغناء بلحن منسجم. واحد أو اثنان كان بإمكانهما الإنشاد والمحاكاة. وكان لمايك ميرفي دور النجم، حيث لم يكن بمقدوره أداء المقاطع الغنائية للأب أوفلين O'Flynn فقط بل كان بهلوانياً كفؤاً. قام الشاب وليَمسون بإحصاء مواهب الأفراد في المداولة الذي تبعت اقتراحه. وبتواضع غير معهود ذكر مساهمته الممكنة في المشروع آخراً. علم من خلال ذلك زملاؤه المتقدمون أنه ليس بمقدوره الغناء والإنشاد والتمثيل والمحاكاة وألعاب الخفة والملاكمة والألعاب البهلوانية فحسب، بل بإمكانه تلوين المشاهد، وإدارة خشبة المسرح، وإنتاج كامل العرض بجدارة.

بالرغم من عدم قناعتهم بأنهم عباقرة ترفيه وتسلية، كان للبالغين من الفريق المحاصر ما يكفي من الخيلاء البشري لوضع قيمة عالية لمواهبهم الفردية الخاصة.

قال ميرفي: «ما يقوله الصبي ليس كله بالكلام الفارغ على الإطلاق، فقليلاً ما يحظى الريفيون بالتسلية في هذه الأنحاء. كان هناك ذلك المذنَّب في السنة الماضية عندما ظنوا أن نهاية العالم آتية. ولكن لم يأتِ أي عرض متجوّل إلى هاهنا على حد علمي. لذلك يمكننا أن نفعل خيراً لأنفسنا بنوع من عروض ڤودڤيل[1] Vaudeville».

تباحثوا حول الأدوار التي يمكن تضمينها، وقاطعت السيدة ميرفي مبدية رأيها: «يجب أن يكون هناك مشهد أو مشهدان هزليان، وأن نضع كلمات حديثة في بعض الأغاني التي نعرفها».

(1) ضرب من العروض المسرحية الهزلية.

لحسن الطالع كان بمقدور الشاب وليَمسون كتابة مشاهد ومقاطع غنائية. أكد لهم ذلك وعرض عليهم أن يشتغل به في الحال. تطوّع أيضاً بتدريب الجوقة لضمان أن العرض قد بلغ المستوى المهني. كانت جهوده أفضل مما توقع الآخرون. تمّت كتابة مشهدين أو ثلاثة لأدوار تتضمن أربع شخصيات أنثوية. في غضون ذلك قامت السيدة ميرفي والنساء الأخريات بارتجال أزياء خاصة، وبدأ التدرّب على العرض. تمرّن مايك ميرفي والشاب وليَمسون على فصل من المشهد المسرحي على منصة أفقية من صناعة منزلية، وآخر باستخدام قفازات الملاكمة. خلال التمرين الأخير، لقن الرجل الكبير شريكه الصغير تعليمات مضبوطة تماماً عن القتال بشكل علمي، علاوة على الهدايا لقاء التعلم بشكل عيون مسودّة وملامح متورّمة.

اقترح «كيس التدريب البشري» في أحد الأيام: «يمكننا تأدية هذه الأدوار بشكل أفضل بجعلها أكثر فكاهة».

«بكل تأكيد يا بني»، وافق ميرفي؛ «كنت نفسي أفكر أن المزارعين قد يستمتعون بالملاكمة أكثر لو أنني طرقت بك سبع أجراس بدلاً من أن تلقي علي لكمات وهمية».

كان للأضحوكة فكرة أفضل.

قال: «أنا أقصد، أنت تفعل الأشياء الاعتيادية، على سجيّتك، وأنا سأقوم بالتهريج للحصول على الضحكات».

غيّرا الفصلين كليهما وفقاً ذلك، وصنعت السيدة ميرفي زيّ مهرج من أجل مؤثرات أفضل.

في وقت مناسب انطلق العرض يجوب الأرجاء وبرهن على نجاح متوسط. كان الناس في المستوطنات بسيطين ومن السهل إرضاؤهم. لم يرَ بعضهم سكة حديدية قط وكانوا غير قادرين على كتابة أسمائهم. لقد كانت جوقة العرض بدعة مستحسنة، وفي أكثر من مكان ناءٍ كانت الحفلات تكرّر أمام الجمهور نفسه. كانت الفرقة تتنقل

إما على الأقدام أو بواسطة عربة المسافرين بين المستوطنات، لكن الأحوال بدأت تزداد مشقة بدنو فصل الشتاء، فقرر بعض أفراد الفريق التوجه إلى ساحل المحيط الهادئ بينما كانت أحوال الطرق جيدة. تابع وليَمسون وآل ميرفي تجوالهم بعرض صغير فيما بينهم، لكن الدخل بدأ يضمحلّ وينضب، إلى أن جاء اليوم الذي أدركوا فيه أن المغادرة تأخرت لمدة أطول من اللازم. انقطعت المواصلات بواسطة عربات المسافرين بين المستوطنات، ووجد الثلاثة أنفسهم محجوزين بسبب الثلوج على التلال المشرفة على وادي ساكرامنتو.

لما صاروا متلهفين إلى النزول إلى الساحل، لم تكن هناك أيّة وسيلة للذهاب إلى هناك. أخيراً، وبعد محاولات عبثية لإيجاد مخرج من الورطة، قدّم شيخ سويدي اقتراحاً منحهم التشجيع. يمكنهم الخروج فوق الثلج على الزلاجات، واقترح عليهم أن يصنع لهم ثلاثة أزواج بسعر معقول. لم يعرف أي منهم أي شيء عن التزلج، ولكنهم كانوا في حالة نفسية مستعدين معها لمحاولة أي شيء يمكن أن يمنحهم فرصة نجاح. تم قبول العرض، وعندما انتهى من صناعة الزلاجات، تدرّبوا بدأب لأسبوع قبل الشروع في السفر.

سار كل شيء على ما يرام، آخذين كل أمر في الحسبان. لو كان للسيدة ميرفي نصف براعة زوجها ومعشار ما لدى الشاب وليَمسون من ثقة بنفسه، لاستغرقت الرحلة وقتاً أقل، غير أن اهتمامهم بالوقت كان ثانوياً. بسلوك سبل متعرّجة على منحدرات سهلة واستخدام عملية الدوران الثابت البسيطة، نزلوا من التلال دون حادثة ما خلا بضع سقطات خفيفة.

كانت سان فرانسيسكو، بأجوائها التجارية النشطة ومباهجها الليلية، محفزاً بعد المستوطنات المملّة، حيث كان فقط تبادل إطلاق النار النادر ينعش الحياة الرتيبة هناك. لكن تدفق الناس الذين فقدوا أعمالهم بسبب ظروف الشتاء الصعبة إلى داخل البلاد جعل البحث عن العمل منافسة غير طبيعية. كان الحصول على إقامة مريحة من الصعوبة بمكان إلا بأجر تعجيزي للقادمين الجدد، ولم يستغرق آل ميرفي سوى عدّة

أيام ليقرروا أنه قد يمكنهم تحسين أوضاعهم في مكان آخر. اختار الشاب وليَمسون البقاء، وافترق آسفاً عن الزوجين، اللذين غادرا بالقطار قاصدين بورتلاند في أوريغون، حيث كان لديهما أصدقاء يمكن أن يقدموا لهما يد العون في تأسيس نفسيهما هناك.

تعرّف وليَمسون بشخص جديد، وهو إيرلندي أميركي يدعى روري أوكونور Rory O'connor قدّم له النصح حيث أمكنه الحصول على غرفة بأجرة معقولة. ظل معه لفافة نقود بحجم لا بأس به، فلم يجد سبباً لقلق في غير محله على البطالة المؤقتة.

ما إن علم أن بطولة الملاكمة للهواة في فريسكو على وشك أن تبدأ حتى سارع لتسجيل اسمه في مسابقة الوزن الخفيف، وهو بتمام الثقة أن بإمكانه إقصاء جميع القادمين. تجربته في الكثير من جولات الملاكمة الحرّة والتعليم العلمي الذي تلقاه من ميرفي جعل منه محترفاً مرعباً في فن الملاكمة. عندما أكسبته يسراه المدمرة، التي عمل على تطويرها، ضربة قاضية في الجولات الثلاث الأولى من الدوري، تصور نفسه ثانية في المربع المحاط بالحبال (الحلبة)، مبتسماً دون كدمات، وقد حيّته الجماهير المتهللة من الرياضيين وكأنه البطل الجديد.

كان نجاحه ببساطة في ثلاث مسابقات دعوة للاحتفال. وتقبّل روري أوكونر، المشجع المخلص لبطل المستقبل، تقبّل بحزم الحق التقليدي للمحارب المنتصر في الترفيه عن نفسه بالخمر والنساء والأغاني. كان الشاب وليَمسون في اتفاق كامل معه، فقد استحق بجدارة استراحة من وتيرة التدريب. ليلة من المرح، ويليها بعدئذٍ تحضير صارم للمباراة التالية.

لا مكان في أميركا في ثمانينيات القرن التاسع عشر يمكن أن يقدّم تسهيلات أفضل من فريسكو للباحثين عن الإثارة الليلية. إن ملهى بارباري كوست[1] *Barbary Cost* مفتوح على مصراعيه. كان يقع على مساحة ميل مربع محاطاً ببرودواي Broadway من الشمال، كلاي Clay والشوارع التجارية من الجنوب، وشارع إيست ستريت

(1) تعني التسمية: ساحل بلاد البربر.

وتشـاينا تاون من الغرب. كانت تعرف سـابقاً بسـيدني تاون، وهي بؤرة فسـاد تجذب العتـاة من طواقم السـفن الأسـترالية ما إن تطأ قدمهم الشـاطئ. خـلال متاهة قذرة من الصـالونـات، والمواخيـر ومحلات الألبسـة الرخيصـة، شـق بحار مجهـول طريقه من أجل نشـوة رخيصة بعد أشـهر على البحار العميقة. من خلال مهنته على ظهر السـفينة تعـرّف على تجـارة الرقيق الأفريقي، فلم يكن على الأغلب من النوع المحتشـم. لكن الفسـوق والقتل في هذا الحي من سـان فرانسيسـكو القديمة كان لـه عظيم الأثر حتى على عقله القاسـي. تذكر أفريقيا وما رأى من القسـوة والبؤس خلال خدمته على سفن النخاسة. «باربري كوست - هو ذا». كان ذلك رأيه في سيدني تاون، وكلما أنفق أجره على بارات الصالونات أصبح أكثر صخباً برأيه عن الحي: «باربري كوسـت - باربري كوسـت». برز الاسـم، وأصبح مرادفـاً للجريمة والمتعة الشـهوانية بيـن البحارين في أصقاع الأرض.

بيـن الفينـة والأخرى كانت توجد جثث ضحايا سـفّاحي الكوسـت ملقاة في زقاق ديدمـان Deadman (الرجـل الميّـت) عند نقطة مُردر Murder (جريمـة القتل). من بين الشخصيات البغيضة المقيمة في الحي كان هـناك المومسات والقوّادون وذوو الشعور المجعّـدة ومدمنو المخـدرات. وأصبح القتلة بالسـكاكين والفؤوس في تشـاينا تاون نشـيطين في حرب بين العصـابات الصّينية السـرّية (تونغ)، كانت بنات الهوى يُستوردن بالسـفن. وأصبـح الميـنـاء الذي كان يحب بعض السـكان أن يطلقوا عليه اسـم نابولي الغرب مشـهوراً للقاصي والداني على أنه بؤرة الفسـاد في أميركا. استطاع قـس كان يجاهد في خضم هذه الدوّامة من البشـرية المنحرفة أن يرفع صوته عالياً بشـكل كاف ليضيـف شـعاراً آخـر ذا قيمة دعائية مريبة: «سـدوم المحيـط الهادي». عقـب الزلزال والحريـق فـي مايـو 1906، صـرّح أب آخر بأنه لم يفاجـأ أن الرّب قد «اقتصّ من سـان فرانسيسـكو الفاسـدة بشـكل عادل كما عاقب بومبيي Pompeii». ربما لم يسـمع أبداً تفاصيـل عـن «ميناء بور سـعيد الفاسـد»، ولكن ميناء بور سـعيد لم يُصـب بما أصاب سان فرانسيسـكو وبومبيي ولن يصيبه ذلك أبداً؛ فهو ليس في منطقة بركانية. اكتسـحت

الحرائق فريسكو أكثر من مرة، وفي كل مرة كانت المدينة تنهض من الرّماد بحيوية متجددة وأنظف أخلاقياً.

كان باربَري كوست في أوج فتنته الآثمة عندما وافق الشاب وليَمسون بمرح على اقتراح أوكونر بالانفلات لليلة واحدة. كان القتل والنهب العنيف يحدث كل ليلة، ولكن بالطبع هذا يحدث للناس الآخرين فقط. ازدهرت الصالونات وقاعات الرقص والعروض الإباحية دون رقابة تحت إدارة بلدية تعجّ بالفساد والرشوة. قدّمت تشاينا تاون المتوهجة بالأنوار والنابضة بالموسيقى العجيبة، جاذبية خاصة بملاهي القمار وأوكار المخدرات، حيث اختلط الكثير من الزوار التّـذج مع حشود الأمميين الأجلاف بحثاً عن إثارة جديدة. بالنسبة لوليَمسون ورفيقه، وبشكل تلقائي أوحت باربري كوست وتشاينا تاون بنفسيهما على أنهما المكان الملائم للبحث عن المرح.

يمكن لبضع كؤوس من الشراب على عتبة ليلة شهوانية أن تساعد في إحياء ما سيتبع من أحداث. لم يكن اقتراح أوكونر بهذا الخصوص أصيلاً، ولكن تطبيقاته العملية شجعت المزاج الأنيس المستهتر الذي يوقره أصحاب الصالونات، والمقامرون المحترفون وبنات الهوى في زبائنهم المثقلين بالأموال. لم يكن لدى وليَمسون ورفيقه الكثير من الثروة ليبدّداها، ولكن ما كان لديهما أُنفق كأنهما ابنا أخ جون د. كروزوس[1] John D. Croesus المفضلين.

---

(1) أطلقت هذه التسمية على الملياردير الأميركي جون د. روكفلر John D. Rockfeller أغنى أغنياء أميركا في عصره، وهو أحد مؤسسي شركة ستاندرد أويل أوف أميركا Standard Oil عام 1880، وفي عام 1916 صار أول من يملك مليار دولار في العالم. أما لقب كريزوس فهو كناية باسم ملك ليديا (باليونان) في القرن السادس ق.م، الذي كان يضرب المثل بغناه الأسطوري.

دارة تقليدية في تشاينا تاون، سان فرانسسكو

في وقت يصعب تذكره بعد منتصف الليل، اكتشفا بتعاسة أن رزمة المال قد تبخّرت مثل تبخر الصقيع في مهب ريح شينوك Chinook. لم يبقَ معهما سوى دولار واحد تعيس، لا يستحق الاحتفاظ به حتى كتذكار لمناسبة مشهودة. كان هناك شيء واحد فقط يمكنهما فعله بهذا الدولار البائس، حيث أن الإفراط في الرقص مع البنات قد سبّب لهم العطش ثانية. سارا في شوارع الرّصيف المائي على غير هدىً حتى وصلا إلى صالون رخيص، حيث ما زال الدولار كافياً لشراء كأس كبيرة من الجعة. ملاذ لطيف، هكذا بدا. انضمّ إليهما عدد من الزبائن الخشنين لكنهم أنيسون، وأبدوا اهتماماً إيجابياً بوصف أوكونر الحي لقوة القبضة لدى «قبلة بريستول» الفتية. فهللوا لعروض جولات الملاكمة الخيالية للبطل المرتقب.

في غضون ذلك جرع وليَمسون وأوكونر الجعة التي حصلا عليها بدولارهما. عندئذٍ وللتأكيد على أنهما صارا زبونين دائمين قبلا كأسين أخيرين قُدّما لهما من أصدقائهما الجدد. بعد ذلك لم يعرفا أي شيء حتى أفاقا وقد كاد رأساهما ينفجران وسط ظلام جوّ خانق في مقدّمة سفينة.

* * *

الفصل الرابع

صيد الحيتان في القطب الشمالي

حبا الله الطبيعة في بلاده الجنوبية الغربية البعيدة بيد من سخاء. حتى خبراء الدّعاية الأميركية - أعلى المتفوّهين الدنيويين نبرة - قد أجحفوا بحق الطبيعة المتميزة في كاليفورنيا. وإن ما لدى ولاية الشمس الساطعة من تنوع رائع في المناخ والمناظر الطبيعية، وخصوبة في التربة والثروات المعدنية ليس سوى تذكرة بكماء لبضع من النعم التي حباها الله بها. وحيث اضطربت يد الفنان فغرفت من غبار السعير، وادي الموت سيئ الصيت، تدخل البشر الأشاوس لإصلاح الزلل. توافرت الفرص ومازالت متواجدة للمساعي الإنسانية، ولم يكن هناك أبداً نقص في أسباب الراحة من أجل اللهو والمتعة.

لا يعني ذلك أن أهل كاليفورنيا غير مقدِّرين لمزايا ولايتهم الأم. مع بعض الاستثناءات النسبية، كان الأهالي الذين استوطنوا هناك في الثمانينيات راضين تماماً بالبقاء حتى في فترات التوتر بدلاً من الرحيل إلى أماكن أخرى، ربما أسوأ بكثير. والعديد من البحارة أيضاً، بعد أن دخلوا عبر البوابة الذهبية، قرّروا أن تراب كاليفورنيا تحت أقدامهم أفضل من خشب ظهر المركب القاسي. وهذا ما يفسّر لماذا كانت كثرة من السفن المبحرة الضخمة تهتز بحبالها في مرفأ سان فرانسيسكو بانتظار طاقمها في حين كان يجب أن تكون قد شقت عباب طرقها التجارية في المحيط الهادي الأزرق.

من أجل الحصول على الطواقم في الشواطئ الغربية لأميركا، وصلت عملية خطف وإجبار البحارة إلى أوج درجات الفعالية. لم يكن هناك مكان أكثر من فريسكو، حيث

نشأ مصطلح «شانغهاي»، ولمدة خمسين عاما تقريباً، جنى فيه الكريمپ وسُعاتهم مغانم جمّة تحت سلطة نخرتها الرشوة والفساد. ومن الشائع أن البحّار الذي يرفض التعاون مع المخبرين المرسلين لتصيُّد أمثاله كان يقتل خلال تلك الحقبة المشؤومة. سُلب الآلاف وخُدّروا ثم نقلوا بالسفن بعيداً بقسوة لا يجاريها سوى تجارة الرقيق الأفريقية.

كانت الأحياء الواقعة على الرّصيف المائي في سان فرانسيسكو بما فيها باربَري كوست تعج بالكريمپ[1] crimps، الذين سيق الكثير من البحارة إلى فنادقهم بأسلوب لا مُبالٍ تميّز به أمثالهم. لكن سرعان ما وجد هؤلاء النزلاء أنفسهم في عرض البحر ثانية بعدما سُلبت منهم أجورهم. كان الرُّعاع من الناس في فريسكو يُختطفون ويُجبرون على الإبحار دون أي وازع من ضمير عندما لم يكن يوجد بحارون حقيقيون. وكان كحول مضروب بشيء من اللودنوم (مستحضر أفيوني) يُستخدم لخصم الجدال، أو ربما ضربة محكمة بكيس رمل أو أنبوب من الرصاص، وإذا تعرض بحار للقتل كما حدث في بعض الأحيان، فذلك يكون من سوء حظ الكريمپ crimp الذي يفقد شيئاً من العمولة.

ليس لكل الكريمپ ألقاب مناسبة لصنعتهم مثل سيء الصيت شانغهاي كيلي Shanghai Kelly. وقد ذاعت أسماء مثل جاك الأمين أو جو المقدس أو دينكوم دان Dinkum Dan المنصف، مما يشجع على الثقة. كان موراليتي مايك Morality Mike يفتخر أنه لم يتفوّه بالكذب في حياته. وكان هذا الزعيم الكريمپي، الذي ينشد الترانيم طول الوقت، يطمئن ربابنة السفن بقسمه على الإنجيل أن كل رجل زوّدهم به قد دار حول «القرن» the Horn. وكان ذلك صحيحاً إذا جاز التعبير، حتى أكثر العاملين في المزارع حمقاً شحنهم إما مضطربين من المسكرات أو فاقدين للوعي. ولكن لم يكن «رأس القرن» the Cape of Horn هو الذي داروا حوله، بل حول قرن ثور كان يحتفظ

---

(1) تسمية شاعت على أفراد العصابات الذين يروّجون لأصحاب السّفن للحصول على بحّارة في المحيط الهادي، إما بالترغيب أو عن طريق الخطف. وهذا ما جرى لوليَمون ورفيقه.

بـه في قبو نزله. فما كان ضمير مايك ليسـمح لـه أن يجبر بحاراً أو عامل مزرعة مخدَّراً على الإبحار قبل أن يحمله أو يجرّه أولاً حول القرن.

من شبه المؤكد دائماً أن البحار المخطوف كان يُسلب راتب شـهرين على الأقل، ويذهب ذلك عادة إلى جيوب أصحاب النّزل وأذيالهم. وإذا اعترض الضحية عندما يستفيق ليجد نفسه في عرض البحر ثانية، كان أيّ جدال يسوى لصالح الربّان إما بخطاف الحبال أو بمسمار التثبيت أو بحذاء ضابط العتاد البحري.

وقـع وليَـم وليَمسون وصديقه روري أوكونر ضحيتين لهذا النظام الهمجي قبل عامين من إيجاد نقابة لبحارة المحيط الهادي، التي تم تأسيسها عام 1891. ولكن ليس قبل ثلاثة عشر عاماً، في 1904، تم إلغاء عملية خطف البحارة نهائياً، ولم يتحرّر بحارة الساحل الغربي فعلياً إلا في عام 1915.

عندما استفاق كلاهما في حجرة أعلى مقدمة السفينة، كانت الزوارق قد انطلقت بعيداً والسفينة تشق عباب البحر واضعة البوابة الذهبية وراءها. لم يكونا متبهين لذلك في البداية، فالوعي لم يمنحهما سوى الإحساس بصداع في الرأس مع الغثيان وبيئة غير مألوفة. ولم يكن بمقدور أي منهما التلفظ بما يمور في ذهنه الدائخ من تساؤلات مبهمة.

بـدا وكأن منشاراً دائرياً مصغراً يعمل في رأس وليَمسون، ومضت عدة ثوانٍ قبل أن تصبح أذناه متوائمتين مع الأصوات على ظهر السفينة وخشخشة المياه على ألواح السفينة. سمح بابٌ صغير مفتوح بدخول الضوء الخافت لفجر غائم، ونظر حوله دون أن ينهض ليحدّد موضعه ووجهته. كان أوكونر مستلقياً بجانبه يحدّق بالسطح بعينيه الكابيتين. اثنان أو ثلاثة أشكال خاملة تكوّمت على بعضها البعض ليس ببعيد عنهما، وكان أنين خامد يصدر عن أحدهم مثل حصان البحر المجروح. عندئذٍ رأى وسمع حذاء بحر يهبط على السلم العمودي الحديدي من الباب الصغير في سقف الحجرة، ولبرهة وجيزة تصور أن يكون صاحب الحذاء ضابط العتاد على أقوندريا. كان الزائر أضخم وأقوى؛ رجلاً غريباً في سروال قطني باهت وقميص ذي مربعات زرقاء. كان

يحمل دلواً يندلق منه الماء بينما كان ينزل السلم. توقف منفرج الساقين، كأنه عملاق ينذر بالشرّ ويهدر بالويل والثبور. وبعد ذلك الوابل، دلو مملوء بماء البحر البارد أشبعه وأوكونر بللاً حتى الجلد.

«هيا إلى السطح، يا جرذا الرصيف الهاربان" أقسم بالمسيح إن لم تخرجا من هنا بسرعة لأحطمنّ أضلاعكما».

حضّ الأمر الحافل بسخاء بمفردات الكفر والتدنيس الشائعة في الساحل الغربي، وليَمون الشاب على العمل. وأجلى الحمام البارد الغبش عن عقله بما فيه الكفاية حتى يفهم شيئاً عن وضعه. تجنّب رفسة وتسلق السلم الحديدي بجهد، وتبعه أوكونر بشكل غير متزن. في أثناء ذلك، كان صاحب الحذاء البحري الضخم، الذي تبيّن أنه ضابط عتاد السفينة، يكافح من أجل إيقاظ باقي المخدّرين من الطاقم المخطوف بطَرق رؤوسهم ببعضها.

ما إن صارا على ظهر السفينة، حتى تنفس الشابان المبتلان بعمق الهواء الرطب وحملقا بأسى في الخط المتعرج لساحل كاليفورنيا وهو ينحسر ببطء كلما كان المركب يخب أمواج المحيط الهادي الطويلة. كان عدد من الرجال الذين بدا عليهم الإعياء، كلهم هناك بشكل غير طوعي، يسحبون الحبال تحت توجيهات ضابط وجهه يشبه الجرذ في لباس رسمي قذر.

وجد أوكونر متنفساً لمشاعره الغاضبة. «إنهم يأخذوننا إلى البحر! يقيناً، أنا لن أتحمل ذلك. أتذكر تلك الحانة التي ذهبنا إليها من أجل كأس من الجعة؟ من المحتم أن الشياطين القذرة قد خلطت شرابنا».

«نعم، قطرات مخدرة. هناك طعم في فمي وكأني ألعق في دلو رماد».

«إن عقلي مثل الدوامة»، تأوه أوكونر. «أين يمكنني أن أجد الخنزير المسؤول عن هذا التابوت العتيق؟ ما هي إلا بضع كلمات سأقولها له».

«إن القبطان في مؤخرة السفينة، على ما أعتقد»، قال وليَمون. «دع هذا الأمر لي

يا روري. لا يمكنهم أن يفعلوا ذلك بنا. سأطالب بحقوقنا».

جاءت من أعلى مقدمة السفينة أصوات تعصف بالكفر والسباب وعواء من الاحتجاج. من الجليّ أن ضابط العتاد كان يجد صعوبة في حثّ باقي المغفلين على الحركة. كان معاون القبطان مشغولاً، وعيناه اللتان تشبهان عيني الخنزير ترقبان عالياً الأشرعة المنتشرة، كانت تلك فرصة مناسبة لالتماس مقابلة مع ربان السفينة، فتمايل وليَمسون باتجاه المؤخرة، تاركاً رفيقه المريض متدلياً باسترخاء فوق الحاجز الجانبي.

كانت حاجته الآنية، هكذا كان يشعر، لحوالي جالون من الماء العذب البارد ليطفئ عطشاً من الممكن أن يدفع كثير من المنفيين العائدين من جبال سييرا كيساً من الذهب مقابل الحصول عليه. مازال بحاجة لأن يبذل جهداً لتركيز نظراته، ولكنه عاين المركب بكامله من المقدمة إلى الخلف ثم نظر عالياً. ما تعلّمه في هذه النظرة الخاطفة كان كافياً، لكنه لم يسهم في طمأنته. كانت تلك سفينة صيد الحيتان. لقد كانت سفينة شراعية بصاريين وشراع مربع رئيسي وعارضة علوية يمدّد عليها رأس الشراع - استطاع أن يتبين اسم[1] «سيتكا براڤه» *Sitka Brave* على أحد الزوارق المحمول داخلاً وقد أُلقي عليه قماش مشمع. عاوده شيء كان قد سمعه في فريسكو: أصبح اختطاف البحارة في الميناء على مدى سنوات عملاً منظماً بشكل جيد واختصّت إحدى عصابات الكريمپ بتزويد الطواقم لسفن صيد الحيتان. لقد كان من سوء الحظ الفظيع أن يدلف هو وأوكونر على نحو عفوي إلى جحر تلك الزمرة الشريرة وفي وقت مؤاتٍ عندما كان هناك حاجة لطاقم لأجل *Sitka Brave*. بالطبع، لا يلام أحد سوى حمقهم، ولكن ذلك لم يزد الوضع إلا أسىً ومرارة.

ذهب الشاب وليَمسون إلى الخلف. توقف أحد الرمّاحين، وهو ذو أجر عال وعضو ثابت في الطاقم، عن عمل كان يقوم به ونظر إليه مستفسراً، ثم علق قائلاً: «مكانك في الأمام، يا بني»..

(1) الاسم باللغة الإيسلندية، ولذلك لم نكتبه: بريف، كالإنكليزية.

لقد كان يُقصد بها نصيحة ودّية، ولكن الفتى لم يكن في المزاج ليصغي إلى صوت المنطق.

أجاب: «لدي شيء أودّ أن أقوله للمعلم، من هو؟».

«القبطان ويلسون، ذاك هو - الرجل البدين الأصلع مثل طائر الغرّة. ابقَ بعيداً عنه، إذا كان يريد رؤيتك فسيرسل في طلبك بكل تأكيد».

صعد وليّمسون على سطح مرتفع في مؤخرة السفينة.

كان القبطان يخطو بالقرب من منصة القيادة، متوقفاً بين الفينة والأخرى ليلقي نظرة فاحصة على الأشرعة المرفرفة. رجل قصير بدين في الخمسين من عمره له شاربان مثل حصان البحر، لقد بدا من النوع المقبول إلا أن قلنسوته المدبّبة البالية الموضوعة بشكل مائل أنيق على قبة رأسه الملمعة أعطته لمحة من العدائية. بادره الفتى وبيَّن قضيته دون مقدمة.

«انظر إليّ أيها القبطان، أنا لم أوقّع على أي عقد لهذه الرحلة، كذلك الحال أيضاً بالنسبة لرفيقي أوكونر. لقد قاموا بتخديرنا في حانة على الرصيف المائي ثم وضعونا على ظهر السفينة رغماً عنا. إن عملية اختطاف البحارة مخالفة للقانون وجُنحة خطيرة جداً، ولدينا الكثير من الناس ذوي النفوذ في فريسكو. إننا نطالب بحقنا في العودة إلى ديارنا، وستجنّب نفسك الكثير من المتاعب بمناداة أول سفينة قاصدة فريسكو ونقلنا إليها».

وقف القبطان ويلسون منفرج الساقين، يداه في جيبي سترته الغليظة. انتظر حتى نهاية الخطبة المُسهبة، ثم تحدث عندئذٍ بهدوء مشؤوم.

«عجيب.. غاية في الغرابة. أنا لم أسمع أبداً عن مثل هذا. أتلمّح يا فتى أنني - ربان سفينة محترم خبرت طول الساحل الغربي - أتعامل مع مجموعة من الكريمب الملعونين؟».

«ما أقوله هو.....».

«لقد قلت ما فيه الكفاية، يا فتى. لا وقت لدي لأستمع لقصص خيالية من كل تافه يصعد على سفينتي. تحرّك الآن إلى الأمام حيث يجب أن تكون. اذهب إلى ضابط العتاد وأخبره أنني أرسلتك.. واطلب منه بلطف أن يعطيك سروالاً قديماً وقميصاً قطنياً وجوارب وحذاءً بحرياً، بدل هذا اللباس المبتل وساعد بالمراقبة على ظهر السفينة».

انصرف ذاهباً، وهو يتأمّل طيور النورس التي تصرخ وتدور فوق مؤخرة السفينة. انتهت المقابلة، وكان مدير الدفة يبتسم. نظر الشاب وليَمسون إلى ظهر الربّان العريض وكبح إجابته السريعة على رأس لسانه. تذكر أفوندريا. لقد جرّب في رحلات سابقة المعاملة الفظة على ظهر السفينة. وعلّمته التجربة المريرة جزاء من كان يفعل أي شيء قريب من التمرّد. وفي قرارة نفسه كان يعلم عدم جدوى أي اعتراض. لا يمكن القيام بشيء فعال لإصلاح الأمور، ولن تفضي المقاومة إلا إلى مصاعب أسوأ. توجّه إلى الأمام مخاطباً أوكونر: «لقد علقنا بالرحلة على متن سفينة الصيد هذه، يا روري. ويبدو أن هناك شيئاً معقولاً وحيداً يمكننا فعله.. ألا وهو بذل قصارى جهدنا للعمل بشكل سيء».

كان ذلك خلاف الغريزة الفطرية، ولكن نوع الإقناع الذي مارسه ضابط العتاد لواحد أو أثنين من ضحايا الكريمب الحرونين أكّد على حكمة الخضوع للأمر. وفوق ذلك عندما وجد القبطان أن الرفيقين قد قبلا الوضع بشكل فلسفي، أبدى اهتماماً كريماً بهما، الأمر الذي صبّ في مصلحتهما.

لم يكن أحد من طاقم السفينة قد ركب البحر من قبل باستثناء الربّان ومعاونيه والرمّاحين. يبدو أن المعاون الرابع قد كسرت ساقه بينما كانت السفينة تغادر الميناء وتم أخذه إلى الشاطئ بالزورق. وأثناء إبحار المركب باتجاه الجنوب، اكتشف القبطان ويلسون ما أدخل السرور إلى قلبه وهو أن أحد أفراد الطاقم ليس لديه معرفة واسعة بالبحر فحسب، بل هو عامل مُجدّ وراغب في العمل. أرسل وراء وليَمسون فأثنى عليه وعيّنه معاوناً رابعاً له، مع الأجر الجيد الذي رافق الترقية. وعُيّن أوكونر مضيفاً مساعداً.

في أثناء تلك المغامرة كان عمر وليَمسون سبعة عشر عاماً تقريباً، ولكنه بدا أكبر من ذلك. لقد أكسبته الحياة القاسية في البحر وعلى الشاطئ كتفين رائعين وقوة استثنائية بالنسبة إلى عمره. وكان كلما تقدّمت الرحلة من برد الشمال، يجد كثيراً من التشويق في عمله ومسرّة على أمل المغادرة بعد أن تتراكم الأجور بشكل جيد في نهاية خدمته. أسفه الوحيد الذي مابرح ينغّص عليه كان في أن القدر قد حرمه فرصة الحصول على لقب البطولة للهواة في الوزن الخفيف لسان فرانسيسكو. لكن ذكريات الأحوال الاقتصادية الصعبة في ميناء كاليفورنيا ساعدت على تخفيف خيبة الأمل تلك.

إن كلمة الهادئ تسمية خاطئة أطلقت على المحيط في خطوط العرض الشمالية التي عبرت خلالها «سيتكا براڤه» *Sitka Brave* الطريق إلى موطن الحيتان في القطب الشمالي. وصلت السفينة إلى جزر Aleutian ودخلت بحر بيرينغ Behring بعد عراك شديد خلال بحار عملاقة وتحت أشرعة مقصرة. ومن ثم عبرت مضيق بيرينغ إلى المحيط المتجمد الشمالي، حيث غيّرت مسارها باتجاه الشرق ثم رست قبالة پوينت بارو Point Barrow في أقصى الشمال من ألاسكا.

حوَّل العمل في الرحلة المضنية وبواسطة الأساليب المشجّعة للمعاونين المتقدمين وضابط العتاد، حثالة الميناء إلى طاقم منضبط. تم توزيع ملابس دافئة. وأثبت القبطان والضباط أنهم مُنصفون ومتفهمون طالما أن هناك أسساً للنظام، وحتى أدنى شخص من الطاقم الخليط أقرَّ بالمنفعة الجسدية في حياة غسلت الكحول من أعضائهم وأعادت رؤية جلية للعيون المتعبة والقوة للعضلات المترهلة. ألقت السفينة مرساتها بطول كبلين قبالة الشاطئ في طقس هادئ. من الجليّ أن زيارة پوينت بارو أو إحدى مستوطنات ألاسكا بعد رحلة الشمال، كانت تقليداً تقوم به سفن صيد الحيتان وللغرض الذي كان يرمي إليه القبطان ويلسون؛ الحصول على مؤن طازجة قبل الشروع بالصيد المطول للحيتان. يمكن الحصول على لحم الفقمة بأي كميات مقابل التبغ وبضائع تجارية، وكان الإوز البري والبط يتوفران بكثرة في المقاطعة.

كانت اليابسة منعشة للجميع، ورحّب الكل بفرصة الاحتكاك مع كائنات بشرية

أخـرى، رغم أن هـؤلاء كانوا من الأسـكيمو فقط. هنا في پوينت بارو، تعرّف الشـاب وليَمسـون وأوكونر إلى جانب آخر من شـخصية ربان السـفينة. فقبل نصف سـاعة من بلوغ السـفينة مرساها، ظهر القبطان ويلسـون على السطح الخلفي العلوي للسـفينة ببزّة رائعة جديدة وقلنسـوة، وقد بدا أصغر بعشـر سـنين من سـنّه وقصة أنيقة لشـعره البني المجعّد. لاحظ المعاون الثالث دهشـة وليَمسـون، فغمز بعينه وعلّق هامسـاً: «زير نسـاء لائـق، أليـس كذلك؟ دائماً يتأنق عندما ترفأ السـفينة في أي مكان. يقولون إنه اشـترى شعراً مسـتعاراً من باريس عندما كان في فرنسـا قبل عامين».

بعد قليل، عندما أُنزلت الخطافات، نظر وليَمسـون إلى زوارق الكاياك الجلدية تبحر من الشـاطئ ثم عاد إلى الموضوع.

قـال للمعـاون الثالث: «فيمـا يبدو لـي، أن تصرّف القبطـان المتأنـق على الأغلب سيضيع على زمرة من أكلة الشحوم».

«لا يعتقـد المعلـم ذلك»، أجاب المعـاون الثالث. «إنـه يحب أن يبهـر المحليين. بالإضافة إلى أنه يوجد الكثير من السـيدات في هذه الأنحاء».

عدد من نسـاء المسـتوطنة كنّ في الكاياك بين رجالهن. ولكن لم يكن هناك سـبب قـوي حتى يلبـس أي فرد من شـركة صـيد الحيتان ليفتنهن. لـم يكن هناك حاجة لا لبزة جديدة ولا لباروكة شعر حتى يغزو. كل ما كان يحتاجه أقراص تبغ أو ماء النار، شموع وسـكاكين تجاريـة، وقبل أن تصل الزوارق إلى جانب السـفينة، قام القبطان ويلسـون بتسليم الطاقم أشياء مختلفة لأغراض المساومة.

أخفقـت المعرفـة الحميمة مع حسـناوات الأسـكيمو بإثارة أي رغبـة عاطفية لدى الشاب وليَمسـون، الذي كانت مُثُله الفنية عن الجمال تتمثل في البشرة الوردية الفاتحة المتلازمـة مـع شـعر ذهبي وعيـون طفولية زرقـاء. لقد أُعطي سـكيناً ليقايضـه بخدمة أنثويـة، لكن منظر وجوه الأسـكيمو البنية، البارزة الوجنتين، والعيون اللوزية والشـعر الأسـود السبِط المشـحّم بدهن الدببة، كل ذلك جعله يقرر إبقاء تلك السـكين كتذكار.

أما الغالبية الساحقة للطاقم فلم تكن تدقق إلى حد بالغ في المعايير الجمالية. في تلك الأيام كان الأمر المتعارف عليه فيما بين صيادي حيتان القطب الشمالي أن تعيش النساء المحليات على ظهر المركب والسفينة راسية. وأعطي كبير القوم في المستوطنة هدية مفيدة من قبل ربّان السفينة للسماح بذلك، تدبّر أفراد الطاقم كلّ على حدة زوجة مؤقتة دون كثير من المخاصمة. في هذا المجال كان من السهل إرضاء معظم الرجال من النوع الذي يرسله الكريمپ من فريسكو.

لم تتعارض الغراميات على ظهر المركب على نحو غير ملائم مع العمل على الشاطئ. والكل كان سعيداً بوضع قدمه على أرض راسخة بعد أسابيع في عرض البحر. لم يفوّت وليَمسون ولا أوكونر أيّة فرصة للذهاب مع فرق صيد البط، حيث أن تغيير الغذاء كان عاملاً مهماً في رفع المعنويات. عندئذٍ وبعد إقامة قصيرة في پوينت بارو، قام طاقم السفينة بتوديع عرائسهم الكريمات ومضت *Sitka brave* في السعي وراء فرص أكثر شرعية.

بينما كانت السفينة تطوف البحر القطبي الشمالي تتصيّد الحيتان، تم تعيين مراقب على منصة المراقبة أعلى الصاري. لم يمضِ وقت طويل حتى سُمعت صيحة: «هي ذاك تنفخ! على بعد نقطتين من ميسرة المقدمة». تم تعديل المسار وصارت السفينة مثل خليّة نحل تعج بالحركة. أُنزل زورقان مزوّدان بالرجال. ثم نُصب في كل منهما شراعان صغيران مثلثان وقام ضابط بتوجيه الدفة بمجذاف خلفي. يتألف تمام عدّة مركب دوري[1] dory من ستة رجال، والرمّاح الذي وقف متنبهاً في المقدمة. هذه الطريقة البدائية لصيد الحيتان قد حلّ محلها منذ زمن بعيد طرق علمية بالذبح بالجملة.. كانت تلك طريقة تجرّ نفعاً للرواني أكثر منه لطاقم الزورق الذين كانوا يعرّضون حياتهم للخطر.

كان الشاب وليَمسون يتفرّج على هذا الصيد الأول من على ظهر السفينة، وكانت خيبة أمله شديدة عندما أخفقت محاولة الصيد تلك. لكن مع مرور الوقت أَلِف الهتاف

(1) مركب ضيّق مسطّح القعر.

مـن منصة المراقبة والاندفاع للانطلاق بالزوارق بعيـداً. في غضون ذلك كان القبطان ويلســون يظهر روحاً أكثر ودية، بلا شك مهنئاً نفســه بالحظ الذي حظي به بتأمين شـاب واحد من بين المتشردين الذي لم تكن لديه المعرفة الملاحية فحسب بل كان متحمساً للعمـل أيضـاً، ورغم حداثة سـنه كانـت لديه الحنكة علـى حضّ الرجـال على العمل طوعياً. آنئذٍ في يوم حافل، وكان من دواعي فخر الشـاب وليَمســون، أن أرسـله الربّان قائداً لأحد الزوارق.

كان الزورق مسـتدق المقدمة والمؤخرة. اسـتُخدم هذا النوع من المراكب من قبل صيادي الحيتان بسـبب الحاجة الدورية إلى اعتلاء المؤخرة بسـرعة في حالة الطوارئ بعد الاقتراب من حوت للتمكن من رمي الرمح باليد. وفي مناسبة أول تجربة لوليَمسون بهـذا النوع من الصيد في أحد تلك المراكب المهلهلة نسـبياً، كان اثنان أو ثلاثة حيتان تنضخ في الجوار. تقدمت سـفينة أخرى باتجاههم وأطلقت زوارقها لتسـتغل الفرصـة المهيأة، فأطبقت الزوارق من السـفينتين كليهما على الحيتان، وأضافت روح المنافسة حيوية إلى الصـيد.

كان الشـاب وليَمســون في السـن اليافع عندما يكـون الخطر امـرأة غاوية والموت خيالاً. كانت المطاردة رياضـة أكثر منها عملاً. ارتفعت حرارة دمه في البرد القطبي وهو يديـر الدفـة باتجاه فوّارة رقيقة بيضاء من الرذاذ وظهر الحوت الأسـود الذي كان يظهر لفترات وجيزة فوق الموج. كان زورق آخر من السـفينة المنافســة يتقدم باتجاه الطريدة التي اختارها. لقد كان ذلك سباقاً تقشعر له الأبدان من أجل جائزة هائلة، وكانت خيبته شديدة عندما وصل الزورق الآخر ضمن مجال الرمي أولاً وأسرع رمح باتجاه الهدف الحي. إلا أن السلاح أخطأ رميته، فغطس الحوت. صاح وليَمسون ورجاله في ارتياح، محبورين بفشـل منافسـيهم. بعد دقيقة، تحولت صيحات الجذل إلى صرخات يأس. فقـد أدّت ضـربـة المطرقة من أحد فصّـي ذيل الحوت إلى قذف الـزورق الآخر خارج الماء، وتطاير الرجال في كل الاتجاهات من الحطام المفتت.

تُرك الصيد في الحال من أجل عملية الإنقاذ. تم رفع اثنين من المصـابين إلى زورق

وليَمســون. ورفع زورق آخر فرداً ثالثاً من الطاقم، ولاحقاً تم أخذ الناجين إلى السفينة الأم بعد بحث غير مُجدٍ عن الآخرين، الذين إما قتلوا مباشرة أو غرقوا في البحر المتجمد.

أفضت مناسبات أخرى إلى نتائج ناجحة: حيتان موثقة إلى جانبها وأخرى في القَطر، شقت سينكا براقه *Sitka Brave* طريقها متاقلة باتجاه الجنوب إلى محطة على الساحل الغربي وعندئذٍ تم ترميمها في فريسكو. استمرت الرحلة ثمانية أشهر والشاب وليَمسون، الذي أصبح متمرساً على الشدائد ووجد الحياة مثيرة وممتعة، قد أقنعه القبطان ويلسون بالتوقيع على الالتحاق برحلة أخرى لمدة أقصر. أما روري أوكونر فقد كان أكثر من راضٍ بأخذ مرتبه والعلاوة والانطلاق، متجنباً باحتراس باربَري كوست، ذاهباً إلى داخل البلاد إلى إحدى مزارع الفاكهة.

عندما عادت السفينة ثانية من المياه الشمالية، تخلى القبطان ويلسون عن منصبه وابتاع شونر[1] schooner. كان وليَمسون غير مستقر في فكره حول المستقبل، فقام بزيارة مزرعة سويت ووتر واستُقبل بحرارة من قبل السيد هاورد. كانت العمة إيمي غائبة. كانت هي وسبع نسوة من الطائفة البروتستانتية المتشددات، متلفعاتٍ بأثواب ناصعة البياض، يقمن مؤقتاً في التلال بانتظار المجيء الثاني للمسيح. بعد سنين عدة، تزيّنت هذه الطائفة ثانيةً كالعرائس واعتلين أسطح الأبنية في فريسكو استعداداً لأن يُنتزعن عالياً إلى المجد. بشكل عرضي، في هذه المناسبة الأخيرة، تم تعويض المشاهِدات المخلصات عن عدم ظهور المُضيف الملائكي بمشهد نادر لمذنّب هالي.

* * *

(1) نوع من المراكب الشراعية الصغيرة.

الفصل الخامس

تمرُّد في بحار الجنوب

عـاد وليَم وليَمســون إلى سـان فرانسيسكو بعد إجـازة في المزرعـة، حيث احتفل بعيد ميلاده الثامن عشـر - ولكن ليس في ردهات سـبايدر كِتش Spider Ketch وباقي «البحّـارة الأصدقـاء». لقد كانت تجربة واحدة مع جماعـة الكريمب كافية وافية. رأى الحياة بعجرها وبجرها منذ أن غادر بريستول صبياً ابن ثلاثة عشر عاماً، وها هو ذا يقف الآن عند مفترق الطرق محتاراً بشـأن مغامرته القادمة. شـاب ذو مَتْن ميّال إلى القِصر، قـاسٍ مثل جلـد غير مدبوغ، مازال غير راغب في مهنة مكتبيـة. لقد أمضى مراهقته في أجواء كانت تُعتبر الحياة فيها رخيصة، وأصبح معتاداً على المخاطر ونمت لديه حاسّة ردّ فعل سريعة نتيجة تجربته لكثير من الطوارئ. كان بطبعه سريع التأقلم، سهل المعشر ليّن العريكـة، جسـوراً وماهراً عندما تقتضـي الحاجة الدفاع عن نفسـه ضـد الأصناف الفظّة المشـاكسـة التي تحوم في الأنحاء بحثاً عن المشـاكل.

أعطته خمس سـنين من التطواف استشرافاً رحب الأفق. ويمكنه أن يتخذ أي مكان مـن العالـم موطناً له إذا حطّ رحاله فيه. إنّ الصحبة الخشـنة والفاسـدة أحياناً التي كان يحاط بها قد غيّرت منه قليلاً في بعض الأوجه. كان يبتاع ويدرس كتباً أشبه بالإغريقية لرعاة البقر والمنقبين والبحارة الذين عمل فيما بينهم. لقد ألهمته الشـمس، والنجوم، والغيوم وكل بدائع السـموات التي عادة لا يعير لها سـكان المدن بالاً إلا خطرة عابرة، ألهمته التأمل في أسـرار الحياة والخلق. دون أن يرتاب حتى المقربون منه، كان عذابه يتزايد بشوق روحاني لم يكن ليشبعه لا كنيسـة ولا معبد.

من الأدلة المتوفرة يمكن لأحدهم أن يطلق حكماً بأن الشاب وليَم وليَمسون في سنيّ مراهقته كان فتىً قويّ الشكيمة شديد المراس مع مسحة جمالية في طبيعة شديدة الواقعية من ناحية أخرى. ولكن مهما كان المنحى الذي كان يجد نفسه منخرطاً فيه، سواء كان مخيراً أم مسيراً، بدا لا أكثر من وسيلة للحصول على الزاد الذي كان تمهيداً لمغامرة جديدة. لم يجد الصنعة المناسبة بعد، ولم يصل إلا إلى فهم مبهم لما كان يريده من الحياة.

قام بجرد موارده بعد عودته من مزرعة سويت ووتر إلى فريسكو، والتي تألفت بشكل رئيسي من رزمة من مئات الدولارات. وأيّ جهة من الجهات الرئيسة على البوصلة ولّى وجهه شطرها كشفت عن حقول فيّاحة من الفرص لشخص يملك رأسمال صغير وأصولاً عظيمة من الشباب والصحة والشجاعة والحيوية والقدرة على التكيُّف. امتدت كامل الولايات المتحدة شرقاً؛ وكندا، ويوكون Yukon وألاسكا إلى الشمال؛ وإلى الجنوب كل أميركا الجنوبية؛ وإلى الغرب البلاد الأسطورية للمشرق. أين يجب عليه أن يذهب؟ ماذا بعد عليه أن يفعل؟ جالت أفكاره في أرجاء العالم، حتى إلى أفريقيا وإلى الطرف الآخر من العالم. تريّثت هنا وهناك دون قرار ولكنها عبرت موطنه الأم القديم من غير حتى مجرد لمسة فراشة.

يميل هؤلاء الذين سئموا الملذات في سنّ متقدم إلى نسيان أن الشباب المليء بالحيوية يجد أشد المتعة في الترقّب. كان الشاب وليَمسون يختلج توقاً إلى المجهول. وكان بانتظاره مشاهد وتجارب جديدة خلف الجبال وتحت أفق البحار. لكنه اكتفى من القيام بالأعمال الروتينية في العالم من أجل مغامرة منعشة. تجربته في الأعمال الوضيعة ذات الأجر البخس نسبياً جعلته شديد الفطنة لقيمة المال. ويجب على تجربته القادمة أن تعطيه فرصة نجاح فيما لو بذل جهداً عظيماً لضمان الوسائل التي تقوده إلى القوة والاستقلال.

كان ما يزال حائراً بلا قرار حول مستقبله عندما اكتشف القبطان ويلسون الفندق الصغير الذي كان يقيم فيه، فقام بزيارته وقدّم له عرضاً.

«ربما سمعت أنني قد ابتعت التكونة أيكس *Ibex*»، قال وهو يتجرّع الخمر. «وهي حالياً تتجهز على رصيف الميناء، وقريباً سوف أبدأ بالتجارة في جزر كارولاينز Carolines. لقد قمت بعمل جيد على سفينة صيد الحيتان، و...، طيّب، أنت شاب قريب من قلبي وعقلي. الآن، هل تودّ أن تبحر معي في الأيكس كمعاون أول؟».

كان الأجر المعروض جيداً، وإمكانية الذهاب إلى بحار الجنوب جذابة. يمكن للقبطان المتأنق أن يكون أنيساً ومقنعاً إلى حد بعيد عندما يحب، وبعد المزيد من الكلام والشراب، وافق وليَمسون على الانضمام إليه.

هكذا فتحت نافذة أخرى للمغامر، وغادرت التكونة بعد أسبوع أو أسبوعين شواطئ أميركا واقتفت الأثر على المحيط إلى جزر الجنوب. لدى بلوغهم كارولاينز، أنشأ القبطان ويلسون محطة تجارية في پونايي Ponape، ونصب وليَمسون مسؤولاً عنها على الشاطئ. هنا وفي هذه المجموعة تبنّى المحليون عُرفاً مشابهاً لما عند الأسكيمو بخصوص الزواج المؤقت، ولكن مع اختلاف ثانوي طفيف هو أن النساء كن يجلبن إلى الشاطئ الرملي ليختار البحارة من بدلاً من أخذهن إلى السفينة في قوارب طويلة (كانو)، وكان هناك تحريم صارم على العذارى القلائل في المجتمع. كانت الفتيات أكثر جمالاً، وبصحة جيدة عموماً في تلك الأماكن على طول السواحل التي ترتادها السفن بنحو متقطع. وحيثما ذهب الكثير من البحّارة البيض، كانت الأمراض التناسلية سائدة؛ كل شيء اعتمد على مدى الالتقاء مع الأميركيين والأوروبيين، الذين كانوا مسؤولين بشكل رئيسي عن البلاء.

عندما توطدت أركان تجارته جيداً، أخذ القبطان ويلسون شحنة من لبّ جوز الهند المجفف إلى أستراليا وعاد برزم من الأقمشة ومسدسات وبنادق وأصناف أخرى ليضيفها إلى مخزنه في پونايي Ponape بإدارة وليَمسون. كانت رحلته التالية إلى الصّين مع زيت النخيل وخيار البحر.

تقسم الجزيرة التي أقيمت عليها المحطة التجارية سلسلة من الجبال التي تعدّ غير سالكة. وكان الكثير من الأراضي المستصلحة من الغابة من قبل السكان الأصليين،

يستثمر بالزراعة. كانت المعز والخنازير البرية تسرح في الأنحاء، وكان السمك وفيراً، وكل نوع من الفواكه المدارية: فاكهة الخبز، الپاپاو، الموز، الأناناس، تفاح الكستارد، بما فيها جوز الهند، كان ينمو بغزارة على الساحل. كان الطرف البعيد من الجزيرة محتلاً بالقوة من قبل الإسبان، والطريقة الوحيدة لزيارته هي عبر البحر. كان محظوراً على أبناء القبيلة التي تعيش بجوار المحطة التجارية الذهاب هناك وذلك بقرار من زعيمهم الخاص، ذلك أن المستوطنات الإسپانية عجّت بالأمراض التناسلية. وكان لهذا الأمر الاستحسان الخالص من المبشّرين اليسوعيين، الذين كانت لديهم بعثة ليست بالبعيدة عن مسكن وليَمسون المشيّد من سعف النخيل.

حصل القبطان وليَمسون على تصريح من الحاكم الإسپاني بالاتجار مع أهالي پونايي Ponape، ولكن المعاناة بسبب الأوضاع على الجزيرة أعطت كلاً منهما واجساً ينذر بقرب حلول مشاكل. كان أحد الأسباب أن القبيلة التي كانت تعيش على الجانب الذي أسّست عليه المحطة التجارية الجديدة رفضت بكل إصرار الخضوع للحكم الإسپاني. سبب آخر كان واضحاً وهو أن أولئك الذين عاشوا تحت السيادة الإسپانية كانوا مستعدين للتخلص من نير الاحتلال لو تهيأت لهم أي فرصة معقولة للنجاح.

مع ذلك لم يحدث شيء مثير لعدة أشهر. طفق وليَمسون يقايض القماش والسكاكين والخرز والتلمون المعلب بنجاح ملحوظ، وراكم مخزوناً كبيراً من لبّ جوز الهند المجفف وزيت النخيل بانتظار عودة ويلسون من الصّين. قام بمقايضة ثلاث فقط من البنادق في المخزون، كان ذلك بعد أن حصل على ترخيص خاص من السلطات الإسپانية. إلا أنه في سياق الأحداث التالية، كان مقدراً أن يكون لهذه الصفقة عواقب مأساوية وخيمة.

كانت التكونة أيكس على ممرّ الصّين عندما وصل خبر العصيان إلى الشاب وليَمسون في المحطة التجارية. منذ وصوله إلى پونايي Ponape كان تقريباً على دراية بالاستياء بين قبائل ما وراء سلسلة الجبال. والآن، حسب التقارير، فإن الامتعاض الخامد شبّ في تمرّد حارق انتشر في كل أرجاء المناطق المحتلة من قبل الجنود الإسپان.

جاءه الخبر كصدمة، فلم يكن ليخطر على باله أن أي تطورات خطيرة يمكن أن تنشأ عن الإحساس بالضيم بعد أن أخذ يشعر بالأمان أكثر فأكثر في هذه الجزيرة الجميلة من المحيط الهادئ. كان الإسپان المسلحون تسليحاً جيداً يمسكون بقبضة السوط، وقد بدا الأمر غير قابل للتصديق أن يلجأ المحليون إلى تكتيك العمليات الانتحارية بتحدٍّ سافر. ولكن ما إن بلغته أول إشاعة عن التمرّد حتى قام بإجراءات فورية لمنع وقوع البنادق والذخيرة والخناجر لديه في يد رجال القبائل المحليين، الذين كانوا في تعاطف كامل مع الثوار.

كان أول تصرّف له أن دعا قسّيسين من البعثة التبشيرية لجرد هذه الأسلحة، وعندئذٍ جعلهم يشهدون على قفل المحل وختمه ثم حراسته على نحو كاف. عدة أيام مضت بعد ذلك، ثم غادر وليَمسون پونايي Ponape في زورق (كانو) يقوده صبيان محليون، لزيارة جزيرة غير مأهولة لجمع القثاء من فصيلة خيار البحر الذي يكنّ له الذواقون الصّينيون عظيم تقدير ويعتبرونه طعاماً صالحاً للأكل لذيذاً. كانت تلك رحلة دورية وعادة مربحة، لكنها في هذه المناسبة تكشّفت عن مجازفة سيّئة الحظ. فعندما كان الكانو على بعد أربعة أميال من المقصد، ظهرت طرّادة إسپانية حول رأس بري، فقامت بتعديل مسارها باتجاه الزورق مطبقة عليه بالسرعة القصوى.

أصاب الصبيان المحليين الذعر، وتجاهلوا أوامر وليَمسون بتمالك أنفسهم. كانوا قد سمعوا قصصاً مبالغاً فيها عن قسوة الإسپان ورهبوا احتمال أن يقعوا في قبضتهم. وبشكل عفوي قفزوا إلى البحر وسبحوا بسرعة باتجاه الشاطئ.

الشاب وليَمسون، لوحده في زورق السباق، وجد نفسه على قرني معضلة. كان المحليون يتعلمون السباحة قبل أن يمكنهم المشي بصورة صحيحة. إنهم أكثر مقاربة بشرية للسمك في القدرات المائية. كان نفسه سباحاً بارعاً، لكنه تردّد في أن يسبح أربعة أميال في بحر يعج بسمك القرش. وبدا انتظار الإسپان أهون الشرَّين.

جلس في الكانو الذي كان يتمايل على أمواج المحيط الهادئ الطويلة، وهو يراقب الطرادة تقترب منه ثم تنزل قارباً. كان ضميره مرتاحاً، لكنه لم يثق بالإسپان، وكان

الانقضاض المفاجئ للطرادة يتضمن تهديداً مبطناً. وقف منفرج الساقين حافياً، متوازناً مع الاهتزاز الإيقاعي، شاب لوحته الشمس بالسمرة يكسوه سروال قطني، صدرة وقبعة مزارعين كبيرة من القش. كانت لغته الإسبانية التي تعلمها كافية لطرح سؤال جرئ، لكنه لم يستطع استيعاب الجواب الرشيق. عندئذٍ تكلم الضابط المسؤول عن القارب بلغة إنكليزية ركيكة. كانت تعليماته تقضي باصطحابه إلى الطرادة للتحقيق. مدركاً عدم جدوى الرفض انتقل وليَمسون من الكانو محتجاً. تُرك الزورق مهملاً وعلى الغالب تم استعادته لاحقاً من قبل المحليين عندما خلا الساحل.

تجاهل الإسبان الصبيان المحليين الذين كانوا يسبحون باتجاه الشاطئ، وعادوا إلى سفينتهم، وتم احتجاز وليَمسون في سفينة تدعى لاثاريتّو ***Lazaretto*** تحت متن المركب. في الحال انطلقت الطرادة، وفي وقت متأخر من النهار ألقت مرساتها مقابل محل إقامة الحاكم وثكنات الجند.

كما كان محتماً، سرعان ما قمع الإسبان العصيان، ولدى استعادة حالة السّلم، أرسلوا ثلاثة من القواد المحليين، زعيماً مسناً واثنين من أتباعه، مكبلين بالأصفاد إلى السفينة الحربية من أجل حجز آمن. في تلك الأثناء، أكّد الشاب وليَمسون في مقابلة مع قائد الطرادة على حقوقه كمواطن بريطاني وطالب بمعرفة الأسباب وراء المعاملة الاستبدادية. علم بقنوط كبير أن الحاكم يتّهمه بالمسؤولية عن التمرد المسلح بسبب بيعه بشكل غير قانوني أسلحة إلى السكان الأصليين. من الجلي أن الاتهام كان مناورة لحفظ ماء الوجه. طالب السجين عبثاً بالسماح له بالدخول إلى المحطة التجارية ليظهر التصريح الخطي الذي حصل عليه قبل مبادلة الأسلحة الثلاثة. كانت لدى القائد تعليمات صارمة بإبقائه محجوزاً على ظهر السفينة، لكنه طمأنه بأنه سينال محاكمة عادلة في وقت مناسب.

كان وليَمسون يذرع المكان جيئة وذهاباً ضمن معتقله على السفينة في غضب عاجز. وحلّ اليأس محل الغضب عندما أبحرت السفينة باتجاه مانيلا في الفيليبين، التي كانت أيضا تحت الهيمنة الإسبانية في تلك الحقبة. لقد خسر كل شيء في مشروع

بحـار الجنوب: عمله، ومالـه، وأصدقاءه، في الوقت الذي بدا فيه النجاح مضموناً. لم تكـن آفاق المسـتقبل واعدة. بالطبع في نهاية المطاف كان القبطان ويلسـون سيسـمع بالطاقـة ويمكـن الاعتمـاد عليه باتخاذ تدابير شـديدة لتـدارك الأمر. كان ذلك شـعاع الأمل الواهي الذي منحه بعض السـلوان في مأزقه المقيت.

عندما أصبحوا في عرض البحر، لم يكن لديه الكثير من الشكوى حول معاملته. كان كل ما لديه في الدنيا عدا ما ملكه باستحقاق في بونابي Ponape، هو الكسـاء المداري الخفيف الذي كان يلبسـه وقت أسـره. لم يكن لديه أمل برؤية أي من أملاكه الأخرى ثانية، وبالتالي جُنِّب خيبة الأمل في المستقبل. ألبسـه أحد الضباط الإسبان رداءً أفضل نوعاً ما وأضاف إلى الهدية حذاءً نعله من الحبال. بعيداً عن الكارولاينز، حاباه الضابط البحري بمعاملة مفضلة مقارنة بتلك التي اختصّ بها أسـراه من السـكان الأصليين. لم يكن ببسـاطة يستسـيغ لعب دور السـجّان على سـجين أبيض. لو أن الإنكليزي يوافق على المسـاعدة في مطبخ السـفينة لما كان هناك داعٍ لإبقائه في السـجن. كما كان بادياً أن السـفينة لاثاريتـو *Lazaretto* كانت مطلوبة لحالة إصابة بالحمّى، وكان ولِيَمسـون فـي غاية السـعادة بتبادل المحلات وإدلاء أرجوحة شـبكية في قسـم الوقادين. كان السـفر إلى مانيلا مملاً. كان وليَمسـون على الأرجح ليسـتمتع به في ظروف مختلفة، إذ كان الطقس معتدلاً والضباط الإسـپان والبحارون سُـمحاء معـه. مع ذلك فقد أظلّ عقله مسـتقبل ينذر بالوعيد. بالنظر إلى الأحداث الماضية، كانت الأشهر التي أمضاها في جزر الكارولاينز شـاعرية. إن سـوء الحكم الإسـپاني، كما عرفه بنفسـه، كان سبب التمرد، ولكن تلك حقيقة غير مرضية من المسـتبعد أن تفيده في الدفاع عن نفسـه أمام محكمة إسـپانية. وبشـكل عرضي، في وقت لاحق، وقعت جزر الكارولاينز والماريانا إلى الشمال منها تحت هيمنة أسوأ بالانتداب الياباني.

استطاع وليَمسـون مـرة أو مرتين الدخول على قائد السـفينة الحربيـة وحضّه على ضرورة إعلام القنصل البريطاني بأمره لدى وصول السـفينة إلى الميناء مباشرة. لم يبدِ الضابط أي التزام. كانت أوامره تقضي بتسـليم كل السـجناء إلى السـلطات الإسـپانية

في مانيلا، ولم يكن ميالاً لتولي مسؤوليات أخرى. شعر وليَمسون بالقلق والاكتئاب ثانية. لم يكن يعرف أحداً في مانيلا، وقدّر أنه من المستبعد أن يقوم الإسپان بإشعار القنصل البريطاني، أو أن يمكن للقنصل أن يساعده بشكل فعَّال إذا تم إشعاره.

تحققت أسوأ مخاوفه عقب رسو الفرقاطة الحربية بقليل. وقدم في تلك الأمسية نصف فصيلة من الجند الإسپان على ظهر السفينة تحت إمرة ضابط عون معتد بنفسه. ضربت القيود على وليَمسون والسجناء الأربعة الداكنين، ثم اقتيدوا على عجل عبر شوارع جانبية في مانيلا إلى سجن في الضواحي. أيّة محاولة للاحتجاج كان جوابها ضربة وحشية في الأضلاع بعقب بندقية قصيرة، تلميح مؤلم أن أفضل ما يمكن فعله مجدداً كان أن يكيّف نفسه مع الظروف وينتظر التطورات بما أمكنه أن يحشد من صبر وتصبّر.

* * *

الفصل السادس

محنة السجن

دُفع بالمتهمين الخمسة إلى غرفة كبيرة خاوية، أُحكم إغلاقها بقضبان حديدية غليظة، وكان فيها حوالي عشرين من السجناء الآخرين رقدوا متجمّعين على الأرض الترابية القذرة. بعد ساعتين من حبسهم، وصلت فرقة من الحرس الإسباني يحملون الفوانيس وجَرُّوا خارجاً أحد البائسين وهو يحتج ثم لم يُرَ بعد ذلك أبداً. من خلال ما التقطه وليَمسون من السجناء المضطربين، اكتشف الحقيقة المشؤومة: كانت تلك زنزانة المحكوم عليهم بالإعدام، وكان الحرس يظهرون في أوقات مختلفة من الليل لأخذ بعض السجناء خارجاً للإعدام خنقاً كما كان يعتقد. لم يعرف أحد كيف كان يتم الاختيار؛ ولكن غالب الرأي أنه كان عشوائياً، التشكك في ذلك صيَّر بعض المحكومين حطاماً عصبياً.

مازالت تلك الليلة وكثير من الليالي التالية تعيش في ذاكرة وليَمسون كأسوأ ما مر به في حياته. لم يجلب ضوء النهار أي بلسم لعقله المعذب. كان الجنود يأتون ويقدّمون الطعام لبعض السجناء إلا أنهم تجاهلوه كأنه غير مرئي. ولولا إحسان بعض الرجال في الزنزانة الذين رموا إليه ببعض الفتات، لمات من الجوع هو وأربعة منحوسين آخرين من الكارولاينز.

كان معظم السجناء فيلبينيين من الهضاب، رجال قبائل أسرى لم يذعنوا أبدا للإسپان. ولكن كان هناك آخرون في زنزانة المحكوم عليهم بالإعدام هذه، الذين ما كانوا ليوقفوا أبداً بسبب انتهاكهم للقانون في مجتمع محكوم بأسلوب حضاري.

كان اثنـان منهم زوجة وصبياً صغيراً لصانع أحذية هجين جلب على نفسه ديناً لم يعد بمقدوره سداده. لهذه الجريمة ألقي بجميع أفراد الأسـرة في السجن، معذبين بالشك والحيرة حول مصيرهم الأخير.

كانـت زنزانة المحكوم عليهم بالإعدام في منتصف مجمّع، وبالرغم من الأوسـاخ كانـت جيـدة التهويـة إلا فـي الطقـس السـاكن الرطـب. وفيما عـدا سـيف داموكليس Damocles المسلط على رقاب السكان، لم يكن لدى غالبية المجتمع سوى القليل من أسباب التذمّر حول ظروفهم المعيشية.

كانـوا يُطعمون بشـكل جيد للحفاظ علـى قوتهم من أجل الأعمـال اليدوية، وكان يـسمح لهؤلاء الذين لم يكن مطلوباً منهم العمل في يوم ما بممارسة التمارين الرياضية في المجمّع، اثنان في كل مرة تحت حراسـة مسلحة. أمّا المراحيض فكانت مجرد حفر فـي نهاية الفناء، تطمر ويحفر غيرها من قبل عمالة الـسجن. وعندما كان يهب النسـيم من تلك الناحية، تصبح زنزانة المحكوم عليهم بالإعدام وعدة زنزانات أخرى محيطة بها أكثر كراهة من إنسان قذر غير مستحم.

لم يغادر الشـاب وليَمسـون الزنزانة خلال الأيام الثلاثة الأولى ما عدا زيارات وجيزة إلى نهاية المجمّع. وفيما سـوى ذلك لم يعره الحرس الإسـباني أدنـى انتباه. في اليوم الرابع قُدّم له الطعام، وفي ساعة مبكرة اصطحبه خارجاً اثنان من الجند السـفلة ومضوا به عبر المجمّع. ارتاح لما اكتشف أن المقصد كان مقرّ مدير السجن. هذا البيت وسكن الضبـاط وثكنات الجند كلها كانت ضمن نطاق الـسجن. بدا عدد الحراس، المسـلحين ببنادق قصيـرة أو بنادق ريمنغتون Remington، يخفرون مثنى بشكل مبالغ فيه على نحو سخيف إذا أخذنا بعين الاعتبـار المظهر المنيع للمكان. لكن مشهدهم أعان على تبديد أمل في الهروب كان يراوده.

جلس المدير إلى طاولة يعبث بنشّـافة حبر. لـم يكن ذا مظهر مرعـب؛ على العكـس كان يوحـي بالثقة، فانتعش قلب الشـاب وليَمسـون. شـاربان محفوفـان بعناية ولحية وزوج من النظارات الأنفية كل ذلك أكسـبه وقاراً ما، رغم بدانة جسـمه الذي بدا كأنه

يناضل ليتفجر خارجاً من بزة تدريب عسكرية شديدة الضيق. لم يكن هناك أي خطوط قاسية في وجهه الطافح، وكان يتكلم الإنكليزية بطلاقة بصوت معتدل النبرة.

«اسمك وليَم ريتشارد وليَمسون»، قال له وهو يراجع وثيقة. «إن التهمة الموجهة إليك هي المعاونة والتحريض على التمرّد على أراضٍ إسپانية. سوف تقدم للمحاكمة في مانيلا أمام قاضٍ إسپاني».

وقف وليَمسون منتصباً مواجهاً له.

سأله: «متى؟».

«لا علم لي بذلك»، أجاب المدير. «ربما ليس قبل عدة أشهر، لأن المحاكم مثقلة بالعمل. سيكون لديك الوقت الكافي للتفكّر في الدفاع عن نفسك. وحتى يحين وقت محاكمتك، ستلتحق بزمرة السجناء المُوثَقين للعمل معهم في أعمال الإنشاء على رصيف الميناء». أومأ مشيراً إلى أن المقابلة قد انتهت، لكن وليَمسون وقف ثابتاً.

«ليس هناك أي صحة في أنني اشتركت في العصيان في كارولاينز»، صرّح وليَمسون. «أنا أطالب بحقي كمواطن بريطاني في رؤية القنصل البريطاني».

«سأرى إن كان بالإمكان ترتيب ذلك لاحقاً».

«أريد ترتيب ذلك الآن. لا يمكنك إبقائي سجيناً لأشهر دون محاكمة. العدل هو كل ما أريده».

«بالطبع. اطمئن ستحصل على الحلوى. اليوم ستبدأ العمل مع زمرة السجناء الموثقين».

الهدوء الذي حافظ عليه الطاغية في إعطاء قراره النهائي جعل وليَمسون يستشيط غضباً على غضب.

«خذها مني.. لن أعمل في أي زمرة سجناء موثقين! أطالب بحقوقي برؤية القنصل، وعندها سأخرج من مقلب النفايات هذا».

مسح مدير السجن نظارته، وأعاد ضبطها ثم وجّه الكلام إلى الأمتن بين الحارسين قائلاً بالإسبانية: «هل تستطيع حثّه على العمل، عزيزي الرقيب؟».

ابتسم الحارس، وبمعونة رفيقه جرّ وليَمسون خارج المكتب.

قفلوا عائدين إلى المجمّع في لحظة مواتية. كان السجناء يساقون من قبل جنود مسلحين عددهم يكفي لحراسة اثني عشر سجناً من هذا النوع. رُتب معظمهم في رتلين وقد صُفدوا في سلاسل طويلة، كما أوثق المدانون الذين عُرف عنهم التهوّر ونُئي بهم جانباً. كان الحرس ببنادقهم المحشوة يتبخترون حولهم بيقظة ما كانوا ليزيدوا عليها لو كانت جواهر التاج في عهدتهم. وكان كل واحد من الخارجين على القانون بالإضافة إلى كونه مكبلاً إلى سلسلة طويلة مثل الآخرين، قد أُلبس أغلالاً على كاحليه، تم ربطها بسلسلة قصيرة في آخرها كرة حديدية يحملها بذراعه الحرة عندما يعطى الأمر بالمسير.

أشار الرقيب بيدرو Pedro، الأقدم والأضخم من مرافقي وليَمسون، إلى زمرة السجناء ورفع حاجبيه الغليظين. كان وليَمسون قد أُعطي فرصة أخيرة لإطاعة أمر مدير السجن ولكن العناد الذي كان خَصلة في عائلته منعه من الخضوع. أُعطيت أوامر فجّة، فانطلقت مجموعة العمل تجرجر أقدامها مثيرة الغبار الناعم. عصبة من المنحطين ومتعددي الجنسيات كان السجين البريطاني ينظر إليها وهي تغادر بشعور مختلط، نصف متحدٍ ونصف نادم على فرصة ضائعة.

كان الغضب مازال يجيش في نفسه على الظلم من مرافقيه. لقد توقع الأذى بسبب رفضه العمل، ولكن لم يكن لديه تصور إلى أي حد يمكن أن يذهب إليه الإسبان. جلب نداء من الرقيب الجسيم اثنين آخرين من الحرس المسلحين للانضمام إلى المرافقة، فغرق وليَمسون وسط التبادلات الرشيقة بالإسبانية بين الأربعة، غير أنه عرف ما طلبوا منه بإشاراتهم نحو الجانب الآخر من المجمّع وعندئذٍ خفقوه بأعقاب البنادق لحثه على المسير بالاتجاه المشار إليه.

تبين أن المقصد كان خزاناً حديدياً ضخماً جوانبه أعلى من ستة أقدام وله سلم قصير يستند عليه. وقف إلى جانبه مضخة وقضيب شاقولي طويل له قبضة امتدت لبضع أقدام فوق أعلى الخزان نفسه بينما انساب اثنان من المجاري الخشبية باتجاه حديقة من الخضار.

كان الإسبان يعرفون هذا الإجراء. دخل أحدهم الخزان، وخاطب الرقيب پيدرو وليَمسون على نحو جلف، وفسّر الأمر بالإيماء مؤشراً له أن يتسلق السلم ليلحق بالجندي في الداخل. امتشق الجنديان بندقيتيهما متوعدين، فأطاع السجين بخفة ورشاقة ممّا جعلهم يضحكون باستهزاء.

عندما وطئت قدماه أرض الخزان سمع داخله صوت پيدرو ثانية. كان الرقيب على السلم، وقد بان رأسه وصدره، وأمسك مسدساً بيده الكثة الشعر. لوح بمسدسه مشيراً إلى الضحية أن يتقدم إلى حيث كان الجندي جاثياً على الأرض الحديدية للخزان. أطاع وليَمسون، فقام الحارس بتكبيل أحد رجليه لمنعه من الخروج. بفعل ذلك، تسلق الرجل جانب الخزان مختفياً.

توارى الرقيب كذلك عن الأنظار. وسمع وليَمسون الإسبان يتكلمون فيما بينهم، وصار يتخلل الحديث صوت معدني. آه، لقد كان أحمق برفضه الانضمام إلى زمرة السجناء الموثقين، ولكن فات الوقت للتراجع. تُرك هناك مكبلاً داخل الخزان، ينتابه هاجس بأن محنة ما ستحلّ به. ولكن كان من الصعب حقيقة الربط بين خزان حديدي ضخم وأي غرض شيطاني.

في مجمّع السجن، كان هناك مثلث بعيد عن مشهد الزنزانة الضخمة للمحكوم عليهم بالإعدام. سمع مرتين منذ دخوله السجن صوت ضرب السياط وصرخات الضحايا. ليس لهؤلاء الإسپان أي وجدان، أدرك ذلك تماماً، ولكن علاوة على ذلك بقي عليه أن يتعلم بعد إلى أي مدى يمكن أن تمارَس الوحشية على السجناء الذين خالفوا التعليمات أو رفضوا التعاون.

بـدأ تعليمـه الحقيقي عندما أخـذ الماء ينهمر في الخـزان. وراح يعلو تدريجياً فوق ساقيه وجسـمه. أتاه اليقين مع الصدمة أن الإسـپان كانوا يريدون إغراقـه مثل الجرذ. أخذ يصيح باهتياج كلما استمر الماء بالارتفاع، وظهر وجه پيدرو المبتسـم ثانية فوق جانـب الخزان. أخفـق الضحية في فهم شـيء مما قد قيل، ولكن جـاءه الإلهام عندما أشار الرقيب إلى القبضة.

رفع وليَمسون يده وأمسك بها. اكتشف أنه إذا ضخ الماء بقوة كافية يمكنه منع المياه عـن ارتفاعهـا فوق مسـتوى الصدر. وفي محاولته البائسـة لإنقاذ حياتـه، عمل كما لم يعمل من قبل. لكنها كانت مهمة تقارن بعقوبة سيسـيفوس Sisyphus. كان الماء يرتفع عاليـاً مهدداً بإغراقـه عندما كان يرتاح مـن الإرهاق. نادى لاهثاً في يأس بأنه سـيعمل فـي زمرة السـجناء الموثقين، ولكن لم يُعَـر أي انتباه لهذا الخنـوع المتأخر. عاد مراراً وتكـراراً إلـى المهمة غيـر المتناهية، حتى توقفت عضـلات سـاعديه عـن العمل. أخذ يخدش على جدار الخزان بأظافره في لهاث مثل حيوان على وشك الهلاك، وجحظت عينـاه إلى الأعلى باسـتجداء. لم يكن الرقيـب الإسـپاني هناك، فأخـذ يدندن في صلاة نصف منسية حين وصل مستوى الماء إلى ذقنه.

دبّ الذعـر فيـه. وخـلال آخر صراع خانق رهيـب لأجل الحياة سـمع صوتاً يتكلم بالانكليزية.

«أيها الكلب المتمرد! هل ستعمل؟».

«نعم! نعم! نعم!».

بصعوبـة تعرف وليَمسـون على صوته. كافح ليصرخ عدة مـرات أخرى، ولكن بدا الأمر لا يصدق بأن اللهاث الناتج تمكن من العبور إلى أبعد من أذنيه. لكن الجواب قد سُـمع، ومـا هي إلا لحظات حتى فتحت كوة تبعها دفـق من الماء عبر إحدى المجاري المائيـة. فـرغ الخزان مـن الماء، ودخل الحرس مـع الحبال. ارتمى وليَمسـون بعد أن ساعدوه على الخروج، على الأرض الغبراء في حالة من الانهيار.

انضم إسبانيان آخران إلى الحرس الذين قاموا بالإجراءات. كان أحدهم ضابطاً ممتلئ الجسم صغيراً، دمثاً وطلق المحيا في تباين واضح مع معظم أقرانه. أما الآخر فكان مترجماً، شرح له برقة أن مدير السجن يحبّ أن يطاع وإن من الحمق الهزل معه.. نصيحة أصبحت غير ضرورية.

لقد أحدثت المعاناة التي قاساها في سجن مانيلا أثراً نفسياً في مستقبل الحجّي مدى الحياة. وفي أمسيات أيامه في كوت الحجّاج كان مجرد ذكر الإسبان كافياً لإشعال نار من السخط والنقمة في عينيه. رجل منصف بشكل ملحوظ في استشرافه العام، نمّى تحيزاً لم يكن ليزيله لا وقت ولا دراسات دينية. كان يعتبر سائر الجنس الإسباني «متوحشين وقساة ككل أصناف الدّاغو[1] dagoes حول العالم». وقليل من الناس مَن تهلّل بالفرح أكثر من الحجي وليَمون عندما حدث، بعد سنوات من فترة سجنه في مانيلا، أن هزمت الولايات المتحدة إسبانيا هزيمة نكراء في الحرب عام 1898 وأعادت المجد القديم إلى الجزر الفيليبينية.

* * *

---

(1) تعبير عامي إنكليزي يستخدم في بريطانيا حصراً لنعت الأقوام ذوي الأصول اللاتينية من إسبان وطليان وبرتغاليين. كما استخدم لاحقاً في أميركا وأستراليا لنعت الطليان.

الفصل السابع

خطة للفرار

مهما يكن الحكم النهائي الذي أطلقه وليَمسون على كامل العرق الإسپاني متحيّزاً، فإنه كان يملك سبباً أكثر من وجيه ليكره السجن العسكري في مانيلا. حيث إنهم، إلا القليل منهم، اتخذوا الأسباب ليجعلوا من الحياة أمراً لا يحتمل بالنسبة إليه. في صباح اليوم التالي لحادثة خزان المياه، انضمّ إلى مجموعة السجناء المقيدين بالأغلال وتعلم بنفسه كيف يتمّ إنشاء أحواض السفن وحواجز الأمواج بواسطة العمال المحكومين. قبل الشروع في العمل تمّ تحرير معظم السجناء من الأغلال، وهو من بينهم، بينما بقي المجرمون الخطيرون يعملون وهم يجرّون الأغلال والأثقال. بعد الاعتياد على الأعمال اليدوية لم يعد جمع الصخور والأخشاب عملاً ذا مشقة كبيرة، لكنه شعر بخزي كبير من السير مكبلاً بالأغلال هو ومجموعة السجناء المقيدين عبر شوارع مانيلا.

لم يتوقف وليَمسون، سواء أثناء السير عبر الشوارع أو في العمل أو الزنزانة عن التخطيط لوسائل الفرار والنجاة بنفسه، حيث تم الإعداد لخطة تلو أخرى ولكن دون طائل، إذ أن كلاً منها كان يُستبعد على مضض. وبمرور الأيام غدا تفكيره مشوباً باليأس والقنوط، وبدا الفرار أمراً بعيد المنال إلا إذا تغيرت الظروف المحيطة بحياته بشكل لم يكن في الحسبان. في بداية الأمر راوده الأمل بأن تتيح الأعمال في حوض السفن فرصة لذلك. الأمل الذي تلاشى عندما رأى كيف يبقى السجناء تحت الحراسة اللصيقة أثناء تأديتهم لأعمالهم. خاصة عندما نمى إلى علمه بأن اثنين من السجناء

اللذين حاولا الفرار قد أُرديا قتيلين قبل أن يتجاوزا مسافة عشرين ياردة.

كما أن فرصته في رؤية القنصل البريطاني، أو حتى خضوعه للمحاكمة بدا أمراً بعيد المنال هو الآخر. إذ أنه على الأرجح سيسلك سبيل الكثير من الناس: الزنزانة الكبيرة، ثم حارس يحمل مصباحاً في أحد الليالي يربت على كتفه، وبعد ذلك الخطو نحو المجهول. بالنسبة إليه كشخص تنتشم عبق الحرية في العيش خارجاً، كان تواجده داخل السجن عذاباً لروحه. حتى حسّ المرح والفكاهة الذي ساعده سابقاً على الخروج من مآزقه، خذله عندما زادت الحاجة إليه بشكل أكبر. وبعد أن سيطر عليه يأس شديد خلافاً لطبعه، بدأ يتساءل فيما إذا كانت الأقدار، بعد ذلك كله، قد خطّت له طريقاً واحداً في الخلاص من أسره ورقّه، ألا وهو الموت خنقاً.

في البداية، كان يخشى كل وقعة قدم تُسمع في ليالي الأرق والسهر حيث كان التوتر يسيطر على أعصابه جرّاء القلق وقلة النوم. وكشاب حالم، كان يعاني أشد المعاناة كلما تم جرّ أحد زملائه من السجناء تحت وطأة الأنين إلى مثلث التعذيب أو إلى قدر مجهول. لكن هذا الحال لم يدم سوى لفترة من الزمن، حيث بات بالتدريج معتاداً على الوتيرة التي تجري وفقها الأمور. كما أن وجبات السجن المنتظمة والعمل الشاق في أحواض السفن أعادا القوة لجسده؛ فصفا ذهنه وواجه الأمور بأمل وشجاعة متجدّدين.

في هذا الإطار الجديد من التفكير، بدأ وليَمسون الشاب بالتخطيط مجدداً لمسألة الفرار. من ناحية أخرى، تجاهل في هذا الوقت أحلام اليقظة العشوائية التي كانت تراوده وبدأ بتلمّس طريقه بتركيز عبر مسارات جديدة. إحدى الدروس التي انطبعت في ذهنه كانت على متن السفينة سيتكا براڤِه *Sitka Brave* بعد حادثة شنغهاي. حيث أصرّ بعد ذلك على الحصول على أفضل نتائج ممكنة من عمل عقيم، وتذكر أنه بمجاراته للحوادث ومسايرته للأمور حاز على صداقة الكابتن ويلسون وحصل على ترقية لاحقة، الأمر الذي أوحى إليه بنوعية السلوك الذي قد يعود عليه بالفائدة في ظروفه الراهنة. وبالرغم من أن التفاؤل في هذا الصّدد لا يتضمن إمكانية كسب ودّ آمر

السجن أو ضباطه؛ فإنه تعلّم كيف أن الحراس الإسبان يتفاوتون في المزاج، وكيف يمكن ملاطفة البعض منهم ممن يتمتعون بشيء من اللين.

كان وجود فرص لكسب ودّ آمر السجن أو أي من الضباط العسكريين أمراً شبه مستحيل والأمر نفسه ينطبق على ذوي الرتب الأخرى، باستثناء عامة أفراد القوات الإسبانية التي تقوم بمهمة الحراسة، والتي تبقى معها الاحتمالات ممكنة. إنهم لا يعتبرون بمثابة كتيبة نخبة؛ بل إنهم، على النقيض من ذلك، يعطون الانطباع بأنه قد تم اختيارهم بعناية ليشكلوا المجموعة الأقذر والأكثر عدوانية التي تقوم بالمهام المقيتة لحراسة السجن. وبالرغم من مظهرهم المستهجن، فإنهم يتفاوتون في أمزجتهم الفردية تفاوت المجتمعات في أنحاء العالم. بعضهم قد ذاع صيته بين السجناء بأنه من النوع «الكريم» إلا أن كرم أولئك الحراس اللطفاء كان بشكل عام من النوع السلبي، والذي يظهر فقط بالمقارنة مع معاملة الأغلبية القاسية. من الممكن ملاطفة هؤلاء، وعندما يعتدل مزاجهم يتنازلون لتقديم بعض الخدمات الصغيرة للمحكومين.

بدأ وليَمسون الشاب بدراسة الحراس الإسبانيين بمزيد من الاهتمام وشعر بأنه قد غدا أقل توتراً وقلقاً مما كان عليه خلال أسابيع العذاب التي قضاها في السجن. كان أرستقراطيو زنزانة السجناء المحكومين نزلاء في غاية القسوة، أمضوا هنالك سنين، وكانوا بمثابة النخبة من السجناء الذين يعاملون الوافدين الجدد معاملة النزلاء الدائمين في فندق بجوار البحر للنزلاء الذين أتوا لتمضية عطلة نهاية الأسبوع. كان هناك أيضاً مجموعة مختلفة من صغار المَدينين، حيث استشفّ وليَمسون الشاب أن السلطات الإسبانية تعتبر الدَّين جريمة كبرى. كانت دلائل عدة توحي بأن الاحتمال الأرجح في بقائه محتجزاً إلى أجل غير مسمى أكثر من احتمالات إعدامه فجأة، لذلك فقد خطط ملياً وفق معطيات جديدة يمليها ذلك الافتراض.

كان قد ألمّ بالقليل من اللغة الإسبانية في كاليفورنيا، ولديه الآن فرصة كبيرة لزيادة معرفته بهذه اللغة. كان من السهل الإيحاء إلى الحراس والسجناء بأنه يتوقع محاكمة عادلة في المستقبل وصولاً إلى تبرئته. تظاهر بعدم ملاحظة ابتسامات السخرية على

الوجوه. كان كل ما قاله وسعى للإيحاء به ترسيخاً لفكرة استسلامه للأمر وقبوله للواقع. كان مخططه ينطوي في جزء هام منه على تمثيل دور السجين المثالي وإخفاء نواياه الحقيقية.

لقد أجرى دراسة نفسية على شخصيات أولئك الحراس الإسبانيين، مفصلاً لمهامهم تجاه السجناء المقيدين بالأغلال. كان هناك شيء من الأمل حول إمكانية إيقاظ روح الاهتمام أو الشفقة لدى معظمهم، لكن رجلاً واحداً فقط بدا أهلاً لتحقيق هدفه وهو جندي يدعى ميغيل Miguel ويلقّبه السجناء: «إل پويّو»[1] El Pollo. وهذا اللقب كان رفاقه يطلقونه عليه بسبب مشيته المتبخترة وطريقة هزه لرأسه وهو يخطو مباعداً بين رجليه. في بعض الأحيان كانت تأخذه نوبة عارمة من القسوة، لكن ذلك كان يحدث فقط عند تواجد أحد الضباط العتاة في الجوار. أما في باقي الأيام فقد كان ليناً رفيقاً بالسجناء، وكثيراً ما يقوم من وقت لآخر بإسداء المعروف لهم مقابل هدايا مالية أو أشياء صغيرة، والتي كان البعض يتحصّل عليها بطرق غامضة. علاوة على ذلك بدا من الواضح أن ميغيل يمتلك عقدة «العرق المتفوق» والتي تجعله يستاء عندما يتم احتجاز أي رجل أبيض مع مجرمين ينتمون لأعراق ملونة أو عندما يعامَل بطريقة مماثلة.

ومن ثم فقد كان هناك شخص ذو طبيعة ليّنة يمكّن وليَمسون من ممارسة بعض المداهنة عليه مع تحقيق مقدار وافر من النجاح. كان ميغيل قد استمع باهتمام إلى قصة زيارات الشاب لموانئ إسپانيا، وقد أفضى إليه يوماً أن الإسپان ضد احتجاز رجل أميركي أو أوروبي في السجن بين الفيليپينيين. بدا كسب تعاطف الحارس أمراً سهلاً، والمشكلة الأساسية كانت في ضمان مساعدته العملية. كان هذا الشخص، الذي يتقاضى كباقي الجنود أجراً زهيداً، شخصاً لطيفاً إلا أنه كان أنانياً بعض الشيء. وفي رأي وليَمسون لن يقبل القيام بمخاطرة كتلك إلا مقابل رشوة. كانت الأمور تبدو مستعصية عندما وقع حادث لم يكن بالحسبان، مغيراً مجريات الأمور بشكل كبير

(1) معنى التسمية el Pollo باللغة الإسپانية: الصّوص، أي فرخ الدّجاج.

وذلك عندما كان السجناء المقيدون بالسلاسل يعملون في الأحواض الجديدة، حيث كان وليَمسون مقيداً إلى صانع أحذية ينحدر من أبوين مختلفي الطبقات، أثناء مساعدته في نقل حمولة من الحطب تم تفريغها قرب أحد الطرق. كان هناك جنود مسلحون في دوريتهم كالعادة، وبضع عابري سبيل من بحارة ينتمون لجنسيات مختلفة توقفوا لبرهة على الطريق يرقبون العمل. قرب كومة الأخشاب وقف الرقيب بيدرو Pedro. وكبقية الضباط الآخرين، لم يكن بحوزة بيدرو لا بندقية ولا بارودة، اللهم إلا مسدس في قراب جلدي مفتوح، جاهز للاستعمال الفوري.

حدّق الرقيب في السجينين أثناء اقترابهما من كومة الحطب آمراً إياهما بلهجة إسبانية مقيتة: «هيا اعملا بجدّ أكبر!». وبعد ذلك أوى إلى جانب الكومة ليعدّ لفافة تبغ ويقوم بإشعالها لنفسه.

في تلك الفترة القصيرة التي لم تكن عينا بيدرو أثناءها ترقب العمال، خطا أحد البحارة الأميركيين آتياً من الطريق، ثم تمتم قائلاً: «أخفِ هذه في مكان ما».. وألقى بين يدي وليَمسون شيئاً ثم اختفى قبل أن يفيق السجين من دهشته لينبس ببنت شفة. كانت الهدية عبارة عن دولارين مكسيكيين.

أخفى وليَمسون المال على عجل، لكنه احتاج لبعض الوقت حتى يدرك كامل الثروة التي هبطت عليه. وبفضل ذلك المحسن المجهول صار بحوزته وسائل مادية يمكنها أن تؤثر على تصرّفات «إل بويّو» أكثر من كل مفردات الأبجدية الإنكليزية والإسبانية معاً.

خلال المسير من السجن وإليه كان وليَمسون يأخذ معه كنزه حريصاً عليه. كان الفرار من محيط حوض السفن عبر الأرض الفلاة من الخطورة بمكان، والرجلان اليائسان اللذان حاولا الفرار فيما مضى، أُرديا قتيلين دون أدنى رحمة. كان هناك العديد من الممرات الفرعية والطرق الجانبية التي يمكن الفرار عبرها؛ صحيح أن الحراس لم يكونوا على درجة كبيرة من الحرص والتيقظ، إلا أن ذلك لم يكن إلا لأن السجناء مقيّدون بالأغلال.

بالكاد استطاع وليَمسون أن يحدّ من نزق الشباب الذي كان يعتريه. ومن خلال تفكيره بالأمر، لاحت له فرصة باهتة للنجاة فخشي أن يبدّدها بتهوّره وطيشه. كان زملاؤه من السجناء وفي مخيمات الاعتقال المحروم أصحابها من حق الملكية ومن المزايا التي يتمتع بها الرجال الأحرار، كانوا يتصرفون بمكر ضد القوانين ولم يكن وليَمسون مستثنىً من ذلك. وبسرعة بديهته الفطرية، تعلّم سريعاً الأساليب التي يمكن بواسطتها خداع حراس السجن عندما تعرض لذلك فرص سانحة.

مساء ذلك اليوم تم تفتيش العمال من السجناء المقيّدين بالسلاسل قبل مسيرهم منصرفين من الحوض، إلا أنه استطاع إخفاء المال بدهاء وحنكة دون إثارة أدنى شبهة. بعد عودته إلى الزنزانة تظاهر بالحاجة إلى الخروج المتكرّر لدورة المياه، مما أثار استياء أحد الحراس، ولكنه بالمكر والدهاء استطاع مقابلة ميغيل. لقد كان إلى حد ما متأكداً بأن الرجل لن يخون ثقته مهما كانت نتيجة محادثتهما. لذلك وبجسارة طلب منه المساعدة مؤكداً بأن ما يطلبه يمكن القيام به دون تعريض شريكه للشبهة.

استمع «إل پويّو» للكلام متعاطفاً معه: صحيح أنه من دواعي السرور تقديم يد العون لرجل إنكليزي أو أميركي، لكنه رجل مسكين يقوم بواجبه. إلا أن مسألة الفقر والواجب لم يعد لهما مكان عندما عرض وليَمسون الشاب عليه دولارين مكسيكيين. تحرّكت دواعي الرّحمة الإنسانية يعضدها الطمع في قلب ميغيل للتشبث بالفرصة، ووعده بتقديم العون له. فما كان من الأيدي إلا أن تناقلت المال خلسة وعاد السجين للزنزانة وهو يضع في الاحتمال أن الدولارات الثمينة قد يكون أنفقها على كلمة غير ذات قيمة. كان ميغيل معولاً عليه، ولم يكن هناك من سبب وجيه للإيفاء بوعده. وفي غمار قلقه وتوتره، كان وليَمسون الشاب يعزّي نفسه بإعادة التأكيد على رأيه في «إل پويّو» والذي يملي بأنه شخص أهل للثقة.

كانت أعصابه في غاية التوتر عندما انتظم صباح اليوم التالي في صفوف العمال من السجناء لمواصلة العمل في بناء الحوض، حيث مرّ الحراس بصف السجناء جيئة وذهاباً مقيدين إياهم بالأغلال، وكان ميغيل من بينهم. لم يكن اليوم دوره لمرافقة

السجناء، لكنه كان يضع الأغلال في أيدي السـجناء بشكل غير ملفت للنظر.

كان وليَمسـون الشاب أسـير القلق والترقب. أمسـكت يداه بالسـلاسل وهو يترقب وإذ بـإل پويّـو يأتي ويقف إلى جانبه. ضغطت الأغلال على معصميه ومرّ به الإسپاني بعـد أن تظاهـر بأنه قد وضـع الأغـلال في يديه. تحركت مجموعة السـجناء، مصحوبة بالحـراس المسـلحين علـى جانبيهـا. فُتحـت بوابات السـجن ومرّ الجمـع بالحراس متثاقلين بسـيرهم نحو البلدة. معظم السـجناء كانوا يرفعون السـلاسـل ليخففوا من ثقل الأغلال وإلا أثرت بمعاصمهم. لذلك لم يجلب وليَمسون انتباهاً خاصاً بفعله مثلهم، ولم يلاحظ الحراس المرافقون أن وليَمسـون لم يكن مقيداً إلى السلسـة برغم تظاهره بذلك.

كان مـن غيـر المحتمـل أن يتعـرض ميغيل لأية لشـبهة. لقد قـدّم مفاتيـح الحرية، وأصبحت بيدي وليَمسـون الآن مهمة فتح الباب وعبور عتبة الأسـر إلى فضاء الحرية، دون أن يكون لديه أدنى تصور للمخاطر المحدقة. لكنه واجه الأمر بعزم إن لم نقل بثقة كبيرة إذ أن اليأس يحرّض على التهور. كانت أعصابه مشدودة ونبضـات قلبه متـسارعة، لكنـه كان يمشـي بخطوات واثقـة مع الآخرين مقاومـاً كل انفعالات قلبـه ليتمكن من التصرف بسـرعة.

لقد أعدّ خطته الفعلية للفرار بحذر كبير، آخذاً بالحسبان أن الخطة إن فشلت سيكون هناك احتمال ضئيل ليحظى بفرصة أخرى. كان يمشـي صـباح مسـاء مجهداً في مسيره المخـزي مـن وإلى أحواض السـفن، معايناً كل شـارع وكل مبنى على طـول طريقهم المعتاد، دون أن يلفت انتباه أحد. بغض النظر عن أحواض السـفن، كانت تلك المنطقة الوحيـدة في مانيلا التي يعرفها جيداً، وقد رسـخ في ذهنه جيـداً المنطقة المحددة التي يمكـن لفـراره اليائـس أن يكون ناجحاً فيها. كان المـكان الذي وقع اختياره عليه مقابل شـارع جانبي، وعلى مسـافة غير بعيدة يتدلّى علم من سارية بارزة. كان قد لاحظ ذلك العلم خلال أول مسـير له مع مجموعة السـجناء المقيدين بالسـلاسـل، وذلك صبيحة اليـوم التالـي للمعاملة القاسـية بالمياه التي تعرض لهـا. لقد رآه منذ ذلـك الحين عدّة

مرات محركاً شيئاً داخله، إذ أنه لم يكن علماً إسبانياً كتلك الأعلام المنتشرة في كل مكان والتي لم تكن في نظره إلا رمزاً للظلم والاستبداد. لقد كان علماً يعني له كسجين أكثر من مجرد رمز للحرية؛ لقد كان دعوة مزهوّة ينشد عبرها الأمان والحماية. وبأسئلته المتحفظة لزملائه من السجناء استطاع أن يؤكد قناعته بأن ذلك المبنى الذي يرفرف عليه العلم المزدان بالنجوم والأشرطة لم يكن إلا القنصلية الأميركية.

لقد كان ذلك العلم مصدر إلهامه ووحيه صبيحة ذلك اليوم المشمس، الذي كان وليَمسون يأمل أن يكون آخر يوم يشهد فيه المسير مع مجموعة سجناء السلاسل. صحيح بأن الفرار إلى المأوى المتمثل بالقنصلية كان يتطلب مجازفة كبيرة، إلا أنه كان على ثقة أنه عندما يحين الوقت لاتخاذ الموقف الحاسم، سيحزم أمره. مع ذلك كان يحسّ بالألم يعتصر معدته كسائر الرجال الشجعان الملهمين الذين يقفون على مفترق الطريق الفاصل بين الحياة والموت.

كان رجال الدورية الإسبان مستعدين عند أقل سبب لإطلاق النار. ولم يكن مشهد وابل الرصاص المنهمر من كل حدب وصوب مغرياً لأحد من السجناء الراغبين بالبقاء على قيد الحياة، وكذلك الأمر بالنسبة لوليَمسون الشاب الذي كان متشبثاً بأذيال الحياة، والذي كانت فكرة الموت الوشيك تصيبه بالغثيان.

* * *

الفصل الثامن
مأوىً في مانيلا

كانت مجموعة السجناء المقيدين بالسلاسل تجر خطواتها المتثاقلة كرجال آليين عبر شوارع مانيلا المغبرّة. كان من المفترض أن يمشوا بشكل متسق ناظرين أمامهم والأمر نفسه ينطبق على الحراس الإسبان، إلا أنهم لم يكونوا يتقيدون بذلك. كانت أعينهم تنساق بسرعة وراء الإغراء المتمثل بوجوه النساء الجميلات وسيقانهن. وبالرغم من أن السجناء كانوا مشدودين إلى المناظر والأصوات في طريقهم، فقد كانوا يعملون جاهدين على إخفاء ذلك الاهتمام. كان جو عام من اللامبالاة يسود المسير، ولكن عندما كانت الخطوات تتباطأ، يبدأ الجنود بالصياح والقمع مستخدمين أعقاب البنادق فتعمّ الفوضى ويسود الاضطراب. كان وليَمسون يدعو بألا يحدث شيء من هذا النوع قرب المكان الذي اختاره للفرار. كانت قلة من الجنود تحمل أسلحتها؛ كان معظمهم يلقي بالبندقية أو البارودة متدلية على كتفه كيفما اتفق، إلا في تلك الأوقات النادرة حيث يدب فيهم الحماس فجأة فينهضون لإعادة النظام إلى نصابه.

كان وليَمسون الذي يحمل السلسلة متظاهراً بأنه مقيّد إليها، يقترب من شارع العلم رويداً رويداً. لم يكن هنالك من فوضى في الرتل، وبدأ بالصلاة بتضرع أكبر ألا يقع شيء من ذلك. دون أن يثير شبهة حوله، كان بمقدوره ملاحظة أن الحرّاس من حوله قد أرخوا بنادقهم وهذا يعني أن ردّة فعلهم لن تكون بتلك السرعة. كما لاحظ بأن أعداد الماشين في الشارع الرئيسي ذاك الصباح هي أكثر من المعتاد. بضعة خطوات أخرى ويصبح العلم الأميركي على مرمى بصره.

بدأ قلبه يرتجف بلهفة يحاول كتمانها. لقد حان الوقت. رمى بالسلة أرضاً وانطلق عبر الطريق لا يلوي على شيء. رآه على الفور حارس أو اثنان من الإسبان، فبدأا بالصراخ مسترعين انتباه الآخرين. تنبه السجناء من غفلتهم وأخذتهم هم والمارون من حولهم حالة من الصخب واللغط.

بدأت الطلقات تتطاير فوق رأس الهارب وانطرح الرجال والنساء في الشارع أرضاً، وإذا بالجنود يفتحون فوهات بنادقهم بوابل من الرصاص لا يكاد يفرّق بين الصالح والطالح فوق جموع الناس. صار الرصاص ينهمر بغزارة على الجدران الحجرية وإذا بلوح زجاجي يتناثر قطعاً على الرصيف.

ساهم الخوف في أن يتصبب العرق الغزير من جسم الرجل الهارب وهو يسعى جاهداً بين الجموع إلى الفرار، في ذلك الجو الذي تسود فيه الحرارة والرطوبة. فجمح بين المشاة في الشارع، وخطا فوق المستلقين هارباً باتجاه الشارع الجانبي، في نفس الوقت الذي جاوز وابل آخر من الرّصاص أذنه.

نهض رجل سمح الملامح يرتدي البياض عن كرسيه عند بوابة القنصلية، وأخرج من شفتيه لفافة تبغ مانيلية. اندفع وليَمسون كالسهم بجانبه إذ لم يكن هناك وقت للشرح والتفسير. كان ثلاثة أو أربعة من الحراس الإسبانيين يهرعون باتجاه المبنى. قال وليَمسون وهو يلهث: «ساعدني!». لم يتلكأ القنصل الأميركي، بل سرعان ما دفعه داخلاً، وصفق الباب الخشبي الكبير وراءه وأوصده.

ما هي إلا لحظات حتى صار الإسبان خارجاً وارتفعت أصواتهم بالصياح الغاضب. ولكي يعبّروا عن إصرارهم على ما يريدون، وهو الدخول إلى القنصلية، صاروا يضربون الباب بأحذيتهم العسكرية وقبضات بنادقهم، بينما احتشد الناس خارجاً.

كان الأمر الذي ساعد الهارب أن الشخص الذي شاءت الأقدار أن يتعامل الإسبان معه هو السيد رَسل ويب Russell Webb، الذي كان يتمتع بشخصية متميزة بالإضافة لاستقامته ونزاهته. تجاهل وليَمسون الذي وقف خلفه يلهث ويمسح العرق المتصبب

من وجهه بساعد يده. حدّق القنصل ويب بين القضبان وأمر الجنود فجأة بأن يكفوا عن صراخهم وضجيجهم. بعد أن أنصتوا إليه، سأل: «ما سبب كل تلك الضوضاء؟»، فقام الرقيب بيدرو بالشرح والبيان بمنتهى الصراحة: رجل إنكليزي اعتقل بتهمة إثارته لفتنة في مقاطعة إسبانية، تخلّص من أغلاله ولاذ بالفرار وسلطات السجن تريد إعادته وعلى الفور.

بدأ وليَمسون الشاب بشرح الجريمة التي يتحدثون عنها من وجهة نظره الخاصة، لكن القنصل أومأ إليه بأن يلتزم الصمت. ومرة أخرى التفت القنصل إلى القضبان، وسمعه الشاب وهو يقول بالإسبانية: «عليكم أن تحضروا إذناً من حاكم مانيلا، ولن أسمح لكم بالدخول قبل ذلك».

بعد ذلك جاء ضابط وبدأ بالوعيد والتهديد بصفاقة وبقي القنصل رابط الجأش. كان يعلم بأن القصة لا بد أن تنتهي بتهديد من الجانب الإسباني، وأن ذلك الضابط ذا الرتبة الصغيرة لن يجرؤ على اتخاذ خطوة خطيرة على مسؤوليته الخاصة خشية العواقب. انسلّ الحرّاس بعيداً، وتبدّد حشد الناس، وزالت المخاوف عندما تبين أن أحداً من المتفرجين لم يصب بأذى خلال الأحداث. بعد أن ضمن السيد رَسل ويب مهلة من الوقت لالتقاط الأنفاس، قاد وليَمسون الشاب إلى غرفة أعلى الدرج وطلب منه الجلوس، وأمر فتى فيليبينياً أن يمزج بعض الجون كولينز John Collins له ولضيفه. سعى «الضيف» جاهداً إلى التعبير عن امتنانه العظيم. ثم رفع كأس النبيذ، مستروحاً نسائم عليلة من مروحة متدلية من السقف، فتراقص الثلج في الكوب، وارتشف شراباً كأنه رحيق الآلهة. لقد تبدد جحيم السجن، كانجلاء كابوس بضوء النهار. وعادت إليه كل نشوة أيام الصبا والشباب التي خلت لتشعل في روحه جذوة الحبور المتقدة. لقد أصبح حرّاً، وفكرة أن يفقد حريته مرة أخرى لم تكن لتراوده في أول ساعة من ساعات النصر البهي.

اتخذ القنصل له مقعداً مريحاً على كرسي طويل من الخيزران ووضع قدحه على مسند الذراع.

«والآن، يا بني!! من أنت؟، وما كل هذا الذي جرى؟».

دون مقاطعة استمع لقصة وليَمسون، من وقت أسره من القارب في البحار الجنوبية، إلى فراره الجريء عبر شوارع مانيلا. لم ينبس القنصل ببنت شفة حتى عندما سرد الهارب قصة حادثة خزان المياه، إنما ادخّر تعليقاته حتى نهاية القصة. بعد ذلك علّق قائلاً: «أعتقد أن ما قلته هو الصواب. وأنا أعرف تماماً حقيقة هؤلاء الإسبان الأوغاد. لكنك رجل بريطاني، ويقع على عاتقي إخطار القنصل البريطاني».

«نعم. وهذا ما أريده يا سيدي. لقد طلبت من آمر السجن أن يبلغه بالقضية، لكنه رفض».

«سأقوم بتسوية الأمور يا بني»، قال له الأميركي واعداً. «سوف تأتي معي. هناك غرفة في الأعلى ستكون فيها في مأمن حتى أعود. وفي حال جاء الإسبان ودخلوا، ولا أعتقد أنهم سيفعلون، فبإمكانك أن تتسلّ عبر سطح المبنى، ومنه إذا اضطررت إلى السطح الذي يليه وتنزل عبر بيت خالٍ إلى الشارع متخذاً سبيلك إلى سفينة بريطانية في حوض السفن».

لم يتهدّد اللاجئ خطر خلال فترة غياب القنصل التي طالت، وكان بإمكانه متابعة الأخبار عبر مطالعة الصحف والمجلات في المكان.

عاد رَسل ويب يستشيط غضباً وأنبأ قائلاً: «لقد عدتُ بخفي حنين، رفض زميلي القنصل البريطاني التدخل».

كان من الواضح أن اللقاء بينهما قد استحال إلى جلسة عاصفة من النقاش الحاد. وكانت وجهة نظر القنصل البريطاني أنه لا يرغب بالتدخل في شؤون الذين أقحموا أنفسهم في الثورات والنزاعات العالمية. إذ أنه يعاني ما يعانيه من العديد من الأشخاص الذين لديهم مشاكل من ذلك النوع، وأيضاً مع الذين يتاجرون في تخليص أولئك الناس. فلو تدخل في قضية وليَمسون، لن يؤدي ذلك إلا إلى المزيد من التعقيدات السياسية التي صمّم على تجنبها.

اختتم رَسل ويب حديثه قائلاً: «لقد أخبرته يا بني أنك بريء، وصممت على براءتك. فما كان منه إلا أن أجابني: "ينبغي لذلك الفتى العودة إلى السجن وتمضية فترة محكوميته". فأثار ذلك غيظي!! وما كان مني إلا أن سألته مستهجناً: "وأي نوع من العدالة المزعومة ترتجى من أولئك الأوغاد الإسبان؟!!"، لكن ذلك لم يؤثر فيه، إذ أن قنصلك كرّر ما كان قد قاله من قبل، مما أثار سخطنا كلينا، قبل أن أعود أدراجي».

كان للأنباء وقع الصاعقة على وليَمسون الذي شكر مضيفه الكريم على الجهود التي بذلها بشأنه،وأعاد شريط الأحداث مجدداً في مخيلته. إنه الآن صفر اليدين، وقد مضى زمن طويل منذ أن فقد الأمل في استعادة ممتلكاته في بونابي Ponape. ولا يملك على وجه البسيطة الآن سوى ملابسه التي على جسده، البزّة التي أعطاه إياها الضابط الإسباني على متن الطرّاد الحربي، تلك الملابس التي هي أقرب إلى أن تكون أسمالاً بالية.

ثم قال وليَمسون: «لقد ارتأيت يا سيدي بعد التفكير»، والأميركي ينظر إليه بانتباه، «أن بقائي ها هنا من المحتمل أن يتسبّب لك بالمشاكل. لذلك أعتقد أنه من الأنسب أن أقوم بعمل ما نصحتني به في حال أتى حرّاس السجن مرة أخرى، ألا وهو الفرار عبر السطوح، ومن ثم محاولة الصعود على متن سفينة بريطانية».

ارتمى رَسل ويب على كرسيه، وطلب من وليَمسون الجلوس قائلاً له: «سأسرّ لك بأني أكره أولئك الإسبان الجبناء. وحالتك ليست هي الأولى في ذلك السجن اللعين، التي تجري أمام عيني. وإني لأعدك بألا أدعهم يعبثون بك كيف شاءوا. إذا لم يحرّك قنصلك ساكناً، فإني سآخذ على عاتقي تسوية كامل الأمر بنفسي».

«إنني لفي غاية الامتنان يا سيدي، ولكن..».

«لا حاجة للبدء في الفرار عبر السطوح بعد. إذ أن ذلك المنفذ هو للحالات الطارئة فقط. ستبقى ها هنا لبعض الوقت وسأسعى لإخراجك بطرق أكثر أماناً، لكن علي التصرف بسرعة أكبر في حال أتاني أمر خطي من الحاكم الإسباني. إذ أنه تجب

الاستجابة لأمر رسمي يملي بتسليم سجين هارب، صحيح أن ذلك ربما لا يكون على الفور، ولكن لا يمكن تجاهله لوقت طويل دون أن يفضي ذلك إلى إثارة المشاكل. لذلك فمن الأفضل أن تبقى في تلك الغرفة العلوية، وألا تغادر هذه القنصلية إلا إذا اضطررت إلى ذلك كملجأ أخير».

سأله وليَمسون بقلق عما ينوي فعله.

فأجاب القنصل وهو يومئ نحو الغرفة في الطابق العلوي: «سأخرج مجدداً، وسأخبرك بالخطة عندما أعود بعد أن يصبح كل شيء على ما يرام».

إن تأكيد القنصل وتفاؤله قد أبقيا على جذوة الأمل في روح الشاب الذي اقتصر دوره على الانتظار وترقّب ما ستؤول إليه الأمور. لكن رَسل ويب عاد بعيد ساعة حاملاً الأخبار التي مفادها أنه اتصل بقبطان سفينة شحن بريطانية، وأن ربّانها وافق على تهريب الفار خارج مانيلا.

خلال النهار لم يأتِ أي كتاب رسمي من الحاكم الإسباني، وبعد وجبة الغداء استمتع وليَمسون بقيلولة لم يعكر صفوها قلق لا داعي له. وفي تلك الليلة وصل كما هو مقرر الكابتن غُرني Gurney ربان السفينة إلوولد *Elwold*، وسمح له بالدخول عبر الباب الجانبي للقنصلية. كان فتى فيليبيني موظف في القنصلية قد انتظر قدومه وتبعه إلى أعلى الدرج، حاملاً صرّة كبيرة أحضرها الربّان معه. كانت تلك الصرّة تحتوي على لباس رجل إطفاء، حزام، صدرية، معطف، جوارب وزوج من الأحذية البالية. حيث كان بمقدور وليَمسون الشاب، الذي استلم الزي الملوث بالزيت، أن يتخيل نفسه بمجرد إغلاق عينيه، في غرفة موقد السفينة، من الرائحة التي تفوح من الثياب.

أعطى حضور الربّان غُرني Gurney السجين الهارب شعوراً أكبر بالأمان. حيث كان من الواضح أن رجل البحر هذا شخص يمكن الاعتماد عليه. لقد كان من النمط المرح من الناس اللذين يتمتّعون بحسّ فكاهة عالٍ، وكان واضحاً محدّداً في رأيه عن الإسبان، كما القنصل ذاته، صريحاً في مواقفه في حال وقوع المشاكل.

عندما غيّر وليَمسـون ملابسـه، انضم إلى المحسنيَن في غرفة الجلوس، وتجاذب ثلاثتهم أطراف الحديث لقسط من الوقت، حيث دارت كؤوس الويسكي rye whisky. في النهاية ارتأى القنصل أن الوضع آمن للتحرك. جاء فتى كانوا قد أرسلوه لاستكشاف الأمور وأبلغهم أن الساحل خالٍ، فودّع وليَمسون السيد رَسل ويب مثنياً الثناء الأخير على عونه المطلق له. بعد سنوات مضت، عندما كان وليَمسون قد اتخذ له موطئ قدم راسخ في جزيرة العرب واعتنق الدين الإسلامي، علم عن طريق الصدفة أن الأميركي صاحب المعروف قد انضمّ هو الآخر إلى أمّة الإسلام.

بصحبة الربّان غُرني الآمنة غادر وليَمسون الشاب القنصلية من الباب الجانبي، وانطلق الرجلان مباشرة عبر الشوارع الخلفية المظلمة باتجاه أحواض السفن. قلّة من السكان المحليين كانوا خارجاً في تلك الساعة من منتصف الليل، لكن الرصيف المائي للبحر كان أكثر اكتظاظاً بالناس والعديد من السفن كانت هناك بين تحميل وتفريغ تحت تلألؤ عوارض الأشرعة.

قال الربّان غُرني مخاطباً وليَمسون: «لا بد أن بعضاً من أوغاد المرفأ أولئك يتجوّلون في الجوار، لذلك تظاهر بأنك رجل ثمل، ولا تنزعج إن عاملتك بقسوة».

بدأ وليَمسون بالترنح يمنة ويسرة، وانفجر يصدح بأغانٍ بذيئة. لقد مثّل فأحسن التمثيل، وصار يصفق محتفياً بنفسه، وشاركه الربّان غُرني في ذلك ببراعة، حتى أن وليَمسون صار يعتقد بأنه باختيار الرجل العجوز العمل في البحر، فإن خشبات المسارح قد خسرت واحداً من ألمع نجومها.

كان تمثيله لدور الربّان مع رجل الإطفاء الثمل متقناً لدرجة أن رجال الشرطة الإسبان وضباط المرفأ لم يشكّوا البتة في صدقها. كان وجه الربّان الذي يطفح عادة بالبشر والسرور قد اتقد غضباً تحت وهج المصابيح، وانهالت ألفاظ الوعيد والتهديد التي عادة ما يتلفظ بها البحارة من شفتيه، ثم بدأ بركل ودفع «الثمل» نحو سلم السفينة التي أثّر فيها الصدأ والتي كانت راسية في جانب حوض السفن. باختصار، كان الدور المشترك الذي أدّياه بارعاً لدرجة أن أحداً من الناظرين لم يشك البتة في أن الموقف

كان عبارة عن ثمل آخر يدفعه سيده الذي طالما عانى منه الأمرين باتجاه السفينة.

وجد الشاب وليَمسون نفسه وقد ازرقّت عينه، وورمت أذنه وأثرت فيه العديد من الندبات والرضوض، كذكرى على تمثيله لذلك المشهد، لكن كل تلك الآلام لا تساوي شيئاً مقارنة بفرحته عندما وطئت قدماه أرض السفينة. أمضى بقية الليل نائماً في مقصورة رجال الإطفاء، وفي صباح اليوم التالي بدأ نوبة العمل في حجرة موقد السفينة.

كان من المفترض بالنسبة للسفينة إلوولد *Elwold* أن تبحر من مانيلا عند المساء الباكر. وصار وليَمسون يتصبب عرقاً من الحرارة ومن العمل الشاق في تكسير الفحم، وبشكل أكبر نتيجة الشائعات التي سرت، ومفادها أن القوات والشرطة الإسپانية تفتش في أحواض السفن وعلى متنها بحثاً عن سجين هارب.

كان رجال الإطفاء وعمال الفحم يشكلون طاقماً من الرجال الأشداء، جلهم من الإنكليز والويلزيين باستثناء اثنين من الأستراليين، وكان يمثّل لهم بطلاً من الأبطال. كان أي مخالف للقانون في مانيلا، وكل من يحتال على السلطات فيها، يتم شيّه في أشعة الشمس على مرأى منهم. وليس فيهم أحد إلا وتعرض للإهانة على الشاطئ بطريقة أو بأخرى، كما أن علاقتهم بالشرطة الإسپانية كانت على درجة من الودّ كعلاقة النمس بالأفعى.

كان كبير مهندسي إلوولد السيد ماك دوغال McDougal، وهو من أكثر الناس المصابين برهاب الأجانب.

إن ماهية التقلبات التي صبغت رجل البحار الغلاسكوي Glaswegian بكرهه للإسپان والبرتغاليين والطليان وكل ذوي الأصول اللاتينية قد بقيت غامضة، لكنه شمل الجميع بمسمى واحد وهو «ماضغو الثوم»، وكان يرغي ويزبد لمجرد ذكرهم. بالرغم من أن ذلك التصرف كان مستهجناً، فقد حظي باستحسان وليَمسون نظراً للظروف الراهنة. مباشرة عندما علم كبير المهندسين أن عامل الحطب الجديد مطلوب من الإسپان،

صار ينظر إليه بلطف، ولو أن نظراته كانت غائمة، قائلاً له «فقط دع ماضغي الثوم يأتون هاهنا للبحث عنك أيها الفتى واترك الباقي لي، فلن أتركهم يأخذونك ومعي في يدي هذا المفتاح الإنكليزي الذي سيتكفل بالأمر».

برغم كلمات المواساة تلك، عاد للهارب خوفه وقلقه مرة أخرى، خاصة عندما صعدت السفينة دورية إسپانية من حامية السجن. قامت تلك الدورية بالبحث في أرجاء السفينة جيئة وذهاباً، ومعها كل الصلاحية في ذلك، وفي الوقت المحدد نزلوا عبر السلم الحديدي إلى حجرة الموقد، يقودهم الرقيب الوحشي الذي كان وليَمسون يخشاه أشد ما تكون الخشية. تفحصوا وجوه كل الموجودين في الأسفل، من كبير المهندسين الواقف بكل ثقة والمفتاح الإنكليزي في يده حتى أصغر عامل حطب يكسو صدره الشعر الكثيف.

محّصوا وليَمسون من الأسفل إلى الأعلى وهو يعمل، ويكسوه غبار الفحم والقلق من رأسه حتى أسفل قدميه. لكن لم يعرفه أحد منهم نظراً للسخام الذي يغطيه ولتغير منظره على يد الربّان غُرني في تمثيلية الأمس. أخيراً ذهبوا، وفرح وليَمسون بالخروج من حجرة الموقد وجوّها الخانق إلى فضاء متن السفينة الرَّحب في الأعلى.

في السادسة مساء ذلك اليوم، رفعت مرساة السفينة إلوولد تاركة وراءها مانيلا ومتجهة نحو هونغ كونغ.

* * *

الفصل التاسع

عبر الشرق الأقصى

كان ماك دوغال العجوز، كبير مهندسي السفينة، واحداً من أولئك الاسكتلنديين الذين ينبض في قلوبهم عندما يولدون عشق محركات السفن. وكونه غير مسؤول عن كادر غرفة المحرك في سفينة عريقة لم يؤثر على قدراته العملية، إنما فقط على سلوكه على الشاطئ، الأمر الذي يفصح عنه أنفه المنفوخ بلون مصباح سارية السفينة. وهو الذي أبقى على محركات إلوولد القديمة المتداعية تعزف سيمفونيتها المتناغمة عبر البحار السبعة، مظهراً مواهب تضاهي العبقرية.

بالنسبة لرجل لازم منصب كبير المهندسين بشكل عملي وفعلي، سيكون راضياً بقضاء قسط لا بأس به من الفترة التي أمضاها متنقلاً بين البحار في سريره أو في حجرة القيادة على سطح السفينة تاركاً الأعمال الشاقة لمن يليه. إلا أن ماك دوغال كان على خلاف ذلك تماماً، إذ أنه لم يكن يوماً أكثر سعادة في البحر منه مؤدّياً العمل بنفسه. سُمعته كربّ عمل صارم إنما ذاعت عند الكسالى الذين لم يقض أحد منهم وقتاً على السفينة أكثر مما ينبغي. كما أنه لم يُثنِ يوماً على العمل الجادّ، على اعتبار أنه من الطبيعي القيام بالعمل على ذلك الوجه، لكنه كان يخفي امتنانه على كل الأعمال من ذلك النوع. العضو الجديد في الفريق الأسود[1] Black Squad حاز على رضاه. وبصرف النظر عن أخطائه الأخرى، فإن وليَمسون الشاب لم تعزه الهمة أو الرغبة في

(1) تعبير طريف يُقصد به الوقّادون في مراجل محركات السفينة التي تعمل بالفحم الحجري، واتشاحهم الدائم بالهباب والسّخام هو سبب التسمية.

العمل، وخلال الرحلة كان القائد العجوز متحمساً له، لكن دون أن يظهر له حماسة زائدة.

في العصر الحديث أصبح الإبحار في بحر جنوب الصّين، بفضل علم الأرصاد الجوية والراديو أمراً آمناً نسبياً، كما في كل مكان في العالم. بينما في فترات رحلات إلوولد، أي حوالي 1890، لم يكن علم الأرصاد الجوية بذلك التطور، كما أن الاتصالات اللاسلكية لم تكن موجودة. لقد كان الموسم موسم إعصار التايفون، ولم تظهر مؤشرات تحذر من اقتراب هبوب نوبة الريح العاتية، لغاية اليوم التالي لذهابهم من مانيلا، عند ظهور بريق شفاف ساكن بلون البرونز، إيذاناً منه بحادثة وشيكة قد تقع في ربع ساعة ولكن بشكل غامض يصعب التكهن به. ظهرت تباشير الإعصار المعتادة: خطوط مظلمة تظلل السماء، وظلال معتمة تفترش المدى دون أن تترك فرجاً للنور، قبل أن تعصف الريح مطلقة صفيرها من الشمال الشرقي، لتسفع البحر الساكن بسياط الرهبة الموجعة.

أتاحت الخدمة في البحر لوليَمون قدراً من الخبرة العملية والمعرفة بقوة الريح والبحر. خاصة وأنه عايش عواصف عاتية في كيب هورن Horn، وفي كيب فلاتري Cape Flattery، وفي جزر آلوشنز the Aleutians، وفي Great Australian Bight. لكن خوض غمار الزوابع على متن سفينة مفتوحة، أو التعرّض لكل تلك الحركات العنيفة والضربات الصاخبة على مقدمة السفينة، لا تسبب إلا بالقلق واضطراب كل من الفكر والجسد. بيد أن العمل، أو حتى مجرد محاولة العمل، في مخزن للفحم، وغرفة الموقد في أعماق حجرات السفينة تحت وطأة الهجوم العنيف لأم العواصف كلها لم يكن مجرد تجربة يعيشها المرء في ظل القلق والاضطراب، إنما عذاب للجسد وجلد للروح، يشابه مشهد فأر عالق في فخ فولاذي.

كانت إلوولد تُجلد بضربات ذيل التيفون فقط لا أكثر. وكانت تلك التجربة أكثر من كافية لأشجع أفراد طاقم السفينة. ولو مرّت السفينة في مركز الإعصار، لنعت الأخبار بعد ذلك بأيام طاقم بحارة متمرساً فُقد في البحر دون أثر. بالنسبة لمسافر كان يحيى

حياة طبيعية، وصادف أن كان على متن السفينة، لربما كانت المحنة التي عاينها بأم عينه حدث حياته. لقد كانت تجربة مؤثرة في حياة وليَمون، لكنها كحادثة مرّت فيما مضى من الزمان لن تكون أكثر تأثيراً من العديد من مثيلاتها اللائي يصادفهن في عمله المحفوف بالمخاطر.

قد يقلّب المسافر في اليأس والقنوط عينيه في مسلسل أحداث حياته، فيرى كل ما تعرض له سهلاً أمام ما يعانيه عندما تسوء الأمور. لكن هذا لا يعني، أنه عند معاينة ارتفاع الذرى أو سبر الأغوار كانت لديه المناعة من ردود الفعل الطبيعية كالابتهاج والخوف والأمل أو اليأس. على أن معايشة إعصار أو عاصفة بحرية على أرض الواقع تعدّ تجربة أدهى وأمرّ من العيش تحت وطأة القصف بالمدافع. وفي الوقت الذي شرعت فيه إلوولد بتأدية رقصة الموت في قبضة التيفون، في مشهد حي لا ينتهي إلا في عالم ما تحت البحار، كان طاقم السفينة يصبّ جام لعناته على غباء اختيارهم لحياة البحار بألفاظ فجّة وهم يعانون كربات الترقب.

أخيراً عندما انجلت المحنة عن السفينة، استعاد وليَمون الشاب رباطة جأشه بينما كان الباقون يهدؤون من روعهم ويستجمون في أشعة الشمس والهدوء النسبي. كان جسمه ممتلئاً بالكدمات والجروح والخدوش، وجذوة فكره ذوت مرة أخرى إثر الحبس في شرك معدني عائم بعد تجربته المريرة الأولى التي قضاها ضمن قضبان السجن، على اليابسة. أرسله الربّان إلى مساعده للعلاج، ولكن الصيدلية لم تكن تحتوي على ترياق شافٍ لجروح النفس والعقل.

بكدّه وتعبه في مخزن الفحم وحجرة الموقد دون أدنى تذمّر، كان وليَمون يعبّر عن امتنانه لخلاصه وفراره من مانيلا. لقد أحبّ مسؤولي السفينة ومعظم أفراد الطاقم الذين غالباً ما يتلفظون بأقذع الألفاظ خلافاً للطبيعة. ولكن عندما كانت السفينة البالية تمخر عباب البحر متخذة طريقها باتجاه الشمال الغربي نحو سواحل الصّين، كان وليَمون قد اختبر ردّة الفعل المحتومة من نوائب الدهر التي بلغت أوجها في أسوأ فترة من شقاء الفكر والجسد تعرّض لها في حياته البحرية. والإسبان باستبدادهم

وتجبّرهم أعادوه فقيراً معدماً. كما أن السجن وسيره مع السجناء المقيدين بالسلاسل سلبا منه طبعه الذي كان لا يحمل همّاً، وأخذا منه الأمان بتجاربه وسوء الطالع الذي لازمه. والتيفون هو الآخر أخذ منه البهجة التي ربما كانت ستلازم الرحلة إلى الحرية على شواطئ مقاطعة بريطانية.

كلما كان يؤكد بأنه قد أخذ كفايته من البحر وحياته، كان ملاح آخر يجيبه ساخراً: «بالتأكيد، كلنا أخذ كفايته من البحر، وخاصة بعد كل رحلة دامية». كم كان ذاك الكلام واقعياً. كان وليَمسون على علم بأن حال البحارة كحال مالكي الحانات والبغايا في كل مرافئ العالم. بالرغم من كونهم زهيدي الأجر، ومرهقين بقدر زائد من العمل، فإنهم يسعون وراء استغلال فرص من نوع آخر حالما يطأون الشاطئ بأقدامهم. فإما أن يقوموا بتبذير أموالهم أو تصبح عرضة للنهب والسرقة. وبالرغم من كون للأمر أهميته القليلة، فإن النتيجة هي نفسها في الحالين. وسيعودون عاجلاً أم آجلاً إلى متن السفينة، طوعاً أو كرهاً، وسيعملون بأجر زهيد مرة أخرى ويسعون وراء هدف لا يُسمن ولا يغني من جوع. في هذا الجو النفسي، بدأ وليَمسون التفكير بلهفة وشوق بالفضاء الرحب والأجر المرتفع على سواحل أميركا. ولكن كان كل طور من أفعال الطاقم يأخذه بعيداً عن المدينة الفاضلة إلى حدّ ما والتي كان يحلم بها. رضي الربّان غُرني بتقرير كبير المهندسين عن وليَمسون، فما كان منه إلا أن دعاه إلى حجرة القيادة طالباً منه أن يوقع على الانضمام لطاقمهم كبحار دائم. ستعرّج السفينة البخارية على سنغافورة بعد زيارتها لهونغ كونغ، وربما أيضاً على سورابايا Sourabaya، وكولومبو Colombo، وزنجبار Zanzibar، وموانئ شرق أفريقيا. لم يأبه وليَمسون لكل ذلك، لقد رفض العرض، بأدب ولكن بحزم، ولم يضغط عليه الربّان كثيراً.

بينما كان تفكيره محصوراً في الموضوع ذاته، إذا بشواطئ الصين الوعرة تلوح في عرض البحر. انسلّت السفينة في مضيق ليمون Lyeemoon وألقت بمراسيها في مياه هونغ كونغ المزدحمة بالسفن. وبعد أن أتيح للربان متسع من الوقت إثر روتين الموانئ المعتاد والتشاور مع الوكلاء، أعاد نفس عرضه السابق مع الفارق أنه في هذه

المـرة بإمكانـه التوقيع على العمل كبحار عادي في الـسـفينة مـع ضـمان الحصول على ترقيـة مبكرة. أجاب وليَمـــون بالرفض مرة أخرى. وبشـفقة أبوية تسـاءل الربّان فيما إذا كان هنـاك في بال وليَمـــون أية خطط. فأجـاب بالنفي، وبأنه سـيتدبّر أمره بطريقة أو بأخرى. «حسـناً يا بني» قال الربّان غُرني. «عد مرة أخرى إلى سـطح الـسـفينة خلال نصف سـاعة. سآخذك بنفسـي إلى اليابسة وأبلغك مأمنك بطريقة أو بأخرى. فمن غير الممكن تركك في مكان لا تعرف فيه أحداً».

لـم يكـن كبير المهندسـين العجـوز أقل لطفـاً. فبعد شـرب زجاجة نبيذ مـن النوع الاسكتلندي الممتاز، تمنى للشـاب حظاً جيداً واضعاً في يده خمسـة دولارات مكسـيكية كهدية. ومضى وليَمسون نحو اليابسة، معداً العدّة لمواجهة الحياة الجديدة التي تنتظره، في زورق صغير مع الربّان غُرني الذي اقترح المبيت مؤقتاً في مســكن البحارة. لحسـن الحظ كان نزولهم إلى اليابسـة قبل اليوم الذي انتشرت فيه شباك البيروقراطية لتوقع في شـركها كل زائر لـم يكن بمقدوره استـخراج جواز سفر، بطاقة شخصـية، شهادة ميلاد، رسالة ضـمان، إثبات تلقي التطعيم، أو التعرّف عليه من قبل مواطنـين مقيـمين في البلاد. لم يتعدَ الأمر سـوى شـهادة الربّان أن القادم الجديد هو من طاقم الـسفينة إلوولد، وهو بحار مسـكين أضاع أوراقه الخاصـة. بعد ذلك نزل وليَمـــون في مســكن البحارة، مع مطلـق الحريـة في أن يتجول في هونغ كونغ وكاولـون Kowloon، أو في أي مكان آخر في الصّـين دون أن يأبه أحد لذلك. وحملت مصـافحة الوداع مع الزملاء من الملاحين اللطفاء في طياتها دفئاً ومســحة من الحزن، لكن عزاءه الوحيد هو أنه عاد مسـؤولاً عن نفســه دون وصاية لأحد عليه.

عندما يعود مسـافر خبير بالأسـفار إلى الأماكن القديمة التي كان يتردّد إليها، فليس بإمكانـه تجاهـل أيّ من التفاصـيل، ممـا يذهـب بكثير من حيوية الصـور المحيطة. هذا الأمر ينطبق بشـكل خاص على الشرق بأغلبه، خذ مثلاً إستانبول وبغداد. وبالرغم من كافـة الإغـراءات والمزايا التي قـد يجدها المرء فـي هونغ كونغ وكاولـون، فقد فقدتا معظـم ألوانهـا وجوّها القديم. حتى الميناء بين الجزيرة واليابسـة، مع السـفن الحديثة

وكفاءة خدمات ستار فيري Star Ferry، لم تعد تمثل المشهد البحري الممتع في نظر وليَمسون. في وقت زيارته كان المزيد من السفن الشراعية الصّينية ومئات قوارب السَّمپان (sampan) منهمكة جيئة وذهاباً بين تجمعات السفن البريطانية البحرية التي تعمل في الأسطول الصّيني، بالإضافة للسفن الساحلية، والسفن البخارية التي تسافر في أعالي البحار، والسفن الشراعية ذات الصواري البحرية المتعددة الجنسيات.

كان هناك العديد من المنشآت الحجرية والمساكن المهيبة في منطقة ڤيكتوريا ومقاطعة پيك Peak، على خلاف الصفوف الواسعة من المصارف ذات المظهر الغربي والمباني التجارية والنوادي والفنادق والمساكن الممتدة اليوم على كل شاطئ. حتى الصّينيون الذين يربطون شعرهم إلى الخلف كانوا بالكاد يشبهون الصّينيين. كانت أنوار هونغ كونغ عند النظر إليها ليلاً من الميناء أو من جهة كاولون، تبدو كأحجار كريمة مرصوفة على الرّصيف المائي والهضاب، راسمة واحدة من أبهى اللوحات الليلية في العالم، كانت كذلك ولا تزال.

في هذا المكان الذي يتيح متعة لا متناهية للغرباء، وجد وليَمسون الترياق الشافي لعقله والبلسم المعافي لروحه. وبتجواله بواسطة عربة الرّيكاشة (rickshaw) وقارب السَّمپان، وبتكلفة زهيدة، طاف في كافة أرجاء البلاد. لقد تجول في أحياء ڤيكتوريا المحلية المزدحمة، وبمسحة من الحنين للوطن تابع مباراة كريكيت محلية في هاپي ڤالي Happy Valley. ومن كاولون قام بزيارة شامشوپو Shamshuipo ومركز لاجئي التايفون، وبالاتجاه المقابل المدينة القديمة المسورة وكاي تاك Kai Tak، والتي أصبحت فيما بعد قاعدة جوية للطائرات المائية. لكن شيئاً لم يكن ليوحي بمستقر دائم له في مستعمرة التاج Crown Colony، كما أن إجازة طويلة له تحتاج إلى أكثر من مجرّد بضعة دولارات مكسيكية.

لقد حان الوقت لمعاودة المسير، ولتعاوده مرة أخرى إثارة الإحساس بأن العالم ليس إلا كرة على قدمه، وهو شعور من الصعوبة بمكان أن يعاود شاباً في منتصف العمر. صحيح أنه قد أخذ كفايته من البحر، لكن الدرب الأزرق كان الطريق إلى

آفـاق جديدة. عـلاوة على أنه كان هناك الكثير مما سـيقال للبحر الـذي غالباً ما يكون مسـتبداً في مزاجه الغاضب، لكنه سـخيّ فـي أعطياته من الصحة وهـدوء البال عندما يكـون في مـزاج معتدل. كان المشـهد العـام للميناء، عنـد النظر إليه مـن القمّة، يظهر السـفن التـي يحتضنها، والتي بدورها سـتعبر من خـلال ليمـون Lyeemoon إلى كافة أرجاء المعمورة. صحيح أن لأميركا سحرها الخاص، إلا أن وليَمـون الشاب كان قد اسـتعاد نشاطه وحيويته بشـكل كافٍ ليتوق إلى استكشـاف الأرض التي عاش فيها قبل العـودة إلـى أحب البلاد إليه. كان للهنـد وجزيرة العرب سـحرهما الخاص. وقد كان وليَمـون في بعض الأحيان يتحدّث عن تلك البلاد الأسطورية إلى زملائه من البحارة الذين زاروا تلكم البلاد. وظل متردداً في أمره إلى أن صادف وهو عائد يوماً إلى سكن البحارة أمين السكن.

قال أمين السـكن لوليَمـون: «لقد فهمت أنك تريد سـفينة تسافر فيها بأسرع ما يمكن. حسـناً، هل بإمكاني أن أسـاعد في تزكية إحداها؟ إنهم في سـفينة تشوسـان *Chusan* يفتشون عن مـسؤول مستودعات يخلف الذي أخذوه للمستشفى نظراً لمرضه».

كانت تقلبات الحظ المواتي كتقلبات سـوق العقارات. وفي تلك الآونة كان الحظ في إقبال على وليَمـون، صحيح أن تلك لم تكن ضربة الحظ الكبرى في حياته، لكنها كانـت خطوة هامـة على الطريـق الصحيح. في الميناء شـاهد سـفينة P. & O.، وعلم أنها كانت في رحلة إلى بومباي. عرض العمل بوظيفة مـسؤول مـستودعات في شركة مرموقة يعدّ ميزة في حد ذاته، ومسـألة الذهاب إلى الهند سـاعدت على اختمار الفكرة في ذهنه.

لم يتم الإعلان عن مسابقة للمنصب المذكور. وكان أمين سكن البحارة قد أوصى به للمنصب نظراً للخبرة الكبيرة التي أبداها في عالم البحار. وكونه قد عمل بحاراً متدرباً وخـدم في سـفينة لصيد الحيتان كمسـاعد للربان، كل ذلك ضمن لـه القبول المبدئي، ووافق المسؤول عن سفينة تشوسان على قبوله بناءً على ما قاله شفهياً عن خبرته.

لم يمضِ على سماعه بالوظيفة الشاغرة ساعتان حتى كان على متن السفينة، وكانت

ممتلكاته محزومة في قطعة قماش ملونـة ومنقطة باللونين الأبيض والأحمر. أبحرت السفينة في ذلك اليوم، متخذة طريقاً هادئاً عبر سنغافورة وكولومبو، وصولاً إلى الميناء الذي يُعرف بأنه البوابة إلى الهند. هنا في بومباي رسـت الـسفينة تشوسـان في حوض الـسفن. تقاضى وليَمسون الشـاب أجراً كمعظم طاقم السفينة، ولكن الربّان الذي كان معجباً بكفاءته عرض عليه أن يزكيه لمنصب أعلى لدى شركة P. & O..

قبـل وليَمسـون العـرض، كان قد اكتفـى من حياة البحـر ولكن ليـس حتـى الثمالة. وكمعظم بحارة أعالي البحار كان من الممكن إقناعه بسـهولة للعودة إلى حبه القديم، لكنـه كان فـي قـرارة نفسـه قد عـزم ألا يمضي حياتـه المهنية كلهـا في البحـر. فالبحر الـذي طالما كان سـيّده، يجب أن يصـبح الآن خادمـه. وخدمته المؤقتة يجب أن تكون مـن شـقين: أولاً أن توفر لـه رأس مال صغير يعوض بـه ولو جزئياً ما فقـده في بونابي Ponape؛ وثانيـاً أن تمكنـه من رؤية المزيد من العالـم في ربيع عمره قبل أن يصبح ربّ أسـرة ويتحمل أعباءها. هـذه كانت فكرته، وكم كان يعتبر نفسـه محظوظاً بانتقاله إلى سفينة سيام *Siam* البخارية التابعة للشركة والتي تعمل على خط بومباي – عدن.

كان وليَمسون، إلى درجة لا بأس بها، مختلفاً عن أقرانه من البحارة الذين يخرجون إلى الشـاطئ ويزورون حانة الخمّار وحيّ البغاء في تلك المنطقة، وربما رسّام الوشم، إذا واتاهم الحظ وكان في جيبهم بقية روبيات.

لقد شرب باعتدال، وفي بومباي تجنّب التصرفات التي قد تؤدي لمخاطر في شارع غرانـت Grant Road، حيث تقوم النسـاء من كافة الجنسـيات بعرض أجسـادهن على الملأ كنماذج من حديقة الحيوان داخل الأقفاص.

حيثما حلّ كان يجهد لرؤية قدر ما يستطيع من المكان بحدّ ذاته، وفي مدينة مترامية الأطـراف كبومبـاي يعنـي ذلك إنفـاق المزيد من المـال على التجول فـي عربة غاري gharry. لقـد زار سلسـلة جبال الغات ghats المحرقـة، وأبراج الصّمـت the Towers of Silence، وسـوق كروفورد Crawford Market وعبر الميناء إلى جزيرة إليفانتا Elephanta Island. كما أنفق بعض الروبيات على شـراء الكتب وخاصة الكلاسـيكية منها، والتي

يمكن الحصول عليها من المكتبات في شارع هورنبي Hornby Road.

مجدداً تذكر الوعد الذي قطعه للعمّة إيمي في مزرعة المواشي في سويت وتر. آخر رسالة تم إرسالها إلى الوطن كانت من جزر كارولاينز عبر أستراليا. والآن كتب مجدداً إلى أهله في بريستول، قاصاً بعضاً من مغامراته ومخبراً إياهم عن نيّته في القيام ببعض الرحلات على خط عدن. وأضاف حاشية يطمئنهم أنه قد عزم على الاستقرار، كما شرح فكرة ولدت من محادثة مع أحد معارفه في بومباي. بدا الانضمام إلى الشرطة الهندية عرضاً جيداً، ولربما حاول الانضمام إلى تلك القوة قريباً. لقد تم إرسال هذه الرسالة، وكالمتوقع كان لها أكبر الأثر على مستقبله.

بتوقيعه على بنود العقد، قام وليَمسون بأول رحلة له في سفينة سيام S.S. *Siam* عبر البحر العربي، وبدا له لاحقاً أن من سخرية الأقدار أن يقوم بإرسال الرسالة إلى وطنه بما حوته من بنود، وأن يشير إلى تلك السفينة التابعة للشركة بالذات. كانت سيام *Siam* تشتمل على مكتبة صغيرة لطاقمها وللمسافرين فيها، ومن تلك المكتبة استعار بالصدفة كتاباً لمحام من ليفربول يدعى كويليام Quilliam، أصبح مسلماً واتخذ اسماً آخر هو عبد الله. كان الكتاب باللغة الإنكليزية وكان الهدف منه هو التعريف بالإسلام.

كانت القراءة والدراسة من عادات وليَمسون الأساسية، وهي طالما أكسبته دماثة خلق بين زملاء السكن في السفينة. لامس كتاب الإسلام هذا حاجة غامضة في أعماق وجدانه. قرأه مراراً وتكراراً، وكلما درسه أكثر اقتنع أنه يحوي بين دفتيه حقائق الدين التي كان ينشدها بشغف. لقد عرّفه على التعاليم التي جاء بها النبي محمد والتي أصبحت بمثابة برّ الأمان له بقية حياته.

كان من الممكن أن يكون تعرفه إلى الساحل العربي الأسمر أكثر تأثيراً لو حظي بتصور مسبق عن توجّه حياته في سن النضوج. لقد كان شاباً في التاسعة عشرة من عمره حساساً حالماً، ولكن ليس للدرجة التي تجعله يتخيّل أن وراء هذه السواحل الوعرة رجالاً يعيشون نمط الحياة المحبّب لمزاجه. عرّفته قراءاته نوعاً ما على تاريخ

طريق البخور، وعلى مدينة مكّة المكرمة، وحروب قبائل البدو الضروس. وبقي عليه أن يقرأ الأعمال الكلاسيكية عن جزيرة العرب، لكن فضوله كان يثير فيه الرغبة لرؤية القليل من البلاد فقط، كرغبته في رؤية القليل من الهند.

كان ميناء عدن أنشط محطة توقف، أكثر مما هو عليه الآن. ومع ذلك، كان يمكن رؤية المكان بأكمله تقريباً من لمحة واحدة، حالما تدور السفينة حول ستيمر پوينت Steamer Point. يشعر الواقف، وقد أحاطت به الصخور الوعرة بشكل نصف دائرة، أنه داخل فرن، بالإضافة إلى بعض السلبيات الأخرى التي اكتشفها بمجرد وضع قدمه على الشاطئ. أحدها قلة مرافق الاستجمام والترفيه. لم تتم تلبية طلبات البحارة في النادي الاجتماعي حيث يجتمع قلة من المواطنين البيض ليرووا ظمأهم كالعادة. والمحال التي يديرها تجار هندوس قدّمت عناية أقل من قريناتها في بومباي. مع ذلك كان هناك مسحة من البهاء في الميناء وفي منطقة كريتر Crater، نابعة بشكل رئيسي من تمازج العرب مع الأفارقة، وقوافل الجمال المثاقلة التي تتهادى بتؤدة عبر الشوارع المغبرة. لقد استهواه العرب بعاداتهم وطبيعة حياتهم. إنهم أبناء رحم الإسلام، الدين الذي قرأ عنه في كتاب كويليام. هم الرجال الذين يعايشون الثقافة الإسلامية على أرض الواقع، أو هذا ما افترضه. حتى أنه كان مستعداً بكل طيب خاطر لمبادلة خبرته باللغة الإسپانية في سبيل الوصول إلى درجة الطلاقة في اللسان العربي، بحيث يمكن التحدث إلى أولئك الذين يعتبرون بمثابة القيّمين على أسرار هذا الدين.

في رحلة عودة سيام *Siam* إلى الهند، انكبّ وليَمسون على دراسة كتاب كويليام مرة أخرى. لقد فقد مؤقتاً شغفه بالرياضة. وقد كان من المقرر إقامة مباراة بكرة القدم في ملعب بومباي بين كل من فريق شركة *Siam* وطاقم قارب B.I.، لكنه آثر العزلة، مفضلاً البحث في المكتبات أملاً في العثور على كتب أخرى بالإنكليزية تدور حول الإسلام. لكن محاولاته باءت بالفشل.

بالرغم من أن بومباي كان يقطنها عدد من أتباع ذلك الدين، فإن فكره كان يهفو إلى عدن وبلاد العرب. ومع أن الزوار الأوروپيين في العادة لا يشتاقون لعَدَن، فأشواق

العودة إليها كانت تجيش في صدر وليَمســون. كان زملاؤه من البحارة يبدون التسامح إزاء مـا يظهره وليَمســون من تصرفات غريبة وتعاليم دينيــة، كما كانوا يقدمون الأعذار المعروفـة نيابة عنـه تجاه كل التصرفـات الغريبة التـي يبديها الأوروبيون في الشــرق، والتي يعتبرونها بمثابة ضربة شمس خفيفة، مع كل بادرة عودة مبكرة إلى الرشد.

لم يكن وليَمســون ليلقي بالاً لآرائهم، ولا يقلق بشـأن اهتمامـه الجديد. وفي عَدَن أمل أن يزيد من معرفته بذلك الدين بين معتنقيه الفعليين، لذلك كان مــسروراً بحق وهو يغادر ميناء بومباي ويرى شــبه القارة الهندية وهي تتلاشى إيذاناً ببدء رحلة جديد تجاه الشواطئ العربية.

كانــت إحــدى ســيئات حيــاة التطواف أنهــا حرمته، إلا مــن القليل، مــن أخبار أهله البريطانيين. إلا أنه لم يكن يعتبر ذلك حرماناً كبيراً، ولولا العمّة إيمي لما أرسل برسالة لبلده ولانقطعت صلته به. كل الرسائل التي تم إرسالها من إنكلترا في آخر سنتين كان مصيرها الضياع؛ على كل حال، لم يكن ليـستلم واحدة منها نظراً لتجواله. ولكن على اعتبــار الوعد الذي قطعه بالكتابة إلى ذويه، فقـد أمل بالحصول على ردّ، ليطمئن على الأقــل بأن كل شــيء على ما يرام بالنسبة لعائلته التي لم يأمل أبـداً أو يتمنَّ رؤيتها مرة أخـرى. كان يعتقد بأن هنالك فرصة لاســتلامه للبريد في عدن، وذلك لأنه ذكر وكلاء الشركة هناك والعنوان البديل للمكتب في بومباي.

فـي عَـدَن كانت هنالك مفاجأة فـي انتظاره. فمن بين الذين اعتلوا متن الســفينة بعد رسوّها في عدن كان صبي عربي من مقر المندوب الســامي. ومكمن المفاجأة أنه أتاه بوريقة موجهة لوليَم ر. وليَمســون، تطلب منه زيارة الكولونيل ستايــي Stacey، نائب المندوب الســامي في دار القضاء الكائنة في ســتيمر پوينت Steamer Point. لم يكن قد سمع أبداً بالكولونيل، ومن الطبيعي أن يتسـاءل عن سبب الزيارة. لكن ذلك كان يمكن معرفته بســرعة. وعندمـا حصل على إذن بالمغـادرة من كبير المســؤولين، ركب قارباً صغيراً واتجه نحو الشـاطئ ميمماً شطر الكولونيل كما طلب منه.

احتفى الكولونيل بوصوله بحرارة، قائلاً له بتبسّـم: «لقد ســمعت أيها الشاب بأنك

قد طفت أرجاء العالم لفترة طويلة، والدك صديق قديم لي، وقد أرسل لي برسالة يخبرني فيها أنك تفكر بالانضمام للشرطة الهندية».

«نعم، لقد فكّرت بذلك يا سيدي».

فأجاب الكولونيل: «حسناً، الشرطة المحلية في عَدَن، هي فرع للشرطة في الهند، إذ أن هذا المركز كما تعلم تتمّ إدارته من الهند. والآن يوجد شاغر هنا في شرطة الميناء، وقد خطر ببالي أنك لربما ترغب بالحصول على توصية ليتم تعيينك هناك، وحسب علمي فإن والدك سيرتاح عند سماعه بذلك. ما رأيك بهذا العرض؟».

اتخذ وليَمسون قراره بسرعة مجيباً: «إني لأجده مناسباً لي، يا سيدي».

«بالطبع فإنك قبولك في صفوف قوات الشرطة يعتمد على اجتيازك لعدد من الاختبارات الثقافية والعملية. بالمناسبة كم تبلغ من العمر؟».

أجاب وليَمسون: «واحد وعشرون، يا سيدي». لقد كان دون العشرين في الواقع، لكنه كان يعتقد أنه من الأفضل أن يزيد قليلاً في عمره.

كان الجواب مناسباً للكولونيل، مما حدا به للتأكيد على أن سلطة الجهات الرسمية ستعمل على إقالته من عمله في السفينة.

لقد فتح له هذا اللقاء الوجيز آفاقاً جديدة للمستقبل. وبتفكيره بذلك العرض في طريق عودته للميناء، غدا وليَمسون الشاب أكثر شغفاً به. كانت الخدمة في الشرطة في حدّ ذاتها أمراً مغرياً؛ وفكرة وجوده في عدن، في حال قبوله، زادت من جاذبية الفكرة. لكنه كان يشعر في قرارة نفسه بالخجل إزاء والده الذي كان يفكر به من آخر الدنيا ليُسدي إليه معروفاً. وهنا في عدن كان بإمكانه معرفة شيء عن العرب، وزيادة معرفته الضحلة بالدّين الإسلامي.

* * *

الفصل العاشر

زاوية في جزيرة العرب

يكمن الضعف في الطبيعة البشرية في السّماح للخوف بأن يتسلل إلى العقل ويدخله في دوامة القلق، وذلك عندما يرغب المرء في الحصول على أمر ما بلهفة كبيرة.

لقد أمضى وليَمسون أوقاتاً عصيبة من القلق إلى أن أصبح تعيينه لصالح الشرطة حقيقة واقعة، وسرعان ما انتهت الشكليات على نحو مُرضٍ، فحصل على تسريح من سيام ولم يخدم بعد ذلك مع أي طاقم في سفينة بريطانية.

كان يتم توزيع أفراد قوة «شرطة عَدَن» في مجموعتين منفصلتين انحصرت مهمات إحداهما في الميناء أما المجموعة الأخرى فكانت مسؤولة عن الحفاظ على النظام والقانون في الميناء. حيث تألفت القوة في مجملها من ضباط بريطانيين وبعض العرفاء وواحد من الرقباء وعريفين اثنين من السكان المحليين، بالإضافة إلى خمسين من الجنود الهنود المدرّبين على يد الإنكليز. بعد إنجاز وليَمسون لفترة قصيرة من التدريب تم تعيينه كعريف مقابل أجر نظامي ومصروف لبعض الحاجيات الأساسية (خمسين روبية في الشهر)، وزيّ مجاني ومنزل كان يوماً لأحد السكان.

استهلكت معظم النفقات الأساسية في الطعام المشترك والخدمات فقط، وحيث أنه كان يتشارك منزلاً مع ثلاثة عرفاء بريطانيين آخرين، فقد كانت الخدمة أمراً بسيطاً للغاية.

تألف طاقم الخدمة المحلّي من خمسة من الهنود: كبير خدم يتقاضى اثنتي عشرة روبية، وطاهٍ بأجر أقل من هذا المبلغ بقليل، بالإضافة إلى كنّاس، وهنديين يقومان

بأعمال التنظيف وغسل الثياب يعملان بأقل من روبيتين اثنتين لكل منهما، أو ما يعادل ستة جنيهات في الأسبوع. أما ضباط القطعة فقد حصلوا على خدمة ملكية في مقابل رواتبهم التي تراوحت بين ثلاثمئة وخمسمئة روبية.

سرعان ما أصبح وليَمسون الشاب مأخوذاً بالنمو السريع في رصيده البنكي، فسوّلت له نفسه شراء حصان عربي أصيل، وعيّن له سائساً هندياً ليعتني به، كما ألحق بخدمته ولداً عربياً للعناية بكلين اثنين اشتراهما.

لم تكن مهامه كشرطي شاقة للغاية، فضلاً عن أنه كان مستعداً بالفطرة لتحمّل لهيب الحرارة المتقدة، وبالتالي فقد منحه ذلك فسحة وافرة من الوقت يمضيها في الرياضة والدراسة.

لقد حظي بمسحة من التغيير دخلت حياته المهنية، وذلك عندما تم إرساله في حملة إلى الزَّيلَع Zaila على الساحل الصومالي ليترأس مجموعة من الجنود الهنود، من أجل قمع انتفاضة صغيرة اندلعت هناك. تكللت مهمته بالنجاح دون صعوبات تذكر، وبقيت القوة هناك تجوب المنطقة لعدة شهور.

في حملته تلك تم تعيين مترجم ليرافق وليَمسون، وهو صومالي يدعى «حسن علي» كان قد أمضى فترة في أستراليا في السابق، وبالتالي فقد كان بإمكانه التحدث بمقدار لا بأس به من الإنكليزية وكذلك العربية التي كان يتقنها. تميّز ذلك المرافق ذو البشرة الداكنة بلون الفحم بأنه مسلم تقيّ، وما أشدّ ما كانت متعته عندما شرع ببساطة في تفسير وشرح حقائق دينه، تعلو وجهه سيماء العالم الخبير، بمجرد أن لاحت من مرافقه العريف الأبيض أول بادرة اهتمام بذلك الموضوع.

انتهى عمل «حسن علي» بعد العودة إلى عدن، إلا أنه بقي صديقاً مخلصاً لوليَمسون كما أنه عرّفه على العديد من العرب من أصحاب النفوذ في المجتمع.

لم تكن الخدمة في الشرطة يوماً مهمة آمنة على الإطلاق، وذلك بسبب وجود الكثير من المخاطر فضلاً عن الأذى الجسدي، إلا أن ذلك العمل على صعوبته منح

وليَمسون مقداراً عظيماً من الأمان المادي لم يكن قد جرّبه قبل ذلك.

على الرغم من أن الترقية لم تكن حلماً سهل المنال، فقد كان يمتلك سبباً قوياً وإحساساً بأنه لن يتم تجاهله عندما تلفت خبرته ومدة خدمته أنظار المسؤولين إليه وتمنحه الحظوة عندهم. وقد استفاد وليَمسون كثيراً من الحملة الصومالية في سنته الأولى بالإضافة إلى مهمتين إضافيتين قام بهما، ليلفت الأنظار إليه كفرد يمتلك مستقبلاً واعداً بين زملائه، وسرعان ما شد انتباه الجنرال هوغ Hogg الحاكم العسكري.

لقد أفاد كذلك من تلميحات أصدقائه العرب التي دفعته للمباشرة بتحقيقات أوصلته أخيراً إلى أن ثلاثة من الجنود الهنود كان يُشتبه بتورطهم بالتعامل مع الألمان. لفت ذكاؤه وطريقته في إجراء التحقيقات الأنظار إليه بشكل كبير، ولم تكن شجاعته وإقدامه التي أبداها بجلاء لتمر مرور الكرام، حينما تعامل مع تلك الحادثة المثيرة التي وقعت في أحد الأيام الملتهبة على الرصيف المائي في عدن.

لقد كان يوماً قائظاً عندما أفرط عملاق أسود من مومباسا، يعمل إطفائياً على واحدة من سفن الميناء، في شرب الخمر. وعندما مرّ بجانب إحدى السّفن اللافتة للنظر كانت راسية في الميناء، لعبت الخمرة برأسه وأحالته إلى كتلة مشتعلة غضباً وحنقاً، فاستلّ سيفاً صومالياً مطلقاً العنان لغضبه المسعور ومتعطشاً لقتل كل من يصادفه، وانتشر الرعب على الرّصيف المائي عندما اتجه العملاق الهائج نحو المارّة لا يلوي على شيء ليلسعهم بلا هوادة بحدّ سيفه المجنون من غير تمييز.

كان العريف وليَمسون يجوب المنطقة في دورية في ذلك الوقت، وصادف ذلك المشهد فاندفع مسرعاً وهو يسحب مسدسه العسكري من جرابه، وما إن لحظه الرجل الأسود حتى قذف بنفسه عليه دون أن يخفي نواياه القاتلة، وبحركة أسرع دافع وليَمسون عن نفسه، وضغطت أصبعه على الزناد.

سُمع صوت «طقة» معدنية ولم تخرج الطلقة من المسدس، فانحرف العريف مغيراً اتجاهه وقام بلف سلاحه في يده ببراعة فائقة في حركة تعلمها من الغرب الأميركي،

ليسدد ضربة عنيفة بعقب المسدس نحو وجه المعتدي، الذي فأجاته الضربة وأفقدته اتزانه فسقط السيف من يده، ليقوم وليَمسون بإطباق الأصفاد على معصميه قبل أن تسنح له الفرصة ليستردّ وعيه. لقد تسبّب ذلك الهجوم في وفاة اثنين من السكان المحليين، وفي وقت لاحق تم إرسال الرجل الأسود إلى الهند لتتم محاكمته بتهمة القتل غير العمد، ولم يتم تحميل أي من الهاربين المذعورين المسؤولية عن أيّ من حالات القتل.

لسوء الحظ فقد تسبب تصرف طائش من جانب وليَمسون في إزعاج بسيط للجنرال هوغ، في الوقت الذي لفت ذلك التصرف انتباه القائد صاحب المقام الرفيع ومنحه اهتماماً خاصاً. لقد عُرف عن الحاكم العسكري بأنه كان محباً للحديث إلى حدّ كبير، مع تميّزه بالألفة وخفة الظل واللياقة الكبيرة في حياته الخاصة، لكن عندما كان الأمر يتعلق بمسائل الخدمة العسكرية، كان يتحوّل إلى شخص صارم شديد التمسّك بالنظام. وهكذا فقد حافظ على قصة شعر قصيرة جداً لتلك الشعيرات القليلة التي صمدت على رأسه بعد الفترة الطويلة من الخدمة المتفانية في الحكم البريطاني للهند، وقد بدت قمة رأسه المكشوفة كأنها قطعة من العاج المصقول اللامع، وحاز عن جدارة على لقب أطلقته عليه قوات العسكر والشرطة ليعرف بينهم باسم: "Old Baldy" «الأصلع العجوز».

في أحد الأيام قام بجولة تفقدية طويلة رافقه فيها أفراد من الضباط العسكريين وكبار المسؤولين في الشرطة، حيث كان العريف الشاب وليَمسون خارج خدمته وحيداً في منزله، جالساً أمام ببغاء أليف وقف ساكناً بهدوء في قفصه، بعد أن أنهى جلسة مخصّصة لتعليمه المزيد من الكلمات القليلة التي تمكن من ترديدها، ومع اقتراب أفراد الجولة التفتيشية المهيبة قام وليَمسون على عجل بتنحية الغطاء القماشي الأسود، وببعض الترتيب بشكل سريع للمنزل، ثم وقف باستعداد في الانتظار. تقدم الضباط نحو الداخل موزعين بصرهم في الأنحاء، وعندما رأوه تذكروا حادثة الرّصيف المائي ودور العريف الذي قام به هناك، فتحدث الجنرال مبدياً تقديره للموقف وإقراره

بالجميل بإسهاب مفرط غير مبرّر، وقد استرسل في حديثه وأطال حتى بدا أنه يصعب عليه إنهاء الموضوع الذي بدأه، وهنا رماه البغاء بنظرة جانبية وخرج عن صمته الوقور في توقيت غير ملائم على الإطلاق، وبدا له في تلك اللحظة أن يستعرض مهاراته وذاكرته الثاقبة فصاح فجأة: «اسكت يا أصلع.. اسكت يا أصلع!!».. ابتلع الجنرال نهر كلماته المسترسلة التي وأدها الطائر في مهدها، وأطلق نظرة حادة كسكين نحو العريف الذي غرق في الإحراج، ثم التفت خارجاً دون أن ينبس ببنت شفة.

بطبيعة الحال لم تترك تلك الحادثة البسيطة ذيولاً تذكر بالمقارنة مع قضية أخرى كان لها الأثر البالغ على سمعة وليَمسون في أعين السلطات والمسؤولين. فقد قام بدافع من طيش الشباب وتهوّره بالتفاخر على الملأ وبكثير من التباهي بعلاقاته وارتباطه مع العائلات العربية وانحيازه المتزايد نحو الدين الإسلامي. إن الحكام في عَدَن، شأنهم في ذلك شأن حكام الهند، قد حافظوا على مسافة تفصلهم عن السكان المحليين وتعاملوا معهم بتحفظ كبير، اللهم إلا في بضع مناسبات وظروف معينة. كانوا ينظرون إلى مقام العنصر الأبيض ونفوذه على أنه جوهرة ثمينة لا يجوز التفريط بها، وإن أي تصرف أو موقف مخالف للتقاليد والأعراف من قبل أحد العرفاء سيواجه بالازدراء والاحتقار بين الضباط، وهكذا كان، الأمر الذي أثار قلقاً شديداً لدى الكولونيل ستايسي الذي تم تعيين المذنب وقبوله في الخدمة العسكرية بناء على توصية منه.

سرعان ما أرسل الكولونيل في طلب وليَمسون وقام باستجوابه في جو من الاهتمام ودافع من القلق الأبوي، وقد بدا أن معظم ما سمعه عنه كان صحيحاً، إذ كان لذلك حسب رأيه أبلغ الضرر على النظام الأمني وعلى مصالح المجتمع الأبيض على نطاق واسع. وباعتباره سيداً رفيع المقام كما يطلق عليه الهنود فقد كان يصعب عليه تقبّل المبدأ الاجتماعي القائل بأن الناس من جميع الأعراق وحتى الخلاسيين منهم، ولدوا متساوين وبأنهم سواسية في أعين الخالق. ولشدّ ما كانت صدمته عندما علم بأن الشاب الذي يرعاه قد اعتنق ذلك المبدأ. لكن كل ما قام به هو أن نصح الشاب بأن

يتجنب الصداقات السوقية مع أشخاص من الملونين، وقد ذكّره وليَمسون قائلاً بكثير من الواقعية ومتجاوزاً حدود اللياقة المفروضة بأن العرب لا يمكن تصنيفهم تحت خانة «الملوّنين».

ردّ الكولونيل ستايسي بسرعة: «يمكنك أن تقول ذلك مجازاً»، وتابع قائلاً: «أنصحك، وذلك من أجل مصلحتك، أن تختار أصدقاءك بحصافة وأن تعامل كلاً منهم حسب قدره، ويشاع كذلك بأنك تنوي أن تصبح مسلماً؟».

أجاب وليَمسون: «كنت أفكر في ذلك يا سيدي، إلا أن المُلا حذرني من مغبة القيام باتخاذ أي قرارات متسرعة».

علّق الكولونيل ستايسي قائلاً: «يا لها من نصيحة عاقلة، لقد نشأتَ في منزل مسيحي وأنا واثق من أن والدك سيصاب بالأسى والخيبة عندما يعلم عن ضلالك!».

وتابع الكولونيل: «لا أعتقد، حسب رأيي، بأن هناك عيوباً أو أخطاء في المسيحية، ولكن، اللعنة على كل ذلك - أنا لا أعطيك موعظة - فمن الواضح أنك تمرّ بنزوة دينية عابرة، آه، ميل أو انجذاب... اذهب وافتح حديثاً صريحاً مع أحد القساوسة، لعلك تخرج هذه الأفكار الغريبة المشوهة من رأسك».

لم يكن الشاب وليَمسون هو المخالف الوحيد للتعاليم التقليدية المألوفة، فقد كان عريف زميل له في قوة عَدَن من الذين عقد معهم نقاشات مطولة، يتلقى تأنيباً رسمياً أشدّ قسوة، حتى أنه طلب في وقت لاحق نقله إلى الهند تجنباً لطرده. وقد كان ذلك العريف مجاهراً بإسلامه فعلياً، إلا أن اهتمامه بالدين لم يكن إلا نتيجة لدافع خفي، فقد وقع في حبّ فتاة مسلمة، وكي يكسب رضاها أبدى رغبة شديدة وحماسة في أن يصبح مؤمناً حقيقياً. وبهدف مساعدته في تحقيق هدفه الحميد أمضت الفتاة وقتاً طويلاً في تعليمه مقداراً لا بأس به من القرآن الكريم والعديد من الكتب الأخرى إلى أن قام بإشهار إسلامه، وعندها وبكل ثقة تقدّم لطلب يدها، وما أشدّ دهشته عندما رفضته رفضاً صريحاً ومباشراً قائلة: «أنت صديق طيب، وقد قدّمت لك ما فيه الكفاية من العلم والفائدة».

لـم يكن ذلـك النوع من الروابـط العاطفية ليثير اهتمام وليَمســون بـأيّ حال خلال رحلة بحثه عن الحقيقة، فقد نشأ في تربة مسيحية كما ذكَره بذلك الكولونيل ستايسي، ولم تفلح براعم الأفكار التي حاولوا زراعتها في منزله ولا حتى مدرسة أيام الأحد التي كان يحضرهـا فـي أن تلقى لها أرضية صلبة في عقله. وما لبـث العديد من الذين تلقوا التعاليم المسيحية خلال طفولتهم المبكرة في إضمار شـكوك مستترة خلال مراحل المراهقة والبلوغ من حياتهم. لم يكن العديد من مبشري المسيحية يتحلون بالصبر في مواجهة تساؤلات الأطفال المباشرة، وقد تميّز وليَمسون في طفولته بذكاء حاد وعقل أكبر من أن يتقبّل عشوائياً تلك المسائل التي لم يتم تفسيرها بصورة منطقية.

سـمع وليَمســون مقولة أن المسيحية هي راحة وإلهام للملايين، وأن الإسـلام هو راحة وإلهام لملايين أكثر، وقد درس الديانتين كليهما بعناية وتبصُّر في سـعي جادّ منه للحصـول علـى الفوائد الروحية في عالـم مليء بآلاف الديانات التـي تعد بذلك كله. كانت النتيجة التي توصّل إليها قد تبدو مؤسـفة بالنسـبة لأتباع المسيحية، فقد وجد أن التعاليم الإسلامية أكثر إقناعاً وقرباً من احتياجاته الروحية.

عـاد بذاكرتـه إلى اليوم الذي سـمع فيه مـن إحدى عمّاتـه المحترمات فـي إنكلترا ملاحظة بأن هناك بعثة تبشـيرية تابعة لإحدى الجمعيات الكنسـية تخطط للذهاب في رحلـة إلى الهند وذلك «لإعـادة المحمديين وغيرهم من الوثنيين إلى جادة الصواب». حتـى مـع عمره الغضّ في ذلك الوقت وهو ما زال طفلاً صغيراً، كان بإمكانه أن يشـتمّ رائحة الجهل والتعصّب تنبعث من ملاحظتها تلك. وقد أوصلته تجربته ودراسـاته في عَـدَن سـواء كان محقاً أم مخطئـاً إلى قناعة بأن المسـلم الحق أكثر قـدرة وملائمة من الناحية الروحية على نشر «كلمة الله» من أيّة بعثة تبشيرية مسيحية يتم إرسالها لإقناعه. وبطبيعة الحال فقد كان للمقـاوسـة البريطانيين الموجودين في عَدَن رأي مطابق للرأي الرسمي للسلطات العلمانية، فقد اتفقوا جميعاً على أن هذا الشـاب الغريب كان يسلك درباً زلقة ستودي به في النهاية إلى البوار.

وجّه وليَمسـون، الذي تخلص من الشـكوك أخيراً، اللوم إلى نفسـه، إذ كان يفكر بعقلية

الشرطي، وذلك بعد أن أصبح الخطر في الطريق التي يسلكها محدقاً وواضحاً، إلا أن تلك المخاطر لم تكن لترقى إلى درجة تثنيه فيها عن السير قدماً واتباع الدرب الرّوحي الذي آمن بأنه الأمثل. ومع انغماسه وتعمّقه أكثر فأكثر في البحث والدراسة بدأ يهمل النادي شيئاً فشيئاً، وعكف يمضي ساعات طوالاً وهو يجيل فكره مستبصراً في إحدى الترجمات الإنكليزية لمعاني القرآن الكريم، وفي أوقات أخرى كان يتسامر مع «حسن علي» أو يقوم بزيارة إلى أحد أصدقائه من العرب تعرّف إليه مؤخراً وهو يتقن اللغة الإنكليزية. تلقاه العرب على اختلافهم بصورة واحدة من الترحاب وكرم المعاملة المعهودين في ذلك العرق، وكانوا يجيبون بصبر كبير وسعة صدر على تساؤلاته الكثيرة. كان لذلك أبلغ الأثر في مدّ يد العون له في صراعه الروحي. لم يحاول أحد منهم يوماً أن يستحثه أو يضغط عليه لاتباع دينهم أو قام على الأقل بمحاولة بسيطة لإقناعه، وها هو ذا يجد نفسه وحيداً على مفترق طرق لاتخاذ قرار لا رجعة عنه، فالتمس بلهفة نصيحة المُلا الذي أجابه بهدوء: «أشهد بأن لا إله إلا الله، وبأنّ محمداً عبده ورسوله، والأمر يعود ببساطة للمرء بنفسه في أن يقرّر ما هو الحق».

استمر وليَمسون خلال عمله في شرطة عَدَن بالدراسة المتأنية العميقة للكتب الإسلامية، كما أنه استطاع أن يحوز معرفة سطحية ببعض الكلمات العربية التي كانت صعبة النطق على لسانه، ومع نهاية العام، وقد بلغ من العمر عشرين عاماً، تبدّدت كل الشكوك من رأسه، ومهما تكن النتيجة فإنه سيتوصل في آخر المطاف إلى اعتناق الدين الإسلامي وسيسعى جاهداً منذ ذلك اليوم في تكييف حياته الجديدة وصياغتها وفقاً للتعاليم والقيم التي يكتنفها القرآن الكريم.

كما هي الحال لدى أي معتنق جديد للدين، فقد تملكته رغبة جديّة جامحة في مشاركة ذلك الكنز الروحي الذي اختصّ به مع الآخرين، وبدافع من حماسته المتوقدة خطّ رسالة مطولة إلى والده في بريستول، ورسالة أخرى إلى عمّته إيمي، وأخرى إلى جماعة السبتيين في كاليفورنيا يشيد فيها بالإسلام ويشرح فيها عزمه على أن يصبح مسلماً. ومن نافل القول أن وقع الرسالة كان صاعقاً على كل من تلقاها وهزّهم محتواها

حتى الصميم. كان أحد الذين أرسل لهم خطاباً بنفس المحتوى تقريباً هو السيد «رَسل ويب» القنصل الأميركي في مانيلا، ومن الغريب أن هذا الخطاب كان له أثر كبير على الرجل سواء في قراره اللاحق أو في حياته المهنية ككل. فقد تخلى القنصل عن منصبه لاحقاً وأصبح مسلماً، وذهب في رحلة حجّ إلى مكّة، ومن ثم عاد أدراجه إلى أميركا حيث ألّف العديد من الكتب وألقى المحاضرات عن الديانة الإسلامية[1].

لقد حظي وليَم وليَمسون منذ أن كان في الثالثة عشرة وعندما كان يخطو خطواته نحو المراهقة بحياة حافلة مترعة بالمغامرات لا ينقصها التغيير أو التنوع، وقد يستغرق الرجل العادي عمراً بأكمله قبل أن يعيشها كلها. إلا أنه ومع وصوله سن العشرين كان ما زال يقف منتظراً عند عتبة حياة مهنية مديدة عاصفة بالأحداث، ستجعل من اسمه أسطورة يعرفها الناس من أقصى نقطة من الجنوب العربي صعوداً نحو الشمال إلى أراضي بلاد ما بين النهرين العريقة الموغلة في القدم والتي تعرف اليوم باسم تلفّه الكآبة، ألا وهو «العراق».

---

(1) ألكساندر رَسل ويب Alexander Russell Webb (1916-1846) كاتب وناشر أميركي، وسفير أميركا في الفيليبين. كان في الأصل بروتستانتياً ولم يرَ في هذا المذهب ما يشبع توقه إلى الحقيقة، فبدأ في عام 1881 يبحث في شتى الأديان عن العقيدة الحقّة ليتّبعها، إلى أن أتيح له قراءة الكثير من المصادر العلميّة عن الإسلام، فانشرح قلبه له وأعلن إسلامه عام 1888. وكان تعيينه سفيراً في مانيلا بالفيليبين قبل ذلك بعام واحد في 1887، ولمّا عاد إلى الولايات المتحدة لنشر الإسلام، اعتنقت زوجته إلا ج. ويب Ella G. Webb الإسلام مع أولادهما الثلاثة. بعدها استقرّ محمّد آلكساندر ويب (كما سمّى نفسه) في نيويورك، وأسّس الشركة الشرقيّة للنشر Oriental Publishing Company ونشر مؤلفاً ضخماً له بعنوان: الإسلام في أميركا *Islam in America*، كما أسّس صحيفة American Muslim Propagation Movement وهي صحيفة نشر الإسلام في أميركا تحت اسم: «العالم الإسلامي» *Moslem World* بدءاً من عام 1893. قام بتأسيس مسجد في برودواي في مانهاتن، لكن لم يقيّض له البقاء كثيراً لأسباب مجهولة، لعلّها تعود إلى انحسار الدّعم المالي الذي كان يأتيه من الهند. وفي أواخر أيامه عيّنه السّلطان العثماني عبد الحمد خان الثاني قنصلاً فخرياً في نيويورك، وعرض ويب على السّلطان مخططاً لبناء مسجد وإقامة مقبرة إسلاميّة، فأثنى عليه السّلطان، ولكن المشروع لم يستمرّ بسبب قيام ثورة الاتحاديين على السّلطان. عاش ويب أواخر أيّامه في مدينة رذرفورد Rutherford بولاية نيوجرسي، وتوفي بها مطلع أكتوبر من عام 1916، رحمه الله تعالى وأحسن إليه.

بعد أن اتخذ قراره، أبلغ «حسن علي» وصديقه العربي، حيث قام صديقه حسن الصومالي بإيصال أمنياته وطموحه إلى سلطان لحج «فضل بن علي»، الذي دعاه لمقابلة شخصية معه. وتم الإعداد من قبل السلطان لتجهيز حصانين اثنين في قرية «الشيخ عثمان» قرب حقول الملح على تخوم عدن. وأعد وليّمون الشاب العدة للسفر دون أن يخبر بذلك أياً من زملائه بالغرض الذي يدور في رأسه. ذهب برفقة «حسن علي» إلى مكان اللقاء في القرية العربية، حيث قطع الرجلان المسافة القصيرة نسبياً إلى منزل الضيافة المخصص للأوروپيين وغيرهم من المسافرين خارج المدينة المسورة، وهي مدينة تتشابه في الغرض منها مع بنغَل الدّاك dak bungalow في الهند ونُزل استراحة المسافرين في «سيلان».

في اليوم الذي يليه، قام وليّمون بزيارة السلطان، وشرح له شخصياً رغبته في أن يصبح مسلماً. وعندما رأى السلطان الصّدق في لهجته، دعاه ليبقى كضيف له في القصر، فبقي هنالك لبضعة أيام قبل المراسم الدينية.

هنالك تشابه بين مبادئ الديانتين الإسلامية والمسيحية. في الوقت المحدّد تم اصطحاب وليّمون باثنين من أبناء السلطان قاما بالتعريف عليه أمام القاضي. وهناك أعلن ولاءه للشريعة الإسلامية ونطق بالشهادتين اللتين خوّلتاه ليصبح في نظر المسلمين واحداً منهم.

كان هناك اعتقاد مشترك بين الناس في الغرب بأن الختان مسألة إجبارية لدى المسلمين. بينما يرى المسلمون أنه أمر مستحب، والشريعة الإسلامية لا تعتبره من الأساسيات. إذ ليس من الضرورة أن يختتن المرء ليصبح واحداً من المسلمين، وكل من يعتنق الإسلام من الذكور الذين بلغوا سن الرشد قد يتم إفهامه أنه ليس من الواجبات. وبالنسبة لوليّمون تم إخباره بذلك، لكنه كان يتمنى ممارسة الشعائر بطريقة تظهر ولاءه بشكل أكبر.

لم يكن هناك شك في شجاعته. ولكن المرء قد يتخيل أن شاباً جلداً كهذا، كان قد واجه العديد من المحن بثبات وعزم، يمكن أن يصاب بالغثيان عندما يتم تقديمه

بواسطة أبناء السلطان لطبيب مزود بحبل للربط ومبضع حاد. وحتى لو سمع ذلك الطبيب الجلف بالتخدير يوماً ما، فهو بلا شك كان يعتقد بأنه فقط للنساء الرقيقات زوجات النبلاء. لكن على الرغم من إيلام هذه الجراحة البدائية، فإنها كانت فعالة، وسرعان ما لجأ الطبيب إلى العلاج بمضاد العفونة وذلك بوضع صفار بيض مخفوق على الجرح وتثبيته في مكانه بواسطة ضمادة تم إعدادها بإتقان. وبذلك انتهت ملاحظاته الشخصية، فقدم له المريض بالمقابل هدية له، وبعد ذلك أخذ الرجل المختون حديثاً بمعالجة نفسه بالماء المالح حتى تم شفاؤه.

لجمعتين متتاليتين صلّى وليَمسون في المسجد، واختار له مضيفه السلطان فضل بن علي اسماً إسلامياً وهو عبد الله فضل على اعتباره ابنه المتبنى.

تلك البطيخة الصفراء اليانعة المتبقية من عمله في الشرطة لم تعد سوى إحدى فواكه البحر الميت التي سيتم التخلص منها في أقرب فرصة. واعتناقه للدين الإسلامي وممارسته للعبادات ارتقى به إلى قمة الشعور الرّوحي، بحيث صار يرى المطامع المادية للناس من منظار مختلف. ثم وردت أخبار بأن قافلة ستتجمع في لحج لتذهب عبر اليمن والحجاز باتجاه مكّة، مما أشعل لديه الرغبة في الانضمام إليها وأداء فريضة الحج. لكن ثيابه وماله كانت في عَدَن، مما حدا به إلى العودة مكرهاً إلى الميناء.

لم يكن الترحيب به ضمن مجتمع البيض على ذلك المستوى من الودّ الواضح. والبرودة البريطانية التي توجد بشكل أساسي في شخصية وليَمسون المعقدة حالت دون تعصبه ضد أحد، لكنه، بسبب الحماسة الدينية التي كانت تتقد في داخله بعد تجاربه السابقة، كان يشعر بحاجة إلى صعود المئذنة والصّدح باسم الإله الواحد الأحد كما يفعل المؤذنون. ولم يستسغ وليَمسون برودة عَدَن بعد الدفء الروحي الذي وجده في لحج.

كانت الاستخبارات البريطانية النشطة على علم تام بتحركاته ونواياه، وكطبيعتها، فإن السلطات لم تنظر للأمر من وجهة نظر روحية أو دينية. بل نظر كلّ من الجنرال هوغ والكولونيل ستايسي وكبار ضباط الشرطة إلى الأمر برمّته من وجهة نظر معتمة

قليلاً، ولم يقوموا فقط بمنع وليَمسون من أداء منسك الحج، بل أرسلوا تحذيراً لسلطان لحج بتوقع مشاكل إذا قام الشرطي الشاب بالانضمام إلى قافلة الحج. تم رفض طلب وليَمسون بتسريحه من الشرطة، وتم إخباره بأن التسريح لا يمكن أن يتم إلا في الهند. وحتى مقدّم الطلب بنفسه لم يعرف ماهية أسباب عدم تقبل سلطات عدن لفكرة اعتناق رجل أبيض للإسلام وتجوله في اليمن بين العرب، وخلقهم للمشاكل لم يدع له خياراً سوى قبول فكرة الصعود إلى متن السفينة P. & O. والتوجه إلى بومباي.

وصلت أخبار مغادرته الوشيكة لعَدَن إلى سلطان لحج، الذي ما كان منه إلا أن أرسل رسولاً يحمل رسالة تشجيع وهدية عبارة عن ثلاثمئة روبية. تقبّل عبد الله فضل وليَمسون الهدية بكل امتنان، وهو الذي كان قبل أيام، كوليَم ريتشارد وليَمسون، لا يمكن أن يحصل عليها. فآداب السلوك الإسلامية تعتبر تقديم الهدايا وتلقيها أمراً تعبدياً عندما يوجد مبرّر لذلك، ومن هنا كان موقف الكثير من العرب الذين يبادرون إلى الصدقة تقرباً لله وكسب رضاه. لاقت المبادئ الأولية لهدي الإسلام قبولها في نفسه الحرّة دون الشعور بالمهانة أو الذلة، وكان من دواعي سروره أن يضيف الهدية غير المتوقعة إلى مدّخراته الشخصية. كان من الواضح حقاً أن الله يتولى رعايته وحفظه.

لا شك في أن السلطات في عدن قد شعرت بارتياح كبير عندما غادرت السفينة الميناء وبين المسافرين على متنها الشرطي وليَمسون. فغريب المعتقد لم يكن ليطاق في ذلك المجتمع الذي يحبّ أفراده بعضهم بعضاً. ومن وجهة نظر الشرطة والعسكر، فإن أيّ احتكاك غير رسمي بالسكان الأصليين يعتبر مخالفاً للأدب، حيث يكون لذلك الموقف تبريره عندما تؤدّي الصداقة من هذا النوع إلى التحيّز وإساءة استخدام المنصب. لكن فكرة أن شرطياً من أبناء جلدتهم يعتنق الإسلام علناً قد هزّت كيان السلك الرسمي من رأسه لأساسه. وكبار الشخصيات من الهنود الذين قد يتساهلون في نظرتهم للشذوذ الجنسي، كانوا يصعقون عند سماعهم لما يعتبرونه شذوذاً دينياً. لقد كانت مسألة غريبة بكل ما تحويه الكلمة من معنى، وقد اتفق معظم الناس في

الرأي على أن التغيير في الهواء والمكان سوف يعيدان وليَمسون الشاب على الفور إلى صحته وعافيته.

يمكن أن يكون للطقس الحار والبيئة الشرقية القدرة على إحداث تأثيرات غريبة في نواحٍ هامة. وفي معظم الحالات تعتبر الأعراض الغريبة، مهما كان شكلها، مرحلة عابرة لاَ غير. لذلك حتى قوات الأمن في عدن، الذين لاحظوا إخلاص الشاب الكبير، لم يصدّقوا أنّ وراء انجذابه وإصراره على التمسك بذلك الدين الجديد طوال مشوار عمره أمراً كبيراً.

مهما بدا ذلك مؤسفاً للمتعصبين من المسيحيين، فمن المؤكد أنه ليس هنالك من عيب في الاتباع الثابت لتعليمات المنهج السوي. حين كان على متن المركب المتوجه إلى بومباي، وعندما بدأت جزيرة العرب تتوارى عن الأنظار شيئاً فشيئاً، ظل قلب وليَمسون عامراً بالإحساس الروحي الغامر الذي غيّر حياته. كلما ازداد قرباً من الهند، تأجّجت رغبته في العودة إلى جزيرة العرب، الأرض التي ولد فيها من جديد. وفي لحج حين وقف على عتبة مغامرة عظيمة، امتدّت سطوة الحاكم البريطاني المهيمنة لتتحكم بالأمور. وعلى الأرجح أنه سيحظى بعد عبوره لبحر العرب بحياة رائعة جديدة كما يحبّ ويهوى. أحياناً تراه في قصر لحج ومساجدها مرة أخرى؛ وفي الأعمّ الأغلب في خيام البدو السوداء، أو برفقة إحدى القوافل التي تقصد مكّة المكرمة. وفي إحدى حقائبه وضع لباساً عربياً قام بشرائه من عَدَن، وكلما وقعت عيناه عليه، اجتاحته رغبة عارمة في ارتدائه بين جموع العرب. علاوة على ذلك، رغب في دراسة الدين الإسلامي بشكل كامل، وأيقن أن الطريق الوحيد لتحقيق هذه الغاية هو من خلال تعلّم اللغة العربية والعيش بين المسلمين في البلد الذي أُكره على مغادرته.

قبل أن ترسو السفينة في بومباي، كان يخطط للعودة في أقرب وقت إلى جزيرة العرب، غير مكترث بالمكان المقصود، طالما أنه خارج نطاق سيطرة الحاكم البريطاني.

* * *

الفصل الحادي عشر

السـفر سـراً على متن السفينة

بعـد عـودة عبد الله فضل وليَمسـون إلى الهند تبيّن له في الحـال أمر واحد وهو أنه لم يعد مشـهوراً كما كان في عَدَن. لكن تسـريحه من الشـرطة لم يشعره بالندم في كلا الحاليـن، سـوى أنّ السـلطات البريطانيـة في بومباي استمرّت بالتدخـل المزعج في شؤونه الخاصة.

على الرغم من عدم اتخاذ أيّة إجراءات فاعلة لإعادته إلى وطنه - وذلك لاستحالة اتخاذ مثل تلك الإجراءات بشـكل قانوني - فقد عُرضت عليه رحلة عودة مجانية إلى إنكلترا في السـفينة التالية المسـتعدة للإبحار. كانت فكرة جيدة، عُرضت عليه رسمياً، ثم تُبعت برفضه لها. ارتأى بعد ذلك أنه من الأفضل له السفر إما إلى أميركا أو أستراليا على اعتبار أن الشرق لم يكن مكاناً جيداً لشخص يتمتع بهذا المزاج.

بقي وليَمسون الشاب في فندق متواضع وظل متوارياً عن الأنظار. إذ أن العودة المبكرة إلـى جزيرة العرب بدت أمراً صعب المنال. لقد أمسـكه الحاكم البريطاني في الهند بقبضة لـم تكـن أقل قوة، خاصة وأن قفازاً من المخمل كان يغطيها. وعندما حاول أن يحجز مكاناً للسـفر علـى متن أي مركب متوجّه إلى جزيرة العرب، لم يجـد أي مكان. كما أنه ليس ثمّة ربّان يطلب بحاراً أو رجل إطفاء أو مضـيفاً أو حتى مستخدماً. والطريق البحري إلى جزيرة العـرب كان ممنوعاً، ومن الواضح أن السـلطات قد أصدرت إلى مالكي السـفن تعليمات مشدّدة بعدم سفره في حال من الأحوال، باستثناء بعض الدول المحددة.

لقـد وصلت الأمور إلى طريق مسـدود. وسـعياً لانفراجها، عرض وليَمسـون على

المسؤولين الرسميين في الحكومة الهندية اقتراحاً مفاده أنه قادر على أن يكون عنصراً فعالاً في جزيرة العرب كأحد أعضاء الاستخبارات البريطانية. فقد اكتشف في عَدَن أن الألمان يتآمرون ضد المصالح البريطانية في الخليج العربي، وألحّ على ضرورة السماح له في المساعدة للتصدي «لقوى الشرّ» في تلك المنطقة. لكن هذه المقترحات لم تجد لها آذاناً مصغية، وانتهت كسابقاتها.

لقد دفعه الإحباط إلى اللجوء إلى استخدام أساليب الخديعة والمكر. ونظراً لمنعه من السفر بيُسر وسهولة إلى البلاد العربية، بدأ بالتفكير بحيلة للسفر سراً. حدَّ البريطانيون كثيراً من حريته، على الرغم من أنهم كانوا ليقين أكثر من الإسپان. ومن وجهة نظره كان ذلك محض ظلم وجور. في پونابي Ponape تم اتهامه زوراً وبهتاناً بمدّ يد العون للمتمردين من السكان الأصليين، وهنا في الهند حوصر وضُيّق عليه لأنه رغب بالعيش بين العرب ودراسة عاداتهم ودينهم. لقد عانى أكثر من اللازم جراء التدخل الرسمي في شؤونه الشخصية، وقرّر ألا يسمح بالمزيد من ذلك.

كانت المشكلة تكمن في كيفية خداع مسؤولي الميناء في بومباي. خاصة وأنه من الواضح اتخاذهم إجراءات كافية لضمان عدم سفره على متن أية سفينة متجهة نحو البلاد العربية. لكن كان من الواضح أيضاً عدم وجود اعتراض جدّي على عمله ككاتب أو أي عمل آخر في الميناء في حال استطاع الحصول على أحدها، فتظاهر بخضوعه لذلك الأمر الواقع ورضاه بالحصول على وظيفة من ذلك النوع.

كانت السلطات تعلم مكان إقامته، لكن أحداً لم يقم بمراقبته أو تقييد حركته ضمن المدينة. فاستغلّ وليَمسون ذلك وأقام علاقات مع العديد من تجار الخيول الهنود والعرب أثناء زيارتهم لبومباي كواحدة من رحلاتهم التجارية المعتادة.

منذ قديم الزمان كان وليَمسون قد جمع الكثير من المعلومات الهامة التي تفيد بأن أكثر العرب يأتون من الموصل وبغداد والبصرة والكويت. واحد أو اثنان منهم كان ملمّاً بالإنكليزية، ومعرفته السطحية بالعربية والهندوسية ساعدتاه على شرح حالته وطلب النصيحة.

مـن خـلال تلك الصلات علـم بأن الشـركة البريطانية الهندية قد قدّمـت الكثير من التسـهيلات لتجـار الخيول في رحلاتهـم التجارية إلى الخليج العربـي. فمع كل ثلاثة خيول يتم شـحنها من العراق أو جزيرة العرب، يتم منح التاجر بطاقة سـفر مجانية من الدرجة الأولى. ومع كل فرسـين، يسـمح بسفر سـائس خيول بشكل مجاني على متن السـفينة. بالإضافة إلى ميزات مشـابهة يتم منحها أيضاً لأي تاجر يقوم بشـحن كميات معيّنة من التمور.

اكتشـف وليَمســون أيضـاً أن بعض التجـار يقومون أحيانـاً ببيع تذاكـر عودتهم إذا وجدوا ضرورة للبقاء في الهند لأسـباب تتعلق بأعمالهم، بعد وقت انقضـاء صلاحياتها. وبعمليـة مـن هذا النوع يمكن المواربة على مكاتب الشـحن، فبـدأ بصب جهوده على محاولة إيجاد أحد يريد بيع بطاقة عودته.

أخيـراً، قابل سـائس خيل عربي مـن البصرة يرغب بإقلاله معه، وحصل وليَمسـون على بطاقة لميناء البصرة مقابل ثلاثين روبية. كان العربي يرغب بالعودة وبرحابة صدر أكـد لـه أن بإمكانه العودة دون صعوبة تذكـر؛ إذ أنها لن تكون المـرة الأولى التي يدبّر فيها السـفر خلسـة لمسـافر على متن السـفينة. كانت البطاقة تحمل اسم عبد الله علي، وبمـا أنـه لم تكن هنالك قوانين جواز سـفر، كان على حامل البطاقـة الجديد أن يتوقع بعض المشـاكل.

في النتيجة لم يتعرّض لمشـاكل على الإطلاق. وقبل الإبحار بوقت قليل صعد على متن السـفينة بانكورا S.S. *Bancoora* مع بعض الأصدقاء العرب، دون مزيد تفحّص وتمعّن، سواء من قِبل شرطة حوض السفن أو ضباط السفينة. ارتدى وليَمسون ملابسه العربيـة التـي أتى بها مـن عَدَن، والتي أوحـت بكونه عربياً خاصـة مع وجهه المسـفوع بالشمس وأنفه الذي ينطوي على احديداب بسيط.

في تلك الأيام كانت الشـركة البريطانية الهندية تلفظ أسـماء سـفنها بطريقة صوتية، فعلى سبيل المثال سفينة بانكورا، والتي يبلغ وزنها القائم 2880 طناً، ويعود تاريخ بنائها إلى عام 1881، تم اسـتبدال طريقة لفظ اسـمها بأخرى أوضح من سـابقتها. وقد كانت

سفينة بخارية بطيئة انسيابية التصميم، ومن المفترض أن تمرّ بكراتشي والعديد من موانئ الخليج العربي، وعادة ما كانت تأخذ من أربعة عشر إلى ستة عشر يوماً للوصول إلى البصرة، وهو الميناء الذي يقع على شط العرب. على متن تلك السفينة كانت تُحمل أعداد من الأغنام والدجاج الحي، بعضها يعود لمجموعات من المسافرين بهدف الحصول على طعامهم. أما بالنسبة لوليَمسون فكان يعيش بين العرب الذين يقاسمونه لقمة العيش، مراقباً شعائر دينهم عن كثب كما يفعلون هم أنفسهم.

حالما ابتعد عن الهند انزاحت الهموم عن كاهله، وذلك عندما تأكد بأنه أصبح بمنأى عن التدخل بشؤونه بشكل رسمي. ولم يخطر ببال الربّان أو مسؤولي السفينة وجود رجل أبيض على متنها متنكر بزي عربي. لكن المفاجأة لم تحدث بعد. فالحاكم العسكري البريطاني في الهند كانت له أذرع تنتشر في كل مكان في الشرق كأذرع الأخطبوط؛ فلم يتذوق وليَمسون طعم الأمان حتى عاد ووقع في القبضة الحديدية من جديد.

باغته سوء الطالع عندما كانت بانكورا ترمي بمرساتها في ميناء بوشِهر في الخليج العربي. إذ أن الربّان كان على اليابسة في فترة الغداء في زيارة لوكالة الشركة، وعند عودته قام ضباط السفينة بالتفتيش بين الركاب. قبل أن يتم اكتشافه، جاءت من الهند أوصاف تفصيلية لعربي أبيض مطلوب على متن السفينة. لم يكتشف وليَمسون كيف عرفت السلطات في بومباي بوجوده على متن تلك السفينة، وكل ما يعرفه أنهم تعرفوا عليه بينما كانت السفينة تبحر في طريقها، وما كان منهم إلا أن اصطحبوه إلى غرفة الربّان.

أمعن الربّان النظر فيه بفضول وسأله: «اسمك وليَمسون؟».

«نعم، أنا هو».

«إذاً فلديّ أخبار لك أخشى أنها ستحبط كافة مخططاتك. لقد قال لي المسؤول السياسي في بوشِهر إنه سمع عنك في الهند، وقد تلقيت أوامر بألا أسمح لك بالنزول في البصرة».

شعر وليَمون بالحنق في قرارة نفسه من هذا الكلام. وأجاب قائلاً «إن اتخاذي لقرار يتعلق بوجهة حلّي وترحالي هو شأن خاصّ بي. ولم أرتكب أية جريمة تبرّر الحدّ من حريتي».

«إنني لا أعلم الأسباب الكامنة وراء الأوامر، يا وليَمون حيث تنتهي مسؤوليتي في بومباي عندما أجعلك تنزل فيها بعد عودتك. وأعتذر عن عدم قول المزيد».

لقد كان هنالك المزيد من الكلام، لكن وليَمون قاله بحكمة لصديقه العربي. ومن بين أولئك الذين تعرّف عليهم خلال رحلته، تاجر لؤلؤ ثري، يدعى الشيخ يوسف الإبراهيم، الذي يعدّ من كبار الشخصيات في الكويت. لطالما جلس وليَمون على ظهر المركب معه وشركاؤه، ووجد تلك الثلة المميزة متعاطفة مع طموحه وآماله، كما المسافرين المتواضعين من العرب. لاحقاً في ذلك اليوم انضم إلى مجموعة رجال يجلسون في دائرة على بساط لهم، وأخبرهم بأنه ممنوع من النزول في البصرة. فما كان من الشيخ إلا أن شرع بتحريك سبحة من الكهرمان في يده، أما شركاؤه فلاذوا بالصمت بعد سماعهم للأخبار، بانتظار رأيه بالمسألة. تلت ذلك فترة طويلة من السكون، بدأ بعدها بالتكلم بالإنكليزية، منتقياً كلماته بعناية على طريقة المثقفين الذين يستخدمون اللغة الأجنبية من وقت لآخر.

«يا ابن عبد الله، أنت بين يدي الله، أرحم الراحمين. فلماذا تذهب للبصرة؟ ولماذا لا تأتي للكويت معنا؟ أنت رجل مؤمن وستكون في حمايتي وضيافتي».

لقد قصد بكلامه أن الرجل «في عهدته»، وهي كلمة لم يفهمها وليَمون في ذلك الوقت. لكن فكرة النزول في جزيرة العرب عوضاً عن بلاد ما بين النهرين كانت تروق له، فسأل عن كيفية الترتيب لذلك. وجواباً على سؤاله، أخبره الشيخ يوسف أنه بسبب المياه الضحلة في الخليج حيث تقع الكويت، أي في شمال الخليج العربي، فإن السفينة سترسو عند الطوافة الخارجية على بُعد ليس بالكبير عن الضاحية. وحسب التقاليد، فقد قام هو وشركاؤه بالترتيب لطوف عبارة عن قارب محلي وذلك للوصول إلى السفينة. حيث كان بمقدور وليَمون، بواسطة تغيير ثيابه، مغادرة بانكورا *Bancoora*

دون أن يلفت انتباه الآخرين من جماعته.

لقد أتاحت الخطة قدراً وافياً من النجاح. ولحين رسو السفينة B.I. قرب المركب الذي ذكره الشيخ، بقي وليَمسون بعيداً عن طريق الضباط، وغيّر زيّه مع رجل كويتي من العرب الذين كانوا ينزلون من السفينة. انتظر وليَمسون، متخفياً في عباءة سوداء بدل ردائه البني وكوفية مختلفة عن قبّعته الخاصة، رسو المركب بجانب السفينة. وبجانب السّلم المتدلي من السفينة احتشدت جماعته من عدد من العرب المتجمعين حولهم. على مقربة كان يقف ضابط وأحد مسؤولي البحرية، ولكن لم يبدُ على أحد منهم أو من الطاقم بأكمله أنه يذكر وليَمسون. من الواضح أن أحداً لم يكن ليتوقع مغادرة وليَمسون السفينة دون أن يتم اكتشافه، ولم يكن هنالك من نوبة للحرس عندما نزل الركب الكويتي من السفينة.

تم إحضار صندوقه القصديري وحوائجه الصغيرة الأخرى بواسطة أصدقاء عرب، وذلك لتسهيل مسألة مروره دون عوائق. من ثم بدأ المركب بالإبحار، وما هي إلا لحظات حتى كانت بانكورا *Bancoora* تيمّم شطر ميناء الفاو.

المفوّضية البريطانية السّابقة على الرّصيف المائي بالكويت

الهفوف على ساحل الأحساء

في هذه الأيام باتت الكويت، التي تقع قرب رأس الخليج العربي، معروفة جداً نتيجة للتطوّر الهائل في الصناعة النفطية. وإن ميناء الفحيحيل بحد ذاته، الذي تحمل منه الناقلات العابرة للمحيطات النفط الخام، والذي يقع على مسافة بعيدة بعض الشيء على الساحل، لم يكن له ذكر في أواخر سني القرن التاسع عشر، إن كان موجوداً أصلاً. لم تكن الكويت قد زارها قبلاً الأميركيون أو الأوروبيون، وبالذات البريطانيون الذين لم يكونوا ليقيموا فيها نظراً لأسباب سياسية. فالسكان كانوا كلهم من الأصليين، والبلاد كانت مشمسة مغبرة في الصيف، مع خليج بمياه شفافة زرقاء ضاربة إلى الخضرة من أمامها وصحراء مترامية الأطراف من ورائها. والذي زاد من رونقها صناعة صيد اللؤلؤ التي كانت رائجة فيها، بالإضافة لصناعة أخرى وهي كانت ولا تزال مدرة للربح، ألا وهي بناء المراكب الشراعية بالإضافة للمراكب المحلية الأخرى. كان خشب المراكب الشراعية القديمة المصقول يحوَّل إلى الصناديق الخشبية الكويتية التقليدية، والتي يعتبر بعضها أعمالاً فنية شهيرة، يتم ترصيعها بالنّحاس بمختلف التصاميم، والتي كانت فيما مضى رخيصة، بينما باتت صعبة المنال في هذه الأيام وغالية الثمن.

هنا، في هذا الميناء الذي يطلّ على الخليج، بدأ وليَمسون حياة العرب التي حازت على رضاه كل الرّضا. فلم يكن هناك مجرد ضيف على الشيخ يوسف، لكنه أيضاً نزل في حماية شيخ الكويت صاحب النفوذ الكبير. بحيث حتى لو علم المندوب السامي بوجوده في الكويت، ولربما كان على علم بذلك، لما استطاع عمل شيء. في الوقت الحالي على الأقل كان عبد الله فضل وليَمسون آمناً، وكانت لديه فرصة كبيرة للتعرف على عادات العرب، وتعلّم المزيد عن اللغة، ودراسة تعاليم وشعائر الطائفة السنّية من المسلمين التي اعتنق مذهبها. وباعتناقه للدّين الإسلامي، صار العرب يعاملونه كأي واحد منهم، فوجد كل الرضا والراحة في هذا العالم الجديد.

صار تعبير «ولد من جديد»، الوارد في أسفار الأناجيل، منطبقاً تماماً على حالة وليَمسون. في البداية، كانت مرحلة الوطن الذي يؤويه في إنكلترا؛ لتبدأ بعد ذلك مرحلة المعاناة، والتي استمرّت في المجمل لمدة سبع سنوات؛ وأخيراً مرحلة الولادة

الجديدة قبل بلوغه سن الرشد. كل هذه المراحل تبدو عند استرجاعها بعد مرور زمن على معايشتها، كمن ينتظر الحياة الحقيقية. حيث ظهرت قابليته للتكيف مع ظروف وبيئة جديدة، بأوضح صورة في الكويت، إذ أنه انسلخ تماماً عن شخصيته الأوروبية، متبعاً الطريقة الشرقية بالعيش وكأنه عربي بالفطرة. وسواء كان في الديوان، أو في المقهى، أو في صلاة الجماعة في المسجد، أو يمتطي صهوة جواد في الصحراء، فقد كان يقضي أوقاته على هواه. مثل آلاف من أقرانه المسيحيين في الجزيرة، الذين ينطلقون دون أن تقيّدهم طباعهم الغريبة، محرّرين أرواحهم المثبطة من عبء روتين المكاتب والمصانع المقيت.

كان الشيخ الثري يوسف الإبراهيم يمتلك بيتاً خاصاً للضيافة. وكأي عربي أصيل، لم يُبدِ يوماً أدنى إشارة بأن مقام ضيفه البريطاني قد طال بينهم. ولكن، بعد مضي عدة أسابيع، شعر وليَمسون بأن عليه أن يتخذ خطوة ما، وارتأى أن انتقاله إلى البصرة سيكون آمناً. كان أحد مراكب الشيخ يوسف سيبحر إلى الفاو عند مصب شطّ العرب، فما كان منه إلا أن طلب إذناً بمرافقة الطاقم المحلي. وعندما رأى الشيخ يوسف رغبته الكبيرة بالمغادرة، سمح له بذلك، وأعطاه كتاباً يعرّفه فيه على أصدقاء من بيت البسّام، الذين يعتبرون روّاداً في تجارة بلاد ما بين النهرين.

ترك وليَمسون أصدقاءه الكويتيين، مع بالغ الأسى، ولكن بعد أن تم التأكيد على الترحاب به مجدداً إن رغب بالعودة في نهاية الرحلة. سارت رحلة المركب بهدوء، دون أية حوادث، ورسا الجميع في الطمي البني للنهر، قبالة ميناء الفاو، في مكان صغير كان يستخدم فيما مضى من السنين بواسطة البريطانيين كمحطة للإشارة.

كان الشيخ يوسف، بالإضافة إلى اهتمامه بصيد اللؤلؤ، يمتلك مزرعة للنخيل على الضفة اليمنى لشط العرب. وكان المركب مخصصاً لتحميل البرسيم، وهي نوع من العلف يستخدم لإطعام الحيوانات، بالإضافة إلى المياه العذبة التي تفتقر إليها الكويت أشد الافتقار. بعد إقامة وليَمسون لفترة وجيزة على متن السفينة، انتقل إلى دار عربية على الشاطئ، وبعد بضعة أيام استطاع ترتيب مسألة العبور في النهر بواسطة سفينة

شحن صغيرة. رست السفينة في العشار دون أي تباطؤ، فاستأجر عربياً لحمل أمتعته، متبعاً طريقاً موازياً لخليج العشار ذي الروائح العطرة، وصولاً إلى البصرة. كانت عائلة البتّام معروفة للجميع، وكجميع الموسرين من العرب كانت لديهم دار ضيافة، أقام فيها وليَمسون بعد تقديمه لكتاب الشيخ يوسف وتعرّفهم إليه.

في ذلك المساء جلس وليَمسون مع سكان المنطقة، مجتمعين حول مصبّ للقهوة العربية المرة، أما النسوة فكنّ وراء الستر، ولم يرَ واحدة منهن، وصار يستمع للحديث عن مستقبله وكأنه طفل متبنى وليس ضيفاً غريباً نزل عندهم. أخيراً، ارتأى كبير العائلة الرأي التالي: «نرجو منك التفضّل علينا بأن تقبل ضيافتنا إلى أي وقت تشاء، يا عبد الله، بحيث تكون واحداً منا. وذلك للتعرف على طريقة العيش الإسلامية على أحسن صورة. ابقَ بيننا لسنة أو سنتين إذا رغبت. وبكل هدوء قم بدراسة ديننا».

تقبّل وليَمسون دعوتهم السخية بكل رحابة صدر. كانت إقامته في لحج وفي الكويت قد أعطته صورة واضحة عن العقلية العربية في مسألة الضيافة. إن مجرّد عرض أجرة على الضيافة كان يعتبر ذنباً لا يغتفر. فمضيفوه لم يكونوا ينتظرون أي مقابل مادّي أو عملي، ودون أن يتحمّل الضيف أي مَنٍّ أو أذى؛ فقد كان كأي واحد من أفراد الأسرة، ملتزماً بكافة مبادئ السلوك الإسلامي.

* * *

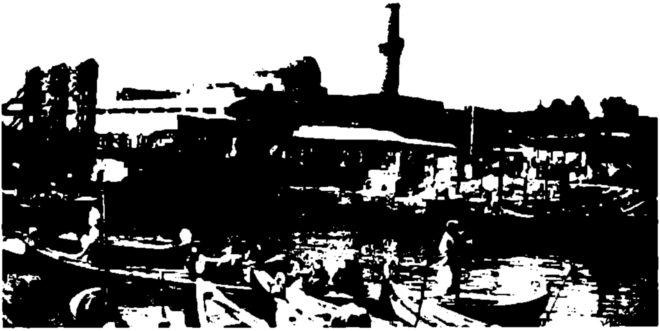

مسجد العشار. وقوارب البلم في مقدّمة الصورة

الجزء الثاني

الفصل الثاني عشر

مكيدة في الكويت

كانت البصرة في تلك الأيام، أي في بدايات تسعينيات القرن التاسع عشر، تبدي القليل فقط من التأثر بالغرب. وكانت بلاد ما بين النهرين واقعة تحت الحكم العثماني الذي لم يقدّم للمواطنين مزايا تذكر. أحدثت الحربان العالميتان تغييرات جذرية، ومهما كان وجود البريطانيين في القوات العسكرية بغيضاً، فإن البلاد قد نعمت بالطرقات الجيدة والعديد من المزايا الأخرى.

إن مرور الزمن وتتالي الأحداث على البصرة لم يصبغا البلدة القديمة بصبغة الحضارة الغربية بشكل واضح كما في بلدتي العشار والماركيل (المعقل) الواقعتين على ضفاف النهر. فمظاهر الأسواق الشعبية والمقاهي المنتشرة في كل مكان بقيت مشابهة نوعاً ما لتلك المألوفة لعبد الله وليَمون الشاب. بعض المقاهي المطلة على نهر العشار الذي يعلوه المسجد بمئذنته، قرب المسكن المزعوم للسندباد البحري، كان ذلك يشكل لوحة فنية نادرة. كما أضفت زوارق البَلَم bellums التي تشبه قوارب فينيسيا (البندقية) مسحة من اللون على قنوات المياه الطينية البنية، وكان العديد من الجداول الصغيرة يكتسي في مواسم البهجة بمختلف الأزاهير والفواكه. على الرغم من ذلك، فإن معظم مظاهر البيئة الشرقية لم تعد موجودة لا في العشار ولا الماركيل، اللتين تزدهيان اليوم بالعديد من الأبنية التجارية والنوادي ودور السينما وسيارات الأجرة وحافلات النقل العامة ومراكز الشرطة، وبالتأكيد أجهزة الراديو التي كان

مرتادو المقاهي يحبّون امتلاكها ومنافسة الآخرين في رفع أصواتها.

عندما نزل وليَمسون في دار ضيافة عائلة البسّام كان هناك فقط ممرّ عريض على التوازي مع نهر العشار يؤدي إلى البصرة القديمة دون وجود طريق معبّدة حديثة. ذلك الطريق الذي دائماً ما يكون مغطىً بالغبار أو غارقاً في الطين، حسب الجو، لذلك كان ركوب حمار هو البديل الوحيد للمشي. في حرّ الصيف يقدّم زورق البَلَم الممتع الوسيلة الوحيدة للتنقل عبر فينيسيا الشرق[1]، ووليَمسون الشاب لم تفته تلك الفرصة على الإطلاق. من خلال استكشافه للجداول التي تشق طريقها عبر بساتين النخيل، شاهد الطرق البدائية في الرّي، وفي بدايات الربيع تلقيح أشجار النخيل المؤنثة بالمذكرة بواسطة الفلاحين. وفي العديد من الأماكن النائية البعيدة عن البلدة وجد وقتاً للتأمل والتفكير في الإسلام بينما كان الأجراء العرب يستغرقون في نوم هادئ في مراكب البَلَم التي تغطيها أوراق الأشجار المتدلية فوق رؤوسهم.

كان غالباً ما يعبر الصحراء راكباً هو ومضيفوه، الأمر الذي يشكل له متعة كبيرة تضاهي متعة الأيام التي قضاها بين رعاة البقر في الغرب الأميركي. لقد تعرّف على الصحراء بمختلف أشكالها، سواء كانت قاحلة في الصيف وموحلة في الشتاء، أم عبارة عن سهول خضراء يرعى فيها البدو قطعان أغنامهم وماعزهم في الربيع والخريف. كان يذهب أحياناً إلى منطقة الزُبير التي تبعد بضعة أميال عن البصرة، ماراً في الطريق بآثار قديمة، وأسواق مغطاة استحوذت على اهتمامه بما تعرضه من حاجيات لتربية الجمال ومستلزمات العيش في الصحراء بشكل عام. ومن حين لآخر، كانت تسنح له الفرصة في النزول في خيام البدو السوداء التي ينصبونها خارج البلدة. وممّا منحه الثقة والثبات هو تزايد معرفته بعادات العرب وتقاليدهم واللغة العربية، ولم يكن ليندم على الحياة التي اختارها. والواقع أنه كان يتمتع بصحة جيدة باستثناء نوبات الملاريا التي كانت تعاوده والتي كان قد أصيب بها في بنما.

بُعيد وصوله البصرة، تمت دعوته لحضور احتفال تركي فكان بالنسبة له مناسبة محرجة. في ذلك الاحتفال كان السيّد أحمد النقيب، وهو المواطن صاحب المكانة،

(1) تشبيه طريف يُقصد به البصرة كما سمّاها بعض الرّحالين الأجانب.

يحتل صدارة الحفل، وبالإضافة إلى المسلمين من السنّة والشيعة، فقد ضم الجمع أيضاً يهوداً وصابئة واثنين من المبشرين الأميركيين البروتستانت. ومن بين الحاضرين أيضاً مبشر آخر يدعى زويمر[1] Zwemer كان قد أمضى سنوات في الشرق الأوسط وأجرى دراسة عن كتب حول الديانة الإسلامية، بالإضافة إلى العديد من الكتابات بهدف واضح هو البحث عن تناقضات في هذه الديانة بغرض هدمها من أركانها.

حضرت أيضاً عدة مجموعات من الناس من شَية والقرى المحيطة لتقديم فروض الطاعة والاحترام للسيد أحمد النقيب، ومن ثم جرى حديث ممتع مع تناول الشراب المثلج إلى أن تحدث زويمر فجأة بصوت عالٍ إلي وليَمسون أثناء هدأة الحوار مخاطباً إياه بالعربية وباسمه الإسلامي الجديد: «يا عبد الله، لماذا أصبحت مسلماً وتركت المسيحية دين آبائك وأجدادك؟».

---

(1) صموئل مارينوس زويمَر (1867-1952 م) مبشّر أميركي من أصل هولندي، ورحّالة وباحث. أطلق عليه لقب: Apostle to Islam عُيّن مبشّراً في البصرة والبحرين ومسقط وأماكن أخرى من الجزيرة بين 1891-1895 م، ففشلت مهمته فشلاً ذريعاً. قام برحلات في آسيا الوسطى، وانتخب زميلاً في الجمعيّة الجغرافيّة الملكيّة بلندن، وعيّن عام 1929 أستاذاً لتاريخ الأديان في معهد برنستون اللاهوتي Princeton Theological Seminary فبقي يدرّس فيه حتى عام 1951. كانت له نشرة دوريّة فصليّة بعنوان: The Moslem World (صدرت 1911-1947) ونشر 45 كتاباً، أهمّها عن جزيرة العرب: *Topsy Turvy Land* (عام 1902 م) بالاشتراك مع زوجته إيمي Amy E. Zwemer، وكتابه الآخر: *Zigzag Journeys in the Camel Country* (صدر 1911). وله أيضاً مقالة هامة جداً يصف فيها رحلاته إلى عُمان وساحل الصّلح (الإمارات حالاً)، وفيها أقدم صور معروفة لقصر الحصن في أبوظبي (من عام 1902) أي قبل صور الرحّالة الألماني هِرمان بورخارت بستين. صدرت في المجلة الجغرافيّة التابعة للجمعيّة الجغرافيّة الملكيّة بلندن بعنوان:

The Geographical Journal. vol. XIX. No. 1. Three Journeys in Northern Oman (1902).

هذا ولقد قمتُ بترجمة كتابه المذكور أعلاه: «رحلات متعرّجة في بلاد الإبل». وأنتظر حالياً الحصول على مقالته النّادرة من مكتبة المتحف البريطاني لكي أترجمها. وسأقوم إن شاء الله تعالى بنشر الكتاب والمقالة ضمن هذه السّلسلة الحاضرة، استكمالاً لجمع المصادر الأصليّة عن تاريخ مدينة أبوظبي العريقة في أيّام المغفور له الشيخ زايد بن خليفة الكبير، عنوان وفاء وولاء لتاريخ هذا الرجل وعهده الزاهر.

اتجهت كل الأنظار إلى وليَمسون، الذي قال بعد صمت هنيهة: «الإجابة على سؤالك هذا، يا زويمر، يقودنا إلى جدال طويل. ولن يكون هذا بالأمر الحسن بين أناس ينتمون لمختلف الطوائف والملل، في مثل هذا المحفل الاجتماعي». فما كان من زويمر إلا أن ابتسم وأجاب على الفور: «أتوقع، يا عبد الله، أنه لن يكون بمقدورك تقديم جواب مقنع. وما ذلك منك إلا اختلاق للأعذار». وقبل أن يقول أيّ منهما شيئاً آخر، أدلى النقيب بدلوه في الموضوع معبّراً عن موافقته لموقف وليَمسون. وأضاف قائلاً: «عبد الله حسب علمنا يملك حُسن الجواب، ولو كررت سؤالك له بعد الاحتفال، يا زويمر، سوف يجيبك عليه وعلى أي سؤال آخر تودّ طرحه عليه».

وهكذا، قبل أن يتمكن وليَمسون من القراءة بالعربية، أُقحم في دفاع عن العقيدة ضد خصم لا يملك فقط المقدرة على الاقتباس من القرآن بنصّه الأصلي، بل أكثر من ذلك الاقتباس من كتب الحديث الستة؛ وهي التي تلقاها معظم المسلمين بالقبول، وتضمّ عدداً لا محدوداً من أحاديث وأقوال النبي محمد عليه الصلاة والسلام، دون شك في صحة نسبتها إليه، والتي ترجع معظم المعتقدات الإسلامية إليها. لكن وليَمسون، لوثوقه من سيف الحق الذي بيده، أبدى في نهاية حفل الاستقبال دفاعاً مشرفاً ضد خصم عنيد. لقد وقف بحزم بجانب كل الحاضرين في اختيار طريقهم لله، متجنباً كل ما قد يسيء إلى مشاعر اليهود والپروتستانت الحاضرين. صحيح أن أحداً من الحاضرين لم يغيّر قناعاته بطريقة أو أخرى بعد تلك المناظرة الدينية، ولكن في المقابل لم يشك أحد في إخلاص وليَمسون الذي حاز على كل الدّعم المعنوي لغالبية الحاضرين.

ليس من الضروري سرد تفاصيل تلك المناظرة. إذ أن دراسة الدين الإسلامي متاحة لكل من يرغب باقتناء أو استعارة الكتب المناسبة مترجمة. لكن قد يكون من الجدير ذكره الإشارة إلى نقطتين اثنتين: إن الإسلام يعني تسليم النفس لله. وجوهر العقيدة الإسلامية يقوم على توحيد الله والأخوّة بين البشر، وعلى منهج مشابه للوصايا العشر. كما وردت الإشارة لعيسى في القرآن في عدة مواضع بتسمية المسيح.

لكن المسلمين يعتقدون ببطلان عقيدة التثليث، ويعتبرون القول بأن عيسى ابن

الله ما هو إلا اجتراء على الله. وهم يحتجّون بأن إلههم هو إله آدم وإبراهيم وموسى وعيسى، وأن على اليهود أن يعترفوا بمسيحيي العالم، وعلى كل من اليهود والمسيحيين الاعتراف برسالة نبي الله محمد.

ما عدا حفل الاستقبال الذي عقده السيّد أحمد النقيب في يوم الكرنفال التركي، فقد أعرض وليَمسون عن الناس باستثناء العرب. كان بضعة أوروبيين فقط يستوطنون البصرة، غالبيتهم من وكلاء الشحن والتجار الآخرين. وكان البريطانيون، بالانعزال الذي يتميزون به، يتجنّبون العلاقات الاجتماعية مع العرب. اتخذت عصبة صغيرة من الألمان موقفاً أكثر وداً مع الآخرين، وذلك من خلال تركيبتهم السياسية الخفية التي سرعان ما اكتشفها وليَمسون. فعمله في الشرطة في مدينة عَدَن أعطاه خبرة في الأساليب التي يتّبعها الألمان، وبقي على اطلاع تام على وضع البصرة، لإيمانه بأن ما تعلمه قد يكون مفيداً ليس للقنصل فقط، بل أيضاً في المساعدة على إبرازه في صورة أفضل لدى السلطات التي اعترضت على إقامته في الشرق.

وحتماً، أصبح معلوماً للجميع أن رجلاً أبيض يعيش بين العرب في البصرة. ورغم أن قدراً قليلاً من الهمّ راود وليَمسون جراء ذلك، فقد ارتأى أنه من الأفضل أن يصبح معروفاً كأميركي، لذلك قرّر نشر هذا الخبر بمساعدة بعض من أصدقائه. بعد ذلك، ولعدة أشهر، صار أفراد المستعمرة البيضاء يلقبونه باسم «يانك» Yank. لكن الحقيقة شاعت وانتشرت، وتبعتها المتاعب سريعاً كرياح موسمية.

في أحد الأيام، وصل إلى دار البسّام رسول يحمل رسالة لوليَم ريتشارد وليَمسون، وهي عبارة عن طلب مهذّب من القنصل البريطاني بوجوب الاتصال به. كتب وليَمسون رداً على ذلك: «يرجى إخباري بما تريده مني». ولاحقاً في مساء ذلك اليوم، حضر الرسول مجدداً حاملاً رسالة أخرى تحمل صيغة مختلفة مفادها: «آمرك، كأحد الرعايا البريطانيين، أن تذهب إلى القنصلية فوراً». في ذلك الوقت، لم يكن لدى وليَمسون رغبة في أن يكتب. ولم تكن لديه النيّة في الدخول فيما كان يعتبر فعلياً أرضاً بريطانية، لذلك فقد أعطى جوابه المقتضب باللغة العربية للمترجم، ألا وهو: «أخبر سيدك أنني لن أحضر».

اعتقد وليَمسون أن الأمر قد تمّت تسويته، وذلك لأنه كان بمأمن في حماية العرب. لكن القنصل كان لديه سهم آخر في جعبته. ففي اليوم التالي، لجأ ذلك الرفيع المقام الذي تعرّض للإهانة إلى والي البصرة، وهو رجل تركي يدعي حمدي باشا. ولأن الوالي اعتاد على عدم اللعب بالنار البريطانية فقد أرسل دورية صغيرة إلى دار البسّام لاقتياد الرجل الأبيض إلى القنصلية دون إثارة أية متاعب.

بقي وليَمسون متوارياً عن الأنظار، وعادت الدورية بخفّي حُنين. لكن اتضح في الحال أن السيل كاد يبلغ الزبا، جارفاً في طريقه حينها آخرين بالإضافة إلى وليَمسون. وسرعان ما اندفع اثنان أو ثلاثة رجال من عائلة البسّام إلى الوالي. لكن هذه الزيارة لم تؤتِ أُكُلَها، إذ أن حمدي باشا كان يصرّ على أن الطريقة الوحيدة لتجنب المزيد من المشاكل كانت الاستجابة لطلبات القنصل. لكن العرب قالوا له بصريح العبارة: «إن هذا الرجل ضيف عندنا. ونرفض تسليم ضيفنا لك أو للبريطانيين».

كانت زيارة القنصل تبدو بشكل كبير مقدمة لترحيله ليس إلا. وكان وليَمسون الشاب مصمّماً على تجنيب أصدقائه العرب الضرر مهما كلفه ذلك من ثمن. لذلك عندما علم بموقف الوالي المتعنّت، قرر مغادرة البصرة واجتياز الصحراء بعيداً عن الخطر. حازت الخطة على موافقة مضيفيه التامة والذين كانوا على ثقة بأن ذلك هو لصالحه وصالحهم، رغم عدم رغبتهم بإظهار ذلك له. وفي حال فرَّ من البلدة فسوف يتخلص من الحيرة والإرباك الواقع فيهما.

في تلك الليلة، أسرج وليَمسون جواداً كان قد اقتناه، وودّع عائلة البسّام التي يدين لها بالكثير من الأفضال. اجتاز الصحراء منفرداً، نائماً في العراء في ضواحي الزُّبير، ليذهب في اليوم التالي إلى أصدقاء عرب في البلدة.

أثناء مكثه هناك أرسل برسالة إلى الشيخ يوسف الإبراهيم عن طريق المسافرين براً إلى الكويت. وبُعيد ذلك استلم دعوة من الشيخ لمعاودة زيارته، فما كان منه إلا أن ركب مجدداً بهدوء متجهاً نحو ميناء الخليج.

فاصل استراحة في أسواق البصرة

إذا أردنا حساب مدة مكوثه في البصرة والزُبير والكويت، فإنها تبلغ مجتمعة الستين أمضى معظمها في دراسة اللغة العربية والشريعة الإسلامية. كان الشيخ، الذي انضم وليَمسون إلى حاشيته، يمضي كل شتاء وربيع في الصحراء، الأمر الذي وجّه ذوق وليَمسون نحو حبّ حياة البداوة التي عاشها لاحقاً لسنوات متواصلة. غالباً ما كان يتم تشييد مخيّم قرب خيام البدو السوداء، محاطاً بقطعانهم من الجمال والغنم والماعز. كان كل يوم يقدم له خبرة وفائدة جديدة، وشيئاً فشيئاً صار على دراية بالخيول العربية وتربية الجمال التي استفاد منها في حياته المهنية المستقبلية. كان في بعض الأوقات يشارك في صيد الحبارى ونشاطات الصيد الأخرى، وصار مع الوقت مولعاً بالرياضة المفضلة للشيخ، ألا وهي الصيد بالصقور.

كان طوال الوقت يعيش طموحاً واحداً، غالباً ما أشار إليه والخدم يصبّون القهوة لأتباع الشيخ المجتمعين في الخيمة الكبيرة. ذلك الطموح كان أداء الحجّ وزيارة مكّة، والذي أصبح هاجساً له. يتم أداء الحجّ في أول عشر من ذي الحجة (الشهر الذي يحمل اسم تلك الفريضة) وهو شهر قمري، لذلك فإن ذلك الحدث يتبدّل حسب الشهور الميلادية.

مع اقتراب موعد ذلك الموسم أصبح الموضوع الشغل الشاغل في مقعد الشيخ mukhaad (مكان إقامة الرجال)، وفي بيت شعر beit-shaar وهو خيمة كبيرة للبدو. في مناسبات كتلك كان وليَمسون، وهو يحتسي القهوة ويدخن النرجيلة بين أصدقائه الكويتيين أو البدو، يعوّل على كل كلمة نصيحة وكل تجربة مرّ بها شخص سبق له تأدية الحج. وبذلك تعلم لاحقاً الكثير من النواحي العملية الهامة، والنصائح المفيدة لرحلة الحج، بالإضافة إلى كامل الشعائر وتفاصيل العبادة في المدينة المقدسة. على أن أحد الأسباب الكامنة وراء رغبته في أداء الحجّ بالإضافة إلى المنحى الديني، كان الدافع الذي ينسجم تماماً مع ميوله الإشتراكية ألا وهو استقطاب الناس من كافة أرجاء المعمورة، حيث يتلاقون على أساس مشترك من الإخاء والمودّة الإنسانية.

بالتالي حصل وليَمسون على خبرة عملية عن هذه العلاقة الإنسانية، وذلك عندما

قابل في رحلاته الثلاث إلى مكّة العديد من أتباع الدين المؤمنين من أميركا وأوروبا.

كان مـن المقـرّر أن تجتمع إحدى الجماعـات المتجهة للحج فـي الزُّبير. وبالتالي بدأ وليَمســون بالتخطيط للانضـمام إليها، فشـجعه الشـيخ على مشروعه ذاك. في ذلك الوقت تم إنشـاء المخيّم شـمال الخليج المؤدي إلى الكويت، حيث كان هم وليَمسون الأول العودة إلى البلدة على الجانب الجنوبي مع جماعة الشـيخ يوسـف ليأخذ بعض الحاجيّـات التـي تركهـا هناك. كانـت بحوزته مبالـغ كبيرة، أتـى بمعظمها مـن الهند، بالإضافـة إلـى أرباح من بعـض الأعمال التجاريـة المتنوعة، وهبات من الشـيخ الذي يرعاه ومشـايخ آخرين. وبينما كان لا يزال الجمع مخيماً على بعد بضعة أميال، وقعت حادثة مأساوية في الكويت منعت تداعياتها وليَمسون من إتمام مخططه.

في تلك المرحلة، أي حوالي عام 1893، كانت الكويت تنتابها شبكة من التداعيات السّياسية. إذ أن أسرة آل سعود كانت منفية هناك، بما فيها كافة أفراد المذهب الوهابي[1] الذي ظهر قبل قرن من ذلك على يد محمّد بن عبد الوهاب، الذي حض على الرجوع بالدين إلى أصوله السّلفية الأولى.

كانت الكويت مرتعاً للخلافات، على الصعيدين الديني والسياسـي. بالإضافة إلى الخلافـات الحـادّة على قضايـا عائلية، إحداها، والتي أثّرت على شـؤون وليَمســون، انتهت بنوع من المأساة شهدتها جزيرة العرب مراراً وتكراراً.

كان أبطال القصة أفراداً من أسرة آل الصّباح المعروفة. فمحمّد كان حاكماً للمنطقة، وجرّاح وزيراً للمالية، وكان مبارك رجل حرب كبير وقائداً للقوات العسكرية. كان كل مـن المشـايخ الثلاثة شـريكاً في رياض نخيل قرب الفاو، ونشـب خـلاف بينهم حول الحصص المستحقة لكل منهم.

بمرور الوقت قام محمد وجرّاح بتسـوية خلافاتهما الشخصـية، وبذلا جهوداً مشتركة

---

(1) يستخدم المستشرقون على الدّوام عبارة: الوهابيّة والوهابيين، والصحيح أن اسمها حركة الإصلاح السّلفي.

لإضعاف موقف مبارك. إذ أنهما كانا يشعران بالغيرة من أخيهما الأصغر الذي ذاع صيته كرجل حرب، والذي بسط سيطرته على كامل منطقة الكويت، مما حدا بأخويه الشيخين الأكبر سناً إلى التخوّف من شعبيته وقوته المتزايدتين. وباستخدام العديد من الحيل عملا على التخفيف من الدّخل الذي يتحصل عليه، ليمنعاه أخيراً من استلام أية حصّة من رياض النخيل.

أثارت هذه المعاملة حفيظة مبارك، الذي كان يعيش حياة تناسب شيخاً بقدره ومكانته، وتلك الضيافة الفاخرة. وكان مئتان من الأتباع والضيوف على الأقل يشاركونه طعامه يومياً. استمرّ وضعه المالي بالتدهور حتى أصبح مديوناً بمئتي ألف روبية. طالب أخويه بمدّ يد العون له، لكنهما رفضا إلا بشرط واحد: أن يترك البلد ويرحل.

بقي مبارك في البلد. وراحت أحواله مع تابعيه تعتريها المخاطر، حتى صار يخشى على حياته عندما أتي إلى الكويت بمئتين من الرعاع وقطاع الطرق من شط العرب بواسطة أخويه. وانتشرت شراذم الرُّعاع والعالة على طول النهر من الفاو إلى القُرنة. ومن وجهة نظر مبارك فقد أتي بأولئك الأشخاص لغرض اغتياله. لقد كان يرى أنه إن لم يَقتل فسوف يُقتل، لذلك لم يتردّد في اتخاذ القرار الذي ارتآه. ألا وهو التخلص من أخويه.

ببساطة اتخذ مبارك قرار دعوة عدد من أكثر رجاله إخلاصاً لاجتماع يضعون فيه المخطط العملي لما يجب فعله. حيث قاموا جميعاً بوضع أدق تفاصيل خطة الاغتيال المزدوج في غاية الدقة والإحكام.

كان كل من الشيخ محمّد والشيخ جرّاح يسكنان في دارين فخمتين متقاربتين، ولا يفصل بينهما فعلياً سوى شارع ضيق. كان بيت محمد ذا باب كبير يبلغ ارتفاعه ثمانية عشر قدماً وعرضه أربعة عشر قدماً، مصنوع من خشب الساج، تزينه مسامير من النحاس الأصفر - وهو نمط محلي من الأبواب يضفي على الكويت طابعاً مميزاً. وفي داخله باب خلفي آخر يتسع لمرور شخص واحد فقط.

كان مبارك على ثقة بأن حرّاسه يجلسون على المقاعد الحجرية خلف الباب الكبير، وأنه يمكن الاعتماد عليهم لينام قرير العين. كما كان على علم بأن ابن أخيه الأكبر محمد، وهو شاب متديّن إلى حد كبير، يمرّ بالبوابة كل يوم عند انبلاج الفجر ليؤدّي الصلاة في المسجد. وبالتالي كان الباب الصغير يُترك مواربأ قليلاً بانتظار عودته. الأمر الذي كان وسيلة سانحة للدخول إلى الدار وفنائه، وبالتالي سهولة الوصول إلى دار جرّاح عبر جسر حجري على شكل قنطرة فوق الممر الضيق.

كانت إحدى رغبات مبارك أن يقوم رجاله بالأعمال الأساسية وأن يتركوه ليتحمّل مسؤولية ذلك. لكنهم كانوا يعترضون بشدة قائلين: «نحن شخصياً لن نقوم باغتيال شقيقيك بحضورك، ولكننا سنحمي ظهرك». وتم التوصل إلى اتفاق مفاده أن يقوم مبارك بنفسه بقتل محمّد بينما يقوم اثنان من أبنائه بتصفية جرّاح.

إعداداً لذلك، تأهب الرجال في الليل لحراسة المسكنين اللذين اجتمع فيهما أتباع كل من الشيخين المحكوم عليهما، تجنباً لأي انتقام قد يتم بغتة. بينما توارى مبارك وأبناؤه في أحد الطرق الفرعية قرب منزل محمد بانتظار القدر المحتوم عند الفجر.

من الناحية العملية كانت الخطة تسير بنجاح، وبينما كانت خيوط النور تنتشر عبر الصحراء إيذاناً بمولد يوم جديد[1]، مضفية الألوان على الجدران في الكويت، فتح الباب الخلفي ليخرج منه شخص يرتدي الدشداشة ويحمل سبحة من الخرز الثمين ويمرّ عبر الطريق الرملية بالصندل الذي ينتعله.

سرعان ما توارى الشاب عن الأنظار، وبلمح البصر اندفع المقاتلون عبر الباب، معتلين الحراس بالعصي على رؤوسهم قبل أن يرفعوا أصواتهم بالصراخ والاستغاثة، ليتبعهم مبارك وأبناه داخلين الدار بصمت. بينما كان الشيخ يبحث عن أخيه الأكبر، عبر الشبّان الجسر الحجري بسرعة البرق داخلين دار جرّاح.

---

(1) كان تاريخ هذه الحادثة 25 ذي القعدة 1313 هـ الموافق ليوم 17 مايو 1896 م.

في ذاك الصباح استيقظ الشيخ محمد على المشهد المروّع للرجل الذي طالما ظلمه، وهو واقف فوق رأسه مسدّداً بندقية إلى قلبه. ولم يسمعه أحد من أفراد أسرته ينبس ببنت شفة، لو كان أصلاً يملك الوقت لذلك. ابتدأت المأساة برصاصة بندقية، لينضمّ مبارك إلى رجاله في فناء البيت قبل أن يعلم أحد بوجوده.

في هذه الأثناء، أدّى أبناؤه المهمة بنفس الكفاءة، تاركين جثة جرّاح شاهدة أخرى على شدّة الأسرة والعداوة المتأصلة فيها.

وصلت أخبار الاغتيالات إلى مشارف المخيم الذي فيه وليَمـون والشيخ يوسف الإبراهيم، في اليوم ذاته. وكان الذي حمل الأخبار سعود، أحد الأبناء الكثر للمغدور محمد، والذي فرّ على فرسه من الموت طالباً الحماية. بالرغم من أن الشيخ يوسف كانت تربطه بمشايخ آل الصباح الثلاثة علاقة مصاهرة، فقد بقي بمنأى عن خلافاتهم الخاصة، ممضياً الشتاء يصيد ويقنص مستعيناً بالصقور، دون أن يخمّن إلى أي مدى يمكن أن تصل العداوة بين الإخوة. ولصدمته بهذه المأساة التي بلغت كل مبلغ، شارك سعود مخاوفه من إزهاق أرواح أخرى قبل الانتهاء تماماً من الأخذ بالثأر.

دون تردد وفّر لسعود الملجأ المطلوب، متحملاً بذلك، وفقاً للبادية وأعرافها، مسؤولية حمايته من أعدائه الذين يتربّصون به حتى لو دفع حياته ثمناً لذلك. لقد كان صديقاً للجميع وقرّر استضافة أي من أفراد عائلتي الشيخين المغدورين. لكن أحداً آخر من الفارين لم يأتِ إليه، وفي الأيام التالية، جاءت عيون الشيخ مبارك إلى المخيم للحصول على ضمان من الشيخ يوسف مفاده استمرار الصداقة بينهما. كما أكدا له أن سيدهما مبارك كان في حالة دفاع عن النفس، وأن قطرة دم أخرى لن تسفك إلا إذا جرت محاولات للأخذ بالثأر. كانت رغبة مبارك الوحيدة أن تغادر عائلتا شقيقيه وكبار تابعيهما الكويت دون رجعة.

أرسل يوسف بعضاً من رجاله إلى البلدة للحصول على تقرير مفصل. وعند عودتهم علم أن الأحوال في هدوء حالياً، وأن أقارب محمد وجرّاح تلقوا إشعار مبارك بالقبول واستعدوا للرحيل. لم يتبقَ لدى يوسف إلا القبول بالأمر الواقع، أو

بخلاف ذلك سيعرّض نفسه لعداوة القاتل الذي يمتلك الآن ناصية القوة، مما قد يعرّض تابعيه الخاصين للمخاطر. وبعد ذلك بعدة أيام وصل المخيم بعض أقارب الشيخين المتوفين؛ وذهب بعضهم الآخر إلى البحرين بسفينة شراعية.

قرر وليَمسون بدوره، وحسب نصيحة الشيخ يوسف، مغادرة الكويت لبعض الوقت. كانت في نيّته الذهاب إلى الزُّبير Zobair لاحقاً للانضمام إلى موكب الحج، ولكن في ظل هذه الظروف المتغيرة انضمّ إلى الموكب الذي يشرف على تنظيمه الشيخ يوسف راعيه لخفارة الفارّين إلى حدود العراق.

خلال الشهور التي قضاها مع الشيخ في الكويت، قوّى من مكانته باكتسابه لستة من التابعين العرب وشرائه لعدد من جمال الركوب من البدو، مخصصاً أفضلها له شخصياً والباقي لحاشيته وبطانته. وبالتالي تجهّز نوعاً ما لمهمة اجتياز جزيرة العرب الشاقة عندما يحين موسم الحج.

وهكذا ترك الشيخ يوسف بأسى أكبر من المرة الأولى، لكن عوضه عن فراقه هذه المرة كان بالانضمام لقافلة الحج.

* * *

الفصل الثالث عشر

موكب الحج

كانت الزُّبير عبارة عن مدينة مسوّرة ذات مظهر تاريخي، تنشط فيها التجارة بشكل كبير، ويكثر فيها البدو من الأعراب. لقد وفرت لولِيَمسون الملجأ عندما اضطر إلى مغادرة البصرة، والآن توفّر له وسائل الإعداد للحج عند عودته من الجنوب. أخذ يستعيد بتأثُّر ذكرياته عن أسواقها ومتاجرها المفتوحة، المزدحمة بالبهجة، إلا في ساعات قيلولة الأيام الحارة، لكنه لم يكن متفرغاً للزُّبير في فترة الاحتفالات التي تسبق الحج.

بعد ذلك وجد أن أمير الحجّ قد وصل من حائل في جبل شمَّر حاملاً رسائل تفويض من حاكم نجد، الأمير محمد بن عبد الله الرَّشيد. كان الحجّاج يجتمعون من كل حدب وصوب في البلدة، ويحتشدون في المخيّمات الكبيرة يومياً في الصّحارى المحيطة.

بينما كان أتباعه ينصبون مخيماً، كان ولِيَمسون يشاهد اللاجئين من الكويت ينزلون عند أصدقاء لهم، ومن ثم ينتقلون إلى البصرة لأداء فروض الطاعة لآل البسّام. فراره لم يخلف وراءه صيحات احتجاج، حتى خلُص إلى نتيجة أن بإمكانه العودة في الوقت المحدّد بشكل طبيعي ودون أية مشاكل. ورغم إعجابه بالمشهد، فقد قطع زيارته وعاد إلى رجاله ليباشروا الإعداد بجدّ لرحلة الحج.

عند دخوله الزُّبير في اليوم التالي، كان مشهد السوق المفتوح داخل الأسوار ينبض بالحيوية. وكان كل ما يحتاجه المسافر في رحلة طويلة عبر الصحراء معروضاً للبيع: أقتاب الجمال (الشدايد)، الحقائب، الخيام، السجاد، قدور الطهي، الدلاء الجلدية،

جراب الماء، بالإضافة إلى المخازن التي تعرض بضائع من كل الأصناف. كانت جلبة الأصوات تصمّ الآذان، وكانت أصوات الدلاّلين وهي تتعالى بالمزايدة على الحيوانات والسلع والأطعمة تتداخل بلغط وضجيج. كان من بين العملات التي يتم تداولها في السوق ليرات الذهب التركية ودولارات ماريا تيريزا الفضية الثقيلة. وإذا بصوت أحد السماسرة يعلو قائلاً: «أفتتح المزاد على سجادة الصلاة هذه!! كم تدفعون للحصول عليها بالصلاة على النبي؟ فقط ستة دولارات؟ ستة دولارات ونصف. هذا أفضل أيها الصديق الذي يرتدي فروةً من جلد الخروف. من يزيد دولاراً؟ إذاً تم البيع إلى الشيخ المرتدي الزبون zaboon الحريري الأحمر».

تجمّع خارج الأسوار حشد أكبر من الناس، حتى صوتهم كان أشد صخباً. هاهنا تباع جمال الركوب وجمال التحميل بين صخب إطراء ومديح مالكيها من الباعة ونفور الزبائن وامتهانهم، دون أن يعقد بيع وشراء إلا بعد الكثير من الأخذ والردّ الذي ينطوي على كثير من النقد والتهكّم. كانت أصوات الجمال عالية جداً تفوق صياح البشر بالضجيج والصخب وتتعالى إلى درجة تصم الآذان، أثناء قيام بعض الباعة الجدد بالترويج وعرض بضاعتهم بمساعدة أصدقائهم، حول الحشود المجتمعة.

ما كان من وليَمسون إلا أن اقترب بلباسه البدوي، مصحوباً باثنين من تابعيه، واشترى سبعة من جمال التحميل بأحلاسها وأقتابها. كما اقتنى خيمة بطول خمسة وعشرين قدماً وعرض اثني عشر قدماً، بدلاً عن الخيام الأخرى التي لا تناسب كثرة الترحال في الصحراء. إنها عبارة عن قماش أشرعة خفيف، مفصّل بشكل خيمة بدوية، تتمتع بسهولة تحزيمها وتثبيتها بالأوتاد ونصبها، مع قدرة أكبر على الصمود في وجه العواصف الرملية. كما حصل على طقم ضيافة قهوة كامل وهو عبارة عن ثلاثة مصبات مستدقة الفوهات والعديد من الفناجين الصغيرة ومنقل للغلي ومدقة مع مهباج، بالإضافة إلى علبة لحبّ البن مع بعض القهوة المطحونة، حيث يتم الاحتفاظ بكافة هذه الأدوات بحقيبة ذات تصميم خاص مزودة بفتحات خاصة لكل منها.

حسب تقديراته لرحلة الأربعين يوماً عبر الصحراء العربية وزيادة، أتى بالأرز

والطحين والسّمن والقهوة والسكّر. وعلى غرار الحجّاج الآخرين كان اعتماده في اللحوم على القبائل التي كان متأكداً من مصادفتها في طريقهم، ولكن على سبيل الاحتياط كان قد أعدّ شيئاً من اللحم المقدّد والذي يبقى صالحاً للاستهلاك لأسبوعين أو ثلاثة في الجو الربيعي المعتدل، حتى الوصول إلى حائل.

لذلك الغرض كان قد اشترى خروفين وقام بنحرهما، ليتم بعد ذلك إزالة العظام وفرم اللحم بشكل ناعم ومن ثم حفظه في أوانٍ مع الدهن، وأخيراً يتم طهيه على نار هادئة مع إضافة الفلفل الأسود والقرنفل. عندما يبرد اللحم يتم رصّه في جلد غنم بعد طلائه جيداً بطبقة من الدهن، ثم معالجته بشكل خاص بقشر الرمان. تلك الطريقة غالباً ما كان يُلجأ إليها قبل رحلات الصحراء الطويلة، ولكن دون أن يكون ذلك تحت حرارة شمس الصيف اللاذعة.

أخيراً، ما كان منه إلا أن أضاف إلى تجهيزاته عدداً من قدور الطبخ وقِرَب الشرب، بالإضافة إلى عدد من البطانيات التي تلزم لأغراض الجلوس والنوم. وبناءً على اقتراح أحد أتباعه، أتى بكيس مليء بحبات الباذنجان المجفف كتشكيلة طعام.

قبيل نهاية شهر شوّال، أرسل أمير الحجّ برسالة إلى معسكر الزُّبير مُفادها أن على كافة الراغبين بأداء فريضة الحجّ التجمّع لدى واحة البرجاسيّة، التي تقع على مقربة من البلدة وتعتبر بمثابة نقطة انطلاق لقوافل الحج. لذلك، أصدر وليَمسون توجيهاته لرجاله بالتوجه نحو الآبار، وبعد أن ودع أصدقاءه في البصرة والزُّبير، اتجه بنفسه نحو ذاك المكان صباح اليوم التالي.

عند الواحة، كان مشهد المخيم يتماوج في أبهى الألوان. كانت خيام الحجّاج من نجد والبصرة والمحمّرة والكويت تمتد بخطوط منتظمة حول خيمة الأمير. كان بعض الحجّاج من بلاد فارس، وبعضهم الآخر من مسلمي الهند المقيمين في بلاد ما بين النهرين، وآخرون كانوا من قبائل المُنتفق الذين من المفترض أن يلتحقوا بالقافلة قبل مغادرتها.

كانت خيمة الأمير تحت نخيل التمر بادية للعيان أمام البَيرَق، أو راية الحج، وهو عبارة عن قطعة قماش من الحرير الأحمر بطول تسعة أقدام وعرض ستة، على حوافه شريط من الحرير الأخضر وفي وسطه شعار يحمل صورة نجم وهلال باللون الأبيض، مكتوب عليها بالأحرف العربية: لا إله إلا الله، محمد رسول الله. كانت تلك الراية تخفق بهبوب نسائم الصحراء، شامخة على سارية بارتفاع عشرة أقدام تعلوها كرة من الفضة بحجم ثمرة جوز الهند، مانحة الثقة للحجّاج في المخيم، بالإضافة إلى كونها نقطة علّام في النهار لموكب الحجّ المتجه صوب مكّة. أما في الليل فيتم لفّ الراية وطيّها، حيث يتدلّى مصباح معلق بكرة الفضة بواسطة خطاف، وما ذاك إلا عبارة عن منارة هدى تضيء درب الحجيج في رحلتهم الشاقة.

صباح اليوم التالي، أي في الثامن والعشرين من الشهر، طويت الخيام وبدأت رحلة المسير الطويلة. أما وليَمسون الشاب، والذي ما زال عليه الاحتفال بعيد ميلاده الرابع والعشرين، فقد كان مأخوذاً بمشهد القافلة الممتدة لثلاثة أميال وهي تسير عبر الصحراء، وبقرع الطبول والترانيم الدينية الخاصة بالحج، وبشكل خاص، مشاركته في مغامرة دينية ودنيوية كتلك. كان بَيرَق الحجّ في المقدمة يرفعه عربي يمتطي بعيراً أبيض. وخلفه مباشرة كان الأمير على مطيّته ومن حوله تابعيه، ومن ورائهم كان الشيوخ وكبار القوم الآخرون على ذلائل من كرائم الهجن، ثم يليهم عامة الناس من الحجّاج في مواكبهم الخاصة.

إن ما أخذ بلبّ وليَمسون على وجه الخصوص، بالإضافة إلى المشهد العام بحد ذاته، كان النظام العسكري الذي تتبعه القافلة في مسيرها. أمامها كانت تسير سريّة استطلاع مكوّنة من عشرين من الحرّاس بكامل سلاحهم بهدف الإنذار المبكر في حال صادفهم تهديد أي خطر من قبائل الصحراء. بالإضافة إلى عدد آخر من الكشافة كانوا يتأخرون عن القافلة ويزيلون أية آثار يتركونها خلفهم، حتى غدا ذلك واجبهم الشخصي. وعلى جوانب القافلة كان هناك عدد آخر من الحرّاس. حتى في القافلة نفسها كان النظام العسكري مفروضاً ومتبعاً، وكان لكل سرية مكانها المحدد بالنسبة

لموقع خيمة الأمير التي كانت تُنصب أولاً.

يوماً بعد يوم كانت القافلة توغل في الصحراء وتخيّم عند أول واحة تصادفها عند الإمكان. كان عدد الحراس الذين يقون بعد رحيل القافلة في ازدياد، مع وجود عدد من الجمال السهلة القياد معهم، جاهزة لاستعمالها بواسطة أي رجل نفقت راحلته أو فقدها. وكان من مهامهم أيضاً إبقاء المسافرين في ذيل القافلة على نفس وتيرة بقية الركب مخافة أن يتخلفوا عنهم، الأمر الذي كان يزداد صعوبة كلما طال السير وأصاب الوهن الكثير من المسافرين.

كان مكان نزول وليَمسون وتابعيه في المخيّم قريباً من خيمة الأمير. الأمر الذي كان يتيح لوليَمسون، الشاب المخلص، الانضمام إلى جمع الشيوخ بعد العشاء والاستماع إلى الدّرر النفيسة التي كانت تندّ عن أفواههم الطاهرة. في بعض الأحيان كان المُلا يلقي عليهم موعظة مقتضبة أو يتلو عليهم ما تيسّر من القرآن أو من الصلاة على الأنبياء عليهم السلام. وغالباً ما كان واحد أو أكثر من المجتمعين يسامر البقية ببعض القصص والروايات العربية، أو مغامراتهم الشخصية في قصص حبّ عاشوها بأنفسهم، أو غزوة أغاروا بها على قبيلة أخرى. كان كل ذلك محض تسلية لعبد الله وليَمسون الذي كانت معرفته بالعربية تمكنه من متابعة الحديث دون صعوبة.

كان وليَمسون وبعض الشيوخ الشغوفين بالهجن السريعة قد اختاروا لهم في النهار منحىً آخر مختلفاً عن بقية الركب من العامة. ففي كل صباح كانوا يجتمعون معاً في المخيم ويرتشفون القهوة ويتجاذبون أطراف الحديث حول النار حتى تأهب القافلة ومسيرها. وبعد مسايرتهم بضعة أميال لحراس مؤخرة القافلة الأشاوس، كانوا يبدأون بغذّ السير وحثّ الخطى فوق جمالهم متجاوزين بذلك نظراءهم من الحجّاج الآخرين وصولاً إلى أمير الحجّ في مقدمة الرّكب.

في بعض الأحيان كانت تلك العصبة من الفرسان المتمرّسين تنيخ رواحلها وتستريح أثناء مرور القافلة بجانبهم، والذي كان يستغرق ساعة كاملة بمشهد نادر من الخطو المنتظم كأنه عرض عسكري عبر الصحراء يسرق ناظري وليَمسون الذي يتابعه

بأشد اهتمام. كان حامل الراية يسير في المقدمة يتلوه ضارب الطبل ومن ثم الأمير وحاشيته وبعدهم موكب الحجّ الرئيسي المكون ممّا يزيد على ثلاثة آلاف حاج مع مئات الركبان وجمال التحميل الخاصة بهم. كان معظم المرافقين من الرجال، الذين يسير أغلبهم بصمت أمام الأباعر بالتناوب. أما الركبان فكانوا من النساء المحتجبات بالنُّقُب، هنّ والصغار من الأطفال، كجزء من الموكب الذي يقوم بهذه الرحلة المقدسة إلى الأرض المباركة. وغالباً ما كانت وضعيات جلوس الركاب الجاثمين فوق حاجياتهم على ظهور الجمال تغريهم بالنوم والاسترخاء. كانت عدّة جمال تحمل على ظهورها الشقدوف، وهو نوع من الهوادج المغطاة بالسجاد أو أنواع أخرى من الأغطية، أو الشبريّة وهو أبهى من سابقه، حيث يغطى بالإستبرق ويحشى ببطانة ناعمة. كما بإمكانك أن تلمح بين المسافرين زوجاً من المطايا التي تحمل بينها مهاداً ينام فيه صاحبه بهدوء على وقع الأرجحة والتمايل.

كلما هيمن الليل بسلطانه وغمر الكائنات بسكونه، والقمر الأبيض في السماء، ومجموعة نجوم الصليب المدلاّة كمصباح منها، كان مسير أفراد القافلة الكبيرة المتاقلة يلفّها السحر والغموض. ومن المشاهد الأخرى التي انطبعت في مخيلة وليّمسون ووجدانه محطات توقف القافلة في الصحراء ومئات المضارب التي كانت تنير ظلام الصحراء بألسنة لهبها البرتقالية المتوهجة. كانت أيام تلك الرحلة، التي لا تنسى والتي تسعى نحو هدفها الكبير، مضبوطة بأوقات الصلاة، يحدوها الأمل ببلوغ نعيم الرّوح الأسمى في نهاية الرحلة.

كانت منطقة جنوب الكويت تحت حكم الأتراك، عدا قبائل الأعراب في أطراف الصحراء. وكان المسافرون في القافلة عُرضة للنهب من قبل قطّاع الطرق الذين يعيشون على السطو والسرقة. لكن هذه القافلة المحاطة بأشد الحراسة مضت في طريقها دون إشكال، ولحسن حظها صادف مرورها موسم الربيع حيث تكتسي الأرض بالعشب الأخضر بعد هطول الأمطار مما يتيح الكلأ والمرعى للجمال. كان على القافلة اجتياز عدد من الأودية العامرة بالمياه بعد هطول الأمطار. حرارة الجو في مساء الأيام الصافية

غالباً ما تكون عالية، حيث كانت القافلة تخيم، إلا أن الليالي كانت أشد برداً، لذلك كان من الممكن استئناف الرحلة في ظروف أكثر راحة نسبياً بعد غروب الشمس. وأسوأ ما يمكن أن يحصل في تلك الظروف هو التنقّل بين كثبان رمال النّفود، الأمر الذي قد يستمرّ ليومين أو ثلاثة بين الواحات.

بشكل عام، كانت الأمور مستقرّة في منطقة حائل وخصوصاً في جبل شمَّر بين البصرة ومكة. وبعض قاطني المناطق النائية، الذين كانوا ينظرون للأرض الخواء على أنها صحراء مقفرة، سوف يتفاجؤون ويدهشون، ووليَمسون واحد منهم، عندما يشاهدون تلك المناظر المبهجة والسماء المشرقة. كانت الذرى الصخرية لجبل أجا غرب حائل تخترق غيوم السماء بألوانها الزرقاء والذهبية، شامخة كقصور الأحلام. وشجيرات السّنط الشوكية بين المرتفعات البازلتية خلّت مكاناً لأشجار النخيل والطرفاء على هضاب الحجار الرملية بلونها الزهري اللطيف كانت. إن مدينة حائل متاخمة لهضبة الشّمرا[1]، وتُعدّ العاصمة الرسمية ومقر الأمير محمد عبد الله الرَّشيد، حاكم جزيرة العرب، بالإضافة إلى كونها معقلاً لأتباع المذهب الوهابي[2] الملتزمين بمبادئ الدين.

هنا في هذا المكان، شهد وليَمسون كرم الضيافة الذي يضاهي إلى حد كبير ذكريات الزمن الغابر أيام هارون الرشيد. لم يكد الموكب الكبير يخيّم حتى قام الأمير بدعوة آلاف الحجّاج إلى وليمة من نوع استثنائي لا يقدر على إقامتها بطبيعة الحال سوى أمير شرقي باذخ الثراء.

في الفناء الواقع بين قصر الحاكم وبين السوق، تمّ بسط الوليمة المعتبرة، حيث نُحر العديد من الأغنام والجمال. تم إعداد الكثير من الأرز باللحم، وكان الرعاة قد تزوّدوا

(1) هكذا ترد العبارة في الأصل الإنكليزي، لكن التسمية المتعارف عليها لدى أهل حائل: جبل الشّمرا.

(2) يستخدم المستشرقون على الدّوام عبارة: الوهابيّة والوهابيين، والصحيح أن اسمها حركة الإصلاح السّلفي.

من السوق بكميات من القهوة والحليب والسكّر لإعداد مقبلات للضيوف.

برغم كل تلك التحضيرات الكبيرة، في رأي وليَمسون لم تكن تلك أول مرة يُدعى فيها إلى وليمة على هذا المستوى، إذ أن هذه كانت عادة حائل في استقبال زوارها. وما كان منه إلا أن رافق حاشية أمير الحجّ إلى القصر حيث حظي بفرصة رؤية «مقصورة إعداد الطعام»، وهي عبارة عن مكان مغلق لا يشبه بأي حال من الأحوال المطابخ التي صادفها في حياته. كان المكان برمّته أقرب إلى الخيال منه إلى الحقيقة. كانت المياه تُغلى في القدور على نيران متباعدة فيما بينها. والقدور لاتساعها كان كل منها كافياً لاحتواء جمل بأكمله. قبل وضع الجمل في القدر لطهيه كان يُدهن بالسمن ويشوى بعض الشيء. ثم يتم رفع الذبيحة بواسطة رافعة يستخدمها الطهاة، ووضعها بعد ذلك في القدر. من ثم يتم استخدام المرق المتبقي لطهي الأرز. أما بالنسبة للأغنام فكانت تُدهن بالسمن أيضاً ويتم شيُّها باستخدام السيخ المعد لذلك. صحيح أن منظر الوليمة أثناء الإعداد كان لا يُفوّت، إلا أن وليَمسون كان يصل إلى ذروة المتعة أثناء تناول الطعام بحدّ ذاته، في الساحة الكبيرة[1]. وما كان منه هو وآلاف الحجيج إلا أن أكلوا حتى أتخموا، شاكرين الله أكرم الأكرمين، دون أن ينسوا الأمير محمد بن رَشيد، فهو من دعاهم إلى الوليمة.

في اليوم التالي، وصلت من بغداد قافلة كبيرة إلى حائل لمشاركة القوات في قوافل الزُّبير. حيث نُحر المزيد من الجمال والأغنام، التي أشبعت أربعة آلاف من البطون حتى الثمالة. وكلهم أثنى على كرم الأمير محمد عبد الله الرَّشيد اللامتناهي، متحدثين عن جزيل ثوابه عند الله. ولكي تتمّ بهجة زيارة الحجيج إلى حائل، انتهز وليَمسون الفرصة التي أتاحها استقبال أمير الحج، وتشفّع لدى الحاكم، مستدراً عطفه ورحمته للعفو عن ناهب جمل حُكم عليه بالموت[2]. وفي غمرة الاستعداد لتنفيذ

(1) حول الولائم العامة للحجّاج في حائل ووصف المدينة ذاتها، يحسن الرجوع إلى رحلة الإيطالي كارلو غوارماني (عام 1866) ورحلة الليدي آن بلَنت وزوجها ولفريد (عام 1878-1879)، ففيهما ما يشوق ويمتع.

(2) كان الغزو وأخذ الغنائم واردين دوماً لدى عشائر العرب، غير أن آل الرشيد منعوهما منعاً باتاً

حكم الإعدام بالرجل، وهو محمد مِسفِر، أحد صغار مشايخ بني حَرب، استولى على الآتين من المدن الإحباط عندما فاتتهم مشاهدة ذلك الحدث، إذ أصدر الحاكم أمراً بإرجاء التنفيذ.

بعد فترة من انتهاء الوليمة الثانية، وصلت التعزيزات من بغداد فتأجّجت حماستهم الدينية من جديد. شارك وليَمسون بقية الحجّاج جذلهم ونشوتهم الروحية، لكن، للأسف، أدى ذلك إلى فقدانه الاهتمام بالكثير من الأمور التي كانت تثيره عادة فيما مضى. ففي ذلك اليوم الذي يزور فيه حائل لأول مرة، لم يلتفت إلى معالم تلك المدينة النائية، التي لم يصل إليها سوى القليل من الأوروبيين. وفي الواقع، كان أكثر ما يهمه في رحلة الثمانمئة ميل هذه التدقيق في العادات الإسلامية أكثر من إلقاء البال إلى معالم البلدان.

كانت المدن الداخلية وسط وجنوب جزيرة العربية من القلة بمكان بحيث يمكن عدّها على أصابع اليد الواحدة، لكن كان لكل واحدة منها من السحر ما يجذب إليها الغرباء والأجانب. كانت حائل مجرد مكان استراحة لوليَمسون لا أكثر ولا أقل، أو واحة توفّر راحة استثنائية في هذه الرحلة الشاقة. ومن المدن الداخلية الأربع الأخرى تعرّف وليَمسون فيما بعد على الرياض وصنعاء. أما المدينتان الأخريان، مكّة والمدينة، فكانتا في باله على الدوام، تفصله عنهما بلاد بصحاريها وهضابها ووديانها، تظهر ببساطة يوماً بعد يوم خلال الرحلة التي أمضوها على ظهور الجمال.

* * *

في إمارة جبل شمَّر.

الفصل الرابع عشر

المدينة المنورة

سار الموكب الكبير بجمعه الغفير باتجاه الجنوب تحت راية الإيمان المرفرفة، تاركاً وراءه حائل ويمّماً شطر المدينة. كانت أيام السفر تمضي ببطء وتثاقل، حتى أنها لمشقتها ينوء بحملها أعتى الرجال، لكن الشعائر التي كانوا يقومون بها والخطب والعظات التي يستمعون إليها، كانت تجعل جلّ اهتمامهم ينصبّ على عِظم الغاية التي يتجهون نحوها. وعبر جنوب شمَّر المقفر لم تنفك الصعوبة عن تلك الرحلة الشاقة، حيث كانت عظام الجمال التي ذهب لونها بتأثير الزمن، أكبر شاهد على قوافل الحجّاج التي مرّت من هناك.

كان وليَمسون قد سمع الكثير عن روايات السّطو على قوافل الحجّ ونهبها، لكن أحداً من البدو لم يتعرّض لقافلتهم، التي كانت يحوطها الأمان وتحرسها الرعاية، سواء بكثرة رجالها أم بعتادهم من الأسلحة النارية، ناهيك عن مظهر الشيوخ المهيب، يحيطهم الرجال من كل جانب على طول الطريق، ممّا قطع أيّ مجال لأحد أن يطالب بجزية أو أتاوة، تلك العادة غير المستحبّة المتبعة عند بعض النّاس من القدم. كانت الرحلة من بدايتها موفقة، فالنظام كان سائداً على طولها، باستثناء بعض الحوادث نظراً للمشقة. ومع ذلك كانت هنالك بعض الأخطاء التي يرتكبها الحجّاج أنفسهم، إلا أن أيّ مسيء كان يلقى جزاءه العادل على شكل حكم يصدره أعيان القوم.

تخضع قافلة بهذا الحجم والقوة، لحكم شبه عسكري. كانت تمثل الملاذ الأمثل للمسافرين عبر بلاد يقطنها البدو الذين يعتبرون القتال وشنّ الغارات على الآخرين

عملاً رجولياً مشروعاً. إلا أن سفراً على هذه الشاكلة لم يكن بالمجّان، على حد علم وليَمسون المسبق، لذلك كان يتم منع الفقراء من الانضمام للقافلة والاستفادة من مزاياها الجمّة.

إن إغارة الأعراب على إخوتهم في الدين من الحجّاج الذين حُرّمت دماؤهم وأموالهم بوصية رسول الله، كان يجعل تلك الجريمة من الكبائر. إلا أن قطّاع الطرق كانوا ينتمون إلى الإسلام باسمه فقط، ويتبعون مصالحهم وأهوائهم بدلاً من أوامر الدّين ونواهيه. لقد حوّلوا بعضاً من طرق الحجّ إلى الديار المكرّمة إلى ممراتٍ محفوفة بالمخاطر في تلك الفترة التي قام فيها وليَمسون بزيارته الأولى إلى تلك الأماكن، وذلك قبل سنوات من وصول الخط الحديدي الحجازي إلى المدينة. مع ذلك، عند الإمساك بأحد قطّاع الطرق في أحد أعمال السرقة، فإنه لن يعيد الكرة.

شاهد وليَمسون أكثر من واحد من قطّاع الطرق السابقين، جاثين على ناصية الطريق مع بقيّة المتسولين الذين يبدون كالغيلان بشعورهم السوداء الطويلة، وروائح العفن والإنتان التي تنبعث منهم، وذلك عند اقتراب القافلة من المدينة. كانوا يأخذون بالدعاء للمتصدّق عليهم بشكل يظهر التقوى بكلامهم ويبطن الرّياء في عيونهم السوداء ونظراتهم المريبة، مذكّرين المارين بكلمات رنّانة أن الصدقة وبالأخص الزكاة هي من أركان الإسلام، وأن الله يضاعف أجرها في أيام الحج. وعندما كان أحدهم يريد رفع الوعاء الذي يجمع فيه غلة التسول كان يقوم بذلك بفمه، إذ أن يديه كليهما قد قطعتا بسبب السرقة، تلك العقوبة التي حافظ ابن سعود على تطبيقها عندما أوتي المُلك، ومهما قيل عن الاعتراض على تلك العقوبة وقسوتها، فإن أحداً لا ينكر بالغ تأثيرها على اللصوص.

في وقت متأخر من المساء، خيّمت القافلة في أحد البطاح المطلة على المدينة المنوّرة، بحيث كانت تتراءى لهم أنوارها. وسرعان ما خلد وليَمسون للنوم الذي لم يكن عميقاً، على الرغم من برودة الجو وعذوبة النسمات في ذلك الارتفاع الذي يقارب 3,000 قدم. بات صوت تجشؤ الجمال بعد عملية هضم الطعام صوتاً مألوفاً،

بل إنه غدا كالهدهدة للأطفال عند النوم بعد يوم كامل من السفر الشاق عبر تلك الفيافي الوعرة. عادةً، لم يكن وليَمسون يوليها من الاهتمام أكثر مما يولي عواء ابن آوى الذي يتردّد صداه في الصحراء، لكنها في تلك الليلة، كانت تصدر أصواتاً جهيرة مصاحبة لتسبيحات مسافر إلى الحج، يسهر الليل وينتظر الفجر بفارغ الصبر. منعت الإثارة النوم عن العديد من خيام الحجّاج؛ حتى وليَمسون نفسه، في مستهل تجربة روحية جديدة، كان يفهم ماهية العواطف التي تختلج في نفوس أصحابه من العرب، المتأثرين من صغرهم بعظمة هذه المشاعر المهيبة.

لقد كان يقدّر للقدوم إلى المدينة أولاً مزاياه، والتي لا تُعدّ فرصة إجراء بعض عمليات الشراء أقلها أهمية. لكن مقابل هذه المزايا كان هنالك عائق ارتداء ثياب الإحرام، بعد أداء شعائر معينة، ليس فقط في المدينة المنورة ولكن في تتمة الرحلة إلى مكّة وحتى إتمام كامل الشعائر. وعلى شاكلة بقية الحجّاج تماماً، تم تزويد وليَمسون بهذا الزيّ المكوّن من ثوبين باللون الأبيض غير مخيطين. أما النساء فكان بمقدورهن دخول المدينة المنورة وهن يرتدين النقاب ويتشحن بالسواد، ولكن بالثياب البيضاء الطويلة مع نقاب شفاف معلق إلى حجاب أبيض بالنسبة لثياب الإحرام في مكّة.

عند الفجر كان صوت المؤذن يأتي خافتاً من المآذن البعيدة. وأدّى الحجّاج شعائر صلاة الفجر كالعادة قبل طيّ خيامهم والاصطفاف مع جمال التحميل والركوب إيذاناً ببدء آخر مسير قصير باتجاه المدينة المسوّرة. بالرغم من أميال من السير عبر الصّحارى المقفرة فإن بهجة رياض النخيل والبرتقال والبطيخ التي تسرّ الناظرين أنستهم كل ذلك التعب. تقدّم جزء من القافلة إلى أرض مسوّرة بين الجزء القديم والجديد من المدينة تشتمل على أسواق وثكنات تركيّة، بينما عملت بقية القافلة على تشييد المخيّم مرة أخرى على أرض مكشوفة خارج الأسوار.

قام عدد من الحجّاج الميسورين باستئجار سكن لهم ضمن المدينة القديمة خلال فترة الإقامة. كما أن أسابيع من شظف العيش جعلت وليَمسون ميالاً إلى التغيير أيضاً، فما كان منه إلا أن ترك الجمال بعهدة أتباعه وانضم إلى اثنين أو ثلاثة من الشيوخ الذين

كانوا يتباحثون بشأن النزول في طابق علوي من أحد المنازل يتيح لهم سهولة الوصول إلى الحَرَم. إلا أن تلك المصاريف لم تكن الوحيدة، فقد كان هناك تكاليف استئجار دليل مختص لزيارات الأماكن المقدسة، وللقيام بأداء الشعائر على الوجه الأمثل. لكن لتجنّب تلك التكاليف، بإمكان أفقر الحجّاج الانضمام إلى مجموعة أخرى من أبناء جلدتهم ممّن يرافقها دليل. وعلى كل حال لا يُنصح بالقيام بتلك المناسك دون دليل، وإلا سيصادف الإنسان في طريقه الكثير من الصعاب والمشقات.

ظاهرياً، لم يكن هنالك ما يدلّ على جنسية وليَمسون الإنكليزية. فزيّه زي البدو، ولحيته الداكنة حديثة الظهور مشذبة على النمط العربي، ووجهه المتشح باللون الأسمر كان كأصحابه من العرب. وبما أن العرب لم يكونوا من أصحاب البشرة الملونة، فقد حَبَته الشمس والريح لوناً متجانساً مع النمط البدوي الذي تبنّاه. لم يسأله أحد أسئلة محرجة ولم يرَه العرب إلا واحداً منهم، دون أي شك في انتمائه، كونه منضماً لجماعة من العرب.

كان هذا ما يفسر قلة الاعتراض على مشاركته في مراسم الحجّ في هذه المرة والمرات اللاحقة، دون أن يجعله ذلك عرضة للخطر إذا قام بالذهاب بلا تغيير ملامحه. فكلّ من أقام أركان الإيمان الإسلامية، مهما تكن جنسيته، يحق له زيارة مكّة والمدينة. ومن المعروف أن الرّسول عليه السلام هو من أمر بإقامة شعيرة الحجّ ولو لمرة واحدة في العمر، إلا في بعض الظروف الاستثنائية التي تمنع من ذلك. أما بالنسبة لغير المؤمن من الجنسيات الأخرى والذي يتسلل إلى أحد الحرمين المكرّمين لدى المسلمين فالأمر مختلف، وأكثر المؤمنين يحتفظون في ذاكرتهم ببعض القصص من ذلك النوع عن تدنيس المقدسات.

بما أن وليَمسون لم يتوجّه لأداء الحجّ كنوع من الرياء أوالفضول أو المفاخرة، بل كان مسلماً صادقاً في إسلامه، فلم يكن هناك مشاكل كبيرة. وبعد مسير الجمال الطويل عبر الصّحارى والهضاب، استمتع وليَمسون بالمشي وسط الحشود المتنوعة الألوان في الشوارع المحاطة ببيوت تزيّنها النوافذ البارزة على النمط الشرقي الذي

نال إعجابه سابقاً في البصرة. كما استمتع بالمشي في الأسواق التي تعرض الأطعمة والسلع من كل صنف ولون للبيع، وفي الساحة العامة طغت روائح العطر والطيب على رائحة الجمال.

تملّكه شعور هنا في المدينة، أقوى مما كان الحال عليه في حائل، بأنه قد عاد سنوات وسنوات للوراء، وكأنه انتقل للعيش بين أهل القرون الغابرة. لقد كان ذلك عالماً مختلفاً عن بومباي وحتى عن البصرة وعدن حيث يرتدي الحجّاج أثواباً موحّدة تلفت الأنظار ببساطتها، حاسري الرؤوس وحُفاة الأقدام. أما بقية الحجّاج من أهل الضواحي والزوار من كل حدب وصوب، من الشاميين والأتراك والمصريين والبغداديين والفرس والهنود فكانوا يرتدون ثياباً بمختلف الألوان، وكان معظم المشاة من الحجّاج يعطون انطباعاً عن أنفسهم كأنهم خارجين للتو من صفحات كتاب «ألف ليلة وليلة».

لم يكن من المؤسف أو المفاجئ لوليَمسون أن يرى عدداً من سكان المدن يغتنمون بطريقة أو بأخرى تزاحم الحجّاج ومستفيدين منه. حتى قبائل البدو الرُّحّل في المناطق المجاورة كانت تعوّل كثيراً على الموسم السنوي للحج، بواسطة تأجير جمالهم والعمل كعكّامين للجمال، متقاضين أجراً زائداً مقابل عملهم في المناطق المقفرة أو حتى بشكل جائر من خلال عمليات النهب والغزو. بعد أداء وليَمسون لحجّه بعدة سنوات، كان من الطبيعي أن يتذمّر البدو من وصول الخط الحديدي الحجازي حتى المدينة، وذلك لأنه أخذ جزءاً من دورهم. وسرعان ما أدركوا أن النقل عبر القطارات يحمي الحجّاج من هجوم عصابات الطرق، لذلك ما كان منهم إلا أن اجتمعت أصواتهم في الاحتجاج على «انتهاك الصحراء» هذا، ملحّين على السلطات لوقف أداة الشيطان تلك والسماح للحجّاج بالعودة لامتطاء الجمال في سفرهم، كما كان الرسول نفسه يفعل.

إن غزوات أقسى البدو وأعتاهم لم تُنقص من إعجاب وليَمسون بخصالهم التي يفتقدها سكان المدن. وبالرغم من كونهم يشكلون تهديداً لطرق الحجّ خصوصاً

بين المدينة وينبُع على سـواحل البحر الأحمر، فقد تجوّلوا في الأراضي المقفرة على ارتفاعات عالية حيث الليالي الباردة التي عانوا فيها أقصى الصعوبات التي خففت منها نشـوة الرّوح الغامرة التي يهيمون في سـحاتها. وبالرغم من تركهـم للرفاهية المتاحة لهم في غير مرة غير آبهين بها، فإن زُهدهم هذا ليس له أدنى أهمية من الناحية الدينية.

يظهر شظف العيش هذا جلياً في الغرب الأميركي عندما يقارَن برعاة البقر المرفّهين بهندامهـم الأنيـق، وكان وليَمـسـون يقـدّر العديد من الخصـال الرفيعـة لأولئك البدو الجنوبيين، بالإضافة إلى مقتهم لغضارة العيش. فاجأته إغارتهم على قوافل الحجيج. وبصـرف النظـر عن الرغبة في ممارسـة ذلـك، فإن الإغـارة بين القبائل بهـدف اغتنام الجمـال تعتبـر بمثابة إحدى رياضات القـوة والرجولة. لكنه أدرك بعـد إقامته الطويلة فـي المدينة أن البـدو لم يكونوا الوحيديـن الراغبين في تجريد الحجّـاج من أموالهم، حيث أحضر الجميع باسـتثناء أفقر الفقراء بعضاً من المال، سـواءً لنفقاتهم الخاصة أو للتصدق على الفقراء. وجنى معظم سكان المدينة أرباحاً من تزاحم الناس في الموسم بطريقـة أو بأخرى، أما أسـعار المسـاكن وإيجاراتها فقـد حلّقت عاليـاً. أولئك التجّار كانوا بشـكل مباشـر أو غير مباشـر من روّاد المسـاجد والحرم، ومن أشـدّ المخلصين فـي إيمانهم، لكـن لـم يكونوا من الزاهديـن لدرجة إهمالهم للمـال. عندما كان الناس يسـدّدون المال إلى تجار المدينة المندفعين كانـت مدخراتهم التي تعبوا في تحصيلها تذهب مقابل احترام التجار لهم مما يخفّف من ألـم إنفاقهـم للمال.

لم يكن لدى وليَمسون أو أحد من أصحابه أثناء إقامتهم في المدينة أي سبب للتشكّي من الاسـتغلال الذي يتعرّضون له. وبالرغم من ممارسة سكان المدينة لأعمال حياتية يجنون بواسطتها الأرباح من جموع الزوّار من العديد من البلدان، فإنهم لم يكونوا أقل تديّنـاً من المسـيحيين المخلصين في أية مدينة كنسـية في أوروبـا. ومن المؤكد وجود اسـتغلال بواسطة أقلية جشـعة من الناس، يرتبط نوعاً ما ببيع الهدايا التذكارية الشبيهة بتلـك التي تبـاع في مدينة لورد Lourdes، حيث يشـكّل المحتالون جزءاً لا بأس به من حشود المتسـولين.

ما كان يشوب فكر وليَمسون وذاكرته هو التناقض بين الثروة والفقر في مدن إنكلترا، وهي كما هو معروف، تدين بالنصرانية. وبالرغم من أن الإسلام كان بالنسبة له دين العدالة الاجتماعية، فقد وجد أنه حتى في المدن المقدسة لم تكن الأحوال على ذلك المستوى الرفيع. «كل الناس سواسية أمام الله»، هذا المبدأ كان فيه من الاشتراكية ما يكفي لمواطني المدينة الأثرياء الذين ينتظرون صلاة الجمعة حيث يجلسون كلهم سواسية على صعيد واحد في المسجد. كان للأغنياء من الخدم ما لهم، بعضهم من المسيحيين البيض، وبعضهم من زنوج النوبة، أما بعض الخدم فكانت مظاهرهم تنبئ بالغنى كأسيادهم تقريباً. لم يكن وليَمسون قد أقام بين العرب ما يكفي ليستوعب تماماً مفهومهم عن العبودية، وسوق النخاسة في المدينة ترك في نفسه أثراً كبيراً سيتغيّر جذرياً في ضوء تجاربه وخبراته اللاحقة.

تربض هذه المدينة المقدسة على مرتفع من الأرض، يحيط بها عدد من الجبال الوعرة، وتعتبر محرّمة على غير المؤمنين. وسائل النقل الحديثة سهّلت كثيراً الوصول إليها مبدّدة شيئاً من أجواء ألف ليلة وليلة. وعندما قام وليَمسون بأداء أول حجّة له، في أواخر القرن الماضي، كانت تلك الزيارة بمثابة عودة أدراج آلاف الأعوام إلى الوراء، والصورة العامة للمكان والأشخاص، ناهيك عن ارتباطها بالرسول وأيامه، كانت بلا شك ذات أهمية كبيرة للعالم الغربي. مع كل ذلك لم يطأ المدينة أيّ سائح عادي، ولم تكن المدينة يوماً أحد محطات خط سير توماس كوك Cook في تجواله حول العالم. إلا أن ذلك يمكن تبريره بقدرة وليَمسون على تكيف نفسه مع العيش في ذلك العالم الشرقي الغريب عنه لدرجة أنه استطاع الاندماج بمحيطه كأيّ مواطن أصلي.

نظراً لكونه أحد المتديّنين المخلصين، فاته فرصة الاستمتاع بالمدينة، الأمر الذي قد يشكل أهمية كبيرة للأميركين والأوروبيين في تلك الأيام. مع ذلك فإنّ فرصه في الاستمتاع بالمناظر كانت كبيرة، ولربما كان في وقت زيارته أكثر حظاً من بضعة غربيين آخرين وطئت أقدامهم تلك المدينة المقدسة، عبر مئات السنين منذ وفاة الرسول. لقد كرّس إقامته في المدينة للعبادة في المسجد النبوي، وزيارة الأضرحة

الأخرى، ودراسة القرآن ودروس العلم الديني مع أصدقائه من العرب، على عبق قهوة المُخا Mocha العربية.

بعد الاغتسال في يوم الوصول، رافق قافلته التي يقودها دليل مختصّ سار بهم إلى المسجد ذي القبة الخضراء والمآذن الشامخة. مقابل الضريح الجميل المهيب كان هنالك منزل مبني من سعف النخيل عرفه النبي عندما أُخرج من مكّة، وساهم ببنائه وهو يرفع عالياً من شأن العمل والعمال.

دخل الحجّاج من باب السّلام، وبعد أن ملأوا الشوارع بصخبهم، دخلوا صحن الجامع بحمامه الهادل ليغمرهم الأمان الذي تلاشى بمرور الوقت في أرجاء المكان، وخاصّة بمقدم حجاج هنود وبفرط أساهم وحزنهم على وفاة الرّسول محمد عليه الصّلاة والسّلام. إن أكثر أتباع الدين ثباتاً، مثل وليَمسون نفسه، ناله شيء من التأثر كونه في نفس المكان الذي يرقد فيه «رسول الله». لم يكن هنالك ما يمكن القول بأنه كان موطئ قدم للرسول أو موضع يده، لكنهم كانوا على ثقة بأن الرسول ها هنا عاش وها هنا كان يعظ أصحابه وها هنا انتقل إلى الرفيق الأعلى، حيث كان باستطاعتهم الوقوف في البقعة ذاتها التي كان جبريل الأمين يهبط فيها بالوحي على محمد عليه الصّلاة والسلام.

كان كل منهم على علم بقصة المعراج، وبشجاعته وبأسه في الحروب، وحادثة الكهف والعنكبوت، وإقامته فيه هو وحموه أبو بكر الصدّيق، أو كل الأمور الأخرى التي صبغت المدينة بقداسة شخصيته. لقد كانوا على علم تام بتاريخ النبي محمّد وآله وصحابته المدفونين في الجوار.

في المدينة، كان على علم وقناعة تامّة بأن الصّلاة هناك بألف صلاة في سواها من الأماكن باستثناء مكّة المكرّمة وحدها. وبالإضافة للتجليات الروحية التي فاضت عليهم هناك، سرعان ما أحتوا بهيبة الله ما أن وطئت أقدامهم مكّة.

قبل أن تستأنف القافلة رحلتها تجاه الجنوب، عاد وليَمسون أدراجه إلى المسجد

بصحبة الدليل ليؤدّي مراسم الوداع عند الضريح، ليتّجه نحو قبلة مزيّنة بأبهى النقوش العربية، والتي تشير إلى اتجاه مكّة، مصلياً آخر ركعتين له قبل الرحيل. وعند العودة إلى الساحة الرئيسية وجد القائمين على الرحلة يجهزون جمال التحميل في جو من الصخب والعجلة. بدأ المسير من المدينة عبر الجبال والكثبان الرملية حيث أعاد رذاذ المطر الروح للأزاهير البرية التي عطّرت نسائم الهواء العليلة. لقد كانت تلك ديرة بني حَرب وهي قبيلة ذات ماضٍ لا تُحسد عليه في الغزو والنهب. لقد واجهوا أفراد تلك القبيلة، الذين كان بعضهم يؤدّون دور المكدّين فقط، ولكن حتى عيون النساء الظاهرة من تحت النقاب كانت تحدّق بامتعاض في البنادق التي يحملها الحجّاج على أكتافهم. كان أكثر الأعراب دأباً بالكاد يستطيع بقطيعه من النوق والماعز العجاف أن يحصّل لقمة العيش في تلك البلاد الممحلة. لذلك فكلما سنحت الفرصة، لا يجد المعوزون من بني حرب عيباً في حلف الأيمان منكرين غزواتهم وسطوهم على القوافل. كما أن استجداءاتهم للعطايا لم يكن أغنى الزوار ليتجاهلوها، وهم الذين لم يكونوا يوماً بمنأى عن ذلك الشعور المحبّب، بأنه «ما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله»، فيتصدّقون عليهم بما تجود به أنفسهم.

نظراً لأن القافلة كانت تتمتّع بقدر كبير من الحماية والحراسة، فقد ساهم ذلك إلى درجة كبيرة في توفير الراحة والأمن. لكن في تلك الظروف المناخية الصعبة، وعبر تلك الرحلة التي قطعوا خلالها مئتين وخمسين ميلاً، فإن العديد من المسافرين قد لاقوا أشد المعاناة من ارتدائهم لزيّ الإحرام. إذ يجب أن يكون الرأس حاسراً، ولم يكن الثوب المؤلف من قطعتين كافياً في ليل البرد القارس، بل كان يوفر القليل من الحماية فقط عندما ترتفع الشمس عالياً في كبد السماء ويشتد حرّها.

كان الجميع في غاية التصميم على الوصول إلى الهدف المنشود الذي لم تفارق صورته أذهان كثير من العرب والهنود والفرس على الدّوام، منذ أن أبصر وليَمون النّور. أنفق العديد من كبار السن مدخرات حياتهم على حججهم التي أدّوها، وبالنسبة لهم فإن مكّة التي يرتقبونها كانت تمثل الفردوس المنتظر.

نتيجـة لعـدد من التأخيرات، اسـتغرقت قافلة الجمال اثني عشـر يومـاً في رحلتها. حيث تم قطع ما مجموعه 800 ميل من الزُّبير في الشمال، ليترافق ذلك مع طُرف ومآسٍ وقعت للعديد من الأفراد عبر تلك الرحلة الشاقة. وفي آخر فصـول تلك المشـقة، عندما أصبحت جمال القافلة على بعد بضع خطوات من مكّة، اتقدت حماسـتهم الدينية مرة أخـرى وطاروا علـى أجنحة أشـواقهم إلى الحجّ، ليجـدّدوا إيمانهـم وولاءهم للدّين بإعلان الشـهادة مرة أخـرى، وعلى رحاب الأرض المقدسـة رفعـوا أصواتهم بالنداء الخالد: «لبّيك اللهم لبّيك...».

* * *

الفصل الخامس عشر
في مكّة المكرمة

صحيح أن وليَمسون لم يكن ذلك الإنسان العاطفي كبعض أفراد القافلة، لكن إخلاصه وولاءه للإسلام لم يكن ليقلّ عن ولائهم، وفرحه ونشوته بدخول مكّة، التي احتضنت مولد الرّسول الكريم، لم تقل عن فرحتهم ونشوتهم. مجدداً، وبينما كان بعض أفراد القافلة ينصبون خيمهم، كان وليَمسون أحد الذين استطاعوا إيجاد مأوى لهم في المدينة التي تحتوي من المساكن أكثر مما يكفي لإيواء أهلها أنفسهم. تلك المدينة التي لا يحوطها سياج كانت إلى درجة لا بأس بها أكبر من المدينة المنورة، وعبارة عن أرض مقفرة تلتهب حراً وتحيط بها الهضاب التي تعكس حرارة الشمس. في موسم السياحة المزدهر ذلك، كانت حركة البيع والشراء في أحسن حالات نشاطها في الأسواق التي تضاهي بحجمها ومظهرها أسواق بغداد المغطاة في تلك الفترة. على أن مجاورة الحرم جعلت أهل مكّة يزهدون في ذلك بعض الشيء. وجيران بيت الله أولئك لم يكن لديهم ما يمنع من كسب المال من الحجّاج «ضيوف الرّحمن»، لقاء بعض السلع والخدمات والنصائح التي يسدونها إليهم. وأقيم سوق للنخاسة في مكان قريب من بوابة المسجد يدعى باب دريبة Bab Deraybah.

بالرغم من توفّر فرص التسوق والتجوال في المدينة لمشاهدة المناظر الغريبة بكثرة، كان وليَمسون، مثل آلاف من الحجّاج الجدد، مهتماً فقط بأداء المناسك. وعدا عن حاجتهم إلى القيام بأداء بعض الصلوات الخاصة عند وصولهم بالسلامة، فقد كانوا جميعاً ضمن حالة دينية خاصة ألا وهي الإحرام. حيث يعتبر التدخين ممنوعاً،

وممارسة العلاقة الزوجية ممنوعة (أما العلاقات خارج إطار الزواج فهي محرّمة على الإطلاق)، مع مطالبة الحجّاج جميعاً بالالتزام بقواعد النظام والآداب العامة، حيث لا رفث لا فسوق ولا جدال في الحج، وأي ذنب مهما صغر يعتبر رجساً لصاحبه.

توافد ربع مليون من الحجّاج من كل حدب وصوب إلى مكّة أو خيّموا حولها، من بينهم الأتراك والمصريون والهنود والماليزيون وأبناء جزيرة جاوة والأحباش (الإثيوبيون) وأبناء زنجبار. كان جلّ اهتمامهم الوصول إلى بيت الله الحرام. ولعلّه من قبيل المصادفة أن يتمّ اشتقاق كلمة حريم من الحرم التي يشار بها إلى النساء الملتزمات بيوتهن والمقصورات الخاصة بهن.

اندفعت حشود جماعات الحجّاج في الشوارع المكتظة وصولاً إلى المسجد الحرام بمآذنه السبع ومقاماته الأكثر قداسة، حيث بلغوا أعزّ أمانيهم أو يكادون. ذلك المسجد الذي يحوي بين جنباته الكعبة التي يتجّه نحوها المسلمون خمس مرات في اليوم، سواء كانوا في المدن أو القرى، في الهضاب أو الصّحارى. في سبيل تلك التجربة المقدمين عليها، والتي أمرهم بها النبيّ الكريم، كان بعض الناس قد سافر مشياً على الأقدام متكبّدين مختلف المشقات على مدار شهور، ومتحملين صعوبة الاكتظاظ في السفن، ليصلوا بشق الأنفس وعلى آخر رمق معانين الفقر والتعب. لكن كافة آمال الرحلة وآلامها كانت سرعان ما تنسى عند وصول الحجّاج إلى أقدس البقاع عند المسلمين، تتقد في صدورهم مشاعر الإيمان.

بعد أن قام وليَمسون بما يلزم من غسل ووضوء، لم يدّخر وقتاً في الانضمام إلى الحجّاج المتشوقين لرؤية البيت الحرام المسرعين نحوه. كان جماعة الشيوخ العرب الذين جاء بصحبتهم على طول الرحلة قد رتبوا لإقامته معهم في منزل قاموا باستئجاره في المنطقة السكنية، كما أن أحدهم عمل على ضمّ "مطوّف" إليهم كان قد تعرّف إليه في زيارة سابقة. صحب ذلك الدليل المختص وليَمسون والعرب إلى المسجد ليرشدهم أثناء أداء المناسك، وإلى كيفية القيام بالعمرة أو ما يمثل الحجّ المختصر. كانوا جميعهم حاسري الرؤوس حفاة الأقدام، لا يستر أجسادهم سوى إزارين غير

مخيطين، والحكمة في ذلك هي المساواة بين كافة الحجّاج أميرهم وفقيرهم.

كثيراً ما يكون الواقع في الحياة على النقيض تماماً من الخيال. وهكذا كان الوصول إلى مكّة أقرب إلى الخيال منه إلى الحقيقة. حيث كانت المحال التجارية المبنية على الجانب الخارجي من جدار الحرم قد فتحت أبوابها للناس والمشترين؛ بالإضافة إلى العديد من البوّابات أو الأبواب التي تم إنشاؤها لمنع الكلاب من الدخول، إذ لا يعقل بحال من الأحوال أن يكون دخولهم الحرم مناسباً كما هو بالنسبة إلى الحمائم. وعبر باب إبراهيم دخل وليَمسون وجماعته بيت الله الحرام.

كان العديد من الأميركيين والأوروبيين قد دخلوا المسجد مدّعين اعتناق الإسلام[1]. ولعل وجود وليَمسون هناك في ذلك الوقت يعتبر بمثابة حدث فريد، إلا أنه لم يكن ليلتفت لذلك الإنجاز. كانت الرّهبة أول ما راوده من شعور، ولعله كان الشعور المشترك لملايين الحجّاج الذين كانوا يتعبّدون هناك. إن عدد خدّام هذا المسجد الكبير يقارب الثمانمئة من بينهم مئة من الطواشية. انتقل الرجل الإنكليزي بعد ذلك هو ومرافقوه من ظل السقف المقنطر حيث تحيط بهم سواري الرّواق إلى ضوء الشمس الساطع إلى الفناء المربع الذي لا يزيد عن ثلاثمئة ياردة طولاً. وثمّة سبعة ممرّات يحيط بها الرخام ويفترش الحصى أرضها تتجه نحو الكعبة التي تبدو كبناء مربّع بارز أسود اللون يزيده وضوحاً بياض المسجد في الصور التي تلتقط له في موسم الحج. إلا أن تلك الممرات كانت بالكاد تراها عينا وليَمسون نظراً لحشود المؤمنين التي تسير عبرها، وبالكاد كان يحسّ بحرارة الأرض على قدميه الحافيتين.

وراء المطوّف كان وليَمسون ومرافقوه من العرب يركعون ويسجدون ويؤدّون صلواتهم المفروضة. وبخلاف كل مساجد المسلمين كان ذلك هو المسجد الوحيد في العالم الذي لا قبلة له، لأنه هو القبلة نفسها. كان وليَمسون هو وكل المسلمين القادمين من شمال مكّة يصلّون دائماً باتجاه الجنوب. أما هنا في قلب الحرم، فجميع

---

(1) حول هؤلاء الرّحالين سننشر في هذه السلسلة كتاباً شائقاً بعنوان: «أوروبيّون في مكّة» تأليف أوغستوس رالي، نشر في لندن عام 1909.

المؤمنين يصلّون نحو الشـرق والشـمال والجنوب والغـرب، جميعهم باتجاه الكعبة، أقـدس الأمكنـة عند المسـلمين، في حلـق دائرية على خطـوط المطـاف، والتي يقود الدليل جماعة الشـيوخ نحوه، هم والشـبّان الملتحين الذين كانوا من الواضح أنهم من العرب.

كان بناء الغرانيت الأسـود ذاك، ذو الأربعين قدماً، بكسـائه الأسـود يعتلي بحراً من البياض المتمثل بالحجّاج المتدافعين كأنهم أمواج متلاطمة تتكسّر على صخور جزيرة في الوسـط. كان ذلك الصّرح الشـامخ يرتفع بكبرياء وخشوع وكأنه غاية الغايات، أما الحـرم برمّته فكان هو الآخر يفيـض جلالاً وهيبة لا متناهيين. إلا أن الجو الذي يحيط بكافـة الوافديـن كان راجعاً لإجلال الحجّـاج للمزار المقدس والـذي تجلى فيما بعد بمـا يمكن أن يوصف بهيمان الجموع. تعود أصول الكعبة، حسـب الرّوايات العربية، إلـى آدم عليه السـلام الـذي كان أول من بناها، ليعـاود بعد ذلك إبراهيم عليه السـلام بناءها مرة أخرى. وكائناً ما كان تاريخ بنائها، فقد عملت قريش على معاودة بناء الكعبة وأسهم محمد عليه الصّلاة والسّلام بنفسه في ذلك.

تـمّ أداء أولى الشـعائر، حيـث انضم وليَمسـون إلى الشـيوخ في طوافهـم المتمثل فـي الدوران حول الكعبة سـبع مرات، مكرّرين الشـعائر خلف المطـوف، في رمز إلى بـذل النفـس والاستسـلام لإرادة اللـه. حتـى الكعبـة كانت تعتبـر رمزاً في حـد ذاتها، والمسـلمون لا يعبدونها، إذ أن التعاليم الإسـلامية كانت في مجملها ضدّ أي نوع من عبادة الأوثان.

بعـد انتهائهـم من الطواف، مـا كان منهم إلا أن رفعوا راحات أكفّهـم باتجاه الكعبة رافعيـن أصواتهـم بالتكبير، «الله أكبر، الله أكبر»، ليتجـه الوفد حديث القدوم يقودهم المطوف إلى المكان الأقدس لتأدية شعيرة من الشـعائر الرمزية الأخرى، ألا وهي تقبيل الحجر الأسـود الجاثم وسـط الفضة في أحد زوايا الكعبة. إنه عبارة عن الحجر الذي رفضه البناة، والذي ورد ذكره في كل من العهدين القديم والجديد، ويرمز في معتقدات المسـلمين لإسماعيل المغترب عن أرضه ودياره، والذي إليه تعود أصول أول القبائل

العربية. وكذلك هذا الحجر لم يكن ليمثل صنماً في يوم من الأيام، إلا أن توقيره راجع إلى أهميته الدينية والتاريخية، وكان تأثر المسلمين بتقبيلهم للحجر الأسود أشدّ من تأثر المسيحيين الكاثوليك بتقبيلهم لرأس تمثال سان بطرس في روما.

بعد ابتعاده عن مئات من الحجّاج الآخرين الذين يؤدون الطواف، وجد وليَمسون نفسه بين حشد أكثر اكتظاظاً، لتمرّ في خلده فكرة عابرة مفادها أنه لو كان أحد طلاب مدرسة إيتون Eton القديمة، لعمد إلى تذكّر لعبة جدار المدرسة في محاولة ركيكة لمحاكاة ضربة البداية وصخبها في لعبة الرغبي عند قواعد الكعبة. وفي خضم هذا الاكتظاظ والتدافع ابتعد وليَمسون عن مجموعته ليشاهد بين الحجّاج اثنتين من النساء اللواتي يرتدين الثوب الأبيض والنقاب الشفاف. لقد شاهدهن وهن يبذلن كل الجهود مع الأخريات للوصول إلى زاوية الكعبة لدرجة أن ذلك لم يخلُ من دفع الآخرين.

في كساء الكعبة الأسود تنفتح كوّة مطرزة باسم الله ليبدو في وسطها الحجر الذي طبّقت شهرته الآفاق، ألا وهو «الحجر الأسود» الذي تذكر إحدى الروايات أنه عطيّة نزلت من الجنة، أما برأي غير المؤمنين فهو نيزك نزل من السماء، إلا أنه على الأرجح جاء من أحد الجبال. وسواء كان هذا أم ذاك، لم تكن هنالك شكوك عن عراقته وقدمه، حتى أن النبي محمد بنفسه قد أعطاه أهميته عندما أرسى قواعد الحجّ ليأتي بأتباعه من المسلمين من كل حدب وصوب مرسخاً بذلك أواصر الأخوة بينهم. ليصبح الحجر الأسود بذلك أحد ركائز الحجّ إلى مكّة، وقبل أن يعمد إلى تقبيله بكل احترام، أوضح أولاً أن ذلك هو الهدف ليس إلا، وأن الحجر في ذاته لا يملك ضرّاً ولا نفعاً.

يقال بأن الجزء الظاهر من الحجر قد اهترأ وصُقل بسبب قبلات المؤمنين على مرّ القرون. لكن الاهتمام بمسائل ثانوية كتلك لم يكن ليستحوذ على تفكير الحجّاج الذين، وهم في مراقي أرواحهم تلك لدرجة أن العديد منهم كان يرفع صوته بالبكاء، كانوا يبذلون جهودهم للوصول إلى الحجر وأداء السنّة النبوية.

بعد أدائهم الناجح لتلك الشعيرة باذلين الكثير من الجهد، انسلّ وليَمسون ليجد المطوّف أخيراً وبقية جماعته. ومن ثم أدّى مع الباقين ركعاتهم المسنونة عند المقامات

التي ترمز إلى الأنبياء محمد وإبراهيم وإسماعيل عليهم السلام. ليتجه بعد ذلك نحو بئر زمزم في الحرم، وهو النبع الذي تفجّر أمام هاجر ليحافظ ماؤه الذي تخالطه بعض الملوحة على حياة رضيعها الذي شارف على الهلاك.

يعتبر السّعي في الدّرب المسمى بالمسعى أحد أغرب شعائر العمرة. حيث تستلزم تلك الشعيرة من الحجّاج الهرولة في نفس الطريق الذي سلكته هاجَر عندما هرعت عائدة إلى ابنها الذي كان يحتضر بعد أن وجدت الماء في أرض كانت فيما سبق صحراء قاحلة. تقتضي السّنّة السعي سبع مرات، الأمر الذي كان بمثابة مشقّة للمؤمنين وخاصة في ذلك الجو الحار. لكن الكبير والصغير، القوي والضعيف كان يفترض بهم تأدية ذلك الإنجاز الذي يعتبر ثانوياً في أهميته مقارنة بالطواف حول الكعبة.

باعتبار وليَمسون شاباً جلداً، فقد كان قادراً على أداء سنّة السّعي دون أن يعاني من الإجهاد البدني الذي أصاب العديد من الحجّاج. حيث كانت المسافة من البداية عند صخرة المروة إلى الأخرى التي تسمّى الصفا تزيد عن ثلاثمئة خطوة. وعلى اعتبار توجّب السعي سبع مرات بين الصخرتين، كان من الطبيعي أن يختار الحجّاج برودة الطقس النسبية عند الأمسيات لأداء تلك الشعيرة. مرة أخرى كان المطوّفون المختصّون حاضرين لقيادة أفواجهم من الحجّاج الذين يتصببون عرقاً مهلّلين ومسبّحين بحمد الله جميعهم بصوت واحد. بالنسبة إلى وليَمسون والمؤمنين الآخرين المشاركين في السعي كان المشهد غير عادي، على الرغم من استغراقهم في أداء شعائرهم. حيث كان الناس من مختلف الأعراق يجرون ويهرولون ويتهادون حُفاة الأقدام فوق المسرب، من بينهم بعض المرضى الذين يسعون وسط الزّحام محمولين على النقالات، والذين يُعتبر سعيهم مشكوراً في نظر الله.

قُبيل أداء مراسم الحج، كانت مكّة وضواحيها تكتظّ بمئات الآلاف من الناس، لذلك فحتى التجوال بين الآلاف المؤلفة من الناس كان إنجازاً في حد ذاته. في التاريخ المحدّد غادر وليَمسون المدينة مع جماعته من العرب سالكين طريق المعلاّة El Maala ومارين بضريح أبي طالب، عم النبي محمد صلّى الله عليه وسلّم، متجهين

إلى مِنى، لينصب الأتباع خيامهم بين آلاف آخرين في المنطقة المحيطة ليقضوا هنالك أمسية يوم عرفة. وفي صباح اليوم التالي واعتباراً من صلاة الفجر بدأ تحرك الحجّاج كالطوفان الهادر عبر شعاب جبل الرّحمة الواسعة. هنا، تحت منحنى جبل عرفات المخروطي الذي يبعد بالكاد عشرين ميلاً عن مكّة، تم تشييد معسكر آخر إلى أن امتلأت أرجاء تلك الناحية الوعرة من ضواحي مكّة بحشود الحجّاج، آمنين على أنفسهم من قطاع الطرق نظراً لكثرتهم.

كان الخوف ناجماً فقط من الأعداد الكبيرة في حد ذاتها والظروف غير الصحية التي أوجدتها، ولكن في هذا العام الذي شهد أوّل حجة لوليَمسون كانت الوفيات نتيجة الأوبئة أقل من سابقاتها. مضت سنين طويلة مذ أودت الكوليرا بحياة الكثير من الحجّاج، كما أن وباء الطاعون قد حصد الكثير من الأرواح. إلا أن بعض الأمراض الأقل تأثيراً كان منتشراً في تلك المناسبة، ومما ساعد على انتشارها استحمام العديد من الناس في الحوض المملوء ماءً من نبع عرفات والذي يعتبر مصدر المياه الرئيسي لمكة المكرمة.

في يوم الحجّ المقدس ذلك، ألقيت الخطبة المعهودة للمؤمنين من قمّة ذلك الجبل الوعرة التي تكسوها الصخور المتناثرة، وتعتلي سهلاً تغطيه الشجيرات الواطئة. لقد كان المشهد يذكّر بخطبة الوداع التي ألقاها حبيبهم النبي محمّد بنفسه من نفس البقعة. فما كان من وليَمسون إلا أن اعتلى الجبل مع مئات من الذين ساعدتهم قواهم من الحجّاج ليجلس على إحدى المصاطب المعبّدة بجانب عمود من الجرانيت. بالنسبة إليه كانت تلك الأرض مقدّسة، لكن هيبة الوقوف في نفس المكان الذي ارتقاه النبي محمد قبل ثلاثة عشر قرناً لم تمنعه من تأمّل المشهد المبهر أسفل الجبل حيث انتشر الحجّاج كسجادة مفعمة بالنقوش والألوان فوق أرض بنية سمراء. أدّى صلواته المفروضة ليسافر بفكره إلى الأعداد التي لا تحصى من الحجّاج الذين لم يقوموا، عبر قرون، برحلة العودة، مرتدين ثياب الإحرام البسيطة ذات القطعتين، ليجدوا أخيراً مأوى راحتهم في ظلّ ذلك الجبل الأقدس.

انتهت المناسك بإطلاق المدافع وضرب الدّفوف. لتُسرج الجمال ويبدأ الحجيج بالنّفرة من عرفات رجالاً وركباناً، ليتركوه خالياً كعادته في سائر أيام العام. في اليوم التالي شارك وليَمسون في مراسم رمي الجمرات، التي ترمز إلى معاداة الشيطان. حيث شارك حشد كبير من المؤمنين في تلك الشعيرة عند وصوله مصحوباً باثنين من الأتباع المحمّلين بالحصى الذي أتوا به من نمرة التي تبعد قدراً لا بأس به عن ذلك المكان. كانت ثلاثة نصب ذات قاعدة مجوفة من أسفلها ترمز للشيطان، أو بمعنى أدقّ للأوثان التي كانت تُعبد من دون الله قبل الإسلام. ولأن العديد من أتباع النبي محمد عليه الصلاة والسّلام كانوا لا يزالون متأثرين بسلطان تلك الأصنام إلى حدّ ما فقد أمرهم أن يلقوا بالأحجار على رموزها في عقولهم وقلوبهم وأوهامهم. في بعض الفترات، اعتاد العرب على وضع تلك النصب بدلاً عن أوثانهم السابقة، اثنين في مِنى والثالث في آخر طريق مكّة. نظراً لحماستهم الزائدة، تعرّض الحجّاج المحتشدون لأداء تلك الشعيرة لعدد من الإصابات الطفيفة، التي نجمت عن عمل الخير، لذلك لم يؤبه لها.

كانت الأضحية التي تقرب بها وليَمسون إلى الله في ذلك اليوم واحدة من آلاف الخراف والماعز التي تمّ نحرها في مِنى. ومن ضمن الأهداف والوصايا التي من أجلها شرعت تلك القربات الملزمة كان الإحسان إلى الفقراء وتجنّب نشوء مناخ للأمراض. أما من وجهة نظر دنيوية فمن شأن الأضاحي أن تملأ أحزمة رعاة الأغنام من البدو، الذين تنشط تجارتهم في ذلك الموسم، بالأموال.

شارفت أول رحلة حج حافلة بالذكريات بالنسبة إلى وليَمسون على نهايتها، فعمد إلى إعادة مناسك الطواف في مسجد مكّة الحرام، والسّعي بين الصفا والمروة في المسعى المخصص لذلك وعدد آخر من المناسك. ومن ثم تمّ قصّ خصلة صغيرة من شعره فوق صدغه الأيمن، ليخلع عنه بعد ذلك ثوب الإحرام الأبيض ويرتدي ملابس جديدة تمّ شراؤها من أسواق مكّة. من الآن فصاعداً صار وليَمسون هو والآخرون الذين أتمّوا مناسك الحجّ في تلك الأيام المعلومة يحملون لقب «حاج» الذي يُعدّ بمثابة علامة فارقة في أرجاء العالم الإسلامي. إلا أن ذلك، وخلافاً للمعتقد العام

السائد في بعض المناطق، لم يكن ليخوّله بارتداء عمامة خضراء وهي العلامة المميزة للأسياد، أو سلالة النبي من الأشراف. وفي أماكن تبعد عن مكّة آلاف الأميال مثل جزر الهند الشرقية، حيث يشهد الإسلام تنامياً كبيراً، قد تكون للحاج مكانة كبيرة على هذه الطاعة المباركة، بينما في بلاد العرب يتمّ النظر إليه ببساطة كأخ في الدين سنحت له الفرصة بأداء تلك الشعيرة الهامة التي أتاهم بها النبي.

لم يبدُ أنّ هناك سبباً لافتراض أن أداء فريضة الحج يمكن أن يضفي مزايا على شخصية إنسان تمتد ظلالها على عمره بأكمله أكثر ما تضفيه زيارة بيت لحم من قداسة على المسيحي الأرثوذكسي. إلا أن العديد من المسلمين الصالحين، بما في ذلك الحجّاج، كانوا يشاركون المسيحيين في أحد المناحي، ألا وهو: عدم تجلي ممارسة الشعائر الدينية في نشاطاتهم وعلاقاتهم اليومية. كان وليَمسون يحسّ تماماً بشعور الولادة من جديد ذلك الذي تغشّاه بعد أداء الحج، ودون شك فقد استفاد كثيراً مقابل التعب والنفقات التي تكبّدها.

مرّة أخرى انقضى الحجّ الأكبر حتى العام المقبل، وانحسرت أمواج الحجّاج عائدين إلى بلادهم. كانت معدّلات الوفيات أقلّ من المعتاد، لكن، وكالمعتاد أيضاً، فإنّ عدة مئات من الحجّاج المعوزين اعتمدوا على الصدقات للقيام بتلك الرحلة بحراً أو براً. قبل أن ينطلق الموكب من جديد باتجاه الزُبير توقف قليلاً، بحيث تسنّى للحاج وليَمسون الفرصة لرؤية مكّة وهي تهدأ بعد نشاط وتعود إلى روتينها المعتاد. لقد رأى مكّة كما كانت على الدّوام: مدينة لم تغيّر فيها القرون شيئاً. ومنذ ذلك الحين لم يعمل الخط الحديدي الحجازي وتطوير السيارات والمركبات الأخرى على تسهيل الوصول لمكة فقط، لكنه أيضاً بدّل من الجوّ العام لكامل المكان.

بعد تسلّم الملك عبد العزيز آل سعود للسلطة عام 1924، عمل على إرساء أسس نظام أزاح من طريقه كل المناوئين الضعفاء. ومعهم زالت معظم المظاهر القديمة للمدينة، وتختلف مكّة المعاصرة بمحطاتها الإذاعية ومظاهرها الحضارية الأخرى تماماً عن تلك التي قصدها وليَمسون الشاب في تسعينيات القرن التاسع عشر. دون

أن يخطر ببال أحد من مرافقيه من الحجّاج المنهكين السائرين على أقدامهم، أو على ظهور الجمال أو الدواب عبر قفار جبل عرفات، أن أوروبيين نبلاء سيجهرون بإيمانهم، ويتوجهون نحو جبل الرّحمة في سيارة صالون يدفعها محرك جبار. وبالفعل فقد شهد هذا النصف الأول من القرن العشرين تغيّرات جمة في مكّة والمدينة والظروف المحيطة بالحجّ بحد ذاته أكثر من كافة القرون السابقة، قرون الرسالة الأولى.

خلال واحد أو اثنين من أيّام الحجّ الأساسية، أضحت مكّة برمتها مهجورة أو تكاد، ذلك لأن أهلها أنفسهم اتجهوا لأداء تلك الفريضة. وإذا بوليَمسون يصر مأمور الحجّ الأكبر والوالي التركي بلباس الإحرام المكوّن من قطعتين، على فرسين أصيلتين، في محاولة للحفاظ على بعض من هيبتهما المعهودة. أدرك وليَمسون بزياراته المتكرّرة للمسجد الحرام كم كانوا أصحاب عزيمة أولئك الذين يحصلون على عيشهم منه بطريقة أو بأخرى. كان الوصول إلى معظم المناصب علت أم دنت يتم بالوراثة. حتى أنه لا يحق لمن لا ينتمي إلى عائلات بعينها أن يشارك فيما يعرف باتحاد سُقاة مياه زمزم، أو المؤسسة الصغيرة التي تشمل عمال التنظيفات الذين يحافظون على المسجد وفنائه الكبير المربع بأبهى حلّة. صحيح أنهم لم يكونوا ببراعة الشيوخ والأئمّة في جمع الصدقات من المصلّين، إلا أنهم لم يغفلوا الاستفادة من تلك الفرص الجيدة. وإذا لم يُلقِ الإمام بالاً لذلك، فإن بعض الأساتذة والمربّين الذين يتولّون تعليم الموسرين من الطلاب كانوا على قناعة تامة بأن العمّال يستحقّون أكثر ولو بقليل من أجورهم. وأمّا توزيع كسوة الكعبة على شكل هدايا تذكارية صغيرة على الحجّاج المغادرين فقد عاد بالغنى واليُسر على بني شَيبة، التي كان رأس مالها الأكبر الذي توارثته هو الوصاية على الكعبة، بحيث أصبح أفرادها مخوّلين لبيع الكساء الأسود الجميل بعد كل موسم حجّ سنوي.

بالرغم من أن وليَمسون قد أمضى معظم رحلته في مكّة في تأدية مناسك الحج، فإنه قد استمتع بالعديد من المناسبات الاجتماعية في البيوت التي كان يُدعى إليها هو والشيوخ الآخرون. حيث كان أهل مكّة يتمتعون بنفس قيم الضيافة تقريباً التي يتمتع بها أهل البادية. ولسوء الحظ، كما في سائر أرجاء جزيرة العرب، سواء كان ذلك في

المـدن أو الصّحاري، فقد اكتوى الجميع بنار الثأر والعداوات. وحول معظم مساجد المسلمين المقدسة كانت نيران وأحقاد العداوات القديمة هي ذاتها بين العائلات، ماثلة مع عواقبها تحت رماد الثأر وتكرار المأساة.

في زيارته الأولى تلك لمكة المكرمة، أقام وليَمسون علاقاتٍ مع العديد من التجّار الموسرين، تلك العلاقات التي عادت عليه بالفائدة والنفع في المستقبل. بعد بضع سنوات، ودون الدخول في التفاصيل، قام وليَمسون في عام 1898 بزيارة حجّ أخرى من الزُّبير أيضاً. أما حجّته الثالثة فكانت في عام 1936، أي بعد أكثر من أربعين عاماً من الأولى، ليعود أدراجه رويداً عبر جدّة - ينبع ومن ثم إلى المدينة عبر جزيرة العرب ليجدّد معرفته بقبائل العرب. في تلك الأثناء قام بزيارة للمسجد الذهبي في منطقة «الكاظمين» قرب بغداد، بالرغم من كونه من أتباع المذهب السني لا الشيعي، وكذلك زار مدن النَّجَف وكربلاء وسامرّاء.

لا يتوافر سوى القليل من المعلومات عن حياة وليَمسون المهنية في تلك المرحلة، على الرغم من كونها حافلة بالأحداث حتى أنه يمكن كتابة مجلدات عنها. ولكن لعله يكفي أن نؤكّد على إخلاصه وتفانيه في اتّباع الإسلام، دون أن يمنعه شيء آخر في حياته من ذلك. حتى صار من المسلّم به أن ممارسته لأحكام القرآن غالباً ما تخالف ميوله. لقد كان من المستحيل تخيل حاجّ في أي وقت تكسوه هالة من القداسة. لربما كان هذا الكلام مشوهاً لصورته لولا ذكر شيء عن إخلاصه للدين. وبتتبعه إلى مكّة فلن نحتاج إلى كبير تخيّل حتى ندرك أن إيمانه العميق بالإسلام ومشاركته في الحجّ قد ران على حياته المستقبلية كلها في الشرق وصبغها بالسكينة.

كانت بعض الكتيبات المطبوعة تشرح كافة تفاصيل مناسك الحج وأعماله. وتم وصف مكّة المكرمة على يد هورخرونيه Hurgronje، وبوركهارت Burchardt وبُرتون Burton، وفي عصور لاحقة بواسطة فِلبي Philby ووافل Wavell وآخرين[1]. تتوفر

---

(1) سننشر في هذه السلسلة كتب جميع هؤلاء الرّحالين دون استثناء، ونبتدئ بكتاب وافل «رحلة الحاج المعاصر إلى مكّة»، بالإضافة إلى كتاب آخر لرحّالة بريطاني هو جون كين بعنوان:

الكتب التي تفصل سيرة محمّد وتتكلم عن الإسلام باللغة الإنكليزية لكل الراغبين في التعمّق في الموضوع الذي وجده وليَمسون مغرياً بالنسبة إليه. مع أنه ليس بالغريب أن يكون اتّباع الدين الإسلامي مثيراً للفضول، ولربما غريباً نوعاً ما، بالنسبة للمسيحي المخلص لدينه لدرجة التعصب، فإنه من الطبيعي أيضاً أن ينظر المسلم المتعصّب لدينه النظرة نفسها للديانة المسيحية.

تعرّض الإسلام مثله مثل معظم الديانات الأخرى إلى النقد والجدال بين أتباعه، مما أدّى إلى ظهور الفرق والتيّارات الإسلامية التي تحمل وجهات نظر متضادّة، سواء كان ذلك في الأصول أم الفروع أو حتى في بعض الوقائع التاريخية. فالدراويش مثلاً كانوا يُعدّون من المنبوذين، والمتعصبون فقط هم من يتقبّلون رقصهم ودورانهم وصراخهم وضربهم الشيش وتصرفاتهم. لقد تم رفضهم وإقصاؤهم بواسطة التيارات التقليدية من المسلمين، تماماً كرفض جماعات الدوّارين المقدّسين Holy Rollers وحواة الأفاعي Snake Handlers في الدين المسيحي.

هناك آخرون من المتعصبين ممن قد غالوا كثيراً واشتطوا في تعصّبهم، والإسلام كباقي الأديان الأخرى فيه المتعصّبون والمتزمّتون وأتباع البدع أيضاً. إلا أنه بشكل عام أصبح أقل طقوساً وتكلفاً من الكنيسة الإنكليزية. والمسلمون كما اليهود ينكرون مسألة ألوهية المسيح، ويؤكدون على أنه إنما جاء ليتمّم رسالة السماء لا ليبتدع ديناً وشرعاً جديداً. كما أنهم يعتقدون الاعتقاد نفسه عن محمّد، فبما أن الله هو نفسه ربّ الناس أجمعين، وبما أن البشرية قد انحرفت نحو عبادة الأوثان، لذلك فإنّ مهمّة الرسل لا تعدو إعادة البشرية نحو الإيمان بربّ واحد للكون. وبالإضافة إلى محمّد فإنهم يكرّمون أربعة من أولي العزم من كبار الرسل، هم إبراهيم ونوح وموسى والمسيح عليهم السلام.

بالرغم من جهل بعض المسحيين العميق بالإسلام، فإن ذلك لم يمنعهم من انتقاده

«ستة أشهر في الحجاز». وقيد النشر حالياً في السلسلة كتاب شائق بعنوان: «رحلة إلى المدينة المنوّرة» للكونتيسة دوروتيا مالمياتي.

وتوجيه التجريح إليه. كما أن جهل المسلمين بالكتاب المقدس لم يثنِ بعضهم عن اعتبار المسيحيين على غير الإيمان الصحيح. ففي الغرب تسمع مفاهيم الحريم والزواج التي جاء بها النبي محمّد وهي تناقَش بشيء من المقت والاشمئزاز عند سؤال الناس عنها لأول وهلة، دون علم أولئك الناس ببغض المسلمين ومقتهم لما يدَّعونه من افتقار المسيحي للنظافة في شؤون تتعلق بآداب قضاء الحاجة وممارسة العلاقات الزوجية. في هذا العالم المنقسم على نفسه هناك حقيقة واحدة على الأقل يجب أن تكون واضحة وسط هذا الجدال الديني العالمي، ألا وهي: إذا كان كل الجنس البشري سيمارس التعاليم الأساسية البسيطة للمسيح أو موسى أو محمّد أو ساكياموني[1] Sakyamuni أي بوذا، فلن تكون هنالك حاجة عندها للمزيد من الحروب، وسيصبح العالم مكاناً أفضل للعيش.

ما كان من وليَمسون، بعد أن زادت معرفته ونقص ماله، إلا أن انضمّ إلى القافلة مرة أخرى وهي تعود أدراجها نحو الزُّبير. زاد الحجّ من إيمانه إلى أبعد حد، لكنه أبقى على خصال وليَمسون الشاب الذي كان يرعى الماشية في كاليفورنيا، ويصطاد الحيتان

---

(1) ساكياموني هو مؤسّس البوذيّة، الذي لم يدّعِ الألوهيّة ولا النبوّة، لكن (بوذا) هو الاسم الديني لمؤسس الديانة البوذية، ومعناه باللغة السنكريتية: العالم الذي وصل إلى درجة (البوذة)، وهو العلم الكامل وعلى هذا فكلمة بوذة أو بوذا ليس باسم علم، ولكنه صفة وبناء عليه وجب أن يسبقه أداة تعريف فيقال (البوذا). على أن هذا اللقب ليس خاصا بواحد بل شرع دين البوذية ليستحقه أناس كثيرون من أهل النفوس العالية.

كان اسم البوذا مؤسس البوذية (سيدرثا) وكان يطلق عليه اسم عائلته الشهيرة (ساكيا) و(غوتاما) أيضاً، ولما نشأ فيه الميل لنيل الكمال الخلقي رأى أن يعتزل الناس، فلقب (موني) أي المنفرد و(سرامانا) أي المتبتل، ومن هنا سمي (ساكياموني) أي المتبتل من عائلة ساكيا و(سرامانا غوتاما) أي المتبتل من عائلة غوتاما.

اختُلف في العصر الذي ظهر فيه البوذا؛ فذهبت الروايات الصينية إلى أنه وجد في القرن الحادي عشر قبل المسيح، وقالت الروايات البوذية من بوذيي أهل الجنوب: إنه كان على قيد الحياة في القرن السادس أو السابع قبل المسيح وهو الأصح. أما عن وطن بوذا فالروايات كلها متحدة على أنه كان من أهالي الهند الوسطى وكان من طائفة رجال الحرب وهو ابن ملك. فلما بلغ سنه تسعاً وعشرين سنة هجر قصر والده وذهب للعبادة والتبتل.

فـي البحر المتجمد الشـمالي، ويتاجر بقماش كاليكـو calico مقابل لبّ جوز الهند في جـزر الكارولايـنـز. تلـك الخصـال التـي طالما أكسـبته النجاحات المتعاقبـة في عمله التي يُحسـد عليها، لا يمكن أن يخفّف من ألقها ما يمكن أن يعتبره أحد البريسـتوليين القدماء شـذوذاً عن المعتاد، متجسّداً بالولع في البحث الديني. لـم يكن أحد من زملاء الدراسـة السـابقين الذين يعرفون سيرة حياته حتى الرابعة والعشـرين من عمره، لينكر تلك الخصال الشـخصية، والشجاعة والقدرة على التكيّف والذكاء والفطنة التي بوّأته مكاناً يمكن لأيّ منهم فيه أن يتمتّع بحياة مرحة لو كان في محله، سواءً كراعي بقر فتي، أو منقّب عـن الذهـب، أو أحد أفراد طاقم سـفينة تمخر عباب البحـار، أو مدير لميناء تجـاري فـي البحـار الجنوبية، أو ضابط في شـرطة عَـدَن. كل تلك الأعمـال الخاصـة بالرجال، مارسها فتى في بداية شبابه أو يكاد.

مراحل حياته السابقة حَدَت بالحاج عبد الله فضل إلى أن ينظر للمستقبل نظرة عملية نوعاً ما، كما كان ولِيَمسـون الشـاب يفعل عندما كان يتعرّض لقلة ذات اليد. في رحلة العودة الشـاقة باتجاه الزُّبير أتيح له متسـع من الوقت للتأمل بخصوص مسـتقبله. كانت ظـروف السّـفر من مكّة عادية للغايـة، وكان معظم الحماس الدينـي قد خفت توهّجه. كانت عبادة المسـلم عبـارة عن خمس صلوات روتينية يوميـاً، ولكن كان هناك القليل مـن النقاش الديني حول نيران المضـارب، والكثيـر من الحديث عن التجارة والخيول والصيد بواسـطة الصقور والقـوة العضلية بكافة أنواعها. حيـث كان ولِيَمـسـون يصغي إليهـا جميعـاً ويتعلم منهـا الكثير. لقـد عرض عليه أكثر من تاجر المسـاعدة ليؤسـس عمـلاً تجاريـاً لـه في البصـرة أو الزُّبيـر. إلا أن ذلك العرض لـم يلقَ قبـولاً. لم تعاوده الرغبة والشـوق للعودة إلى سواحل أميركا منذ مغادرة مكّة، فبلاد العرب كانت تلائمه تماماً. كان الشـرق يتيح ما يثير الإعجاب فـي الغرب وهو حياة التجوال الحرّة في ظل السماء.

مـن بيـن الحجّاج كان هنالك شـيوخ من قبائل المُنتفق والظفير والذين استشـارهم ولِيَمسون بخصوص خياراته المستقبلية. أما بالنسبة إليه هو فقد كان يخطط للعيش مع

البدو، وخلال رحلة العودة الطويلة باتجاه الشمال كان يتلقف بشغف كل المعلومات من أي شخص قادر على إضافة شيء إلى معرفته التي اكتسبها مسبقاً. لكنه كان يبغي المزيد من حياة البادية، سوى رعي الخراف أو الماعز، كان يطمح إلى اكتشاف أماكن جديدة في البلاد العربية وبلاد ما بين النهرين. وباعتقاده فإن الطريقة المتاحة لتنويع نمط حياته كانت تجارة الخيول والجمال التي سمع عنها من عدد من الشيوخ. ففي تلك المهنة كان بمقدوره إشباع رغباته في حياة البداوة إلى الحد الأقصى، وتحصيل عيش معقول، ولربّما مع مرور الوقت تجاوز حدود جزيرة العرب في تجواله وتنقلاته.

بتلك الخطة في عقله وفكره عاد مع القافلة إلى الزُّبير، حيث توقّف في البصرة لأداء زيارة شكر وامتنان لأصدقائه المخلصين من آل البسّام قبل مباشرة مشروعه الجديد.

* * *

بئر تقليدي في الصّحراء

الفصل السادس عشر

تأثيرات الجن

أكثر من واحد من المسافرين الذين عادوا أدراجهم من الشرق الأوسط أكّدوا في مذكراتهم المكتوبة أن الرجل الأبيض الذي سرعان ما يعتاد على العيش هناك يُعامَل دائماً بازدراء وامتهان من قبل مواطني تلك البلاد. قد يكون ذلك صحيحاً بالنسبة إلى رجال الهنود الحمر، ولكن مثل معظم التعميمات التي عادة ما يتم إطلاقها، فأغلب الظن أن ذلك الكلام يعطي انطباعاً خاطئاً. من المؤكد أن ذلك الكلام لا ينطبق على تجربة وليَمسون في بلاد العرب والعراق. فهو لم يرضخ لأيّ عربي بسبب حسبه ونسبه، مع ذلك حصل على القبول كأخ عربي سواء بين أهل المدينة والبادية. ويمكن أن يُعزى نجاحه في ذلك إلى أربعة أسباب: صدقه وإخلاصه في اتباعه للدين وطقوسه على اعتباره أحد الحجّاج، ورجاحة عقله التي حالت بينه وبين شعوره بأنه فوق العرب أو دونهم، وقدراته الجسدية وخاصة مهاراته في الفروسية واستخدام البندقية، بالإضافة إلى محبته الكبيرة لنمط العيش عند العرب وسهولة تكيّفه معه.

كان الافتخار بأصول عربية صافية من ثوابت قبائل عدة. في بعض الحالات يعتبر الزواج من شخص إفرنجي أمراً مستبعداً، وكذلك الحال مع أشخاص من قبائل غير مشهورة على الإطلاق. فحتى صعوبات الزواج من عربية ذات حسب ونسب كانت مذللة أمام وليَمسون، مما يشير إلى تكيّفه التام مع الأشخاص وانصهاره في المجتمع الذي اختاره. وحسب الشريعة الإسلامية كان بإمكان وليَمسون الزواج بأربعة، لذلك فقد استفاد من تلك الميزة ولكن بشكل متعقل، دون أن يجمع أكثر من اثنتين في آن واحد.

لكن وليَمسون لم يكن ليفكر بالزواج البتّة عندما عاد إلى البصرة في التسعينيات بعد أداء الحج. وإن الحياة في مناطق نائية جنوب الكويت، ورحلة 1600 ميل الشاقة إلى مكّة ومن ثم العودة بعد ذلك لم تغيّر من مظهره فقط وإنما أعطته الطلاقة في العربية والتمرّس بأساليب العرب في التعامل. لقد وصل وهو يرتدي عباءة بنية اللون مطرزة بخيوط رفيعة ذهبية، ومن تحتها يبدو قباز من قماش الموسلين الرقيق، وهي هدايا تذكارية قدّمها له أحد أصدقائه من شيوخ البصرة عند وداعه، ليكتمل زيه العربي بكوفية وعقال على رأسه وزوج من النعال في قدميه. كما أعطته لحيته السوداء الناعمة شكلاً عصرياً واضحاً دون الحاجة إلى تصنّع أو تكلف، الأمر الذي عزّز صورته كعربي بين أقرانه من العرب. وخلال ثلاث إلى أربع سنوات أصبح وليَم وليَمسون الشاب، رجل الشرطة السابق في عدن، الحاج عبد الله. لذلك فقد عاد إلى البصرة على اعتباره الحاج عبد الله، وعلى الأغلب فإن أحداً من بضعة الأوروبيين في الميناء لن يتذكر بأنه هو نفسه ذلك «اليانك» Yank المراوغ الذي سبب في أحد الأيام مأزقاً سياسياً.

من بين الأشخاص الذي تعرّف بهم عن طريق عائلة البسّام ذات النفوذ كان طالب باشا الذي أصبح فيما بعد زعيم القوميين في البصرة. ذلك الرجل البارز الذي أثبت بأنه من الأصدقاء الكرماء، والذي حل وليَمسون ضيفاً عليه أثناء إقامته في البلدة. قبل أن يلتحق بحياة البادية التي طالما أحبّها ورغب بها، كانت هنالك أمور يجب عليه مراعاتها. في الزُّبير استغنى عن خدمات المستخدمين الذين رافقوه في الحج. كما قام ببيع جمال التحميل ليحتفظ فقط بذلول *delul*، وهي ناقة الركوب السريعة، لتصبح صديقته الوفية على اعتباره مولعاً بالسباقات. وفي تلك الفترة كانت الملاريا منتشرة في البصرة، لتصيبه من جديد وتتأجّل مشاريعه المستقبلية بسببها أو بسبب معاودة داء العجز اليَنمي له.

دون أدنى تحيّز ضده، قام التجار العرب ببذل كل ما يستطيعون لمساعدته على استعادة أمواله التي فقدها. كان قد أبحر سابقاً مرة أو مرتين في قارب محالة mahaila أسفل النهر باتجاه الفاو والكويت بالنيابة عن أحد عملائه، في صفقات درّت الربح

الوفير عليه. كان البحر في تلك الأيام، قبيل مطلع القرن العشرين، يبعد أربعة أميال عن الفاو. ومنذ ذلك الوقت بدأ شط العرب الذي يغذيه كل من دجلة والفرات الغزيرين بالامتلاء طمياً وطيناً، والآن في الفاو بضعة أميال أخرى من الأرض الصالحة للزراعة بينها وبين البحر.

كانت القنصلية البريطانية وبعض المكاتب والمنازل الأوروبية على شاطئ النهر في العشار، حيث تنقّل وليَمسون من ذلك المكان إلى البصرة التي تبعد ميلين براً والصحراء خلفها، وهو منفرج الساقين على حمار عبر طريق غير مسوّى بموازاة جدول العشار. فيما بعد تمّ حفر طريق أفضل، وهو الشارع المعروف لآلاف من القوات البريطانية، حتى أن المركبات الآلية وسيارات الأجرة والحافلات صارت تمرّ عبره جيئة وذهاباً بأعداد باتت تحتاج إلى رجل شرطة عراقي لينظم حركة المرور. في واجهة النهر الموحلة، جنوب الجدول كان هناك عدد من الأكواخ المسقوفة بسعف النخيل والتي اعتاد وليَمسون على زيارتها باعتباره وكيلاً لواحد أو اثنين من تجار البصرة. لم يكن هو أو أي شخص آخر يتوقع أن يتم تحويل ذلك النهر المليء بالأوساخ إلى حدائق غنّاء وطريق عريض على الضفة، يمكن أن نطلق عليه بتعبير ألطف لفظة «كورنيش».

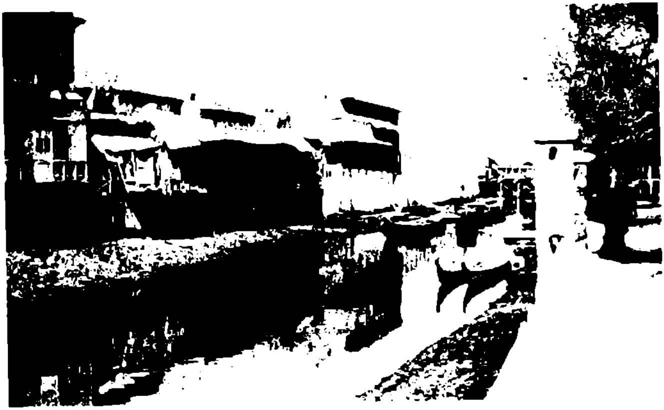

جدول نهر العشار

كانـت التنقـلات عبـر الطـرق والممـرّات البدائية، عندما عـاد الحاج الشـاب، تتم بواسـطة الجمـال والخيـول والحمير. ولكن خلال الفتـرة التي عمل فيهـا في التجارة العامة، أدخل نمطاً جديداً من التنقلات إلى الأرض التي شهدت تغيرات قليلة من أيام نبوخذنصر. فقد كان أول إنسان يقود دراجة في بلاد الرافدين.

صديقه السـيّد أحمد النقيب الذي كان شـخصية اجتماعية بارزة في البصرة، أخبره قبل الحجّ بأنه قد عمل على اسـتيراد درّاجة من الهند. وصلـت تلك السـابقة من نوعها حسـب الأصـول في صنـدوق على ظهر جمـل من العشـار إلى منزل النقيـب. هنالك تعرّف عليها وليَمسـون بعد إخراجها من صنـدوقها في فناء الدار، حيث لم يكن بمقدور أحـد أن يقودهـا. تجمّع النقيب وأبناؤه وأصدقاؤه، حتى المسـتخدمون تجمعوا حوله محملقين في تلك الدراجة الجديدة البرّاقة، بعجلتين كبيرة وصغيرة، بدهشة واستغراب يشـوبه الشك والرّيبة. صحيح أنهم شاهدوا سابقاً دراجة بثلاث عجلات، يملكها أحد الأوروبيـين، لكنهـا لم تكن أبـداً من هذا النوع. حتـى أن آراءهم اتفقـت على أن تلك الدراجـة الرائعـة ذات العجلتيـن اللتيـن لا تتوافـق إحداهما مع الأخـرى كانت مجرد اختـراع «إفرنجي» تم تصميمها لاقتناص بعض الروبيات مقابل تلك الآلة الوهمية، إذ أن أحداً لم يكن ليصدّق أن هذا الشيء يمكن قيادته. قام واحد أو اثنان من الحاضرين بركوبها بمساعدة الباقين الذين ما إن أفلتوها من أيديهم حتى وقع الراكب عن كرسيها العالي.

وحده وليَمسون سبق له وأن رأى دراجة بهذا الشكل من العجلات الكبيرة والصغيرة، وليدافع عن صانعيها البريطانيين عرض خدماته في إثبات فاعليتها ونفعها. الأمر الذي أسعد النقيب كثيراً حتى أنه دعا له بالأجر والرّحمة من الله. فما كان من الحاج الشاب إلا أن ركبها بعرقله ثوبه ويقلد بقيادتها رياضـي الدراجات البريطانيين الذين يعشـقون المغامـرات، تحدوه ثقة كبيرة بقدراته كالعادة. ألم يمتطِ سـابقاً صهوات خيول البرنق الجامحـة في الغرب وهجن السـباقات في الشـرق؟ إلا أن ذلك النـوع من الدراجات ذوات العجلتيـن الكبيـرة والصغيـرة، كما هو معلـوم، صعب القيادة لدرجة أنه يكسـر

الإرادة، ولربما عظام رقبة كل رياضي مبتدئ لا يتمتع بكامل الخفّة والرشاقة والثقة التامّة بالنفس والعزيمة والإصرار. لذلك كان من الطبيعي ألا يكون الاستعراض الذي جرى في فناء منزل النقيب كافياً تماماً لإظهار مقدرة تلك الدراجة واستحقاقها لأن تكون وسيلة نقل تقلّ راكبها، نظراً للمقدار الكبير من العذاب الذي بمقدور الإنسان تحمّله والبقاء على قيد الحياة.

كان الأمر من الصعوبة بمكان حتى أنه أشبه بزرافة ثقيلة الوزن تجلس على كرسي. وبدون مساعدة أحد حرّك وليَمسون الدراجة وقفز عليها بطريقة بهلوانية ليأتي فوق المقود القصير أو ليضرب بطنه بقوة فوق الطرف الخلفي للمقعد. وليسقط في الحالتين كليهما بشدة على الأرض والدراجة فوقه.

لقد أحب العرب الدراجة واستمتعوا بسحر الألعاب التي يؤديها الصبية في السيرك. وفي ذلك المساء أقسم النقيب بالله أنه على الرغم من عدم إمكانية ركوب ذلك الحصان الإفرنجي ذي العجلتين الكبيرة والصغيرة مثل الجمال، فإنه يستحق ثقله من الروبيات لقاء المتعة اللامتناهية التي يتيحها.

كان طموح وليَمسون طوال اليوم التالي تقريباً هو إتقان قيادة تلك الدراجة. وبالرغم من مشاكلها التي بدت كترويض حصان موستانغ mustang، فقد تغلب عليها جميعاً، وتمكّن من ركوب الدراجة دون مساعدة. كان القفز عليها أشبه بحركات بهلوانية، بالإضافة إلى صعوبة موازنة الحركة، وكان النزول عنها من المفترض أن يتم على قدمين وليس على أذن واحدة. كان النقيب وأهل بيته يتابعون الحاج الإنكليزي بصيحات الإعجاب والدهشة مع الاحتفاظ بالحشمة، وهو يلفّ ويدور في صحن الدار. ومن خلف شبك النوافذ كانت عيون العديد من الحريم المتلألئة تنظر بإعجاب إلى الاستعراض الجديد.

لقد كانت تلك الدراجة إنجازاً لم يخطر على بال النقيب أن يقلده، لكنه كان يتمنى أن تكون بمثابة وسيلة تنقل متميزة له. قال لوليَمسون في أحد الأيام: «توجه إلى الزبير يا عبد الله، لتعرض هذه الأعجوبة على أخي السيّد علي».

كان بيت النقيب متاخماً للصحراء، وسلك وليَمسون الطريق الآخذ إلى الزبير وسط دهشة العديد من سانسي الجمال الذي شهدوا مغادرته. أخذ يحرّك قدميه باستخدام الدواسات عشرات المرات دون سقوط، ودون أن يأبه للكدمات الجديدة التي أصابته، وقاد الدراجة إلى سوق المدينة حيث العديد من أبناء البادية يبيعون ويشترون. كان التأثير مفعماً بالحيوية، ولو أن النبي إيليا Elijah (اليَسَع عليه السلام) عاد للظهور بالمركبة الناريّة التي يقودها لما ترك ذلك الانطباع والتفاعل التي تركه وليَمسون لدى الناس بدراجته ذات العجلتين تلك.

في الزُّبير لم يكن أحد قد شاهد شيئاً مشابهاً لتلك الدراجة من قبل. والكثيرون من أهل البادية الذين يعيشون في أطراف الصحراء البعيدة لم يروا يوماً أي شكل من وسائط النقل بواسطة العجلات، هذا إذا فكروا بوجودها أصلاً، مع أنهم كانوا يؤمنون بوجود الشياطين والعفاريت والجن والوحوش والغول. كما كانوا على علم بأن بعضاً من الكائنات الخارقة الأخرى يمكنها أن تتشكل بأشكال غريبة، وخاصة تلك التي تتمتع بقدرات شيطانية. لذلك فإن مشهد شاب ملتحٍ بزيّ عربي فاخر يتنقل بسرعة من مكان إلى آخر بواسطة عجلة كبيرة لا تتوقف عن الحركة بجانب أخرى صغيرة أمام أعينهم، لا شك بأنه ينتمي لعالم اللامعقول. ارتفعت الأصوات باللغط والصخب. حتى أن البعض غطّوا وجوههم وصاروا يدعون الله بالحفظ والعون. بينما سحب آخرون خناجرهم المعقوفة حماية لأنفسهم. وسرعان ما تغلّب الفضول على الخوف من الخرافة في نفوس الأشخاص الذين يتميّزون بالجرأة، ليجتمع حشد كبير من الناس من أجل استكشاف تلك الظاهرة.

صحيح أن وليَمسون توقع إحداث مفاجأة عند وصوله، ولكن لم يتوقع أبداً أن يصل إلى تلك الهستريا. حتى أن أصوات الجلبة ارتفعت لحدّ يصم الآذان، ليبدأ رمي الحجارة والعصي من أطراف الحشد. وبالتالي تعرّض من كان يقف في المقدمة للضرب والأذى، فما كان من وليَمسون إلا أن استغلّ الارتباك الذي أصاب الجمع من حوله، ودخل في زقاق ضيق عبر قنطرة وترجل عن الدراجة بسرعة فائقة. وفي الجوار

كان هنـاك بيت يملكه تاجر يعرفه وليَمســون قبل أداء الحـج. كان باب البيت مفتوحاً، فرمى وليَمســون الدراجة ومرّ بخادم عربي أصابته الدهشــة لمـا يجري، وطلب منه أن يغلق الباب ويوصده بالمتراس. بتلك الطريقة تعرّفت بلاد الرافدين على الدراجة لأول مرة، محدثة الكثير من الضوضاء مثل العديد من الأشياء الجديدة الأخرى عبر التاريخ، ولكن لحسن الحظ دون إراقة دماء هذه المرة.

خـلال تلـك الفتـرة الانتقالية فـي البصرة، لـم يفقد وليَمســون فرصة لقاء شيوخ البدو والتجار الذين يمكنهم خدمة الأهداف التي كان يسـعى لها في مخيّلته. أحد تلك الأهداف هـو مشـاركة القبائل البدوية العيـش في الهواء الطلق بعيداً عن أجـواء المدن قدر الإمكان. ومنهـا أيضـاً أن يتعلّـم ما بوسـعه تعلمه سـلفاً عن تجـارة الجمـال والخيـول. خلال تلك المرحلـة الفاصلـة أيضـاً، وقعت حادثة أخرى برهنـت مجدداً وبشـكل قاطـع على الإيمان الفطـري بخوارق العـادات في تركيبة العرب وطريقة تفكيرهـم. معظم ذلك التفكير دخيل ومقحم على الدين، كما في الأماكن الأخرى من العالم. فالقرآن ذكر شيئاً عن وجود الجنّ، الذي يتضمن أنواعاً من العفاريت والمردة والجان؛ آخر تلك الأصناف تسمية هو أقلها قوة ومقدرة سـواء في الخير أو في الشـر. وغالباً ما كان وليَمسـون يسمع، وهو يجتاز الصحاري راكبـاً أو وهـو يجلـس حول المضـارب، عن الأمور الخارقة التي يمكن أن تقوم بها الأرواح الخفية، على شكل العفاريت الطائرة أو غيرها. وسبق له أن سمع بعض الأعراب يصيحون ويكبـرون عنـد رؤية دوامة غبار قادمة من بعيد، ليقوا أنفســهم بتلك التعويذة شـرور الجني القادم مع الزوبعة. أكّد له أحد أفراد قبيلة المنتفق بأنّ لدى أحد أقاربه الشخصيين صديقين من آل السّـعدون أدركهما الليل في الصحراء قرب مأوى لغول بـسبعة أصابع يدعى بو سـبأ. كان ذلك الوحش الذي يشبه مصّاص الدماء ذا طبيعة كريهة تتمثل في سحب أرواح الناس من باطن أقدامهم. ولعدم رغبتهم في البقاء مسـتيقظين طوال الليل، قام هذا الرجلان من آل السّـعدون اللذان تميّزا بالحيلة والدهاء بربـط قدميهما إلى بعضـها، القدم على القدم، وناما بعمـق بينما أخذ بو سـبأ يزمجر ويصرخ كما يفعل الغول، بســبب تلك الحيلـة التي أعدّاها له.

يمكن أن يتواجد الجن بشكل إفرادي أو جماعي. وسواء كان هذا أم ذاك فإن وجود الجنّ حقيقة واقعة يظهر تأثيرها في حياة معظم سكان جزيرة العرب والعراق حتى اليوم. وبالطبع، فإن أبناء المدنية المعاصرة من المتعلمين ليسوا بتلك السذاجة، ولكن الإيمان بالجنّ من كافة الأحجام والأشكال والقدرات كان ظاهرة عالمية في وقت كان فيه وليَمسون في مستهل حياة البادية. ولولا أن العرب يتفهّمون حقيقة وجود أناس خارقين، لوجب أن يُصنَّف جهاز الحاكي الخاص بطالب باشا خارج نطاق المعقولات، بل لنقل ضمن القصص الخيالية. فلنتذكر، مع ذلك، أن سذاجة البشر وطيبتهم هي السبب الكامن وراء الحوادث الغريبة التي كانت تقع خارج جزيرة العرب. هل تذكرون الاضطرابات التي وقعت في كويتو Quito في الإكوادور عام 1940 ضد الغزو من المريخ والتي تناقلتها وسائل الإعلام آنئذ؟ والهلع الذي حلّ بنيويورك ونيوجرسي عام 1938 عندما أذيع بوسائل الإعلام في حادثة مشابهة، بترتيب السيد أورسون ويلز Orson Welles، أن هنالك غزواً آتياً من المريخ، مما حدا بالآلاف للفرار من منازلهم؟

في أحد الأيام قام أحد مالكي السفن الشراعية، المطلعين على كل جديد في أسفارهم، بإحضار العديد من مواد الاستخدام الشخصي، بالإضافة إلى شحنة منوّعة. من بين تلك الحاجات جهاز حاكٍ (فونوغراف) جديد مع العديد من التسجيلات الموسيقية الجديدة، والعديد من الأسطوانات الشمعية الفارغة مع إبرة خاصة للتسجيلات المنزلية. فما كان من طالب باشا الذي يقيم وليَمسون معه إلا أن قام بشراء الحاكي ليدعو، للاستماع إليه والتمتّع بموسيقاه، عدداً من خيرة الأصدقاء. بالنسبة إليهم كان ذلك الحاكي ببساطة نوعاً جديداً من صناديق الموسيقى، تم تطويره عن الأنواع الأخرى التي سبق لهم أن استمعوا لها، دون أن يكون من المعزوفات الشعبية أو الأوركسترالية المحبّبة للأذن والتي تلائم الذوق الشرقي. أما بالنسبة للأسطوانات الفارغة فلم يتم القيام بشيء بخصوصها. ولم يبدُ أن أحداً يعلم شيئاً عن خواصها وما يمكن عمله بها، حتى حاول وليَمسون أن يشرح لهم شيئاً عنها.

في مساء أحد الأيام جاءهم الشيخ مزعل السّعدون زائراً، وكان يقوم بعمل يدرّ عليه الربح الوفير، وهو جمع المستحقات للأتراك في القرى. ونظراً لأن عمله كان غير ذي جدوى في اليوم التالي، فقد قرّر الذهاب لرؤية أخيه الشيخ فَلاح في أحد المضارب في البادية، وسأل إن كان الحاج الشاب وليَمسون يرغب بمصاحبته إلى هناك.

في اليوم التالي ذهبا سوية، على متن جوادين عربيين أصيلين خاصين بالشيخ، يتبعهما العديد من الأتباع المسلحين. وعند جلوسهم ذلك المساء في مضافة الشيخ فلاح وافاهم مزعل بأخبار البصرة بما فيها الحاكي. إلا أن البدو الجالسين في خيمة كبيرة من شعر الماعز لم يهتموا بذلك إلا قليلاً، حتى أن أحدهم قال: «هذا الشيء معروف بالنسبة لنا أيها الشيخ مزعل. فقد سبق وأن قابلنا تاجراً من بغداد لديه صندوق موسيقى، تخرج فيه الأنغام من صندوق صغير. لذلك فقد سمعنا بذلك الشيء من قبل».

عندما أكد وليَمسون قناعة مزعل بأنه كان أيضاً عبارة عن صندوق متكلم، وقع البدو في الشك وقالوا عنه نفس الشيء. لقد كانوا يظنون أن آلات موسيقية صغيرة الحجم يمكن إخفاؤها في صندوق والعزف عليها بواسطة وسائل ميكانيكية بارعة حاول البغدادي أن يشرحها لهم. كان بإمكان الشيخ مزعل والحاج عبد الله أن يمارسا معهم المزاح. ولكن يجب عليهم ألا يتوقعوا إيجاد بشر من البساطة بحيث يمكن أن يعتقدوا أنه يمكن وضع الصوت في صناديق وجعله يغني ويتكلم. قال الشيخ فلاح: «تلك أعجوبة لم أرها أو أسمع عنها من قبل». والتفت إلى شقيقه مضيفاً: «أستحلفك بالنبي هل ذلك صحيح؟ إذاً عندما تعود في المرة القادمة أحضر ذلك الصندوق المتكلم معك إن كان طالب باشا يسمح بذلك، بحيث يتسنّى لنا سماع تلك الأعجوبة بأنفسنا».

عند رجوعهم إلى البصرة طلب الشيخ مزعل من طالب باشا إعارته الحاكي لأخذه إلى مضارب الصحراء. تمّت تلبية طلبه، لكن كان على مزعل الذهاب إلى أعالي النهر في عمل يقضيه لصالح الأتراك. وبالتالي طلب من وليَمسون أخذ الصندوق

المتكلم وبعض التسجيلات ليسلّي شقيقه ومن معه بالاستماع إليها. فاجأت تلك الفكرة الحاج، فبين التسجيلات كان هنالك أسطوانات تحتوي على مونولوغ وبعض الأغاني الشعبية باللغة الإنكليزية التي لا يفهمها الشيخ فلاح وصحبه. ولكن باستخدام أسطوانات الشمع الفارغة كان بإمكانهم إجراء تسجيلات باللغة العربية تكون أكثر فائدة بالنسبة إليهم. وبعد موافقة طالب باشا وضع وليَمسون الحاكي على جمله وسار به نحو الزُّبير. وهناك طلب من أحد معارفه من طلاب العلم الشرعي أن يأخذ بقراءة آيات من القرآن بتمهل ووضوح، لتفاجئ نتائج التسجيل على الأسطوانات الفارغة ذلك الشيخ العجوز، وليتشجّع وليَمسون على إجراء المزيد من التجارب. كان بعضها عبارة عن أغنية رباعية لشبان عرب، وقام بتسجيل صوته في مقدمتها قائلاً: «السلام عليكم!، سنقوم بتقديم أغنية لكم، بعد حمد الله وأخذ الإذن منكم». بعد ذلك ببضعة أيام خرج هو واثنان أو ثلاثة من مرافقيه إلى مضارب الصحراء آخذين معهم الحاكي والأسطوانات بما في ذلك اثنين أو أكثر من التسجيلات التي تم القيام بها في البصرة. استقبلهم الشيخ فلاح بحسن الضيافة المعهودة، ليتم نحر الشياه واستمتاع الجميع بوليمة عامرة.

أخذ البدو يرمقون الصندوق الخشبي اللماع بعيونهم السوداء ونظراتهم الفضولية، هو والبوق المتصل به بواسطة عنق رفيع كعنق الإوزة. حيث فاق هذا الحاكي بالحجم والمظهر ذلك الذي يملكه البغدادي.

عندما أُخذت بقايا الوليمة خارجاً للنساء والأطفال خلف مقصورة الحريم في الخيمة، طلب الشيخ من وليَمسون أن يبدأ بتسلية الجمع. فما كان من البدو بعد أن شبعوا إلا أن بدأوا بلف السجائر على طريقة رعاة البقر واضطجعوا قليلاً على ظهورهم متهيئين للاستماع بما يجود عليهم به صندوق الموسيقى الإفرنجي ذلك.

كافتتاحية لتلك الأمسية، اختار وليَمسون الأغنية التي تم تسجيلها في الزُّبير وتقديمها بنفسه. لذلك وضع تلك الأسطوانة وبدأ بتشغيل الحاكي، ليخرج صوت يتحدث بالعربية بكل وضوح من بوق القصدير إلى البدو المتجمعين قائلاً لهم: «السلام

عليكم» سنقوم بتقديم أغنية لكم، بعد حمد الله و...». حيث ضاعت بقية الجملة وسط صيحات عدد من المشاهدين. سقطت السجائر وتمّ رمي النراجيل جانباً، حتى مصبّات القهوة انقلبت وانسكب ما فيها. وفرّ عدد لا بأس به من البدويين المذعورين هائمين على وجوههم من الخيمة، بينما توارى بعضهم تحت جدران الخيمة المصنوعة من جلد الماعز على عجل لترك مسافة أمان بينهم وبين ذلك الصوت الخارق للعادة.

ما كان من الشيخ فلاح إلا أن اتكأ نحو الأمام، بمنتهى الدهشة والاهتمام الشديدين. حتى أن تصرفه ذلك جعل آخرين يبقون في الخيمة ويجلسون محدّقين في الحاكي، متمتمين ببعض التعويذات لحمايتهم من أذى الأرواح الشريرة، بينما كان صوت ذكوري يغني أغنية حبّ عربية أسطورية قديمة. لقد كان الجميع تقريباً موقنين بأن ما يحدث ليس هو بسبب الجنّ فحسب، بل أكثر من ذلك أن الجنّ موجودون هنالك فعلاً.

عندما رأى الهاربون أن أحداً ممن في الخيمة لم يُصب بأذى، عادوا أدراجهم بكل انقياد ليشاركوا في الضجة التي أعقبت أول سماع للتسجيل. أما الشيخ فقد احتفظ برأيه لنفسه، وهو الذي ذهب إلى الهند عدّة مرات، وبحسب علمه فهناك تفسير طبيعي لمعظم الظواهر التي ظهرت بأنها مثيرة للفضول. دون أي استثناء تقريباً اتفق مرافقوه من البدو جميعاً على مصدر الصوت، وهو أن «رجالاً صغيري الحجم موجودون في ذلك الصندوق!»، أما كيفية قدرتهم على التجمّع في ذلك المكان الصغير فلم يبدُ ذا أهمية بحد ذاته. ألم يكن من المعتاد أن أنواعاً معينة من الجن بإمكانها الانزلاق والمرور تحت الأبواب المغلقة؟ أو الخروج من المصابيح مثل المارد الذي خرج ليرعب السندباد البحري؟ فبواسطة أعمال سحرية معيّنة تم احتجاز الرجال الصغار، بحيث يمكن جعلهم يتكلمون ويغنون بواسطة تدوير جسم أسود سحري أعلى الصندوق المحتجزين فيه. وفي أعماق إيمانهم بالغيبيات والخوارق كانت أسئلتهم الحائرة تتردّد قائلة: بأية تعويذة تمّ أسر الجن؟ كم واحد منهم يوجد في الصندوق؟ هل أولئك البشر الصغار يأكلون ويشربون؟ هل سبق لهم أن خرجوا من الصندوق؟ ما هو الشكل الذي كانوا عليه قبل دخولهم الصندوق؟

حـاول وليَمســون من جانبه أن يشـرح لهـم آلية عمـل الحاكي وكيف يتـم تحضير التســجيلات وتشغيلها. لقد كان شعوره كشعور آينشتاين عندما أراد أن يلقي محاضرة عن النسبية على طلاب مدرسة للأحداث من المرتبة الدنيا في باكوورد Backward. إلا أن البدو كانوا متأكدين من أمر وحيد وهو أن أولئك الجن لم يكونوا من النوع المؤذي، فلم يكن بمقدورهم إلا الغناء والكلام. كما كانوا مقتنعين بوجود طبول ومزامير صغيرة في الصـندوق، إذ أن الموسيقى الإفرنجية كانت تعزف داخله.

عندما عاد أولئك الأعراب للمسـير مجدداً على ظهور جمالهم في الصحراء، كانوا يحملـون في حناياهم شـعوراً مثيراً عـن تلكم الأخبار. وغالباً مـا كان يتمّ تناقل القصة حول نيران المضارب وتأثيرات الجان السـحرية فـي الصندوق المتكلم. لم يكن أحد يجرؤ على الضحك عند سماع تلك القصة، إذ أنهم كانوا يقسـمون بالله والنبي أن هذا ما وقع فعلاً، وأن الله قد خصّ الحاج عبد الله فضل الزُّبير ببعض من أسراره.

* * *

الفصل السابع عشر

غارة صحراوية

اعتبر وليَمسون أنّ إقامته في البصرة كانت بمثابة خطوة أخرى تقرّبه من حياة البداوة التي رغب بأن يحياها. وسرعان ما سنحت له فرصة أكثر من ممتازة للانتقال عندما تقابل مع الشيخ حسين أحد شيوخ عشيرة الظفير الذي قدم لزيارة الزُّبير مع عدد من أبنائه. كان قد حظي بمقابلة مع حسين قبل فترة من قيامه برحلة صيد بالصقور في الصحراء مع الشيخ يوسف من الكويت برفقة بعض الأتباع، وقد تميزت فترة إقامته في معسكر حسين بكثير من المودّة والألفة.

كان الغرض من الاجتماع الذي عقده في الزُّبير هو القيام بوداع زملائه من البصرة، وقد ركب مع الشيخ حسين وأولاده عندما غادروا بعد بضعة أيام تالية مع العديد من المشتريات التي ناءت بها ظهور جمالهم.

منذ ذلك الحين فصاعداً ولمدة اثنتي عشرة سنة تالية، أمضى حياته كأيّ بدوي من العرب، وهكذا فقد اختفى وليَمسون الشاب القادم من بلاد إنكلترا وأميركا ولم يعد له أي وجود.

لقد كان تحوّله كاملاً إلى الحاج عبد الله فضل الزُّبير، وهو الاسم الذي أصبح يعرف به، كما أنه اعتاد الحياة البدوية وكأنه أحد أبنائها الذين تربّوا في أحضانها ورضعوا من لبانها، ولمدة اثنتي عشرة سنة متتالية تقريباً لم ينطق لسانه سوى اللغة العربية، وعندما بدأ يستعيد تواصله مع أبناء جلدته كان يبذل جهداً كبيراً ليستدعي الكلمات الإنكليزية التي بدأ يفقدها من خبايا ذاكرته، ذلك لأنه كان يفكر بشكل كامل بلغة وعادات رجل من البدو العرب.

كانت السنوات تمرّ بكل يسر ودعة تسابق الآلام والتعب، حيث اعتادوا أن ينظروا إلى الأمور بمنظور وردي فأصبح كل شيء مُرضياً، ولربما كان السبب في حنين وشوق وليَمسون فيما بعد إلى أيامه البدوية يعود إلى حد ما إلى تلك الحقيقة.

من خلال أيام شبابه التي أمضاها بحكمة الشيوخ وتعقّلهم أطلق تلك الكلمات الثمينة التي استودعها عُصارة خبرته: «كانت أسعد أيام حياتي هي تلك التي أمضيتها مع البدو الرُّحّل، فأنا بينهم أشعر وكأن لا أحد في العالم أفضل مني، ربما كان هناك آخرون لديهم جمال وإبل أكثر أو كان منهم من هو أكثر مهارة في الفروسية أو الرّماية، ولكن في نهاية المطاف الجميع سواسية، والبدوي راضٍ بمعيشته دوماً، أما حياة المدينة فإنها لا تمنح إلا عدم الرضا والسخط، وسعادتها مجرد زيف ووهم»[1].

مهما يكن من أمر، فالمرء لن يجد رجلاً واحداً بين كل عشرة آلاف يولدون في أي من مدن أميركا أو بريطانيا يتحمّل الحياة في إحدى الصّحارى العربية، وبالأخص في لهيب أشهر الصيف القائظة، فإنه بكل بساطة لن يستمتع بتلك النوعية من الحياة حتى لو استطاع التكيف مع الرفقة المفروضة عليه وحتى لو كانت لديه القدرة الجسدية للتكيف مع الرحلات القاسية وظروف المناخ الشديدة الصعوبة.

ومما لا شك فيه فإن وليَمسون، خلال معظم سني حياته التي أمضاها كراشد، كان يتمتع بالصلابة والشدة بفطرته، وكانت سيرة حياته المهنية خير شاهد على تلك الحقيقة، فضلاً عن أن ذلك كان رأي العديد من الأشخاص الذين عرفوه في سنوات صباه الأولى.

عندما غادر الزُّبير مع الشيخ حسين وأولاده، لم يدرس العادات والأعراف البدوية أو يختبر أغوار الصحراء، فقد أصبح بدوياً فعلاً، دون أن تعتريه أية رغبة في تأليف قصة أو تراود خياله أي فكرة في أن يرى مغامرته يوماً مطبوعة بين دفتي كتاب، إذ

(1) هذا الكلام قريب جداً ممّا قالته الكونتيسة الألمانية دوروتيا مالميناني في كتاب رحلتها الممتع: «رحلة إلى المدينة المنوّرة عبر صحارى البرّ الدّاخلي»، تمتدح حياة البداوة ونقاءها وروعة قيمها الرّفيعة.

كانت الملاحظات الوحيدة التي أطلقها باللغة العربية خلال رحلاته وتجواله تتعلق بالتعامل مع حالات جَرَب الإبل أو غير ذلك من الأمور التي تعبر عن اهتماماته في ذلك الحين.

لقد كان من مؤيدي الحكمة العربية التي تقول بأن للرجل ثلاثة منازل هي: منزل الفقير ومنزل الخائف ومنزل الحرّ، وقد عقد عزمه على اعتناق الخيار الذي حُرم منه العديد من العرب بحكم الظروف، فقد كان منزل الفقير حسب رأيهم كوخاً من القصب، لكن مجرد شعلة نار صغيرة تحيل كل شيء إلى رماد تاركة صاحبه فقيراً معدماً. أما منزل الخائف فهو بيت في المدينة سواء كان مبنياً من اللبن أو الطوب أو أي شيء آخر، لكن حتى الحاكم المستبدّ سيرتبط به ويخاف أن يتركه. أما منزل الحرّ فهو خيمة البدوي، فإذا لم يحب مكاناً ما أو رفقة ما فكل ما عليه فعله هو أن يطوي خيمته وينتقل إلى مكان آخر.

عندما ذهب ولِيَمون ليعيش في الخيام السود بمضارب الشيخ حسين في الصحراء وتحديداً في الناحية الجنوبية الغربية من الزُّبير، كان قد بلغ من العمر أربعاً وعشرين سنة تقريباً وما زالت أمامه حياة طويلة حافلة بالأحداث والمغامرات الأكثر تشويقاً. وبشرته التي لوحتها أشعة الشمس فأصبحت سمراء، وشعره وعينيه الداكنتين وأنفه المعقوف بشكل طفيف، بدا كواحد من العرب ولا يمكن للعين إلا أن تحكم عليه بأنه عربي أصيل، وقد زاد من كل ذلك ارتداؤه للزيّ البدوي التقليدي.

كان رجال القبيلة من المسلمين بالفطرة، وكان شأنهم في ذلك مثل العديد من المسيحيين، الذين يراعون دينهم في مناسبات وطقوس معينة تمثل كل اهتمامهم بذلك الدين.

لقد قام القليل من كبار السن منهم بأداء فريضة الحجّ إلى مكّة، فكانت تلك رغبة الجميع الذين أبدوا نيّتهم في أدائها في وقت غير محدد في المستقبل، إذ كان ذلك يمثل ضرورة لا غنى عنها لضمان حياتهم الأخرى وانتقالهم إلى جنات غناء وينابيع عذبة مع الحور العين في جنان الفردوس.

لقد منح لقب «حاج» أو «حَجّي» الذي حمله وليَمسون علامة فارقة له، وقد كان ذلك يعود بشكل رئيسي إلى كونه مغامراً وشجاعاً بما يكفي لخوض تلك الرّحلة الشديدة المشقة في أرجاء أرض جزيرة العرب، فكان لذلك تأثير عظيم عليهم لا سيما وأنه كان حسب تعبيرهم إفرنجياً، صغير السن وما زال في مراحل إيمانه المبكرة، وقد اعتبر أتباع الشيخ حسين ذلك بمثابة مسألة تتعلق بكبرياء القبيلة وكرامتها، ولطالما تباهوا بكثير من الفخر بأن «أخاهم الحاج عبد الله» كان الإفرنجي الوحيد على الإطلاق من بين الذين اعتنقوا الإسلام والذي عبر جزيرة العرب وصولاً إلى الديار المقدسة، وباختصار فقد باشر الشاب القبلي حياته البدوية محاطاً باحترام الجميع كما كان موضع حسد بالنسبة لقلة من شبان القبيلة الذين أصبحوا فيما بعد رفقاءه في رحلات الفروسية والقتال في الأشهر اللاحقة. لقد تمكن الشاب من التحدّث بالعربية بشكل جيد وحاز على قدر معقول من التبصّر ومعرفة أغوار وطريقة تفكير العقلية الفطرية، إلا أنه بجميع الأحوال وحتى في حال عدم تميّزه بأي من تلك الصفات، كان سيقابَل ويُعامَل بكل التّرحاب كضيف عزيز مكرّم.

بعد فترة قصيرة من الزمن حدثت واقعة كان لها أثر كبير في رفع أسهمه وزيادة تقديره في أعين أبناء القبيلة، وساهمت إلى حدّ بعيد في تعزيز شهرته ومعرفة اسمه بين القبائل الصحراوية الأخرى، الأمر الذي كان ينطوي على فوائد كبرى، وبالأخص عندما زاد من نطاق رحلاته واتسعت أعماله في تجارة الجمال والخيول.

كانت المضارب قد انتقلت إلى مكان يبعد بضعة أيام ركوباً باتجاه غرب الكويت بين وادي الرّمّة وبين بير انصاب Bir Unsab. في إحدى الليالي شردت بعض جمال القبيلة، وفي الصباح التالي قام الشيخ حسين واثنان من أبنائه والعديد من شبان البدو برحلة للبحث عنها، وركب الحاج وليَمسون على جمله بصحبة فريق البحث. كانت الشمس مرتفعة في كبد السماء عندما واجهتهم تلة منخفضة فصعدوها بمشقة، وعندها شاهد الجميع الجمال التائهة تقضم العشب بهدوء في منبسط من الأرض، فنزلوا ببطء وتؤدة متتبعين أثر وادٍ صغير جاف ومتفادين الشجيرات الخفيضة ذات الأشواك المبعثرة هنا وهناك في المكان.

سرعان ما انبعثت سُحب من الغبار متطايرة كدخان قادم من سلسلة التلال البعيدة المواجهة لهم، ولقد تبيّن السبب بعد دقائق قليلة عندما شاهدوا مجموعة من الفرسان الغزاة من قبيلة معادية يركبون جمال سباق سريعة وهم يصعدون أعلى التلال وينحدرون كالبرق باتجاه قطيع الجمال الصغير الذي يحمل وسم الشيخ حسين.

لقد كانت تلك هي المرة الأولى التي يشاهد فيها وليَمسون الغزو عن كثب، إلا أنه كان يعرف القليل عن قانون الصحراء، وهو الحق في الغزو والنّهب وحتى القتل في ظروف معينة، كما أن هناك العديد من القوانين وقواعد السلوك غير المكتوبة التي تحكم سلوك القبائل البدوية التي كانت تعتبر بمثابة أسرار قد بدأت تتكشف له بعد سنوات من الحياة بينهم.

أحسّ الضيف بواجبه الأساسي وهو الدفاع عن أرواح وممتلكات مضيفه إذا دعت الحاجة، وفي تلك المرحلة المبكرة من حياته في الصحراء كان ما زال يعتبر نفسه ضيفاً على الشيخ حسين.

لم يكن لديه أي شك، منذ اللحظة الأولى التي شاهد فيها تلك القبيلة المعادية، بنواياهم، إذ أنهم شاهدوا تلك الجمال الشاردة عن بعد وطمعوا بالحصول عليها كغنيمة باردة وسهلة، وعلى الرغم من أن رؤيتهم لفرسان الشيخ حسين كانت مفاجأة غير سارة بالنسبة إليهم، فسرعان ما أدرك الغزاة بأنهم يفوقونهم عدداً وبدءوا بسحب بنادقهم من أغمادها، إذ لم يكن لديهم أي استعداد بعد كل ذلك الجهد وقطع تلك المسافة الطويلة والطرقات الصعبة، للتخلي عن تلك الغنيمة حتى ولو بذلوا في سبيلها جهداً إضافياً.

رفع الشيخ حسين عقيرته بالصراخ في تحدٍ ظاهر، فردّ جمع الفرسان الشباب بصيحات شقت عنان السماء، لقد كانوا جميعاً متسلحين ببنادق من نوع مارتيني هنري Martini-Henry (كما هو الحال تماما بالنسبة للغزاة)، وكانوا يتمنطقون بخناجر معقوفة ذات أغماد من الخشب تزيّنها زخارف متنوعة ومختلفة، أما الشيخ حسين فقد كان يحمل سيفاً معقوفاً ثقيل الوزن مخصصاً لحالات الالتحام القريب. لقد حاز على

هذا السلاح من بلاد الأتراك وكان موضع تقدير كبير بين العديد من القبائل العربية في تلك الأيام.

مهما يكن الأمر فلم تكُ تلك حرباً مقدسة بأي حال، إلا أن نداء المعركة بصيحة الجهاد كان مدوياً في كلا الجانبين يبث فيهم روح الحماس، وانطلقت صيحة «أغيروا عليهم بحق الرسول». لم يكن حبّ السلام من الركائز الأساسية في البادية وحتى لو كانت كذلك لوجد البدو طريقة ما للالتفاف حولها، ذلك لأنهم لم يكونوا مقاتلين بالفطرة كقوم الغورخا[1] Gurkhas، بل كانوا يعتبرون القتال ضرورة مؤسفة لا بد منها عندما تدعو الظروف إليها، مثل ملاحقة الغزاة أو ردّ الاعتداء عن الممتلكات أو أن تكون بدافع عادة الثأر. لكن من الممكن أن يكون لدى البعض من فرسان الشيخ حسين، وكذلك لدى الغزاة في ذلك اليوم رغبة في القتال حباً فيه.

قد يتولّد لدى المرء اعتقاد بعد نظرة عامة على الحياة العاصفة التي عاشها الحاج عبد الله وليَمسون بأنه قد اختار بشكل مفاجئ منحىً جديداً من الحياة المجيدة، وذلك عندما سحب بندقيته من غمدها الموجود على كتفه، وأطلق صرخة الحرب المتفجّرة شجاعة وحيوية كواحد من محاربي الهنود الحمر الكومانشي Comanche الشجعان عند رؤية قافلة عربات الخيل المغطاة.

كان قد أمضى الأيام الثلاثة السابقة يركب ويصطاد مع بعض من أبناء الشيخ حسين، وقد عاد إلى المضارب مع آخر الليل بعدما تقرّح ظهره من الركوب المتواصل، ولم

---

(1) الغورخا محاربون أشدّاء من نيبال، ينتمون إلى مملكة الغورخا القديمة، سمّوا بذلك في القرن الثامن الميلادي نسبة إلى المحارب الهندي غورو غوراخنات Guru Gurakhnath الذي انتقل بعض أحفاده إلى الشرق وأتسوا مملكة الغورخا في نيبال. ولما دخلت نيبال تحت سلطة التاج البريطاني تم تأسيس لواء مقاتل من هؤلاء الجنود، وحاربوا في الجيش البريطاني مدة 200 عام، وما زال منهم بقية في الحرس الملكي البريطاني. ولهم سلاح أبيض خاص يسمّى كوكري Kukri بشكل خنجر معقوف نحيل النص عند المقبض وعريضه في الأمام.
ومن الطريف أن العراقيين إبّان تواجد الجيش البريطاني في العراق بالحرب العالمية الأولى كانوا يطلقون على العسكر الهنود عموماً اسم (الكركه).

يكـن أي شـيء ليجعلـه يرغـب في امتطاء خيـل أو جمل فـي ذلك اليـوم إلا الضرورة القصوى، إلا أنه عندما رأى الغزاة ينحدرون نازلين في غمامة من الغبار نسـي بشـكل مؤقت آلامه وتعبه لتحل محلها فورة عارمة من الحماسـة. كانت بندقيته محشـوة، كما أنه جهز حزاماً من الطلقات الإضافية شـأنه في ذلك شـأن كافة البدو، يتسـع لمئة طلقة كانت بالنسـبة إليه بمثابة مئة حليف مخلص في تلك الصحراء الموحشة، أكثر بكثير من ألف من الجن الأخيار.

انحدرت جمال فرسان الشيخ حسين نحو جانب التلة المتفاوت الارتفاع في طريق طويلـة وعـرة، وقـد تفرّقت الجمال الشـاردة فـي الأرض الخفيضة تاركة الشـجيرات الشـوكية التـي نمت قرب الـوادي وقد أفزعهـا صوت الفرسـان الصاخبيـن الهابطين نحوهـا مـن الجهتين كليهمـا. زاد سـيل الطلقات الناريـة المنهمرة من سـرعة هروب القطيع الشـارد، وقد أدرك وليَمـون بأن البنادق لن تسـبّب بأي ضـرر من تلك المسـافة البعيدة، إلا أن الجلبة والضجيج المنبعثين قد حمّسـت فرسـان البدو من كلا الجانبين وشجّعتهم على زيادة إطلاق النار بشكل مستمر من على متون جمالهم المتمايلة بعنف دون تحقيق أي إصابة لأي رجل أو حيوان.

في البداية خامر وليَمـون الاعتقاد بأن البدو في الجانب المقابل من خلال تعاملهم مع أسلحتهم، كانوا يحاولون إطلاق رصاصهم في الجو حتى كاد يخترق عنان السماء الصافية، ولكن مع اقترابه منهم بدأ صوت الرّصاص الخبيث يشق طريقه قريباً من أذنه بأزيـز منذر بالشـؤم، فأطلق صوته محذراً أصدقاءه مـن البدو من الاقتراب من بعضهم البعض.

ردّد الشـيخ حسين تحذيره لهم بصوت جهير قوي، وبدأ الشبان بالمناورة ومحاولة السـيطرة على جمالهم التي كانت تتراكض في نسـق فوضوي ومكشوف. كان وليَمـون حتى تلك اللحظة مسـيطراً على أنفاسه وجهده، وقد حافظ على مخزونه من الرّصاص مدركاً للمسـافة التي فرضتها حركة الجمـال وصعوبة تحقيق الإصابات حتى على رام ماهـر مثله. سـرعان ما أصبحـت رصاصات الغـزاة قريبة مـن أهدافها، وعندها باشـر

التصويب بسرعة وأطلق النار. كانت تلك هي الطلقة المؤثرة الأولى التي خرجت من الجانبين كليهما، حيث سقط أحد الجمال الكبيرة الموجودة في طليعة الفرسان الغزاة في مكانه بكل عنف، موقعاً راكبه الذي تدحرج لمرات عديدة في الرمل أمام وليَمسون مباشرة، وصرخ أحد أبناء الشيخ حسين بفرح: «آه يا حاج عبد الله، يا لها من يد ثابتة». لقد كان مبعث ذلك الإعجاب والفرحة هو سرعة التصرف والحماسة الشديدة التي أبداها ذلك الإفرنجي، أكثر بكثير من تلك الطلقة الموفقة.

لم يكن التصويب ببندقية من على ظهر جمل راكض وعلى أرضية غير مستوية أمراً سهلاً على الإطلاق بل كان يشكّل صعوبة جمّة ومتاعب كبرى بالمقارنة مع إطلاق النار من مركب صغير في بحر متلاطم الأمواج، وهكذا فقد طاشت طلقته الثانية، إلا أنها هشّمت المقبض الخشبي في سرج الجمل وما أسرع ما سقطت بندقية راكبه عند أول حركة. لقد كان الأمر بالنسبة إلى وليَمسون مزيجاً من العلم والخبرة وقد استخدمها بكل توفيق سواء في المناورة أو في التصويب، وبعد أن أصبح الفرسان في مرمى الرصاص بدأ الجانبان بالحركة والتشابك بفوضى وكثير من التهوّر بحيث أصبح من الصعب على وليَمسون تمييز الصديق من العدو. أوحى كل ذلك الصياح والرصاص المتطاير والفوضى العارمة بحدوث مذبحة كبرى، وحيث أن نطاق القتال كان محصوراً في منطقة صغيرة نسبياً لا تزيد عن ميل مربع أو نحوه، فقد كان عدد الإصابات قليلاً إلى حدّ يدعو إلى الدّهشة.

أضفى الغبار المتطاير تأثيره على المعركة، وانخرط وليَمسون فيها وبالتالي فلم تكن لديه أدنى فكرة فيما إذا كانت ساحة القتال تتماوج أم أن ذلك كان شعوره. لقد شاهد فارساً يرتمي من على سرجه دون أن يعرف من فعل به ذلك، فانطلق جمله هارباً وهو أحد جمال السباق المروّضة، كان البعير أبيض اللون وعرف وليَمسون أنه ليس من قطيع الإبل الذي يملكه الشيخ حسين. استحثّ وليَمسون جمله ليندفع نحوه، تسابقه أفكاره التي طغى عليها في تلك لحظة تفكير رجل بدوي «ها هي ذي غنيمة ثمينة، يجب أن أحظى بها، الحمد لله الكريم». لقد عرف البدو أصحاب الثروة

بينهم من خلال عدد الجمال والخيول التي يملكونها، ومن الواضح أن هذا «الذلول الأبيض» كان يساوي ثروة بلا شك. كما شاهد وليَمسون شاباً من الغزاة يجري بعد أن فقد جمله، وقد كان الشخص ذاته الذي قطع له سرجه، والذي لم يتمكن تحت وطأة المعركة والفوضى والغبار المتطاير من استعادة بندقيته. كان على ساعده الأيسر جرح سطحي، إلا أن ذلك لم يمنعه من استخدام خنجر معقوف عريض النصل بكل براعة ومهارة.

انهمك وليَمسون للحظات قصيرة مفعمة بالخطر كادت تكلفه حياته، بعد استغراقه كلياً في مطاردة الجمل الهارب، وقد غفل عن ملاحظة عدوه يشق طريقه نحوه، كانت بندقيته فارغة وقد انتزع الرصاصات الموجودة في إحدى الحزامين المربوطين بشكل متصالب على صدره. فاجأه البدوي الشاب عندما كان على وشك إعادة حشو مسدسه. خامره شعور بالخطر مع اقتراب رأس الجمل إلى زاوية رؤيته، فاستدار وشاهد ومضة الفولاذ الخاطفة فمال بسرعة عن سرجه، وما أسرع ما كان الخنجر يمس كتفه، وبجهد عضلي هائل تمكن من استعادة توازنه عندما سمع صيحة «بسم الله» ترافقت مع محاولة أخرى لتوجيه طعنة قاتلة له بحد الخنجر، لكن وليَمسون تمكن من أخذ المبادرة وتوجيه ضربة بسرعة أكبر، موجهاً عقب البندقية نحو فك مهاجمه الذي سقط متكوّماً على الأرض.

مطر تقليدي ي أواسط نجد

أحد بدو عشيرة عَنزة في بادية الشام

من خلال نظرة خاطفة تلفت يمنة ويسـرة وتأكد من عدم وجود خطر قريب من أي مـن الغزاة الآخرين المقتربيـن منه. أصبح إطلاق الرصاص متقطعـاً وخفتت أصوات الصياح وانحصر القتال في أحد الشـعاب الضيقة نحو الجنوب، وسـرعان ما أدرك بأن الغزاة الذين تبقوا على قيد الحياة كانوا ينسـحبون. منحه ذلك الوقت برهة من التفكير الهـادئ في مسـألة الغنيمة، فقـد كان خصومه من البدو الغزاة في وضـع لا يسـمح لهم بالعـودة وقد يتركون ذلك إلى وقت لاحق، وعندئذٍ شـاهد جمليـن من الإبل الممتازة وهما يعدوان بلا راكب فخاطـب نفسـه قائلاً: «ربما كانا يبحثان لهما عن مالك جديد»، وسرعان ما أمسك بأقربهما إليه دون مشقةٍ تذكر. أما الآخر، وكان ذلك الهجين الأبيض اللون «الذلول» الذي رآه سـابقاً، فكان قد ابتعد لمسـافة عنه، إلا أنه عاد أدراجه عندما رجعت مجموعة الشـيخ حسـين من مطاردة فلـول الغزاة المهزومين. رآها وليَمسـون فرصة سـانحة، وقبل أن يفكر أي مخلوق آخر في الاقتراب أمسـك بخطم الجمل، إلا أنـه أحـس بأنه قد نـال الكثير وحيث أنه لم يكن واثقاً من معرفته لنظام الشـيخ حسـين بالنسـبة للغنائم، فقد قرّر أن يعتمد على الحدّ الأقصى الذي يقول: «الحيازة هي تسـعة أعشار القانون»[1].

عانى الرّجل كثيراً من ممتلكاته الجديدة التي كانت ترفض بالطبع التعاون والانقياد معـه بسـهولة حيث أن اقتياد بعيرين صاخبين والرّكـوب المتقلقل على بعير ثالث عنيد مسـألة لا تخلو من صعوبة وخطورة، وتستنفذ مهارة وصبر أعتى راكبي الجمال مهارة وحنكة في كافة أنحاء الشرق الأوسط.

كان السـلاح الأكثـر أهميـة وفعالية للحاج الشـاب في أداء مهمته الشـاقة تلك ثقته الكبيـرة بالنفس التـي تكفي لاقتياد قطيع كامـل من الجمال بيد واحـدة فقط. لكن من المعلـوم أن مشـاكل الجمـل الجامح لا تنحصر فـي صخبه وعناده فقط بـل في أنه قد يصبح خطيراً بشـكل ظاهر، ذلك لأن فكّه مسـلح بأسنان تماثل في حجمها حجم قطع الدومينو، فضلاً عن أن عضّته القوية بأسـنان كالمنشـار مصممةٌ لجز وسـحق العشـب

(1) يقابل ذلك في المصطلح الحقوقي بالعربية: الحيازة في المنقول سندٌ في الملكيّة.

واجتراره بحركة طاحنة من جانب فمه، وما على الرجل العاقل إلا إبقاء مسافة كافية بينه وبين فم الجمل الغاضب، ونَفَسه الخبيث وعضّته المؤلمة. لقد عُرف عن عضّته أنها تسبب التهابات شديدة قد تكون مُميتة عند غياب العلاج والعناية الطبية.

وحيث أن وليَمون قد أثقل نفسه بعبء جملين إضافين، فقد أوقعه ذلك في موقف يصعب عليه الخلاص منه بسهولة، إذ أن التخلي عنهما سيتسبب في نشوب مشكلة فورية، لكن أكثر ما كان يخشاه هو فقدان ماء وجهه أمام أبناء القبيلة فيما إذا تركهما. لم يستمرّ قلقه طويلاً إذ أنه شاهد ثلاثة أو أربعة من فرسان الشيخ حسين يتقدمون صوبه ليزفّوا إليه أنباء النصر بفرح وصخب. وقد كان لمرأى ذلك التيرك المرتجل الأثر الكبير في استنهاض همّتهم وتقديم يد العون له في تولي قيادة غنيمته بكل خبرة، مثنين على الشجاعة الكبيرة التي أبداها الحاج عبد الله وعلى أفعاله في المعركة.

بعد زوال غبار المعركة تبيّن أن القتلى كانوا اثنين فقط وكانوا من الغزاة، كما أن عدد الجرحى من الجانبين كليهما كان ضئيلاً إلى حد كبير، وكذلك فقد استسلم عدد من القبيلة المعادية وفقاً للطريقة والعُرف البدوي السائد، عندما قدموا متوسلين وقائلين: «نحن بوجهكم» والتي كانت تعادل استسلاماً غير مشروط منهم، كما نجحت قلة منهم في الفرار.

تمّ نزع سلاح الأسرى وسُمح لهم بالعمل على جمع القطيع الشارد الذي ذهب إلى أماكن أكثر ارتفاعاً مطلة على الوادي. وبعد انتهاء مهمتهم تم اقتيادهم مع الجمال في موكب نصر إلى مضارب الشيخ حسين.

انضمّت النساء والأطفال إلى الرجال في المضارب مرحبين بصخب وفرح بالرجال المنتصرين، لقد انتهت عملية البحث عن الجمال الشاردة وأتت بصيد وفير بصورة لم يتوقعها أحد، وتوجه الشيخ حسين بالحمد والثناء إلى الله القدير على تلك الغنائم، ولم ينسَ الإشارة إلى شجاعته، معبراً عن فرحته العارمة بنحر الخراف وإعداد وليمة دسمة. ثم قام الشيخ ببادرة مغرقة في المثالية تدلّ على كرم حاتمي مسرف، وتتوافق مع

الأعراف البدوية غير المدوّنة التي تتعلق بالصراع والغزو، بمنح جمل للركوب وطعام كافٍ لكل من الأسرى يكفيهم عدة أيام حتى وصولهم إلى مضاربهم البعيدة، وقد تقبّل البدو الغزاة العرض السخي بكبرياء، حيث أن الحرّية كانت حقهم غير القابل للتنازل والتي لا يمكن مصادرتها لمجرد القيام بإطلاق بعض الرّصاص أو حتى محاولة نهب القليل. وبالتالي فلم يعكروا تفكيرهم بفكرة القيام برحلة شاقة مضنية على الأقدام لقطع الصحراء، وسادت روح أخوية ودّية متبادلة حيث تم في لحظات الوداع تبادل التحيّات والدّعوات الصادقة.

كما هو معلوم فقد حصل الأمر كله بمحض الصدفة، ولم تخرج القبيلة المناونة بغرض الغزو المتعمّد كما أنهم لم يكونوا يمتطون ظهور الخيل التي كانت تستخدم عادة في الغزو، لا سيما وأنها كانت أكثر قدرة على الكرّ والفر من الجمال فضلاً عن أنها أكثر سرعة، ولكن ليس لمسافات طويلة. على ما يبدو شاهد أولئك الغزاة جمال الشيخ حسين الشاردة أثناء تجوالهم في المضارب واستغلوا الفرصة للقيام بسرقة صغيرة. لم يكن أي بدوي يحترم نفسه ليلومهم على ذلك أبداً، وكذلك فإن عدم حصولهم على الجمال كان يعود إلى الظهور المفاجئ لمالكيها المسلحين تسليحاً جيداً.

جلس وليَمون حيث جُهزت الوليمة لأبناء القبيلة في أوائل الليل، بين مجموعة من أبناء الشيخ حسين، ولم يمنع الحصير المفروش هنا وهناك صلابة الأرض من الوصول إليه، فقد ضاعفت الرحلة الإضافية التي أمضاها راكباً من آلامه ومعاناته الجسدية، وتاقت نفسه بأمل الحصول على وسادة وثيرة كبيرة الحجم تفصله عن تلك الأرض الصلبة، ومع أن أي واحدة من النساء اللواتي كن يرقصن ويغنين أمام نيران المضارب، كانت ستقوم بكل سرور بتقديم بساط إضافي لإراحته، فإنه قرّر أن يكابد الحياة البدوية القاسية خاصة أمام أبناء القبيلة، ولم يرغب بأن يفقد ماء وجهه لمجرد إراحة وركيه.

كانت له مكانة وتقدير عظيمين في القبيلة، وقد نُسجت القصائد والأغاني وانتشرت بين بنات القبيلة في مدح ووصف المآثر البطولية للشيخ حسين والحاج عبد الله ومعهم

العديد من الأبطال الآخرين بالاسم.

مدّ الشيخ حسين يده في البخار المتصاعد من أحد القدور الكبيرة العامرة بالطعام الشهي واختار قطعة من أطايبها ومرّرها له، وقد كان المديح والتقدير لتصرّفه في المعركة موضوع حديث دائم مع تناول الطعام، حيث استعاد الشيخ حسين اللحظات المثيرة لذلك النزاع بكل حماس وهو يلوّح بيده ممسكاً قطعة من إلية الغنم الدّسمة ويشير بها واصفاً تفاصيل ما حدث. شارك الجميع الشيخ حسين رأيه حول الحاج الشاب عبد الله، بأنه كان تقريباً مماثلاً له من حيث الشجاعة والإقدام.

حسب الأعراف المألوفة كان تناول الطعام عند الأعراب الرُّحّل يتم في صمت وسكون، وجرت العادة أنهم يؤجلون أحاديثهم إلى أن يتحلقوا حول أكواب القهوة والنرجيلة في أيديهم، وكان ما قد جرى غير مألوف بين أتباع الشيخ حسين، إلا أن النصر على القبيلة الغازية كان حدثاً استثنائياً كذلك، وقد كان كل ذلك المديح المفرط غير مستساغ بالنسبة إلى وليَمسون كطعم عصير فجّ. مع كل ذلك فإن روح الأخوة السائدة بين أبناء الصحراء لم تترك مكاناً لأي حسد أو غلّ، فقد اتفق الجميع على قرار الشيخ بأنه يجب أن يحتفظ بالهجينين اللذين أسرهما لنفسه، الأمر الذي بثّ سعادة عظيمة في روح وليَمسون إذ أنهما كانا من نوع كرائم الذّلول، وذلك سيزيد من مكانته ويعزّز من آماله وطموحاته.

استمرّت الأفراح والاحتفالات حتى وقت متأخر لتلك الليلة، وتكرّر ذكر إنجازات ومفاخر اليوم حتى أصبح الأمر مملاً ويبعث على السأم، وفي آخر المطاف تمكّن وليَمسون من الانسلال أثناء توزيع القهوة منسحباً دون أن يثير الانتباه، وكل ما رغب فيه تلك اللحظة هو الاستلقاء بجسده المتعب والحصول على قسط من النوم، لكن الشيخ حسين تبعه واضعاً ذراعه حول كتفيه قائلاً: «لدي أمر سأعرضه عليك يا ولدي، فهل ستستمع إلي وتتبع نصيحتي؟». لم يعلق وليَمسون الشاب بكلمة، لكن كم كان انتظاره سيطول حتى الغد لمعرفة ذلك الأمر، فأكله الفضول، ولم يتركه الشيخ حسين بل تقدّمه إلى خيمته ودعاه إلى الجلوس.

كان هناك بعض البسط وجلود ابن آوى مفروشة هنا وهناك. سحب الشيخ حسين أكبر سجادة فارسية موجودة وفرشها خارج الخيمة وجلس، وكذلك جلس وليَمسون وهو يتمتم ببضع كلمات بالإنكليزية غير متناسبة مع لقب الحاج الذي يحمله. لقد حرّكت أيام الركوب الطويلة على ظهر الخيول والتي تبعها يوم آخر من ركوب الجمال، في نفسه كرهاً وعدم تقبّل للعادة البدوية في الجلوس على الأرض، وسرعان ما أحضر أحد العبيد من السود نرجيلة وتناوبا على نفث دخانها لبضع دقائق.

ربما كان وليَمسون، لولا تعبه وإنهاكه الجسدي، سيكون أكثر سعادة واستمتاعاً بنهاية يوم حافل. فقد برزت نجوم بيضاء أضاءت سماء الصحراء، واشتعلت نيران المضارب على مرمى حجر من خيمة الشيخ حسين لينعكس وهجها المتراقص على وجوه نساء كن يتناولن لقيمات من بقايا الوليمة. تركت الخيام السود الموشّحة بلون برتقالي من جرّاء نيران المعسكر راحة كبيرة في النفس، حيث كانت تمرّ بين الفينة والأخرى أشكال أشخاص غير واضحة بينها، وكان هناك رجال يخرجون من الخيمة الكبيرة يتسكعون حول أوعية القهوة، وارتفعت أغنية شجيّة زاد من غرابتها وحزنها رَجع أصداء بعيدة لأصوات عواء ابن آوى.

فجأة، صفّق الشيخ حسين بيديه ودعا امرأة بالاسم، قاوم وليَمسون تثاؤباً سريعاً وسمعه يطلب من المرأة إحضار ابنتيه الاثنتين، وعرف عندئذٍ أن جلسته لن تكون قصيرة.

وصلت الفتاتان البدويتان وألقتا التحية على والدهما و«الحاج» باحترام دون وجل، لم تكونا تضعان خماراً مثل بنات المدينة، وكان يميزهما جاذبية فطرية مع رشاقة على الرغم من امتلاء جسميهما. أومأ الشيخ حسين فجثت البنتان بجانبه فسمع رنين الخلاخيل في كاحليهما وجلستا على عقبيهما. كان على وليَمسون أن يخوض مجدداً عناء وإحراج سماع أشعار تعدد مآثره وأمجاده تتكرّر مرة أخرى، ليقطع الشيخ حسين السّرد الشعري بصوته بطريقة تناسبت مع اللحن والأسلوب، وتقلّب «البطل» بانزعاج على السجادة، تحت أنظار العيون السود للبنتين اللتين كانتا تراقبانه بابتسام،

وعندها أشار الشيخ حسين بحركةٍ سريعةٍ نحوه مختتماً قوله بتلك الكلمات: «والله إنه محارب كبير، مع أن قفاه ملتهب، وأني لأرجو أن تكون إحداكما زوجة له».

قد تفعل ليالي الصحراء فعلها في إخراج إبداعات كتّاب القصص والمشاهد العاطفية، ولكن ملاحظة الشيخ صدمت وليَمسون الشاب باعتبارها مقدمة شديدة الغرابة لتودّد ناجح. ضحكت الفتاتان، وما أشدّ ما كان فرحه وسروره لسخريتهما من اقتراح والدهما.

لقد عُرف عن قبيلة الظفير هذه وعن الكثير من بدو جزيرة العرب الآخرين، بأن المرأة تتمتع بحقوق وحرية تضاهي ما للرجل، ولا يستطيع الزائر الغريب أن يحكم على ذلك بمجرد اطلاعه على المظاهر الخارجية، ومن الضروري لكي نحكم بشكل صحيح وعادل أن نمتلك معرفة عميقة بعقلية الأنثى البدوية، فالأعراف تفرض ألا تتناول النساء الطعام مع الرجال، وكذلك تمنع الاختلاط السافر بينهما، إلا أن الأمر الذي لا يدركه الغربيون في العادة هو أن النساء البدويات لا يرغبن بذلك، فالمرأة البدوية تسعد بصحبة زوجها أو أخيها أو أي من أقربائها، وهي في أغلب الأحيان تجد سعادتها أو راحتها على الأقل بين بنات جنسها ومع أطفال المضارب.

وكما هو الحال مع نساء القبيلة فقد امتلكت بنات الشيخ حسين الحرية التامة في أن يقرّرن بأنفسهن موضوع زواجهن، ومع وجود نسبة قليلة من نساء القبيلة اللواتي تزوجن من خارج القبيلة، فقد كان أمراً استثنائياً أن تتزوج المرأة القبلية رجلاً غريباً، إذ أن ذلك الزواج كان ليستثير أكثر مشاعر العداوة بين البدو، وهكذا فإن أعظم إطراء قد حظي به وليَمسون طوال فترة اختلاطه المبكرة مع البدو، كان بلا منازع عرض الشيخ حسين الجاد في اعتباره صهراً له.

مع أن الزواج من ضمن القبيلة كان أحد الأشياء الخارجة عن اعتبارات وطموحات الحاج الشاب وليَمسون، لا سيما وأن كونه مسلماً كان يخوّله الحصول على أربع زوجات عند رغبته بذلك فيما لو استطاع أن ينوء بتلك الرفاهية، لكن لو كان الخيار بيده لاختار الحصول على أربعة من الأباعر أو الخيول، إذ أن تلك المقتنيات ستسمح

له بتحقيق طموحه بالسفر والتجوّل بحرية في أرجاء جزيرة العرب عبر الأردن وصولاً إلى برّ الشام، لبيع وشراء الجمال والخيول دون أن يكون مرتبطاً بأي كان، وحتى لو أنه تزوج امرأة واحدة فقد كانت ستشجعه على الزواج بأخرى كي تشاطرها أعباء الأولاد والمساعدة في واجبات المضارب اليومية.

لحسن الحظ، لم يكن يتوجب عليه رفض أيّ من بنتي الشيخ حسين، وذلك بعدما طلب بكل لباقة مهلة للتفكير، وقد كان للبنتين كليهما مطامح أخرى حيث عبّرتا عن رأيهما هذا بوضوح وصراحة إلى والدهما.

لم يعد هنالك شيء يقال بعد ذلك فقد استطاع الحاج الشاب وليَمسون أن يتنفس الصعداء مجدداً، ليتمكن من توجيه أفكاره بذهن صافٍ للتعامل مع وضعه الجديد وجمع ثروة أكبر من الحلال.

* * *

الفصل الثامن عشر

جَمالٌ خطير

منحت الإقامة الطويلة في خيام قبيلة الظفير وليَمسون أساساً مفيداً من التجارب من أجل دوره كتاجر مستقل في المستقبل. لا يعني ذلك أنه قد شهد كماً كبيراً من البيع الفعلي والشراء والمقايضة. كان البدو في تجوالهم بحثاً عن مراع جديدة يقومون بالقليل من ذلك بين الفينة والأخرى، وكملاذ أخير كما يبدو. لم يبدِ الشباب أي اكتراث لمّا كانت مثل هذه الصفقات تبرم. كان الغزو في تصوّرهم صنعة الرجال بحق. لم يكن يعني متعة سلب المؤن فقط بل حمل في طياته إمكانية مكسب أعظم. إضافة إلى ذلك، لقد أغار عليهم رجال القبائل الآخرين ونهبوا ماشيتهم، فلِم لا يغنمون إبل اللصوص وخيولهم؟

لم يكن لديهم سوى نزاع أو نزاعين بين أيديهم ليبقوا بعيدين عن الملل. وكان ذلك أمراً لا نهاية له. فقدموا تصويراً مصغراً عن حروب تولد حروباً. فما إن يُشبع شرفهم بقليل من سفك الدماء حتى يبدأ الخصوم بالتخطيط للانتقام كيلا تبقى وجوههم مسودّة في نظر عالمهم الصّحراوي.

هناك نقطة جيدة من النوع السلبي حول حرب الصحراء الضروس هذه إذ كانت الإصابات، وعلى نحو شبه ثابت، طفيفة إلى حد بعيد. فلو قُتل رجل أو رجلان أو جُرحا فقط، لكان ذلك بشكل عام مرضياً لأحد الطرفين. كان الاشتباك يُفصل دون سفك دماء لاحق. ولو كان الحصول على الأسلاب ممكناً دون اللجوء للقتل لكان ذلك أفضل بكثير، إلا إذا كان الانتقام دافعاً محرضاً أيضاً.

أصبح الحاج وليَمسـون حكماً، معنياً بالنزاعات والغارات وشـؤون أخرى للقبيلة التي تبنّته نزولاً عند طلبه. إنه فارس شديد المراس ورام بارع، لقد برهن على أنه ذُخر لأصدقائه واستفادوا مادياً بلا شك من جهوده. إن امتطاء صهوة فرسه للغزو مع محاربي الشيخ حسين قد وضع الأساس لشهرته في الصّحارى العربية، وبثت مآثره اللاحقة على مر السنين سمعته كشخصية أسطورية بين العرب في الشرق الأوسط. كل ما تعلّمه من التعامل مع الحصان والبندقية في قتال الصحراء، تم تسديده بما علّم أصدقاءه البدو من فنون الحرب ووضع الخطط والنظم. كانت خلفيته الغربية إحدى مزاياه، وكذلك المعرفة المكتسبة من العالم الخارجي الذي كان يُعدّ كتاباً مغلقاً أمام البدو.

كانت لديه نزوع لأنواع الحروب التي بدأت تخبو عقب حرب البوير. هذا الأمر، مع سمات قيادية ملحوظة، كان من الممكن أن يجعله متقدماً في الحقل العسكري، لولا بغضه لأي شيء له كُنه نظام صارم. لقد قدّم البرهان على موهبته في هذا الاتجاه بعد سنوات في بلاد ما بين النهرين أثناء قتال شديد ضد الأتراك. في حين أنه قاتل بحماس، فهو لم يتفاخر كثيراً بمآثره الحربية. في وقت لاحق من الحياة، بعد أن ليّنته السنون والدراسات الدينية الأكثر هدوءاً، أصبح الحاج يميل إلى إسدال ستار على مشاهد غارات الصحراء وأظهر اهتماماً تواقاً بالتجارة المشروعة التي شردت به بعيداً واختبرت حنكته في الأعمال.

قبل مضي وقت طويل مع البدو، أصبح مالكاً لفرس عربي مطهم، وربما يكون قد وُهب له. وثمّة مكسب آخر كان مكلاّ Makalla، وهو عبد نوبي. في إحدى المناسبات، عندما كانت القبيلة قد ضربت خيامها على مسيرة يومين غرب الكويت، انطلق وليَمسون مع اثنين من أبناء الشيخ إلى مكان على بعد بضعة أميال من الميناء فقط حيث كان الشيخ يوسف الإبراهيم وأصحابه وأتباعه يخيمون. وكان في الحشد ثريّ من تجار الكويت، صديق للشيخين المقتولين[1]، أعطاه العبد النوبي تقديراً منه لمرافقته لبعض من أقربائهم إلى الزُّبير بعد وصول الشيخ مُبارك إلى السلطة.

---

(1) يعني الشيخين جرّاح ومحمّد من آل الصّباح، اللذين قتلا على يد الشيخ مبارك وابنه جابر.

كان النوبي قوي البنية متمتعاً بالصحة وذا مزاج مرح. تم اشتقاق اسمه من حقيقة أن خدمة سنواته الأولى كانت في ميناء المُكلاّ الجنوبي[1]. أعطت هذه الهدية القيّمة الحاج وليَمون الفرصة لكسب استحسان أكثر في نظر الله بإعتاقه لعبده هذا. بعد أن شاور أصدقاءه العرب، أخبر مكلاّ أنه بإمكانه الحصول على حريته وأن الشيخ يوسف يمكن أن يرتب عبوره بالدّاو إلى عدن أو سواكن أو زنجبار أو أي من محطات الموانى. رفض النوبي العرض، فقد كان في الحقيقة أفضل حالاً من كثير من العرب، مالكاً لحصان جيد وبندقية وخنجر رُصّع مقبضه بالأحجار الكريمة وحزام مزين بالذهب. قبل أن يقبل وليَمون مسؤولية الملكية، سأل مكلاّ إذا كان يوافق على الترتيبات. عبّر مكلاّ عن نفسه بالقبول وأقسم أن يخلص في خدمته. وبغير هذه الاتفاقية ما كان ليتم نقل الملكية. بشكل عرضي، كان من النادر أن يتم حتى البيع إلا إذا أفاد العبد عن مشيئته بخدمة السيد الجديد المحتمل. إذ ليس لأي مُشترٍ الرغبة بشراء عبد كاره من أي من الجنسين، سواء قصد به العمل أو للحريم.

كان ذلك في وقت الربيع بعد صيف حار مع البدو وشتاء أكثر لطفاً تمت تمضيته بشكل رئيسي بين المراعي الخضراء. قبل أن يقفلوا عائدين إلى الخيام، تمتّع هو وابنا حسين برحلة صيد بالصقور لعدة أيام، وهي رياضة شائعة في شتى بلدان الخليج العربي. نشأ اهتمامه بها بعد مدة قصيرة من وصوله إلى جزيرة العرب؛ فقد تعلم كل مراحل الصيد بالطير من صيد الصقر وتدريبه واستخدام الأصناف المتنوعة في الرياضة. لقد كانت رياضة تُمارس على نطاق واسع في أوساط البدو أيضاً، وقبل أن يغادر مضارب يوسف ابتاع بمبلغ زهيد صقراً من نوع الباز، أحد أكبر وأعتى الطيور قاطبة، وقد يُدفع أحياناً من أجل اقتنائه لغاية مئة ليرة تركية. كذلك كانت الصقور من نوع و«الطير الحُرّ» *Hur* مفضلة جداً، وتُصنّف أنواعها مثل الوكاري *Wikuri* والجبلي *Jabali* والبحري *Bahri* كطيور سريعة جسورة تكلف فقط حوالي خمس إلى ست

---

(1) يعني بالجنوبي كونه في اليَمَن، والمُكلاّ على خليج عَدَن تُعدّ ميناء وعاصمة إقليم حضرموت. راجع حولها كتاب الرحّالة البريطانية فريا ستارك: «البوابات الجنوبيّة لجزيرة العرب، رحلة إلى حضرموت»، وهو من الكتب الشائقة في هذه السلسلة.

ليرات تركية. ولما كان وليَمسون قد ابتاع الطائر الثمين بهذا الثمن الرخيص، لم يُقل له الكثير لثنيه عن أخذه. لكنه كان يعرف أن الباز لم يكن مفضلاً في بلاد ما بين النهرين الدنيا، أو من قبل بدو جزيرة العرب بسبب العناية الفائقة التي يجب توليتها لهذا الطائر وخاصة خلال موسم سقوط ريشه.

معزولاً تماماً عما يدعوه الغرب بالحضارة، نبذ وليَمسون بعض أفكاره السابقة وتولّى وجهة نظر البدوي إلى جانب تبني العادات البدوية. وقد أبدى الشيخ يوسف وأهل الكويت الآخرون اهتماماً عظيماً به. وأكثر من مرة أثاروا مسألة اتخاذه زوجة من بين الفتيات العربيات، حتى الأمير الحاج نصحه بتبني هذا المنهج. غير أن حياته بالنسبة له كانت حافلة وممتعة جداً حتى يضع على عنقه رسناً - لأنه كذلك كان ينظر إلى الزواج آنئذٍ. قال في خيمة يوسف في إحدى الأمسيات: «ألا يساوي يوم صيد بالصقور الكثير من النساء يا شيخ؟».. ضحكوا، ووافقه الساخرون تماماً. «سوف يدركك النصيب، يا حاج عبد الله»، مازحه الشيخ يوسف قائلاً: «الشاب الثري الذي يتحدّث بتجاهل عن الزواج، عادة ما ينتهي به الأمر بأربع زوجات».

لم يكن الشاب وليَمسون ثرياً. وأيّ واحد من تجار الكويت ممن يستمتعون بالربيع في الصحراء مع جماعة يوسف كان بإمكانه شراء سائر ممتلكاته الدنيوية دون أن يشعر بمثقال ذرة أنّ ثروته قلّت عن ذي قبل. لكنه كان غنياً نسبياً في مجتمع بدوي حيث كان الشيخ وحده موسراً، بمعنى أنه يمتلك قطعاناً وأسراباً ضخمة.

بالعودة مع قوم الظفير بعد زيارته، كان لدى وليَمسون سبب ليهنئ نفسه على تقدّم لا بأس به في حياته بالتبني. فلقد امتلك حصاناً عربياً رائعاً وثلاثة هجن ركوب سريعة وست جمال تحميل - حصّته من غارات ناجحة - وعبداً نوبياً قوياً وبازاً ثميناً. ليس بالشيء السيء بالنسبة إلى رجل شاب في العشرينات من عمره! وربما ليس هناك بريطاني أو أميركي آخر في العالم قادر على التباهي بممتلكات حيّة مشابهة.

في بعض الأحيان كان يتحرق شوقاً إلى تغيير النظام الغذائي من طبق الأرز واللحم والتوابل ولحم الضأن والتمور ولبن الشاة الرائب ولبن النوق. وأثناء مكوث البدو في

مضاربهم على بعد مسيرة عدة أيام من الكويت، خطر على بال وليمسون بأن يرسل عبده إلى البلدة ليتزود بالمؤن. كتب الطلب إلى تاجر بالعربية، ثم أرسل مكلاً على ظهر أحد جمال الركوب. بعد أن ذهب النوبي، توقف بعض الرّعيان الذين يقصدون الزُّبير للاستراحة في الخيام وذكروا أنهم قد أقاموا الليلة الماضية عند الشيخ حفيظ Hafiz من شيوخ العُجمان على بعد بضع أميال من الرّقعي[1] Rika في وادي الرّمّة. أثارت الأخبار اهتمام وليمسون إذ أنه قد اجتمع بالشيخ وأبنائه في الزُّبير قبل الحجّ وكانت له ذكريات لطيفة بصحبتهم. علم من الرعيان أنه لم يكن لدى الشيخ سوى أبنائه وبضع من اللصيقين به في المخيم الصغير حيث عرضوا علينا البقاء لعدة أيام. وكيف لهم أن ينسوا؟ لقد كانت ابنتاه العازبتان هناك. هل كان هناك نقص معين بين شباب القبيلة بحيث أن مثل هذا الجمال لم يُثر أي رغبة في السعادة الزوجية؟

فكّر وليمسون بزيارة المخيم. عرف أن الشيخ سيرحّب به، ومن الممكن أنه قد وقع تحت سطوة وصف الرّعيان لجمال الفتاتين ومحاسنهما. في كثير من المناسبات كان يجوب الصحراء وحده، وهنا كان عُذر جيد لنزهة من أفضل ما يحب.

في صباح اليوم التالي، أعلن عن نيّته، وطلب من أحد أبناء حسين إعلام مكلاً عن المكان الذي ذهب إليه لدى عودة العبد من الكويت. وضع بعض التمر المكبوس وجبن الغنم في حقيبة سرجه، ثم تقلّد بندقيته على كتفه، وامتطى صهوة جواده وانطلق يعدو باتجاه الجنوب على أديم الصحراء الراسخة. كانت المسافة إلى المخيّم بالقرب من الرّقعي Rika أكثر من أربعين كيلومتراً، لكنه لم يكن يبالي بالتنقل ركوباً تلك المسافة إلى مخيم بدوي آخر. بلغة السفر في الصحراء كان ذلك يعدل زيارة جيرانك.

كان اليوم ذا إشراق لازوردي. وما إن صار المخيم بعيداً وراء ظهره، أخذ الحاج يتمتّع بروعة الخلوة التي لا يعكّر صفوها شائبة. ارتقت روحه بأجنحة الباز؛ وكأن الله قد لمَّع

---

(1) هكذا ترد التسمية في الأصل: Rika، فماذا يعني بها؟ المعروف أن أهم المدن التي تقع على وادي الرّمّ - الباطن: بُريدة، عُنيزة، الرّس، البكيريّة، البدائع، الخبراء، رياض الخبراء، حفر الباطن. فهل يقصد بها الرّقعي التابعة لحفر الباطن، أم الرّكايا؟

السماء وجدّد الصحراء حتى يفتنه خصوصاً. مسحت الشمس بلطف على وجهه الأسمر القاتم بدفء متقد تخلل سائر كيانه مستفزاً توهجاً استجاب من صميم لبّ عظامه. وساعد النسيم العليل على جلاء ذهنه من المتاعب وخيبات الأمل الناجمة عن الحياة اليومية في مجتمع عربي. لم يكن لكل ذهب كاليفورنيا أن يشتري له سعادة أكبر من التي وجدها الشاب وليَمسون في مثل ذلك اليوم وهو يجوب عالماً منفرداً بنفسه.

لو غمَّ تطلعه للحظة، كان ذلك لمجرد خطرة عابرة عن أخيه والتعساء المساكين الآخرين المكبلين إلى سجلات في مكاتب عفنة. وبالنظر إليه على سرج فرسه العربي في الصحراء المترامية الأطراف، كان ذلك ليبدو قدراً أسوأ من فترة أسره في سجن مانيلا. لكن تلك الأيام كانت بالنسبة إليه تتويجاً للحرية والاستقلال المحرّر من الأغلال والذي جناه بتجنّب ممارسات جمع الأموال بالطرق الملتوية لمواطنيه العاديين.

قبل ساعة من منتصف النهار، أتى إلى بئر مجهزة بالأداة الخشبية البدائية المعتادة لسحب الماء. كانت الأرض الطرية قد تثلّمتها آثار أقدام منذ آخر وابل مطر، وهو مؤشر واضح أن جماعة من البدو وقطيعاً صغيراً من الإبل قد مرّوا من ذاك الطريق. قام وليَمسون بسقاية حصانه وربطه، ثم استراح لبرهة قصيرة في الظل اليسير تحت شجرة تين صغيرة. بعدئذٍ، وبعد أن قام بالوضوء، بسط سجادة الصلاة وولّى وجهه شطر مكّة لأداء صلاة الظهر. بعد وجبة خفيفة وقيلولة، تابع سيره باتجاه المكان قرب الرّقعي Rika حيث قيل إن الشيخ حفيظ كان هناك.

لقد أصبح مكاناً مألوفاً لوليَمسون في تجواله. الفارق الوحيد الملحوظ بينه وبين الكثير من الواحات الصغيرة الأخرى كان حوضاً صخرياً اشتهر بأن بناءه تمّ على نفقة زبيدة، زوجة هارون الرشيد. من الجلي أن هذه الجميلة الشرقية الأسطورية كان لها ولع بالسفر المضني حول العراق وجزيرة العرب ومعها مالج وملاط[1]، نوع من الهواية الملكية مثل تلك التي كانت عند الملكة بيس Bess الطيبة التي أمضت معظم

(1) يعني أدوات البناء، كناية عن الأحواض والطرقات التي شيّدت على طريق الحج من بغداد إلى مكّة المكرّمة على نفقة زبيدة، الزوجة الأثيرة للخليفة العبّاسي هارون الرّشيد.

أوقـات اسـتلقائها نائمة في أسـرّة مختلفة وذلـك للحكم على ادّعـاءات أُدلي بها فيما بعـد. لـم يكن للحوض الذي نشـده وليَمســون أيّـة مزيّة فنيـة، لكن يمكن اسـتخدامه كمعلـف للحصـان أو جـرن للاغتســال عندما يعبـأ من بئر مجـاور. نمت حـول تلك المنطقة بضع شـجرات وآجام وشـجيرات شوكية، وبينما كان يعدو باتجاه هذه الواحة رأى الحصـرة *hezra* منفردة، وهي خيمة محمولة سـهلة النصب، قد ضُربت بين تلك الخضرة المتناثرة. صهل حصـانه وأسـرع خطاه فأجرسـت حمحمة مجيبة من المخيم الصغير. جرى شخصان رشيقان متشحان بالسـواد من ظل الخيـمة، وبعد أن تعرّفا على الضيـف، اندفعا إلى الأمام وقد علت منهما صيحات الترحيب. لقد كانتا ابنتي الشـيخ وقد تضاعفت سعادتهما بصحبة محارب شاب حيث أن أباهما وإخوتهما وأصحابهم قد ذهبوا ومن غير المحتمل عودتهم حتى الغد.

احتار وليَمسـون بادئ ذي بدء فيما إذا كان ذلك من حسـن حظه أم سوئه. لم يفاجئه أن تُترك الفتاتان بينما يقوم الرجال بزيارة مخيم آخر. إن وضع النسـاء بين القبائل العربية المرتحلة هو أن الإغواء نادر، والاغتصاب غير معروف على الإطلاق تقريباً. ربما يأتي رجـال قبائل متجوّلـون إلى الواحة ولكنهم مؤكداً سـيعاملون البنتين بكل احترام وهم مطمئنون أن بناتهم كن ليتلقين الاحترام ذاته. وكانت القوانين غير المكتوبة بخصوص السـلوك والجـزاء كافية لردع الفتيـات البدويات عن ارتكاب أيّة غلطـة. فجدير بالفتاة أن تفكـر مرات عديـدة أكثر من اثنتين حول ارتكاب زلة أخلاقيـة، وهي تعلم تماماً أنه إذا افتضـح أمرها، سـيقوم أبوها أو أحد إخوتها بحزّ عنقها ليـستردّ شـرف العائلة. بيد أن هنـاك أوقاتـاً وظروفـاً لا يمكن فيها منع أقـوى النزوات في الطبيعـة بالرغم من كل العواقب الممكنة. إنّ الحرام أمر نادر تماماً بين البدو؛ أما الحب فـشائع جداً.

بعـد أن سـقى وليَمســون حصانه وأطعمه، وجـد الوقت للتعرّف علـى الفتاتين عن كثـب. لـم يكن وصف الراعـي لهما مبالغاً فيه. حتى بالنســبة إلى شـاب تأصلت عنده المعايير الغربية للجمال، كانتا بشكل جازم فاتنتين. كانت عيونهما السوداء مثيرة، وزاد الكحـل الغنج في لمحاتهما. ارتدت كل فتاة عدّة أسـاور مناسـبة، بمـا فيها خلخال له

سبع فيروزات – سبعة هو الرقم الجالب الحظ، والأزرق هو اللون الجالب للحظ. شرعت كلتاهما بإكرام الضيف بأسلوب مشايخي، وانكبّ وليَمسون، بعد أن شطف يديه بماء صبّه إحدى الفتاتين من جرّة فخارية، على تناول وجبة مُترفة قامتا بإعدادها سوية.

عقب انتهاء الوجبة وصلاة المغرب، جلسوا بجانب بئر زبيدة في حين بدأت النجوم تخترق السماء البنفسجية فوق الرؤوس قبل تلاشي اللون القرنفلي بعد توهّج الغروب في الغرب. انسجمت هذه التجربة كثيراً مع ميول الشاب وليَمسون. كان حدثاً شائعاً أن تشرب القهوة وتتسامر مع الرجال. لكن أن تتكئ باسترخاء في واحة ساحرة مع حسناوين بدويتين صبيّتين كان إلى حدّ ما مذاقاً مسبقاً لما جاء في وصف جنان الفردوس. لم تكن الفتاتان أقل افتتاناً بصحبته. هذا الحاج الشاب الفرنجي قد رأى عجائب كان يُحكى عنها في المقعد *mukhaad* والحريم *hareem* بشك وريبة أكثر من أي قصة جني ذي قدم بسبع أصابع. وتبعاً لذلك كان من عظيم الحبور أن تسمع ابنتا الشيخ عن الحياة الغربية في البلاد الصناعية عبر البحار كما أن يستمع الحاج الشاب وليَمسون إلى أساطير في بلدٍ لم يكن فيه الجن الصّغار والعفاريت والغيلان بالنسبة لمعظم السكان أقلّ حقيقة من ابن آوى الصحراء.

نعم، كان أمراً جيداً أن يجلس تحت النجوم البيضاء أمام الجذوات الخامدة لنار الخيام، مصغياً إلى اللهجة العربية الساحرة الصادرة عن الحسناوين البدويتين وحركة الأحصنة تحت الأشجار. كانت الأصوات تروي قصص الحب الطريفة والغزو مما تحول إلى تهويمة وجد وليَمسون صعوبة في مقاومتها. ورويداً تلاشت من ذهنه خاطرة أنه يجب عليه أن يروح عائداً إلى خيام حسين في البرودة النسبية من الليل. بيد أنه عرف أنه ليس من الحكمة تمضية الليلة بجانب بئر زبيدة في غياب الشيخ حفيظ وأبنائه. كانت حالة يمكن أن ينشأ عنها سوء فهم وربما عواقب وخيمة إذا افتُضح هذا الأمر الأرعن. لم تكن طبيعة البدوي من النوع الذي يتجاوز عن تعرّضه للإساءة دون عقاب. أن يمضي شاب ليلته مع فتاتين فاتنتين في غياب أقربائهما كان ذلك بذرة خصبة

للاغتيـال والنزاعات. ومع تزايد النعاس، أحس وليَمسـون بحكمة ضرورة تجنّب كل مظاهر الشر، لكنه كان في غاية الاسترخاء ليحرّك ساكناً. كان سرجه على الأرض وقد أسند رأسه عليه. سادت السكينة في عقله، فيما دندن صوت رخيم بالعربية وبدا كأنه يخبو شيئاً فشيئاً في الفضاء.

عندما أفاق وليَمسون كان ذلك مع إحساس غامض ينذر بالشرّ. كان القمر هلالاً في سماء مرصعة بالنجوم وغمر الواحة ضوء باهت من الطيف. كانت البنتان البدويتان نائمتين إلى جانبه. أدرك هذا بشكل شبه فوري بالرغم من أن عينيه المثقلتين بالنوم تركزت على أخيلة الأشجار الواهنة على الأرض بالقرب من قدميه. بزغت شعلة بيضاء من الظلال، كأن نجلاً للهلال قد استهلّ إلى الأرض قربه. حثته هذه الظاهرة إلى المزيد من اليقظة، ثم تجسّدت في سيف معقوف من الفولاذ الصقيول، أطلّ خلفه شكل يكسوه ثوب نظر إليه في صمت مطبق.

نهض الشاب وليَمسون بنفسه على مرفقيه وقد اضطرب كله من وعيد النصل المجرّد الذي كان يدقق فيه. أضحى عقله نقياً صافياً. علِم أن هذا الشبح الليلي ليس إلا الزعيم البدوي؛ بكل تأكيد، الرجل الذي كان يتمنّى ألا يراه إلا في وضح النهار. كان الرّجل أبا الفتاتين، المحارب ذا اللحية السوداء، الذي اكتشف ما يمكن تأويله وضعاً محرجاً ومعرّضاً للفضيحة لأقصى حدّ. جف اللعاب في فم وليَمسون. كان عقله يتعذب في ترقب قلق لنوايا الشيخ، لكنه استطاع أن يضبط صوته وأن يلقي بتحية بدت له رسمية على نحو غير مألوف لأذنيه. أجاب الشيخ حفيظ بإيجاز وبشكل رسمي مقتضب أعطى وليَمسون انطباعاً بأن هبوطاً مفاجئاً في الحرارة قد حلّ بالواحة.

لجأ الشيخ إلى الصمت، ثم قام بإيقاظ ابنتيه بركلهما بقدمه الضخمة المنتعلة. كانتا أكثر فزعاً مما كان عليه الحاج وليَمسون، لكنهما تظاهرتا بالسرور للمفاجأة من عودة أبيهما غير المتوقعة. أمر الشيخ بفظاظة: «أوقدا النار وحضّرا القهوة». لكن لم تفلح النار ولا القهوة بسحب البرودة من الجو. عندما آوت الفتاتان إلى الحصرة *hezra*، جلس الشيخ حفيظ يدخّن النرجيلة، وعيناه السوداوان تنظران بكَمَد إلى الضيف القاعد على

الأرض مقابله. باختصار وجهاً لوجه، مفتقراً للمودة المعتادة بين الضيف والمضيف في مخيم بدوي، وبالعودة إلى الواقعة بعد مدّة طالت، ألقى الحاج وليَمسون تعليقاً بريطانياً تقليدياً بقوله: «كان هناك نوع من التحفّظ بيننا».

على الأقل لبعض الوقت، مازال هناك شيء من الخطر في حين أطال الشيخ التفكير في المسألة. في مرة، أثناء شرب القهوة، استهلّ خنجره المعقوف من غمده بذهن شارد وأجرى إبهامه على النصل. لم يدرِ وليَمسون ما كان يجول في ذهنه بالضبط، فقرّر أن تذكيره بكونه ضيفاً لديه لن يذهب عبثاً. فالضيف في القوانين غير المكتوبة له حقوق وامتيازات ومسؤوليات محدّدة وسلامته مضمونة من المضيف باستثناء حالات نادرة. أخيراً، أراح الشيخ حفيظ ذهنه بهذه الكلمات: «يا بني، لا أحمل شيئا ضدك. لو أن عقلي نزع في الاتجاه الآخر، لكان رأسك ورأس ابنتي هاتين يرقدان هناك على الرّمال».

تحت ضوء شمس صباح اليوم التالي، بدا الأمر لا أكثر من حلم مزعج. مع ذلك احتفظ الشاب وليَمسون بانطباع أنه قد تودّد إلى الموت بالبقاء في المخيم مع الفتاتين بغياب أهلهما من الرجال. لقد كان على أية حال إنذاراً ناجعاً بخصوص سلوكه المستقبلي. ليس كل البدو يفكرون بجدّية عندما تحوم الوساوس والشكوك. في الصحراء العربية، كما في كل مكان من العالم، هناك ميل للتصرف بردّة فعل انفعالية ثم التفكير لاحقاً.

ساعدت عودة الإخوة وأصدقائهم على إعادة روح الدّعابة إلى المحيط، وبقي وليَمسون ضيفاً حتى اليوم التالي. قبل أن يغادر، قام الشيخ حفيظ بترميم ما أفسد بقوله له: «بنيّ الحاج عبد الله، إذا طرأ في بالك أن تبدّل مضاربك، فأنت مرحب بك بين العُجمان. بلاؤك في الغزو معروف تماماً، وستجد نفوساً ذات قرابة بين محاربيّ الشباب. لكن إذا كان من الجيد أن تُغِير فإنه من الأفضل أن يكون لك زوجة تنتظر عودتك. أليست ابنتاي سارّتين لنظرك؟ خذ واحدة زوجة لك، هذه أو تلك لا فرق».

أصبحت العروض من هذا النوع مسبّبة للإحراج. مع ذلك كان وليَمسون، رغم أنّ

الإغـراء لـم يكـن بالقليـل، عازماً على البقاء حـرّاً من أي ارتبـاط. وإنّ قوله بأنه سـيفكر بالعـروض المقدّمـة، وضّـح بلباقـة حياء أنـه جدير بالاقتـران من أي شـابة عربيـة بهذا الجمال والوقار والتربية.

بعـد عودته إلى أهل بني حسـين من قبيلة الظفير، فكر وليَمسـون جديـاً بأن يتجوّل بصفة تاجر مسـتقلّ للخيول والإبل. منحه التجوال في الصحراء مع رجال القبائل متعة عظيمـة، ولـم يكن علـى الإطلاق كارهاً لأداء نصيبه من القتال عندما تتطلب المناسـبة ذلك. بيد أنه عموماً لم يكن مرضياً أن يشـارك في كل غارة ونزاع قبلي سـواء تعاطف مـع الحدث أم لا. من ناحية أخرى، خـلال تجواله مع القبيلة، تعرّف إلى عدد كبير من البلاد بين أواسـط جزيرة العرب وملتقى دجلة مع الفرات في بلاد ما بين النهرين. قام بزيـارة شـيوخ قبائل أخرى وحلّ بينهم، واكتسـب معرفة بالعـادات والأعراف البدوية التي كان لها مزيّة عظيمة في مستقبله.

لمّا كان حزُّ الرقبة جزاء محتملاً للخيانة، جعلت النسـاء البدويات العفّة ديدنهن. لكن ذلك لا يقتضي ضمناً أن أفكارهن عن الحشـمة تتطابق مع المعايير الغربية. في إحدى المناسـبات بالقرب من البصرة، رأى الحاج وليَمسـون توضيحاً للمفاهيم الشرقية عن الحشـمة والتي بدت مثيرة للفضول حينها. فبينما كان يمشـي مع السـيّد أحمد النَّقيب واثنيـن أو ثلاثة آخرين في محيط البلدة، رأى فتاة بدوية تجلس في الظل وظهرها على جدار من الطوب. نظرت الفتاة إلى الأعلى بسـرعة وقدّرت أن بعض الرجال موظفون وتجار بارزون. كانت غريزة الحشـمة عندها أن تخمر وجهها. ففعلت ذلك برفع طرف ثوبها مشكلة خماراً مرتجلاً، حاجبة وجهها لكن كاشفة عن جزء من أدنى ساقيها يُستر عادة أمام العامة.

أعطتـه جولاته مع بني حسـين تبصـراً مفيداً بالقوانيـن غير المكتوبة فـي الصحراء. في الواقـع، كانـت معرفته لتلـك ولأعراف القبائـل البدوية في وسـط جزيرة العـرب جوهرية لصالحه الخاص. وعلم مثلاً أنه إذا حلّ الرجل ضـيفاً أو متاجراً في مضارب للبدو وتعرّضـت هـذه المضـارب للغزو، فـإن ذلك الرجل ملزم وفـق قوانين البدو بالقتال مـع مضيفيه. فهو

«بوجههم» - تحت حمايتهم - وينبغي له أن يجنّد نفسه معهم حتى ولو كان أولئك المغيرون قبيلته ذاتها. وإذا تخاذل في أداء هذا الواجب فسيسوَدّ وجهه بين ربعه وسيغدو منبوذاً بينهم. ولو كانت ثمّة عداوة بين قبيلتين، يمكن للرجل أن يحصل على تصريح مرور عبر خيام أو أراضي القبيلة الخصم، وتُحفظ حرمة حياته خلال المرور أو الإقامة المؤقتة.

تختلف العادات والأعراف لدى بعض القبائل كثيراً حتى أنّ وليَمسون كان أحياناً يجد نفسه في معضلة. فعندما كان ضيفاً ووقع في زلّة، وجد قليلاً من العزاء لعلمه أن كثيراً من العرب الأصليين قد يتعرّضون لنفس الارتباك على حدّ سواء. على سبيل المثال، وجد أنه عندما يذبح رجال قبيلة الجواسم القِبليّة (القواسم) شاةً إكراماً للضيف، فإنهم يضعون الرأس على طبق مع باقي أجزاء الذبيحة ليبيّنوا للزائر أنها ذُبحت خصيصاً لأجله. لكن إن لمس الضيف الرأس وأكل منه فإنهم يفهمون من ذلك علامة على عدم رضاه. يُرفع الطعام بعيداً، ثم يذبحون شاةً أخرى ويحضّرون الغداء ثانية. هذا ما وجده وليَمسون بالضبط مناقضاً لأعراف قبيلة الجواسم الشمالية. إذ أنهم أيضاً يعرضون رأس الشاة على الطبق، لكن إذا لم يكسره الضيف ويأكل منه، يعتبرون ذلك إساءة لهم ويقومون بتحضير طعام آخر له.

إن أكثر شكل للتحية شيوعاً بين العرب هو لمس الجبهة بأطراف الأصابع وتبادل «السّلام عليك» (أو عليكم، للجمع) أو مباركات أكثر تديناً. لذلك كان الحاج وليَمسون الشاب بشكل خاص مهتماً بلقاء رجال قبائل البدو في الجزء الشمالي من وسط جزيرة العرب الذين أشار إليهم بأنهم «عرب لمس الأنوف». لقد رأى سكان جزر بحر الشمال يلمسون أنوف بعضهم - المجاملة *Bo mao* (رائحة جميلة) - لكنه تفاجأ بوجود بدو مدمنين على هيئة مشابهة للتحية. لدى استفساره عن هذا العرف، علم أن الرجال ذوي المكانة المتساوية يتلامسون بأنوفهم عند التحية. أما تحيّة الرجل العادي من القبيلة للشيخ فكانت بتقبيل خشمه (أنفه).

جعل العيش بين البدو من عاداتهم طبيعة ثانية لصاحبنا. ولقد أصبح كثير الاعتياد على الرقود على الأرض والاتكاء على سرج الجمل كمسند للذراع إلى حدّ أن

الجلوس على كرسي صار مربكاً وغير مريح. لا يمكن للغربي المتوسط الحجم أن يقرفص على عقبيه لأكثر من بضع دقائق؛ لكن يمكن للحاج ولِيَمسون بعد الكثير من المران أن يبقى في وضعيته لساعات.

اكتشف بالخبرة أن ثوب البدو مناسب تقريباً لكل الأحوال في الصحراء. كان في معظم أحوال الطقس يرتدي قلنسوة رأس بيضاء وصفراء تحت كوفيته - لباس مجلل للرأس - كثير من العرب يدعوها باسمها التركي *arak cheen* (شارب العرق)[1] والذي يفسر استخدامها في الحرّ اللاهب. تحاط الكوفية بعقالين (رباطين) من وبر الجمل الغامق، ويمكن أن يُتوشح به على الوجه خلال عاصفة رملية على نمط وشاح راعي البقر الفضفاض. كان ذلك أصل غطاء الرأس المجلل، والعُقُل (جمع عقال) كانت تستخدم من قبل البدوي، يربط بها قوائم جمله لمنعه من الشرود بينما هو نائم. وأسهل طريقة لحمل تلك العُقل كانت بوضعها على الرأس حيث تساعد في منع انزلاق غطاء الرأس.

بهذا الصّدد، سمع ولِيَمسون تفسيراً مثيراً في إحدى الليالي في مخدع الشيخ حسين كيف أن الكوفية والعُقل أصبحتا لباساً شبه شامل للعرب في البادية والحضر. فقبل سبعة قرون، أمر المأمون ابن السلطان هارون الرشيد فصائل من الخيالة بلبس عمائم ذات ألوان مختلفة ليتمّ تمييز المجموعات. إحدى المجموعات المؤلفة من شباب العائلات الثرية أغضبت المأمون الذي أمر، عقاباً لهم، أن تُستبدل العمائم بغطاء الرأس ذي الزوايا الثلاث (الكوفية) والعقل التي كان يلبسها رعاة الإبل.

كان أمرا مهيناً.. فتشاور المحاربون الشباب فيما بينهم بحثاً عن وسيلة يتجنّبون بها إراقة ماء وجوههم بسبب قرار قائدهم. فتم وضع خطة، وأُرسل وفد إلى المأمون يلتمس منحهم الوقت للحصول على لباس الرأس الجديد وإجراء التبديل. سمحت

---

(1) ليس معنى العبارة بالتركية: شارب العرق، بل بالتركية arak için تعني: لأجل العرق، الشيء الخاص بالعرق. لكن هذا باللغة العثمانية القديمة، أما في التركية الحديثة فلا معنى للعَرَق إلا ذاك المشروب المسكر، أما عَرَق الإنسان فيسمى: ter (تَر) والتعرّق: terleme (تَرلمه). ومصدر الغلط أن فعل الشرب في التركية iç (إيتش) يشبه مفردة için، فظن الكاتب المعنى: شارب العَرَق.

لهم المهلة بتأمين كوفيات ذات نقشـات فاخرة وعُقل صنعت خصيصاً من شـعر الإبل المجـدول مع شـرائط مقصّبة بالذهـب والفضة. فلما اسـتُعرض أفـراد فصـيلة الخيالة المعيـة، بزّوا رفقاءهم المُعَمَمين، وبغير قصد منهم، دشنوا لبس العقل بتصاميم فاخرة ضـمن الزيّ العربي لطبقات الأعيان.

أكثر المعرفة نفعاً مما اكتسـبه وليَمسـون كان ما يتعلق بالإبـل والخيول. فتعلم تدريجياً كيـف يحكم على الدواب بعين خبيرة، كيف تُقدّم لهـا أفضـل الرعاية في الأحوال المنـاخية للبـلاد، وكيف تتـم معالجتها من الأمراض والجروح بالطـرق البيطرية للبدو، وكيف وأين يبيع ويشـتري للحصـول على أفضل منفعة. كان يمكنه تكلم العربية بطلاقة وبدأ يفهم بعض اللهجات المحلية. ولقد منحه لقب الحاج (أو الحَجّي) هيبة معيّنة، وكان واثقاً من النجاح بدوره كتاجر مرتحل كما كان في ريعان شبابه عندما أسّـس الجوقة الجوّالة في نيفادا.

أخيـراً ودّع الشـيخ حسـين ورفاقه من قبيلـة الظفير، وانطلق مع مـكلاّ النوبي إلى مخيم بـدوي آخـر بالقـرب مـن الكويت. هنـاك رتّـب أوراقه، علـى سـبيل الاسـتعارة، تحضيراً للمشـروع الجديـد. فأعطى مكلاّ جملاً وبعض المال وحريته، لكـن في حين أن العبد كان مسـروراً بالهديتين، لم يكن شديد السّرور إذ قُذف به إلى العالم التنافسـي للرجل الحرّ.

اسـتطاع الحاج وليَمسون، من أجل مشروعه المسـتقلّ، أن يبدأ بانطلاقة صحيحة. كان لديـه جواد عربي رائع وقطيع صغير مـن إبل الرّكوب والتحميل. جمع هذه الثروة البدوية جزئياً من كرم الشيوخ ورعايتهم وجزئياً بفضـل قدرته البـارزة في غارات التسلية في الصـحراء. إن المركز الذي نحته لنفسـه وهو شاب في العشـرينات من عمره كان أقلّ مـا يقـال فيه إنه غير اعتيادي، وعلى الأغلـب فريد تماماً. إنـه مواطن بريطاني، تعلّم في صباه في مدرسـة جيدة، وأحرز في بضع سـنين مركزاً في جزيـرة العرب يناهز منصب شـيخ صغيـر. على كل حـال، كان وضعه ثابتـاً بشـكل كافٍ ليتحمّل نفقات اسـتئجار جمّاليـن من البدو ويشـرع بجولات امتدّت من السـاحل الجنوبـي لجزيرة العرب إلى شـواطئ البحر الأبيض المتوسط.

* * *

الفصل التاسع عشر

ضيوف غير مرحّب بهم

لـو كان الحـاج عبد اللـه مُنعماً عليه بخلفيـة وتطلُّع بعض المسـتكشـفين المهمّين، لزوّد العالم بكمّ هائل من المعلومات الجديدة عن أجزاء من الشرق الأوسط لم يُعرف عنها إلا القليل. في رحلة واحدة فقط امتدت على مدار سنة، ذهب جنوباً عبر الأراضي الموحشـة لبني خويلد إلى ظُفار بداية طريـق اللّبان، أرض أوفير المذكورة في الكتاب المقدس، ومن ثمّ عبر حضرموت إلى صنعاء في اليمن. واصل المسـير شـمالاً، حيث نصـب خيامه لبعض الوقت فـي ظهران[1] بالقرب من وادي نجـران، ومن هناك جاب العديـد من قرى وواحـات نجد والحجاز وصولاً في النهاية إلى القُدس. ولقد تمّ جزء مـن هـذه الرحلة عبر منطقة مـن الرّبع الخالـي[2] - الربوع الخالية غير المسـتكشـفة - وجزء آخر على درب لم تطأه قدم لمئات السـنين.

مـن المفروغ منـه أن مجلداً من الحوادث والمعلومـات كان يمكن تصنيفه في هذه السـفرة وحدها. لكن لم يكن غرض الحاج وليَمـسون جمع معلومات علمية لمصلحة الجغرافييـن، وليـس من المتوقع أن بإمكان أي عقل بشـري أن يحتفظ بصورة واضحة

(1) تُعرف باسـم ظهران الجنوب، وهي اليوم محافظة في جنوب المملكة العربيّة السّعوديّة، تتبع إدارياً لمنطقة عَسير، وتبعد عن مدينة أبها حوالي 130 كيلومتراً على طرق الخميـس نجران، وهي منازل قبيلة وادعة. تُعدّ مصيفاً لاعتدال جوّها. بها مواقع أثريّة تضمّ نقوشاً قديمة مهمّة.

(2) سيكون لنا موعد قريب في سلسلتنا هذه مع رحلة شائقة للغاية لمغامر بريطاني هو برترام توماس Bertram Thomas يروي فيه مغامرة اجتيازه (للمرة الأولى) مفاوز الرّبع الخالي، في كتابه الرّائع: *Arabia Felix*.

دقيقـة عن المشـاهد أو الأحداث. من هنا نجد بوضـوح أنّ محاولة الحصول على أي توصيـف تفصيلي أمر غيـر ممكن لهذه الرحلـة أو أي من الســفرات الأخرى العظيـمة التـي قام بها في بحر اثنتي عشـرة سـنة من التجوال والتّرحال. حتـى ولو تمكن الحاج فـي خريف عمره من اسـتحضار صـور حيّة لتلك الأيـام الغابرة، لكنا بحاجة إلى حجم أكبر بكثير مما بين دفتي كتاب واحد. وأمّا البديل الملائم فهو أن نقوم باختيار تشـكيلة مـن الوقائع يمكنه تذكرهـا جيداً، والتي تعبّر إلى حدّ ما عن تجارب وانتصارات بدوي أبيض تاجر للإبل والخيول فوق رقعة كبيرة من الشـرق الأوسـط.

في الواقع كانت هناك مخاطر كثيرة أعطت طعماً حارقاً لسـفر الصحراء هذا. كانت عصابـات من شـباب البدو تمتطي إمّـا الخيول أو هجن الرّكوب السـريعة وتجول بين الواحـات بحثاً عـن الغنائم. لا يمكن أبداً لقليل من الرعيان أو لقافلة صغيرة أن تشـعر بالأمان، لكن المغيرين عموماً كانوا يتجنّبون القتال إلا إذا كانوا في مزاج ملائم وكانت الأسـلاب تستحق الخطر المتوقع. خلال سـنواته في الصحراء، انضمّ وليَمسون مراراً إلى قوافل تسـير على دروب كان يسـلكها. وفي بعض الأحيان كان يلتحق هو وجمالوه بجماعات صغيرة من المسافرين بدور حرّاس مسلحين، ومن حين لآخر كانوا يكافَؤون على خدماتهم.

في تلك الأيام كان من الشـائع أن يطالب شـيوخ البدو بأجور الحماية من القوافل. إن نظام الرفيق أو الحارس الشـخصي، يمكن أن يشكل نزيفاً غزيراً لمَحافظ المسـافرين الذيـن يعبرون أراضي عـدة قبائل. في بعض الحالات حيث يُكره الشـيخ المسـافرين علـى الدفع من أجل الحماية، كان يزوّدهم بمرافقة مسـلحة في كل أنحاء منطقته. هذا فقـط عندما يكون هناك احتمال قوي لغـارة من قبيلة أخرى. في أغلب الأحيان، كانت أموال الحماية ببسـاطة تضمن الحصانة من قطّاع الطرق أنفسـهم الذين دفعت إليهم. إنّ البدو، في الواقع، كانوا سـبّاقين في وضع النظام الذي تمّ تطويره إلى مسـتوى احترافي رفيع في أميركا خلال فترة الحظر Prohibition.

كان تهريـب الأسـلحة إلى جزيرة العـرب تجارة حيوية ومربحة. بفضلها، اسـتطاع

وليَمسون شراء أفضل البنادق لنفسه ولرجاله ومخزوناً ممتازاً من الذخيرة. ومما لا شك فيه أن لقبه الحاج قد أكسبه شيئاً من الاحترام بين البدو، غير أن براعته الفائقة بالبنادق زادته أكثر فأكثر.

في إحدى المناسبات عندما كان هو وأعرابيان يسوقون قطيعاً صغيراً من الإبل عبر ديرة شمَّر الجنوبية، قادت سربة من بني حَرب خيولها باتجاههم وأوقفوها بين بعض الصخور. تمّ التلويح بشملة إشارة لسائقي الجمال بالوقوف. كان البدو مغيرين سيئي السمعة ومسلحين بشكل جيد، وبالحكم على عددهم وتنسيقهم، بدا الاحتمال ضعيفاً أن ينتهي الأمر بالتنازل عن بضع جمال فتية قيّمة دون أن يدفع لهم شيئاً من المال. خطر الاحتمال في بال وليَمسون، لكن لدى الوقوف إذعاناً للإشارة، أعطى رجاله عدة تعليمات مقتضبة في حال القتال.

كان شجعان بني حرب يتمنّون تجنب المتاعب. كل ما أرادوه كان أموال الرُّعاة ومعظم إبلهم. تقدّم بدويان باتجاه وليَمسون الذي أومأ لهما بالبقاء على بعد عدة جمال منه. عندما أبلغا بمطلب زعيمهما الكامن في ظل الصخور، أجاب وليَمسون: «أخبر شيخك أني أضحك في لحيته»، والتي يمكن ترجمتها بصورة عامة إلى «يمكنه تقبيل قدمي».

بدلاً من المغادرة، حاول المبعوثان الابتزاز الاعتيادي. أين هو رفيقه؟ ألم يدفع من أجل مرافقة لحمايته؟ كان هذا سهواً يمكن تداركه، وسيسرّ زعيمهم بقبول المال أو الإبل لضمان سلامته.

ضحك الحاج وليَمسون باستهزاء.

قال: «تسألون أين رفيقي». نقرت أصابعه على مغلاق بندقيته. «إن رفيقي هنا». عندئذ أشار إلى الخراطيش في الأحزمة التي توشح بها على صدره، ثم أضاف: «وهنا لدي مئة رفيق آخر. اذهب إلى زعيمك وقل له إن ذلك هو كلام الحاج عبد الله فضل الزُّبير».

لـم يكن اللاسـلكي قد اختُرع بعد ولـم يكن هناك أسـلاك للتلغـراف في الصحراء، لكنـه عـرف أن الأنباء تنتشـر بين القبائل بسـرعة خاطفـة عجيبة، وذاعـت في الأرجاء سـمعته كمقاتـل ورامٍ سـديد. كان يأمل أن يكون بنو حرب قد سـمعوا بـه وأن يتردّدوا في قتاله. لم تكن هذه سوى فرصة مقامر. كان هناك عشرون من البدو المسلحين فيما بين الصخور، ولم يكن عنده سـوى نفسه وجمّاليه لمقاومتهم. كانت كل الاحتمالات ضدّهـم، لكنـه كان مصمّماً علـى عدم الخضـوع لمطالبهـم، ووافقـه الأعرابيان على ذلك.

اسـتغلوا المهلة القصيرة، فراغوا بالقطيع إلـى ثنيّة من الأرض، وأناخوا إبلهم فيها. نظـرة خاطفـة للمـكان جعلت وليَمسـون يقـرر أفضل موقع للدفـاع، فقام بنشـر قواته المتواضعـة لتغطية نقاط الهجوم المحتملة. لـم يكن هناك أي حركة لدى البدو، وبقي المدافعون الثلاثة في ترقب نواياهم لبعض الوقت. مـستلقياً على الرمال تحت الشمس الحارقـة، راقـب وليَمسـون دون انقطـاع، وبندقيتـه مجهـزة فيمـا لو حصـل أي عمل عدائي. كان ما فاجأه، أنّ راكباً منفرداً انفصل عن الحشد وجاء باتجاه التحصين. كانت بندقيتـه معلقة علـى كتفه ويلوح بيديه الخاويتين ثم صاح بتحيـة مزيفة بينما كان يتقدم باتجاهنا.

وقـف وليَمسـون، وكمـن رجلاه المسـلحان خلفـه. كان البدوي قاطـع طريق غير جذّاب على الإطلاق، معقوف الأنف وملتحياً، فقد إحدى أذنيه وعلى الجهة اليسـرى من وجهه شديد السُّمرة ندب بشع. بمقدور أي ممن يلمحه أن يدرك أنه ليـس من النوع الذي يتمنّى مسـافر مسـالم أن يلقاه في الظلام، أو في وضح النهار. لذلك، كانت مفاجئة للجميع عندما وثب عن جواده وعانق الحاج وليَمسـون الشـاب مثل أخ مفقود بعد طول انتظار. «أنت الحاج عبد الله فضل المسلماني؟» سأل باستفاضة.

«نعم. هكذا يدعوني البعض».

«أي والله! إنها القسـمة أن تتقاطع سبلنا ثانية. أنا محمّد مِـسفِر».

كان الاسـم مألوفاً بغموض، وسـرعان مـا أزال البدوي اللُّبس عن كامل المسـألة. كان سـلّاب الإبل الذي أنقذ وليَمسـون حياته قبل ثلاث سـنوات عندما كان الحجّاج مخيّميـن في حائـل[1]. لقد أفرج الحاكم محمّد بن رَشـيد عن قطاع الطرق المحكوم عليهم وفقاً لوعده، وقد فاجأ مِسـفِر علمه أن إرجاء الأحكام كان بمداخلة من إفرنجي مسلم معروف باسم عبد الله فضل.

خطر ببال وليَمسـون أن سـلّاب الإبل لن يضيره أن يجد ما يحفظ ماء وجهه ضمن الظـروف. بدون ذلك، كان على مِسـفِر، كونـه زعيماً للعصابة البدويـة، أن يتخذ قراراً حاسماً – سواء بالهجوم أو عدمه. الهجوم، حتى ولو كان ناجحاً، قد يكون باهظ الثمن ضـد ثلاثة رمـاة بنادق عازمين. وهو لـو قرّر خلاف هذا العمـل، لازدراه رجاله لاحقاً فيما بينهم مهما كان شعورهم بالراحة كبيراً آنئذ. لم يكن لدى وليَمـون وجمّاليه سبب للاسـتياء من تطـور الأحداث. فقاطع الطـرق العاتي لم يضمن لهم الرفيق الشـخصي فحسـب، بـل اقترح عليهم أن يتحوّلوا إلى مخيّمه علـى بعد بضع أميال فقط. ألحّ بكل تأكيد، مع كثير إقرار بفضل الله أن هذا الاجتماع مُقدّر من أجل هنائهما المشـترك.

إنّ دعـوة فـي الصحراء آتية من مصدر كهذا، ينبغي ألا يُسـتهان بهـا. فعندما يطوف المـرء فـي القفار الموحشـة دون حماية، فإنه من المفيد أن يكسـب مـن الصداقات ما أمكـن. ربمـا كان لهذا فوائد في المسـتقبل. لذلـك لم يتردّد وليَمسـون بقبول الدّعوة، فبتلك الوسيلة يمكنه التعرف على رفاق مسفر دون أن تُنتهك حُرمته كونه ضـيفاً عليهم. مهما تكن عيوب هـؤلاء الرُّحّل، فمن الصعب بزّهم كمضيفين. كان العرفان بالجميل عنـد محمد مِسـفِر حقيقياً، وعبّر عن ذلك عملياً بذبح حمليـن وجمل فتي (حوار) في خيامه كطبق رئيسـي في الوليمة. في اليوم التالي، ألحّ على إعطاء وليَمسـون مؤونة من حبـوب القهوة والطحين والسّـمن – وهي عوائـد غارات كثيـرة – وزوّده بمرافقة عبر منحدر صحراء السّفحة Safha.

---

(1) راجع حوله ما تقدّم في الفصل الثالث عشر، وكيف تشفع له وليَمسون لدى أمير حائل محمّد ابن رشـيد فأنقذه من الإعدام.

عقب عدّة أشهر خلت بعد تلك الحادثة، كان وليَمسون ورجاله يسافرون بتؤدة عبر منطقة خطرة بشكل خاص عندما أدركوا قافلة تجار صغيرة ضربت خيامها في وادٍ. كان الترتيب على مواصلة السفر سوية أمراً مرضياً للطرفين بما أن القوّة الأكبر تقلل من خطر التعرض للنهب. وفي اليوم التالي بينما كانت القافلة تستريح في واحة، برزت غمامة من الغبار في البعد، ثم برز رجال وأحصنة في مرأى القافلة. أقبل شيخ وابنه يعدوان من أجل حياتهما باتجاه الواحة، يطاردهما بشكل حثيث حوالي خمسين من المحاربين ينتمون إلى قبيلة بدوية معادية. وما إن وصل الطريدان المخيم حتى رميا بنفسيهما عن حصانيهما وهرعا إلى رواق خيمة وهما يصيحان: «الجيرة! الحماية!». وفق قانون الصحراء كانا دخيلين (مستجيرين)، والمضيفون، مهما كانوا كارهين، كانوا ملزمين بالدفاع عنهما بحياتهم إذا اضطرّ الأمر لذلك.

مشى الحاج وليَمسون مع اثنين أو ثلاثة آخرين بضع خطوات خارج المخيّم الصغير، بنادقهم محشوة وجاهزة. وكبح المطاردون الهائجون عنان خيولهم قبل مسافة قصيرة. وكالمعتاد كانت الجلبة ناجمة عن نزاع دموي قبلي، وعبّر العرب الركبان عن تلهفهم لتسوية الأمور فوراً مع الشيخ وذرّيته. عندما ذكّره الحاج أن الطريدين دخيلان، بعد أن تم قبولهما في الخيام ولا يمكن تسليمهما إليهم، لم يحافظ على الأمن إلا حقيقة أن الاثني عشر رجلاً معه كانت لديهم بنادق وقد ظهرت عليهم سيماء العزيمة. ولم يستثر التهديد سوى التحدّي حتى انسحب الرّكب أخيراً.

دلّت كل المؤشرات على أنهم سيعودون عاجلاً أم آجلاً معزّزين بأعداد لا قِبل بها من رجال القبائل، وهو احتمال نظر إليه التجّار بنفور شديد. فحاولوا حضّ الشيخ وابنه على اختصار زيارتهما، لكن الطريدين فضّلا حاجزاً من البنادق على صحراء قاحلة. كانت فكرتهما أن يرحلا مع القافلة إلى أراضٍ بعيدة حيث يمكنهما التمتع بضيافة قبيلة صديقة.

نزولاً عند اقتراح وليَمسون، وافق التجّار على التحوّل إلى واحة كبيرة بعيداً باتجاه الجنوب. كان هذا سيضيف يوماً آخر إلى رحلة لن تؤثر إلا قليلاً، وانطوت على إمكانية

أفضــل للاتحاد مع قافلة أخرى من أجل حماية مشـتركة. قـد تؤدّي غارة ناجحة بالقوة إلى أكثر من خســارة حياة الطريدين. تلك الخســارة يمكن تحملها برباطة جأش طالما أدّى المضيفـون الواجـب بتقديـم عرض معقول مـن التحدّي. لكن كانت لوليَمســون عـدّة أباعر ثمينة، وتضمّنت بضائع التجار بنادق على دواب الأحمال. وليـس هناك أي ضمانة في أن يعتبرها المغيرون أي شيء خلا غنائم عادلة للنصر.

بعـض الناس فـي أوروبا المعاصـرة من الذين اعتـادوا على السـيطرة البيروقراطية والحياة الموجهة الآمنة، قد يجدون صعوبة في استيعاب البــاطة المتأصلة للحياة في الصّحارى العربية التي لا يقطنها السـياسيون المأجورون والموظفون المدنيون ورجال الشرطة. إنّ جزءاً من المنهج السـلوكي غير المكتوب ترك حيزاً واسعاً يُجال فيه حسـب الرغبة، لكن ذلك سار جيداً بالإجمال وكان يُلتزم به بصرامة أشد من القوانين في البلاد الغربية. حيث السـيطرة أو الإرشاد كان ضرورياً لم يكن هناك مــاحة لزعماء من الوزن الخفيـف، وذلك ليـس مسـتغرباً في شـؤوننا المحلية. لو أن شـيخاً بالوراثـة ليس كفؤاً للقيـادة وإسـداء النصح بحصافـة، تُكف يده عادة عن الحكـم - بعض الأحيان بضربة خنجر.

إنّ أيّـة أزمة في الصحراء كانت تبصر بشـكل شـبه ثابت بروز فـرد قادر على فرض النظـام من أجل الصـالح العام، وذلك بمجرّد قوة شـخصيته وقدرتـه الذاتية. كان عادةً مـا يُقبل زعيماً خلال الفترات الحرجة، ويطاع دون مسـاءلة. كان لعرب وسـط جزيرة العرب القليل من الوقت للمجالـس أو اللجان. ففضلوا، عندما دعت الحاجة، أن يكون لهم حاكم واحد يمكنهم الوثوق به. ولو أن الأمور، بعد اختيار حرّ للزعيم، انتهت على نحو رديء، كانوا من الفلـسفة بمكان لأن يقولوا: «هذه قـسمة. هكذا قُدّر لنا. والله خير الحاكمين».

إن الاعتراف بهذه الخصلة العبثية في طبيعة العرب جعلت الأمر أسهل على الحاج وليَمســون لقبول المسـؤولية عن مصيـر القافلة. ولقد أدّى موقفـه الصّلب ضد عصابة البدو إلى منحهم الثقة فيه. فغيّروا اتجاههم وفق إرشاداته ووصلوا قبل مغيب الشمس

إلى واحة كبيرة حيث، كما تنبأ، كان هناك عدد من المسافرين الآخرين.

والواقع أنه هو نفسه خاب ظنه بالجماعة الموجودة آنفاً هناك. إذ تألفت هذه الجماعة من حوالي أربعين شخصاً ظلوا في مخيمهم لعدة أيام بسبب مرض بينهم. كان منهم عشر نسوة من عائلات كريمة، وعلى الأقل ستة من أقربائهن الذكور كانوا من الطاعنين في السن. بالإضافة إلى جمّالين وخدم وعبيد واثنين من المخصيين، تشكل كامل الجمع الذي كان في طريقه من حائل إلى الجوف.

كانت النسوة، وكلهن محجبات، أكثر سروراً برؤية القادمين الجدد منهم برؤيتهنّ. ومن الواضح أن الجمع قد تعرّضوا لسلسلة من الفوضى والاضطراب مذ غادروا العاصمة وتبخّرت ثقتهم بمرافقتهم الخاصة. فلمّا علموا أن الحاج عبد الله كان قائداً للقافلة التي وصلت للتو، أرسلوا في طلب مساعدته وحمايته.

كان الوضع، كما رآه، لا يخلو من الفكاهة اللاذعة. لقد أتى إلى هذه الواحة متوقعاً بشكل معقول أن ينضمّ إلى مسافرين مسلّحين آخرين. كانت القافلة المخيمة هناك من الحجم الجيد ولديها الكثير من إبل الركوب والحمل، لكن لم يكن للجمع وسائل مواتية للدفاع. كان لدى اثنين من الرجال بندقيتان أثريتان - بندقيتان طويلتان بأعقاب مخرّمة للزينة من النوع الأفغاني - ولدى الباقي سيوف وخناجر، وليس لأحدهم سيماء المقاتلين. لم يُرج من العاجزين خيراً، وأما مرافقو الحريم، فتنقصهم فحولة الرجولة، وكانوا من المسالمين أنصار الطبيعة.

لم يكن عند وليَمسون سبب يدعوه للتفاؤل ضمن الظروف، لكن ذلك لم يمنعه من إرسال تحيات مباركة إلى النسوة وتطمينات بأنهن وربعهن ومتاعهن في مأمن من النهب. أقسم على ذلك بلحية النبي. لكن في حين أن كلماته الرائعة بدّدت مخاوف النسوة، فهي لم تفعل شيئاً لضمان تحقيق المفاخرة. أدرك أن البدو لو عادوا بالقوة إلى المكان الذي لاذ فيه الطريدان بحمايتهم، فإنهم يمكنهم بسهولة اقتفاء أثر الجمال إلى هذه الواحة. وما بدا الناس الإضافيون المقيمون هنا إلا مجرد إرباك، وما كان وجود النساء إلا شرّاً من سوء الطالع.

كان القـرار عائداً إليه حول أيّ إجراء يجب اتخـاذه. فتكوّنت لديه فكرة جليّة حول مـا أراده التجار من خلال أطراف حديث سـمعها عرضـاً. فلو أنهم ذهبوا في الصحراء ثانيـة، لربمـا اقتنـع البدو بالغنائم التـي يمكن أن يحـوزوا عليها من القافلـة الباقية عند الواحـة. لقد كان هناك الكثير من الجمـال المجللة بالمطرزات الغنية، وعبد أو عبادان نافعـان يمكـن أخذهم. كان من الممكن أن تسـتحوذ هذه الخطة على استحسـان أكبر فيما لو قبل الشيخ الفارّ وابنه تحويل إجارتهم إلى كرم ضيافة الجماعة الأخرى.

لم يستسغ وليَمـسون فكرة انسحاب استراتيجي يتضمن التخلّي عن النسوة العربيات ومرافقتهـن، وممّـا يُذكر في حقّ التجّـار أنهم لم يتعرّضوا له بـأي محاولة لحضّه على الأخـذ بهـذا النهج. كان لابـدّ من فعل شـيء بالإمكانيـات المتاحة في الواحـة، فقرّر اللجوء إلى الخدعة في غياب قوة مقاتلة قادرة على التعامل مع المحاربين القسـاة من رجال القبائل.

أرسـل خادمـاً لاستدعاء أحد التجار إلـى خيمته، ولدى مجيء الرجل كشـف عن خطته الدفاعية.

«الحمد لله، لديك دفعتان من البنادق للتجارة. لا قيمة لها وهي ترقد في الصناديق. إن قيمتهـا تكمـن فـي أيدي الرجـال. يجب علي باسـم النبـي أن أصادر تلـك البنادق والذخيرة من أجل الغاية الصالحة. بتسليح الرجال بين هؤلاء المسـافرين إلى الجوف، قد نفلح - بمعونة الله - في ذبّ المغيرين بعيداً لدى قدومهم».

مسّـد الحاج وليَمـسون لحيته القصيرة المستدقة الرأس وانتظر بينما تأمّل التاجر في عرضه. كان هنـاك فاصل من الصمت، وكان لدى وليَمـسون فكرة جيدة عما كان يجول فـي خاطر الآخر. كانت بنادق المارتيني هنري، المهرّبة عن طريق بلوشسـتان، جديدة تماماً وتسـاوي الكثير. واستخدامها قد يقلل من قيمتها وليـس هنـاك أي ضمان في أن يستردها أبداً. لا يمكن لومه بالتفكير أن رجال قافلة الجوف، مع بضع استثناءات، إذا أُعطوا بنادق وذخيرة حية سيشـكلون على الأرجح خطراً على أنفسـهم وزملائهم أكبر منـه على أي من الركبان البدو العُتاة. مع ذلك، تصرف الرّجل بشـكل نمطي كما توقع

الحاج وليَمسون، فقال: «إن الحاج هو عبد الله الحامي. إن بالي مطمئن».

كانت نبرته مثل تلك لسجين محكوم عليه بالإعدام أقام صلحاً مع خالقه ليلة تنفيذ الحكم. ولم يكن رجال جماعة الجوف أكثر ابتهاجاً عندما جمعهم وليَمسون وحذّرهم من الهجوم الوشيك. كان بإمكانهم وضع اللوم عليه لجلبه الطريدين المطلوبين إلى الواحة حيث من المؤكد أن يتعقّبهم المنتقمون. لم يقل شيئاً عن هذا، لكن بعضهم احتجّ بأنه لم يستعمل البنادق من قبل أبداً وأنه جدّ كبير في السن ليتعلم ذلك الآن.

وضع الحاج وليَمسون الشاب تلك الاحتجاجات جانباً، وقَبِل مجمل الوضع دون تردّد. فُتحت الصناديق ووُزّعت البنادق. لم يسبق للشيخ المطارَد ولا ابنه أن تملكا بندقية أو استعملا واحدة قط؛ كان سلاحهما السيف والخنجر - واستخدامهما الحرّ بلا ضوابط لهذه الأسلحة أوجب فرارهما. لقد كانا المجنّدين الجديدين الوحيدين، ومع ذلك فقد قبلا السلاح الجديد بحماس وأظهرا رغبة حقيقية لمعرفة أفضل كيفية لاستخدامه.

بعد تسليح كل رجل لديه ما يكفي من القوة على حمل السّلاح بما فيهم المخصيون، راح وليَمسون يقدّم تعليمات أولية عن استخدام المارتيني هنري. وفيما قدّم الصخر وطيّات الأرض غطاء طبيعياً، قرّر نشر قواته لاستغلال نقطة الارتكاز[1] تلك *point d'appui*. لقد كان الكمون هنا أفضل من السير في الصحراء وترقّب الأسوأ. كانت للواحة كقاعدة للعمليات مزايا أخرى، إذ يمكن شق خندق ضيق بدائي وجرف الرّمال على الجانبين لتأمين ملجأ للنسوة. كما كان هناك بعض الظل، واحتياطي وفير من الماء الآسن في البئر الحجري.

* * *

(1) كتب ستانتون هوب العبارة بالفرنسية point d'appui على عادة أدباء الإنكليز الذين كانوا، منذ العهد الفيكتوري، يعدّون استعمال عبارات بالفرنسية في كتبهم من معالم الثقافة التي لا غنى عنها. والواقع أنهم أصابوا في ذلك، فالفرنسية لعمري هي واحدة من أجمل لغات أوروبا على الإطلاق، اللهم إن لم تكن الأجمل!

الفصل العشرون

الدفاع عن الواحة

استمرّت التحضيرات بحسب توجيهات وليَمسون حتى وقت طويل بعد صلاة العشاء. بقي جمّالاه الخاصان بعيون كعيون الوشق يراقبان الصحراء التي ترامت أرجاؤها مدلهمّة موحشة تُنذر بالشرّ، تحت سماء الليل الدّامس. حتى ولو عاد البدو سريعاً، كانوا سيستغرقون ساعات طويلة لجلب تعزيزات من مخيّمهم. استنتج هذا من موقع مخيمهم كما أخبره بذلك الشيخ الطريد. لذلك كان لديه وقت كافٍ لتحضير التحصينات وإجراء تدريب على الرماية لكل مَن أعطاهم الله قوة جسدية كافية للضغط على الزناد.

مضت ليلة مضطربة. بقيت النساء في الحجاب والذعر تحت خيمة نُصبت فوق الخندق. أخذ وليَمسون اثنين أو ثلاثة من المزيج المتنافر في كل مرة إلى بقعة خلف الواحة حتى يكتسبوا الحسّ ببنادقهم. تركهم يطلقون بعض الخراطيش تحت مراقبته، على أمل أن يعطيهم شيئاً من الثقة في الاشتباك الذي كان يتوقعه تماماً.

وكيما يذهل الزمرة الأولى وحتى يجعل لهم مثالاً يُحتذى به، اصطاد ابن آوى شوهد تحت ضوء النجوم على بعد كبير. بعد ذلك، صارت هذه المأثرة حديث الجميع في المخيم مما ساعد على تمتين مركزه كقائد. على أية حال بعد ذلك العرض كان أبناء آوى في أمان. بين التمارين، كان عدّة رجال آخرين يجمعون جثة الحيوان حيث كان الحاج يستخدمه كهدف لتدريب الرجلين من جماعة الجوف. ارتدّت إحدى الطلقات عن بروز صخري منفرد يبعد مئات الياردات على اليسار وذهبت الأخرى باتجاه

مجموعـة النجوم حيث أغلق الرامـي عينيه ثم ترك البندقية ترتـدّ إلى الأعلى. والواقع أنّ دوي الطلقات، وإن كان له دور في إبعاد أبناء آوى، قد استغله وليَمســون كوسـيلة عـسكرية لبثّ ثقة إضافية في النفوس. لقد أمر زمرته الخرقاء بإحداث مقدار كاف من الجلبـة، فهـذا كفيل بإصابة البدو بالذعر أيضاً. لكن رغم أنـه أمل ذلك، فلم يكن واثقاً بهذا الأمر على الإطلاق.

برأيه الخاص، سيصل المغيرون بعد طلوع الشمس. عبَّر الشيخ الطريد بصراحة عن وجهة نظر مشـابهة، غير أن الحاجّ أكّد على احتمال محاولتهم شـن هجوم مباغت في جنح الظلام خلافاً لما يفضلون عادة. كان ذلك من أجل إبقاء المراقبين في حالة انتباه وتيقّـظ. صحيح أنه يمكنه الوثوق بجمّاليه، لكنهـم كانوا بحاجة إلى الرّاحة وكان لابدّ من تعداد واجبات الحراسة للآخرين. حرمته مسؤوليته عن الفريق من النوم، وعلى أيّ حـال كان هناك الكثير ممـا لا بد فعله. قُيِّدت الإبل وعُقلت ثم استراحت بالقرب من الصخور مصدرة أصوات بقبقة نمطية لهذا النوع من الدّواب. أشارت الدلائل على أن مجتمعـاً صغيـراً عاش في الواحة في الماضي السحيق، وأعطى جـدار حجري متداعٍ ستراً لجانب من المسـاحة التي اختارها وليَمـسـون لصفوف الإبل. ولمّا لم يكن لدى المسـافرين المخيمين أيّة وسـائل مناسـبة لأعمال البناء، لم يعد هناك أيّة حماية أخرى يمكن منحها للدواب سوى المقاومة الفاعلة بالهجوم.

مـن بيـن الواجبـات الأخرى التي قـام بها كانت زيـارات للمرضى. وكان سـبق أن اكتسب سمعة طيبة في أجزاء من جزيرة العرب كمعالج. كان ذلك سهلاً بين مجتمعات كانت المداواة فيها تشمل لبس التعويذات وأكل رماد قصاصات ورق محروقة وقماش أو أوراق نباتـات يابسـة كتـب عليها كلمات مطهّـرة من القرآن. لقد استوردت معظم الأدوية البـسيطة المعروفة في الغرب إلى البصرة والكويت، لكنها كانت تُستخدم فقط من قبل سكان المدن الأكثر تنوّراً. مرة أو مرتين، تمكن الحاج وليَمـسون من سدّ نقص مخزونه من حبوب الدواء والأصبغة والمراهم في صندوق الأدوية الصغير الذي ملأه لدى الشـروع بحياة البدو الرحل. وأكثر من ذلك، كان يعرف بعض الشـيء عن الطب

والجراحة العامة، مما درسه من كتب ومارسه بينما كان مساعد قبطان على سفينة صيد الحيتان في القطب الشمالي. حتى أنه اكتسب معرفة أفضل في الإسعافات الأولية خلال خدمته في شرطة عدن.

الحمّى والقرحة والعلل الأخرى للمرضى في الواحة كانت ببساطة بحاجة إلى ما قد يسميه الأميركان إدخال إلى المستشفى - كلمة خرقاء! - مع ذلك تمكن وليَمسون أن يقدّم بعض الإسعافات لمن يعاني. سلوكه الحسن بالتعامل مع المرضى أدّى على الأقل إلى التخفيف من روع المرضى، وكان لبقاً بما فيه الكفاية لأن يردّد آيات شريفة من القرآن للرقية. وهكذا بحمايته للضحايا من الجنّ والغيلان والمخلوقات نصف الأرضية، لم يبق عليه سوى أن يهزم طلاّب الثأر البدو لتسمو هيبته عالياً في السماء.

تلك، كما وعى ذلك تمام الوعي، كانت قضية مختلفة. لم يكن لغارة تُشن بشدّة وعزم على الواحة سوى نتيجة واحدة. يعتمد الكثير على مدى توق رجال القبيلة الجامح لوضع أيديهم على الطريدين. كان التأخير أمراً حسناً، كما اعتقد وليَمسون، لأن ذلك سيعطي المطاردين وقتاً حتى تفتر فورتهم. من جهة أخرى، لقد رأت المجموعة الأولى من البدو التجار والبضائع في القافلة، وذلك ممّا لا شك فيه قد أثار جشعهم. كانت ليلة مضنية تخللتها عدّة إنذارات زائفة من مراقبين متوترين، وتمنّى وليَمسون بلهفة أن ينتهي التشويق بظهور البدو في وضح النهار.

كما تبيّن في الختام، انتهى الترقب في غلس الظلام قبل الفجر بقليل. هذه المرة، كان هناك سبب لصراخ العرب القائمين على الحراسة. سرعان ما تمّ أيضاً إدراك أن قوة غازية ضخمة على نحو غير عادي كانت تتقدّم باتجاهنا، وبالرغم من إيعازات وليَمسون السابقة، واجه أكبر الصعوبات بكبح المدافعين الذين نهش أفئدتهم قلق مفرط. توقع أنّ أحداً لن ينتظر حتى يتمكن من رؤية بياض عيونهم؛ سبق وأن طلب منهم الانبطاح بوضعية منخفضة حتى يقترب الغزاة بقدر كاف لتميز حصان أبيض.

ألقى وليَمسون نظرة فاحصة على الصحراء. كان الظلام دامساً والبدو على بعد كبير لتميز أي شيء. مما استطاع رؤيته، قدّر أنهم كانوا يركبون بتشكيل مهلهل وبدون

مجموعـات أجنحة. صاح أحـد جمّاليه مهوّلاً بأنه كان هناك مئتان منهم. هو نفســه لم يحسـب عددهم كثيراً إلى ذلك الحد. تصرّف الأكثر جبناً بين المدافعين وكأنهم كانوا ألفيـن. أمرهـم بالتوقف عن الصـراخ والعـودة إلى مراكزهم المحـدّدة لهم. عادوا إلى الأرض ثانية لكنهم ألحّوا بالتضرع إلى الله، الأمر الذي سرعان ما جلب استجابة على شـكل ولولة من النســاء. وفي وسـط الضـوضـاء المتنافرة، أعاد التأكيد على الأوامر ألا يطلق أحد النار حتى يفعل ذلك بنفسه.

كان معظـم رجاله قد نُظّموا بشـكل جيد لمواجهة رجال القبيـلـة القادمين. ولقد تمّ ترتيب هذا التنسيق مقدماً على فرضية أن البدو سيقتفون الأثر على الدرب الذي سلكته قافلتـه اليـوم الفائت. وقد تم وضع بضـع مدافعين احتياطاً لنشـوء هجوم في الجنب أو فـي المؤخرة. كان لدى هـؤلاء أوامر صارمة بعدم إطلاق النـار إلا إذا أتى الهجوم من تلك الأنحاء أو تمّ نقلهم للمســاعدة في صدّ الهجوم الأمامي.

ربمـا كانت تدريبات لعدة أسـابيع ومعركة صورية من شـأنها أن تعزّز هذه المبادئ العســكرية. بما أن قليلاً من العرب قد تعاطوا مع بندقية من قبل، والتجار وأهل البلدات الآخرون قد عاشوا حياة محمية بالمقارنة مع البدو الرحل، فلم يكن مفاجئاً أن شيئاً لم يسر وفق الخطة. ليست الزلات غير شائعة حتى بين الجنود شديدي الانضباط. ثمّ وقع ما لا مناص من حدوثه. فلقد كان أحد الأعراب يســجد والبندقية في يده، فضغط على الزنـاد خطأ فشـقت الطلقة جزءاً من عقال جمّال، وتبخّر كل مظهر انضباط كالسّـراب عندما تقترب منه.

في غضون ثوانٍ، شـق عنان سـماء الصحراء إطلاق نار جعـل الذعر يدبّ في قلب ولـيَمسـون نفسـه. كان يمشـي بوقار هادئ خلال التحصينات لإعطاء الثقة للجمع. أما الآن، وحياته عرضة لخطر مميت، فقد ألقى بنفسـه على الرّمال منبطحاً. كان الأمر مثالاً حقيقيـاً لـ «معركة الرُّعب»، كما أعيد تسـميتها بشـكل آخر من قبـل جنود في الحرب العالمية الأولى. مضت ألســنة النار فوق الصحراء؛ رائحة لاذعة اخترقت أنوفنا، وكان الضجيـج مصمّـاً والخـوف معدياً. قبـل أن يتمكن المرء مـن قول لا إلـه إلا الله، كان

العـرب المعينـون على الجوانـب وفي المؤخـرة ينضمون بإطلاق وابل مـن الطلقات الناريـة. ولما لم يكن بمقدورهم رؤية شـيء في الاتجـاه المفترض أنهم يدافعون عنه، راحوا يلتفتون وأخذوا يطلقون النار عشـوائياً في اتجاه ذلك الجزء من الصحراء حيث ظهـرت بعض التحركات. هذا بالطبع زاد من الفوضى بما أن عدداً من أفراد جماعتهم كانوا في مجال إطلاق النار.

عبثاً كانت محاولات وليَمسـون لاسـتعادة السـيطرة. كان جميع الرجال يصيحون ويطلقـون النـار من حوله. دفع إطلاق النار في المؤخرة بعض من كان في المقدمة إلى الانسـحاب علـى عجل، لكن الاحتماء بحيث لم يكن ممكنـاً رؤية العدو، لم يحدّ من حيويتهم في استنفاد خراطيشهم. كان إصدار الأوامر لهؤلاء الناس عديم الفائدة كأنك تطلب من زوبعة في الصحراء أن تخمد. وثق وليَمـسـون بجمّاليه الخاصين والطريدين فـي أن يصوّبوا أسـلحتهم، لكـن معظم الأعراب الذيـن أطلقوا النار كيفمـا اتفق كانوا يهدرون الذخيرة بتصويبها إلى النجوم أو بشق ثلم غبار الصحراء قرب المخيم.

شـق طريقـه متلوياً إلـى وهدة بحيث لا يكـون عرضـة للإصـابة مـن الخلف من قبل أصدقائه، وراح يحدّق خارجاً باتجاه الغزاة الذين كانوا ينتشرون بسرعة. فتح عدد منهم النـار، لكـن لم يكن هناك أي مؤشـر أن الواحة كانت الهدف. بعـد أن وجد المدافعون العـرب أن لا أذى نجـم عـن ذلـك أصبحـوا أكثـر جسـارة. بـلا شـك أن المهاجمين سيصـبحون أكثر جرأة كذلك للسـبب ذاته، فخرج وليَمسـون متجهماً لمنع أي شيء من هذا القبيل. كان أول توهج زهري للشـمـس المشرقة يرسم حافة الصحراء، وأصبحت أشـكال متحركة ظليلة تلمح في ضوئها لهنيهة ثم تختفي ثانية وسـط غمام من الغبار. كان التسـديد الدقيق صعباً جداً، لكنه أطلق بضع طلقات لاذعة بدت أنها حققت الأثر المرجـو. فبدلاً مـن أن يطبق البـدو على الواحة انسـحبوا وانبلج الصبـح عن صحراء خالية.

كل العـرب بما فيهم الطواشـية الذين شـاركوا في ذعر الظلام، راحـوا الآن يزهون بأنفسـهم أبطالاً في ضوء النهار. أخذوا يتغنّون بإطراء أيضـاً، بأن الحاج عبد الله فضل

هو قائدهم المحارب، رغم أنهم لم يعيروه أدنى اكتراث خلال «المعركة».

حافظ وليَمسون على هدوء ساخر. ورغم أنه عاطفي في كل شيء له صلة بالدين والظلم الاجتماعي أو الظواهر الطبيعية كشروق الشمس، فقد كان لديه نصيب كامل من البرودة البريطانية التي لها عميق الأثر في نفوس رجال الصحراء الجامحين. لقد طبعت في نفوس الجماعة في الواحة وشدّت من عزائمهم، واكتفوا تماماً بأن يتبجّحوا بأنفسهم كمحاربين منتصرين. بثقة كبيرة به وبأنفسهم كان هناك أمل بإمكانية أن يُجعلوا أقل خطورة لرفاقهم وأكثر مهابة للأعداء قبل أن يتجدّد الهجوم. غير أنه لم يخبرهم أنه يتوقع أن يعاود البدو الظهور. بدلاً من ذلك، وبعد صلاة الفجر، ذكر بعض المدائح لعملهم النشيط في الليل تشجيعاً لهم وتذكيراً بجبروت الله وقدرته على الحفظ والحماية.

تحت أشعة الشمس الذهبية في الصباح، شعر الجميع بالابتهاج والتفاؤل. ورغم انقضاض المغيرين بالقوة، لم يُصب أحد بأذى ولم يُسلب شيء. غير أن التجّار من جماعة الحاج وليَمسون أبدوا عدم رغبتهم بالمكوث في الواحة أكثر من الوقت اللازم لتحميل الجمال. حتى الرجل الذي وُزّعت البنادق من تجارته كان مؤيداً لرحيل مبكر. كانت فكرته أن يجمع معظم الأسلحة ويترك بعضاً منها - بفضل من الله - لاستخدام جماعة الجوف.

لم يكن وليَمسون ليقبل بأيّ شيء من ذلك. فلو أن رجال القبيلة عادوا - كما كان يعتقد - سيكون النصر حليفهم بكل سهولة. وهم لدى تفرّق الجمع، سينقضّون على المنحوسين في الواحة أولاً، ثم سيلحقون بالقافلة التجارية لإتمام الضربة. كان البدو خبراء في اقتفاء الأثر في الصحراء مثل الهنود الحمر في الغابات النائية - ولم يكن الأمر يتطلب مهارة فائقة في تعقّب الأثر في هذه الحالة. لذا أخبر التجار بشكل حازم أنه وأعرابه لن يبرحا المكان ممّا بتر المسألة، ذلك أن التجار رغم شدة توقهم لترك الشيخ الطريد وراءهم، لم يجرؤوا على خسارة حماية الحاج الصادق المستقيم.

كانت مجموعة الجوف بشكل خاص سهلة الانقياد وطيّعة لرغبات وليَمسون.

واعترافاً بالجميل نتيجة لقراره بالوقوف إلى جانبهم، انصاعوا عن طيب خاطر للشروط المفروضة. كان أحدها أن يخضعوا التمرين عسكري مكثف تحت إشرافه. وكان هو، في تقديره الشخصي، بأتم الكفاءة على منحهم ذلك. ورغم أنه أقرّ بأنه لم تكن لديه أيّة تجربة مع جيش نظامي أو شعبي، فإنّ الخدمة في شرطة عَدَن قد منحته بعض المعرفة. أمّا الباقي فقد اكتسبه من الكتب، ومن التجارب المباشرة للقتال والغزو في الصحراء.

لم يوفّر الحاج وليَمسون نفسه ولا محاربيه المحتملين. وخلال إقامة أسبوع في الواحة، حوَّل المادة الخام غير الواعدة إلى قوّة مقاتلة. لم يرد المكان مسافرون آخرون في أثناء ذلك. ولمرة أو مرتين كان هناك بعض الفوضى. جاء فريق صغير من خيّالة البدو نهاراً للاستطلاع، لكنهم بقوا على بُعد كبير منهم. ثم اقترب واحد أو اثنان آخران ليلاً بشكل أكثر تخفياً وتم رؤيتهما في وقت مناسب كان فيه وليَمسون قد وزّع معظم قواته في مراكزها. وهكذا كان الانضباط المفروض إلى درجة أن لا طلقة تُطلق حتى يُعطي الأمر. عندئذٍ أُطلق وابل من النار كقصف الرعد فتراجع الكشافان كلمح البصر، بدون شك ليخبرا عن أحوال غير مواتية للمزيد من العمليات.

وبعد في مناسبة أخرى، انسلّ وليَمسون خارجاً مع جمّاليه والشيخ وولده واثنين أو ثلاثة من نخبة الرجال. استتروا خلف نتوء جبلي، وفي اليوم التالي بعد أن تحركوا قُدماً بترتيب مفتوح، هاجموا من مكمن عدداً من رجال القبيلة المتجهين نحو الواحة. عاد هذا التكتيك بفائدة جمّة إذ استولى وليَمسون على حصانين بلا خيّال، مما زرع قدراً كبيراً من المهابة في نفوس البدو إلى حدّ أنهم لم يأتوا بأيّ تحرك آخر من شأنه أن يهدّدهم.

على الرغم من الاستراحة القليلة في الواحة، استفاد أصحاب العلل والسقم من فترة الهدنة. استنفد وليَمسون معظم ما بقي عنده من مخزون الأدوية والمراهم، وفي حالة أو حالتين كان للمعالجة تأثير مفيد محدّد. كان الجميع قادرين على المغادرة في نهاية الأسبوع، وتم وضع أولئك المرضى غير القادرين على السير أو الركوب على

حمّالات تستند بين جملين. وهكذا زحفت القافلة إلى الجوف تحت حراسة مسلحة تسير على الجانبين، وكل رجل قادر امتلك بندقية كان يعرف كيف يحشوها ويسدّد بها ثم يطلق النار.

ليست هذه سوى واحدة من المغامرات الكثيرة في الصحراء التي جلبت للحاج وليَمون سمعة طيبة في شتى أنحاء الأراضي من البحر المتوسط وحتى البحر العربي. في جزيرة العرب، التي هي في معظمها صحراء وعملياً مجرّدة من أيّة وسيلة من وسائل الاتصال السريع، لكم كان مثيراً للدهشة كيف تنفذ الأخبار إلى أكثر الأماكن نأياً. بدون تشوّف للشهرة، حقق صيتاً كمحارب واحتراماً ليس بالقليل من جرّاء قدراته العلاجية للأمراض وطرد الجن الخبثاء. كان كل ذلك مفيداً له في حياته البدوية التي اختارها لنفسه، ولكن ما آمن به كقيمة حقيقية كان اسماً للتعامل المنصف بين القبائل.

عند الجوف افترق عن القافلة المشتركة التي أوصلها بأمان من الواحة. عُرضت عليه الهدايا مقابل خدماته فلم يتردّد في قبولها. كما أُعيدت بعض البنادق إلى المالك، وأخرى بيعت لبعض من تسلّح بها. وسمح التاجر لجمّالَي وليَمون بناءً على اقتراحه بالاحتفاظ بواحدة لكل منهما. أما الشيخ الذي أنقذه الحاج فقد قدّم له خنجراً رائعاً عريض النصل بقبضة مطعّمة بالعقيق اليماني، وأعطاه الابن خاتماً فضياً نقش عليه أحد أسماء الله الحسنى. كل الجمع بما فيهم النسوة هتفوا له بوصفه حاميهم، وضجّت المقاهي في الجوف باسمه وبمآثره. ومن نافل القول أن القصّة عندما تنتشر في الصحراء تنمو وينشأ عنها زركشات جميلة، كما يحدث عادة، لا تفيد إلا في إظهاره في ضياء أكثر روعة.

بصطحبة جمّاليه فقط، شقّ طريقه من الجوف باتجاه فلسطين، معرجاً على مضارب الرّوَلة وبني صَخر. وبعد تصدير بعض الإبل من يافا إلى مصر، عاد إلى شواطئ الخليج العربي عن طريق دمشق، وحلب، فالموصل، ثم بغداد والبصرة.

* * *

الفصل الحادي والعشرون

جِمال وكوليرا

كلما كان الحاج وليَمسون يقوم برحلات طويلة في الصحراء العربية، كان يصطحب معه جمّالَين مخلصَين يساعدانه في رعاية قطعانه، وقد تكون بندقيتاهما مفيدتين عند الحاجة. تحرّكت القطعان ببطء وهي ترعى على الطريق. وحتى يوفر المتاعب على نفسه كان في كثير من الأوقات يدفع الأعشار التي يفرضها رجال القبائل ليسمحوا له بالعبور من خلال أراضيهم، وكان أحياناً يجد من الضرورة تقديم هدية لشيخ أو زعيم. في شبه جزيرة العرب كانت الإبل تُشرى بالفضّة وتباع بالذهب، عادة في سوريا أو مصر.. أي بالذهب التركي. ولم يكن هناك الكثير من الربح في هذه التجارة.

ونتيجة للتغيرات التجارية، كان أداؤه يتحسّن كثيراً بين الفينة والأخرى. ففي بعض المواسم استطاع وليَمسون أن يشتري إبلاً صغيرة فُطمت لتوها مقابل ليرة تركية واحدة، أي ما يعادل أقل من ليرة إنكليزية في تلك الأيام، حوالي تسعة عشر أو عشرين شلناً. وكان يمكن له أن يشتري في صفقة واحدة خمسين أو ستين حواراً ثم يدفع ليرة تركية واحدة في العام وفوقها منحة إضافية لراعٍ مستقل مقابل الاعتناء بها. يتألف التعويض الإضافي عادة من مُد maund (وحدة وزن هندية تعادل 38 كغ) من تمر (حوالي 80 ليبرة)، ومُد من أرز وعباءة جديدة وبعض الأشياء الأخرى. يصل إجمالي الكلفة إلى ثلاث أو أربع ليرات تركية في العام مقابل تربية الإبل الفتية والاعتناء بها. عموماً في تجربة وليَمسون، كان سعر مبيع الواحد من الإبل يبلغ من ثماني إلى عشر ليرات تركية. وكانت الأعمار المقبولة لقطيع الإبل في السوق السورية والمصرية من ست إلى عشر

سنوات. اشترى في بعض الأحيان أثناء تجواله إبلاً بعمر ثماني إلى عشر سنوات مقابل ليرتين إلى سبع ليرات تركية وفق حالة هذه الدواب. وأتعس وأسوأ جمل مشترى من قطيع في جزيرة العرب يمكن أن يباع إلى حدّ عشر ليرات تركية في سورية. ويمكن أن يباع جمل جيد ضخم بخمس عشرة ليرة.

جعلت التجربة الطويلة وليَمسون، كأي جمّال عربي، خبيراً بالحكم على الدواب، والتعامل معها ومعالجتها من الأمراض التي تتعرّض لها الإبل. ومع مرور الوقت أصبح بمقدوره تعقّب آثار حوافر جمل شارد يحمل وسمه من بين مئات الجمال في قطيع آخر. في إحدى المرات ترك رجاله في المخيّم واقتفى أثر جمل مفقود لأميال في الصحراء ووجده وسط قطيع تابع لرجال قبيلة الصّلُبَة. دعاه بعض الرُّعاة البدو بشيء من الحدّة إلى تقديم التحية والاحترام لشيخهم قبل رحيله، ومدركاً أن الفظاظة قد تسبب شعوراً بالاستياء، اقتاد جمله إلى الخيام حيث استقبله الشيخ. تمّ تبادل الإطراءات الاعتيادية وأمنيات المجاملة، صُبّت القهوة وتم تدخين النرجيلة كرمز للصداقة، عندها علق الشيخ قائلاً: «إنه لبعير ممتاز وجدتّه في قطيعي يا حاج عبد الله. والله إنه ليساوي قطعة ذهبية لك، يا بني».

«إن الذهب عزيز يا شيخ».. أجاب وليَمسون دون اضطراب. «أسعى إلى الحصول على القليل من بيع هذا البعير المسكين وإخوانه».

قال الشيخ: «بارك الله فيك يا بني، ولكن من الإنصاف أن تعطيني عباءة مقابل السّماح لهذا البعير الرائع بالرّعي ضمن قطيعي».

لم يكن هو أو أي أحد من رجاله على علم بوجوده هناك. لكن وليَمسون غض الطرف عن ذلك ليبقي الحديث على المنحى ذاته من الكياسة.

«الله يشهد عليّ أن لا شيء كان يسعدني أكثر من ذلك يا شيخ. ولكن للأسف ما أنا سوى بائع إبل ولا أملك من الثياب إلا ما ألبس».

استمرّ الحديث بمودّة تامة بينما خفض الشيخ سقف طلباته على مضض إلى كيس

مـن حبّ القهـوة وبعض البارود وقليل مـن الملح. لم يكن لدى وليَمســون أي فائض ليستغني عنـه، ولديه كامـل الأحقية بتعقّب جملـه واسـترداده دون أن يترتّب عليه أي التزام. وفي نهاية جلسـة طويلة، تقدّم الشـيخ بطلب أخير: «ألن يرفض لي الحاج علبة ثقاب؟». لحسن الطالع كان مع وليَمسون علبة ثقاب كبريتي في محفظة معلقة بشريط مـن جلد غير مدبوغ على رقبته. فناوله إياها مع مباركاته المزيفة، وأدبر بنفسـه وجمله قافلاً إلى مخيمه.

خيم الحاج وليَمســون بين قبائل ضنا بِشـر من عُنِزَة وشـمَّر الشـمال أثناء عودته من بعض جولاته في برّ الشام. وهناك كان يقوم بشراء خيول بالذهب ليتاجر بها في الهند، وقد كان يأخذها في السـنوات الأولى من تجارته إلـى الزُّبير من أجل البيع والتصدير. ثم غدا لاحقاً يذهب بنفســه إلى بومباي برفقة الخيول وأحصـنة البولو، ولكن ذلك أمر حافل بالترقّب.

تعامل في البداية بشـكل شبه حصري بالخيول العربية الأصيلة. وبعدئذٍ أخذ يوسّع دائرة اهتمامه مع ازدياد خبرته ومعرفته في هذه التجارة. كان في بعض الأحيان يشتري الخيـول من بلاد الأراضـي المنخفضة مابين نهـري دجلة والفرات، لكـن معظمها لم يكن أصيلاً. كانت دواباً قريبة من الأصيلة شـبيهة بتلك التي يمكن الحصول عليها في الموصل وأثناء تجواله في بلاد فارس.

لـم يكن هـذا المنحى في الحياة، كما قـد يتخيل المرء، من النـوع الذي كان يمكن أن يختـاره وليَمســون الأب من بريسـتول لابنه الفتـي. كان سـيعتبر أن الاتجار بالإبل فـي الباديـة عمل محفوف بالمخاطر. لم يكن هناك عدم اسـتقرار مـادي فقط بل خطر جســدي أيضاً؛ لكن هذين الأمرين كانا صلصة فتح الشـهية بالنســبة لوليَمســون الابن في ما كان يمكن أن يكون حياة يومية مملّة. قادته جولاته إلى الكثير من أجزاء الشـرق الأوسـط التـي تعجّ بقطـاع الطرق، وفي العديد من المناسـبات كان عليـه أن يذبّ عن قطيعه المغيرين واللصوص معرّضـاً حياته للخطر. مع مرور الوقت أصبح معروفاً لدى العديد من شيوخ القبائل، وأصبحت الطرق عبر الصحراء بالنسبة له أكثر أمناً. لم يسمح

لأي مسؤول تركي في البلدات أن يقتطع من أرباحه، لكنه لم يستطع دائماً التهرّب من دفع الأعشار لزعماء قبائل البدو التي كانت تُطلب وفق الأعراف العربية القديمة.

حاباه الحظ واستمتع بالرّخاء أحياناً. وفي ثلاث أو أربع مرات خلال اثنتي عشرة سنة لم يبقَ لديه أي شيء من الدنيا سوى الملابس البدوية التي كانت عليه. لكنه صادق الكثير من العرب وكان لديه أصدقاء جيّدون كثر. كانت ثقته بالله الرّحمن كبيرة، وحمِد الله على هؤلاء الإخوان في الدين في ساعة العسرة. لم يكن يبتهج بالغنى ولا يكتئب بالفقر. ومثل باقي الكثير من المسلمين الصّالحين، كان يعطي بسخاء عند المقدرة ويعدّ ذلك امتيازاً. كان في أوقات الشدة يتقبّل المساعدة بكل رحابة صدر مانحاً بذلك الفضل لغيره. كان الفرق بين الغنى والفقر بالنسبة له، وهو يمارس الحياة البدوية في الشرق، أقل بكثير مما كان من الممكن أن يكون لأي موظف مرموق في الغرب.

كانت رغباته بسيطة ولم يكن يسمح لأي محنة أن تفقده لبّه أو تمسك بخناقه. لقد أعطته العقيدة الإسلامية النظرة الفلسفية لأمور ربما كانت سابقاً لتثير فيه امتعاضاً عميقاً. وعلى ذلك حظي بالطمأنينة في أسفاره الشاقة ومساوماته الصعبة. إنّ اللهاث وراء المنصب والأمان الذي يبقي الكثير من أهل المدن في العبودية لم يعنِ له شيئاً. كان يعتبر أن الثراء ليس في الذهب التركي ولا في الخيول والجمال، بل في السّماء الزرقاء عند منتصف النهار والنجوم البيضاء في الليل والصحراء الصفراء الممتدة إلى ما لانهاية... إنها الحرية التي من أجلها خسر حق مولده الإنكليزي.

لقد وجد العديد من الأجانب – من مستكشفين ورحالين وجنود – سحراً في الهيئات والأمزجة المتغيّرة للصحارى العظيمة في الشرق الأوسط. كما ابتدع كتّاب شاعريون صحراء خيالية وجعلوا فيها شخصيات من شيوخ وسيمين شيمهم الشهامة وفتنتهم للنساء لا تقاوم. لكن قد نعطي صورة مضللة ونجعل حياة وليّمسون في الصحراء مثالية إذا تشدّدنا كثيراً في وصف جمال شروق الشمس وغروبها والسماء الزرقاء مثل الياقوت والرّمال الذهبية والسّلام الهادئ للواحات والأودية المفروشة بالأزهار البرّية بعد المطر.

كان له نصيب وافر، من خلال عيشه لسنوات كبدوي، من المناظر المبهجة والطقس

المشرق والصحبة الطيّبة للبدو العرب في جو يعبق فيه أريج القهوة المرّة. لقد تعرّق في حرّ الصيف اللاذع وعانى من ضراوة العواصف الرملية؛ ورجف في برد شتاء ما بين النهرين عندما تصبح الصحراء بعد مطر شديد مستنقعاً يشبه غراء السّمك. لكن هذا لم يكن محض وجود أو منهج حياة له، بل كانت الحياة نفسها - الحياة التي أحب، المؤلفة بشكل رئيس من الأمور التي يرضى تماماً معظم الغربيين أن يخوض آخرون تجربتها عنهم بالوكالة.

ربما في هذه الأيام العصرية التي توفّر فيها الضمان الصّحي من المهد إلى اللحد، قليل من البريطانيين هم من يرغبون بالتجوال خارج دائرة عيادة الطبيب. كان هذا الانقطاع عن مساعدة طبية خبيرة من المساوئ الكبيرة في حياة وليّمسون البدوية. وشكّل في بعض الأوقات خطراً جسيماً حقاً، ونجاته حياً وإن لم يسلم من ورطات في أماكن صحراوية نائية، توحي بأن الله بالفعل يعتني بعباده المخلصين.

من أكثر هذه المواقف تهديداً والتي وجد نفسه فيها، كانت أثناء زيارته لمضارب ضخمة لقبيلة المُنتفق بين قريتي الدّفينة Dafineh والنّبا Neba في صحراء غرب الفرات. كان ذلك بسبب تفشٍّ مفاجئ للكوليرا.. وبدت تلك له ظاهرة استثنائية، ذلك أنها حدثت في بلاد مكشوفة خلال حرّ الصيف اللافح.

خلال وقت قصير أتى الوباء على معظم المخيّم. مكث وليّمسون في المخيم بالرّغم من الإغراء الشديد الذي ساوره بمغادرته لدى وقوع الإصابات الأولى. كان الغرض من زيارته فقط لمجاملة الشيخ الأكبر، الذي طلب منه جمع بعض المستحقات عن المحاصيل المزروعة في المنطقة. كان الناس الذين تعرّضوا لهذه المحنة الرهيبة من المرض، أكثر جهلاً وعجزاً من أولئك في لندن أثناء فترة الطاعون الماحق. وفي حين أنه شاركهم الإيمان بقدرة الإله الواحد ورحمته، كان يستشيط غضباً من نحيبهم وسلوكهم المسعور باسترضاء الجنّ والشياطين. حمل إهمال التدابير الصحية الوقائية نذر الموت بالجملة للقبيلة، وبالرغم من تعنيفه الشديد ضد هذه الحماقة العامة فإن نصيحته لم تلقَ آذاناً مصغية.

كان عـدد مـن الرّجـال والنسـاء والأطفال يموتـون يوميـاً. وأخيراً وفـد إلى خيمته الشيوخ الذين كانوا يشـجّعون على اسـتعمال السـحر والتعويذات خجلين مخزيين. قـال الناطق باسـمهم: «أجل يا حاج عبد الله، إنـك رجل ذو معرفة بعجائب تخفى عن الرجال المولودين في خيام المُنتفق. سـوف نـستمع لكلامك. لقد قرأنا سوراً كثيرة من القرآن، ورفعنا صلواتنا إلى الله الرّحمن. هل من ثمة شيء آخر نستطيع فعله لطرد هذا الشر عن خيامنا؟

«نعم هناك»، أجاب وليَمسـون باقتضاب. «يكمن في عالم ما وراء الصّحراء الكثير من العجائب والأسـرار. لقد أُلهمتها بفضل مـن الله قبل أن تقع عيـناي على أراضـي ما بيـن النهريـن العظيمين. وهذا البلاء الذي أصاب شـعبكم يمكن أن يُرقأ. أقسـم بلحية النبي على هذا. ثقوا بالله.. وأطيعوني».

أبدى الوفد القبول مصرّحين بذلك بآن واحد. عندئذٍ أصر وليَمسون بأن يكون لديه مطلـق الصلاحيـة في كامل المخيـم. وقد أدّى ذلك إلى أن يصبح كبير الشـيوخ خلال فتـرة الطوارئ مدعوماً بشـكل ثانـوي من قبل الشـيوخ العرب. بموافقتهـم على هذا، ووعدهم بضمان أن يُطاع كل أمر له بدقة، تولّى زمام الأمور وأصدر أمره الأول.

«اجمعـوا الشـباب.. كل من عنده القوة ولـم يمسسـه هذا البلاء. يجب أن يسـمعوا كلامي وأن يفعلوا ما آمرهم به».

رتّب لهم موعد الاجتماع ومكانه في فسـحة مكشـوفة بين المضـارب وموضع مياه صـغير من الفرات. وأمرهم بعدم التجمّع مع بعضهم، بل الاصطفاف في أنصاف دوائر ليسـمعوا مـا كان يريـد قوله. لم يتبع شـيوخَ المخيم الرجالُ فقط، بل عديد من النسـاء المتلفعات بالعباءات السـوداء اللاتي رحن يلوّحن بأذرعهن المثقلة بالأساور وينتحبن كالنائحات. بينما كانوا يتجمعون، تسـلق الحاج وليَمسـون كومة من قطع مسـطحة من روث الإبل (الجلّة) كانت النسوة قد جلبتها لاستخدامها كوقود.

كان للمشـهد صبغة توراتية مناسـبة لهذه البلاد لوجود الكثير من الروابط مع العهد

القديم. كان للحاج الإفرنجي الشاب شكل مهيب بالكوفية المتدلية والعباءة البنيّة واللباس الأبيض التحتي بينما كان يقف على أكمة، يده على مقبض الخنجر وهو يلقي نظرة شاملة على الناس. بقي بعضهم واقفاً، بينما جثا الآخرون أو جلسوا أو تمدّدوا على الأرض. وكانت الإبل في الخلفية الخضراء ترعى بسلام، غير واعية للّعنة التي حلّت بالمخيم.

صدر أنين خافت غريب عن الحشد بالرغم من محاولات الشيوخ لإطباق الصّمت. ولاحظ وليَمسون أن عدداً من المحاربين الشبّان كانوا بين أولئك الذين يتمايلون ويتلوّون من اليأس.

قطع صوته بحدّة هذا الصوت الخفيض المتنافر واسترعى الانتباه. تكلم بلهجة المُتفق المحلية، ملقياً كل كلمة بوضوح وبشكل متقطع. أولاً، أخجل المحاربين الشباب من القبيلة، وأدّى التغيّر التدريجي لوضعياتهم الجسدية إلى إعطائه الأمل بأنه كان يضع بعض العزيمة فيهم.

قال: «أنتم رجال محاربون، عيونكم صافية وقلوبكم عالية عندما تركبون للغزو. لا تهابون الموت من الطلقات المتطايرة، بينما تتصرّفون الآن كأنكم أطفال صغار عندما يهدّدكم الموت بهيئة أخرى».

اختار كلماته بحذر، يوبّخهم تارة ليحضّهم على دفع هذا الخوف الذميم من المرض، وتارة يشجعهم ويطمئنهم أن بمقدوره كبح هذا الوباء.

بالرغم من أنه لم يكن لديه أبسط الوسائل الطبية من أي نوع لتخفيف معاناة المصابين، فإنه كان يأمل بتحقيق شيء عن طريق فرض إجراءات صحّية صارمة. لقد حقق نجاحاً أولياً عندما منح الثقة لرجال القبيلة. والحاج وليَمسون، صافي العينين المفعم بالنشاط والحيوية، الذي يستمدّ قواه من الأيمان الدينية، بمكنه أن يؤثر في أناس متعلمين أكثر بكثير من هؤلاء العرب الرّعاة.

لم يكن هناك حاجة بالشيوخ المساعدين لفرض الأوامر عندما شرح ما يجب أن

يُفعل. تطلبت بعض هذه الأوامر تضحية من الأفراد الأكثر فقراً في مجتمع المخيم، ومع ذلك تمّ الالتزام بها دون اعتراض. كانت للملابس المستعملة قيمة في عيون الكثيرين، وكذلك أواني الطبخ وقدور الطعام وأصناف منزلية أخرى. تمّ دفن الأموات، وجمع كل متعلقاتهم وحرقها في حرائق ضخمة بدلاً من أن تؤخذ وتستعمل من قبل أقربائهم أو أصدقائهم.

أصدر قراراً ألا يأكل أحد اللحم والأرز والفواكه والخضار. بل سمح بالغذاء على مخيض اللبن لبعض الوقت، ولكن أجاز لاحقاً خبز الشاپاتي الهندي Chapattis. وفرض أن تغلى المياه كلها. ثم أصدر مرسوماً صارماً ضد شرب الكثير منها، لكن كان من الضروري استخدامها من أجل الغسيل وضمن شعائر الوضوء قبل الصلاة، وسمح بالمضمضة بها.

هناك رجال في ديرة المُنتفق اليوم يروون كيف أن الحاج عبد الله فضل الزُّبير بقي في تلك المضارب بالقرب من الفرات، الموبوءة بالكوليرا، ليكافح من أجل أرواح أصدقائه العرب. البعض منهم كانوا صبية بلا لحى في ذلك الوقت، لكنهم يتذكّرون شخصيته المشرقة وشجاعته المُلهمة؛ وكيف أنه في النهاية عندما أخذ الوباء بالانحسار قام بجولات تفقّدية أخيرة لمواساة الآخرين بينما كانت عضلات وجهه تتقلص بين الحين والآخر في تشنّجات لا إرادية من الألم.

في البداية أوصد وليَمسون فكره بعناد عن احتمال أن يكون قد التقط العدوى. كان مغصاً بسيطاً فقط، ليست تلك الكوليرا البغيضة. لقد رأى ضحايا بدوا بصحة جيدة ظاهرياً في الصباح، وبحلول المساء يلتوون ويتلولبون في عُقدٍ من العذاب الأليم. والله إنّ مثل ذلك لا يمكن أن يحدث له، وينبغي ألاّ يحدث! ازداد القلق مع آلام عنيفة أكثر، فأرغم نفسه على شرب حليب النوق المخثر. منعته قوة الإرادة من الخضوع إلى أن طالعته الأعراض الخطيرة بالحقيقة المروّعة.

تحوّل في بضع ساعات إلى حطام ملتوٍ بوجه غائر هرِم وعينين جاحظتين. ولمّا بدا جحيماً سرمدياً، كان واعياً فقط للألم ونحيب النائحات. في نصف دائرة عريضة

أمام الخيمة حيث تمعّج على حافة الموت، كان عدد كبير من الرجال والنسوة العرب يولولون في حداد سابق لأوانه.

لم تتعرّض بنية جسمه الممتازة لامتحان أشدّ وأقسى قطّ، وكان من المصابين القلائل الذين نجوا من هذه المحنة. بسبب تعليماته المبكرة، تم إعطاؤه العلاج الموصوف لكل المعانين: القليل من الماء البارد المغلي لتسكين العطش الحاد، لبن النوق المخثر للتغذية وأدثرة سميكة للحفاظ على دفء الجسم. لم تكن أبسط العلاجات في تلك الأيام - صبغة الأفيون أو حتى زيت الخروع - متوفرة. لكنه استردّ عافيته تدريجياً، وهو يحمد الله على رحمته ويوبّخ المُنتفق لشجارهم المتواصل والمحزن.

قبل أقل من عشرين عاماً، اكتشف العالم كوخ Koch جرثومة كومّا باسيلّوس Comma bacillus المتجة للكوليرا الآسيوية. كان الداء مستوطناً في بلاد ما بين النهرين، ومن المحتمل أن يكون الوباء الذي اكتسح مخيم المُنتفق من النوع المعروف بكوليرا الصيف أو كوليرا نوستراس nostras. إنّ أعراضهما متطابقة عملياً، لكن بما أنه لم يتواجد مسؤول طبي مؤهّل من أول الأمر إلى آخره، فإنه من المستحيل تقديم تشخيص دقيق. لكن يمكن الحكم بأن التفشّي كان شديداً من عدد الوفيات المرتفع قبل أن ينال المخيم البرء الصحّي التام.

إذا كنت ترغب بزيارة الشرق الأوسط في تلك الأيام، ما إن تتلفّظ بعبارة «إلى بغداد» إلا ويبدأ التركيز بشكل خاص على النظافة، كما يجب أن تُلقح ضدّ الجدري وأن تُطعَم ضد الكوليرا والتيفوئيد وغيرها. ومن الممكن أن يقوموا بتبخيرك قبل أن تخطو خارج الطائرة. وإذا تجوّل أجنبي في تلك الأيام في العراق وجزيرة العرب دون الخضوع لأي من تلك التدابير الوقائية، كان الطبيب ليصرّح بأنه يضع روحه في كفيه، ولن تجيز السلطات ذلك على كل حال. لكن الحاج وليَمسون في أواخر التسعينيات لم يكن لديه أيّة معززات مناعية سوى القوة الطبيعية لجسده في مقاومة الأمراض. لم يكن التطعيم قد اعتُمد على نطاق واسع من قبل الأطباء الذين كانوا منهمكين أكثر من اللازم بالحجامة بالعلق. وهكذا ذهب الحاج المولود في بريستول ليعيش مع البدو

في الصحراء غير محصّن من هذه الناحية، وربما كانت تلك أكبر مخاطرة له في هذا المشروع.

كان عموماً يراوغ ويلتفّ على اللصوص الذين كانوا مصدر بلاء في بعض المسالك التي يجتازها. حتى عندما كان يسافر وحده كان أصلب وأقوى من أن يؤخذ من قبل نُهّاب عاديين من البدو. كان على الدوام ينام ورأسه على قوائم الإبل، ذلك أنّ الدابة قد تدربت على النهوض فوراً عند أقل اضطراب، وبذلك يتمّ إيقاظ الحاج أيضاً. في إحدى المرات، بينما كان مسافراً لوحده بين جدّة ومكة لأداء حجّته الثانية، تعقّبه لصّان كمن لهما أخيراً وتحدّاهما. كانا قاطعي طريق من أسوأ الأنواع مستعدين للقتل والسّلب، لكنهما غيّرا رأيهما بالنسبة إلى هذه الضحية المحتملة عندما أحاطت بهما بندقية مارتيني هنري اللامعة. وبعد أن أسدى لهما نصيحة خير، طلب وليَمون منهما الوقوف على مسافة آمنة ليبرهن لهما كم كانا محظوظين بعدم محاولة التحرّش به. ومن ثم قام بعرض وجيز لمهارته في الرماية برشق ثلاث طلقات متتاليات في ساق شجيرة على بعد مئتي خطوة منه.

دار في مدينة جدّة

يمكن لأحد أنواع السرّاق سَلّ حقيبة ظهر أحدهم من تحت رأسه وهو نائم دون أن يوقظه؛ ولدى الجند البريطانيين خبرة طويلة بهذه الجماعات اللصوصية ذوي الأيدي الخفيفة في الحروب العالمية. كان هناك أوقات عانى فيها وليَمسون من سلبهم؛ وأوقات أيضاً دفع فيها السرّاق الثمن غالياً لثقتهم المفرطة. بالمجمل والأعمّ، مضى في طريقه غير منزعج من تهديد اللصوص والمغيرين وخطرهم. ولم يكن من الصعب عليه كشفهم. كان يحمل سلاحاً ويعرف العلاج الناجع لهم. أما المرض فلم يكن ملموساً، وكان من المستحيل في بعض الأوقات تعويض النقص من حبوب ومراهم ذات قيمة علاجية. وعندما تتواجد لديه علاجات للأمراض الشائعة، كان يستعملها بحرّية على الآخرين. كان أحياناً يتواجد على بعد مسيرة شهر بالجمال من أقرب طبيب مؤهل أو محلّ لبيع الأدوية دون أن يكون عنده أي شيء يتناوله في حالة المرض.

كان بمقدوره الحكم على أخلاق شخص بدوي غريب بشكل أفضل من تشخيص أعراض أي داء. بالطبع أصبحت الملاريا المتكرّرة مألوفة لديه، ولم يكن هناك أي صعوبة بالتعرف على البثور والقروح الآسيوية أو حتى «بُرعم بغداد». أما آلام المَفْص المُبرحة فكانت في فئة مختلفة وقد تكون أعراض اضطراب بسيط أو داء خطير. نادراً ما كان بمقدوره أن يجزم بتلك أو من بكثير من الأوجاع، التي عادة ما يكون قاطنو الشرق الشاعري عُرضة لها بشكل خاص.

في إحدى المرّات في صحراء الدَّهناء جنوب الكويت وبعيداً عن أيّة معونة طبية، وقع فريسة مرض شديد لعلّة في معدته. كان في مخيم مع بدو من بني هاجر Hajar في ذلك الوقت، وقد نال عظيم استحسانهم بعد أن منَّ عليهم بمعالجة بعض إبلهم بنجاح من داء الجرب الشائع. في بعض الأماكن، كان باستطاعتهم الحصول على النفط الخام الذي كان فعالاً إلى درجة ما، لكن لم يتوفر آنئذٍ أيّ منه. صدف أن كان مع وليَمسون كمية وافرة من مرهم أعده بنفسه من وصفة أعطاها له بدوي مسنّ من جنوب شمَّر: خمسة مقادير من الشِّيح (نبتة عطرية)، ثلاثة مقادير من الكبريت، مقدار واحد من الملح الصخري، نصف مقدار من الحجر الأزرق ونصف مقدار من الزئبق.

تطحن هذه المكونات وتخلط مع الزيت، وتُدهن بالعجينة الناتجة المناطق المصابة بعد إزالة الشعر عنها. شفيت الإبل وتعافت، ولكن الحاج وليَمسون جلب مشكلة لنفسه ولرجال القبيلة الممتنّين.

مستلقياً في ظل خيمة من شعر الماعز، شعر بالمرض لدرجة أنه بالكاد استطاع أن يعطي بضع تعليمات أخيرة لجمّاليه. لقد استولى عليهما غمّ بالغ من أجله، لكن الآلام المبرّحة توقفت وجهّز بنفسه لإمكانية الموت بارتياح. أخذ بترتيل بعض السور الجميلة من القرآن وهو يعدّ نفسه للانتقال إلى نعيم السماوات التي وعد بها النبي عليه الصلاة والسلام.

قطع عليه هذا الحلم بالجنان وصول امرأة من البدو. تربّعت تحت الشمس بمواجهة الخيمة المفتوحة، ووضعت حزمة كبيرة على الرّمال. لم يكن وليَمسون شديد السرور بها. وبلغ من الوهن درجة أن الإصغاء إلى الحديث أجهده. كان حديثها هينمة لعدم وجود أسنان في فمها. ولكنه استنتج من الهراء أنها بفضل مداواته للإبل، ستعطيه العلاج السحري الذي أبقته سرّاً حتى تلك اللحظة حتى عن أقرب أقربائها.

لم يكترث العليل لكلامها. لقد سبق وتحمّل بأناة شعوذات رعاة الإبل الذين أرادو به خيراً، وقد لبس تحت ثوبه تشكيلة من التعويذات حتى لا يسيء إلى مشاعرهم. لقد عنت العجوز خيراً، وكان يكره أن يجرح مشاعرها. وما يهمّ على كل حال؟ لن تحدث تميمة أيّ فرق تقريباً. لكنه تمنّى ألا يتضمّن الدواء السحري ابتلاع رماد مقدس أو نثريات غير معروفة. مستلقياً هناك في الظل، راقبها الحاج وليَمسون وهي تبدأ بفتح الحزمة التي رُبطت بجلد ابن آوى الجرب. وذكّره مظهرها بشكل مبهم بالساحرة في قصص الجنّيات في طفولته. بينما كانت يداها البُنيتان اللتان تشبهان المخالب تزيلان القطع الجلدية، عنّفت المريض لرفضه شرب جرعة كبيرة من بول الإبل للتطهير.. وهو علاج بدوي محترم على مرّ العصور يقال إنّ له تأثيراً فعالاً. وبالرّغم من كونه أحمق وعنيداً جداً، فهي ستساعده بسبب كرمه وجوده بالمرهم الثمين الشافي لجرب الإبل. كان لديها في هذه الحزمة مسحوق سحري أعطت من أجله رجلاً هندياً عنزة

وجديـن منذ أشـهر عديدة في ميناء خليـج الكويت. لـم يعرف أحد أنـه بحوزتها. لقد حملته بحرص لمئات الأميال في الصحراء، تحرسه وتصونه لحالة طوارئ خاصة.

لقـد كان ذلـك غاية في الغمـوض. وعلى الرغم مـن حالته الواهنة، بدأ وليَمســون يشـعر بالفضـول حول هذا «السـحر الكبير». لقد أخـذت المرأة العجـوز وقتاً طويلاً، ولكـن تحـت قطع الجلد كان العديد مـن الأثواب القديمة، خرق باليـة وجريدة هندية مجعّـدة بتاريـخ غابر. قامت بإزالة كل غـلاف ببطء قاتل وجعلت تبسـطه على الرمال بحرص. ذكّر أداؤها وليَمســون بطريقة ما بخدعة صناديق ضمن صناديق كان يقوم بها الصّينيـون، وعندما تصل إلى الصـندوق الأصغر تجد في داخله تمثالاً صغيراً جداً لإله المـال وعليـه ابتسـامة عريضة. ومـا زاد من حنقه هـو أن المرأة البدويـة توقفت عندما أصبحت الحزمة بحجم نصف كرة قدم. وصلت فتاة صغيرة يكسـوها ثوبٌ واحد بالٍ تحمل على رأسها جرّة ماء وبيدها قدر خشبي. يبدو أن العجوز، جدّتها، قد طلبت منها إحضـار الماء وهي توبّخ الطفلة الآن لتأخرها. انتبهت الفتاة قليلاً. وضعت الجرّة على الأرض ثم جلسـت على عقبيها القرفصاء بشـكل يلمح إلى حماسها لتولي القيام بدور تلميذ الساحر المشعوذ.

متمـدّداً علـى ظهـره وواضعـاً رأسـه علـى قتـب جمـل، راقـب الحاج وليَمســون التحضيرات المطوّلة بفارغ الصبر. إن جوّ الغموض الذي أحاط بالإجراءات كان مثيراً للغيظ على نحو اسـتثنائي، ذلك أنه شـعر بأن الأمر على الأرجح لا يعدو كونه عجوزاً سـاذجة خُدعت من قبل بائع ماكر. وبينما كانت تزيل وتبسـط الغلاف الداخلي، وجد القدرة في صوته ليسألها عن ماهية المسحوق وكيفية استخدامه.

«أي بني سأريك أعجوبة لم تَرَ من قبل». أجابت العجوز. «ألا يقال في خيامنا إنهم في الهند يعرفون أسـراراً عظيمة محجوبة عن عقولنـا؟ هذا الهندي الذي تحدّثتُ معه خارج جدران الكويت كان ساحراً عظيماً وشافياً في بلاده. سمعتها من فمه».

ابتسـم وليَمسـون بضعف وقال: «لقد ساق الله خطاك إليه».

«كان ذلـك مقدّراً يا بنيّ»، قالت البدوية. «لقد أخبرني الهندي عن أعجوبة عظيمة: مســحوق يجعل الماء يغلي. لم أكن لأصدقه في البداية، سـامحني الله. أخذ قليلاً من المسحوق وأثبت ذلك، ثم شرب هذا الماء ليريني كيف يمكن تناوله دون حرق الفم. أقسم أن غليانه سيطرد كل الجن والعفاريت وبذلك يجلب الصحة بسرعة إلى الجسد المعذّب».

تلمســت أصابعهـا بعض الحبـال الليفيـة الملفوفة حـول الجريدة الداخليـة، فعلّق وليَمسون بسأم: «ألم يحزن على مفارقة هذه الوصفة السحرية الثمينة؟».

أجابت المـرأة: «كان رجلاً وليّاً يا بني. كانت كلماته لـي أن إرادة الله فرضـت عليه أن يتنـازل عنهـا لأول بـدوي يقابلـه خـارج البلدة. شـخص جديـر بهذه الهديـة ومُقرّ بالجميل».

«واختبـار عرفـان الجميل هو التنـازل عن عنزة وجديين؟» تمتم المريض بابتســامة باهتة. «ماذا حلّ الآن بهذا العلاج السحري؟ هل أخذه الجن؟».

أخيرا قامت اليدان البنيّتان المتعثران بفكّ الأشرطة الليفية.

«إنه هنا! إنه هنا يا بني!» بينما هي تقول ذلك أبعدت المرأة البدوية الجريدة القديمة وحملت عالياً زجاجة شبه ممتلئة بمسحوق أبيض. أحكم حاج وليَمسون نظره المتعب عليها، وقرأ الكتابة على اللاصقة: «ملح الفواكه - إينو».

من المثير أن هذا الاكتشـاف لم يأتِ مخيباً لظنـه. لقد كان عقله معطلاً حتى يتحرّز حول العلاج، وما رآه فاجأه على نحو مرضـي. لقد دفعت العجوز مبلغاً باهظاً من أجل شـيء يمكن الحصـول عليه مقابل روبيـة واحدة في محلات بيع الأدويـة في بومباي، ولكن ما لديها هو شيء نافع ويمكن شربه.

إن كرمها لا حدود له، إذ أنها كانت ستصب كامل محتويات الزجاجة في قدر الماء الخشـبي الصغير الذي تحمله الفتاة، ولكن ســرعان ما نهاها وليَمسـون عن هذا الهدر. وحتى يدخل السرور عليها أخذ جرعة عادية وشعر بالانتعاش بسبب الفقاعات الغازية

الباردة. عندها وبصعوبة بالغة حملها على شرب القليل منه ليثبت لها أن حرارة الماء لم تتأثر «بالمسحوق السحري».

لم يعتقد بأحسن الظروف أن جرعة من ملح الفواكه ساهمت كثيراً في شفائه النهائي. إن بنيته القوية بلا ريب قد حملته على تخطّي هذه المرض وعدّة أمراض أخرى. دون زعزعة إيمان المرأة البدوية من غير ضرورة بقدرة هذا المسحوق، شرح لها استخداماته وأعطاها حواراً (صغير الإبل) مقابل كمية صغيرة منه إقراراً بلطفها. فيما بين البدو الذين يعيشون بعيداً عن أي حاضرة، لم يكن من المدهش أن شيئاً صغيراً مثل هذا، مجرّد صنف شائع ومتوفر في كل بيت بريطاني أو أميركي، يمكن أن يتّخذ حجم ظاهرة فريدة.

وفي مناسبات أخرى، اعترضت طريق وليَمسون أشياء منزلية بسيطة وعلاجات من العالم الخارجي بخواص سحرية في خيام البدو النتود. وعندما راح يخبر بعض رجال قبائل البرّ الداخلي الأفحاح عن الدرّاجة والفونوغراف، أحس أنه يضيّع نفسه. فمثل هذه الأشياء لم تكن بالنسبة لهم سحرية فحسب، بل كانت مبهمة تماماً.

* * *

الفصل الثاني والعشرون

صفقة خيول في بومباي

يتنافس بائع الخيول في الغرب الأوسط من أميركا مع البائع المتجول من حيث المزاح والمراوغة. لكن الأمر مختلف في جزيرة العرب، إذ يُعدّ بائع الخيول هناك شخصية من الطراز الأول بحق، مثل وكيل الرّهانات البريطاني، وكلمته عقد ملزم. على كل حال، كان الوضع كذلك مع بضع استثناءات نسبية في الأيام التي كان الحاج وليَمسون يطوف فيها الشرق الأوسط. إن فكرة الأمانة عند بائع الخيول – أو بائع السيارات، إذ أنّ الشيء بالشيء يذكر – يمكن أن تثير ابتسامة ساخرة عند المشككين. مع ذلك فمن الحقيقي في الواقع أن بائعي الخيول في جزيرة العرب كانت لهم سمعة طيبة، وهي لا تعدّ مرادفة لحبّ الصدق من أجل الصدق. تقريباً وبغير استثناء، كان البائعون المحترفون صادقين لسبب بسيط هو أن التاجر المخادع سرعان ما يكتشف أنّه ليس لديه زبائن يشترون خيوله.

اتّبع وليَمسون التقليد المحترم عبر الزمن في البيع والشراء. في طريق العودة من سوريا كان يبتاع الخيول عادة لتجارته في الهند من رجال قبيلة العَنزة. كان يبيعها بشكل عام في الزُّبير، وكان يترك رجاله خلفه ليعتنوا بها في مكان التخييم على مسيرة يومين أو ثلاثة من البلدة الصحراوية بينما كان ينطلق على حصانه سابقاً لهم ليدبّر أمر إيوائها في إصطبل وعلفها. في بعض الأحيان كان يجتمع سلفاً بمشترين محتملين أيضاً، وكانت المساومة تجري في ديوان أحدهم أو في محلّ لبيع القهوة. كان ذلك يحدث عندما لم يكن ينوي الذهاب بنفسه إلى بومباي، ولعدة سنوات لم يغامر بالذهاب إلى الهند بسبب موقف السلطات البريطانية منه.

لم يكن المشترون والسماسرة العرب يطلبون أن يروا الخيول. وحيث تمّ ترسيخ نظام المتاجرة حسب التقاليد، تجري المساومة طبق قوانين غير مكتوبة نادراً ما يُستهان بها. فعلى سبيل المثال، يسأل المشتري المحتمل عن مكان شراء الحصان وكم دفع ثمناً له، وما هي خصائصه وحالته الراهنة. على تلك وعلى أسئلة أخرى، كان الحاج وليَمسون يعطي إجابات صادقة. لقد كان العرب يرضون بكلامه، وكان من الممكن أن يلمّح أحدهم بأدب إلى أن ذاكرته قد خانته في بعض النقاط. فكان يبرز في تلك الحالة سجل عمليات الشراء ليوضح الأمر. لم يكن سماسرة الزُّبير يبتاعون من أي بائع إلا ممّن يثقون أنه يحتفظ بسجلات صادقة يمكن أن يبنوا عليها عرضهم للخيول التي لم يروها.

عندما تكون كل الأوراق على الطاولة كما يقال، يكون لكلّ طرف الحق بالحصول على بعض الحسومات، وهذا ما يفسّر المحاورة الطويلة في بعض الأحيان. عموماً كان السّماسرة يعرضون على البائعين ما بين اثنين إلى أربعة في المئة على سعر شراء الحصان المدفوع لرجال القبائل. وإذا كانت الظروف في بومباي جيدة بشكل استثنائي ربما رفعوا عرضهم إلى خمسة في المئة، ولكن نادراً ما يكون العرض أعلى من ذلك. ويمكن أن يبتاعوا الخيول بثمن مئتي إلى ألف روبية للحصان الواحد بهذه الطريقة، ولكن مهما دُفع، فإن العملية كانت دائماً تنطوي على مقامرة كبيرة إلى حدّ ما.

كان البدو يتفاخرون بنقاء سلالة خيولهم، وكان وليَمسون يبتاع الكثير من الرؤوس الممتازة خصوصاً من قبيلتي العَنِزة وشمَّر الجَربا. لقد كانوا شديدي التدقيق في طرق التناسل إلى حدّ أن الحصان العربي قد تراجع فيما يخصّ الحجم والجودة خلال عدّة عقود خلت. كان المربي البدوي يفضّل أن ينزو على فرسه فحل شديد الهُزال ولكنه من سلالة نقية على أن يطأها فحل رائع ولكنه من نسب مشكوك فيه. وسبب آخر للتداعي هو امتصاص السّوق الهندية لبعض أفضل الفحول الأصيلة.

في الأوقات التي كان وليَمسون يتاجر فيها، كان يمكن لحصان أو مهر أن يجلب ثلاثة أو أربعة أضعاف ما يمكن أن يجلبه رأس من نسب مشكوك فيه مهما كانت صفاته

الأخرى. وأصبح حسَن الاطلاع على طرق وعادات القبائل الرئيسة المنتجة للمخزون العربي من السلالات النقية. عندما يزداد عدد الأفراس عند المربي البدوي، كان يبيعها لكنه يبقي عليها الرَّسَن (لجام الرأس) بشكل دائم تقريباً، مما كان يعني أن له حصّة في كل حصان باعه. ولم يكن من غير الشائع أن تنتهي ملكية فرس ما إلى شركة أربعة رجال، لكن جميع التعقيدات تم تغطيتها من قبل القوانين المرعية غير المكتوبة. أبداً لم يتدخل المالك الأصلي الذي أبقى رسناً على الدابة بطرق شريكه في الإطعام أو التربية أو التدريب إلا في حالات نادرة جداً. وإذا تعرّض الشريك أثناء أداء هذه الواجبات إلى صعوبات جدِّية، قام الآخر بتقديم العون له لحظة أخذه العلم بذلك، فيقوم بترتيب إطعام الحصان أو الخيول بشكل منهجي. وإذا تعرّض الشريك إلى الفاقة والعوز، قدّم له ولعائلته الطعام أيضاً. ومردّ ذلك إلى المفهوم العربي بأن الشراكة في فرس أصيل هي قرابة وثيقة شبيهة بالزواج في بعض التزاماته. إن البدوي في القبائل التي يتعامل معها وليَمسون لا يسمح أبداً لفرسه أن تضع فلوها لوحدها. حيث توضع مراقبة صارمة على الدّابة قبل حلول الوقت، وإذا كان الطقس بارداً شاركها الرجل خيمته. لدى ولادة الفلو وفصله عن أمه، تؤخذ خطوات فورية لمنع علّة الشّمان *shimman*، أي أن تفوح منه رائحة غير مرضية. لقد كان في اعتقاد البدو أن رائحة الدم حتى من جرح حديث، يمكن أن تسبّب عدوى مميتة. لذلك وكإجراءات وقائية كان أنف وآذان وسُرة ومفاصل الفلو حديث الولادة يُدلك بخليط من الحنّة والزعفران والمسك، وأنف الأم أيضاً. ومن قبيل المصادفة، يُذكر أن راية ابن رَشيد كانت تُنقع برائحة قوية قبل أن تؤخذ إلى المعركة حتى إذا جُرح المحاربون الذين يتبعونها كانوا يستنشقون عطر هذه الرائحة بدلاً من الدم.

اعتقد البدو أنه يمكن مساعدة الطبيعة بوسائل عملية، مما يزيد من قيمة الفلو الأصيل. فسحب أطراف الأذنين إلى بعضهما وربطهما بخيط حريري أحمر كان يضمن أن تنمو الأذنان بشكل قائم. عندئذ ولعدّة أيام كان الذيل يثنى بلطف وبشيء من الشدّة إلى الأعلى والخلف - وذلك لإعطائه المظهر المنحني والانسيابي الرائع

الذي يثير الإعجاب في الخيل المطهمة العربية.

قبل فطم الفلو كان المالك عادة يأخذ بعض الحليب من الفرس ويمزجه مع الدقيق لصنع كعكات صغيرة مسطحة. تحفظ هذه الكعكات بشكل جاف لتستخدم لاحقاً إذا لحق بالفلو أي بأس. وبعد أن تذاب بماء فاتر، يمكن أن تعطى للفلو لتزويده بغذاء إضافي إذا دعت الحاجة. ومن الطعام الذي يفضله بعض البدو لأفلائهم طحين الشعير والتمر، يتم غليهما حتى ينضجا ويصبحا ثريداً رقيقاً يمكن امتصاصه بسهولة عندما يبرد.

في إحدى المناسبات بينما كان الحاج وليَمسون عند قبيلة العَنِزَة[1]، تمت دعوته لحضور مراسم احتفال، لحسن الحظ، نادر الحدوث. كان من بين الضيوف الآخرين شخصيات عربية مرموقة من قبائل مختلفة. كان المضيف شيخاً لديه الكثير من الأفراس الأصيلة الرائعة، وقد أخبر الزوار المجتمعين أن لديه دليلاً على أن إحدى هذه الأفراس قد حملت حملاً من حصان مشكوك في نسبه. واعترف أن هذا الحادث المؤسف قد حصل نتيجة استهتار رجال قبيلته. وسيُسوّى الأمر حتى لا تثار لاحقاً أية تساؤلات حول نقاء سلالة خيوله. وفي حضور الضيوف، تمّ تحريض الفرس لإسقاط الفلو مولوداً ميتاً لتجنب أدنى شك أو فضيحة يمكن أن تنعكس سلباً على القطيع.

عندما كان وليَمسون يشتري الأفراس الأصيلة، كان يمارس حقه التقليدي بطلب شهادة نسب موقعة من الشيخ ومشهود عليها من كبار القبيلة الآخرين. لقد كان الشيوخ حريصين أشد الحرص في مسألة شهادة النسب. فكانوا لا يجرؤون على الكذب في هذا الأمر خشية اكتشاف الخديعة التي ستؤدّي إلى جعل كل القطيع مشبوهاً فيه فتنهار قيمته.

لم يكن التعامل بالخيول أقل خطورة من تجارة الإبل. بالطبع كانت الخبرة المعرفية ضرورية، وأحياناً كان على الحاج وليَمسون أن يكتسبها بالتجربة المريرة المُكلفة. لقد

(1) رغم أن لأسماء كبريات عشائر العرب تسمياتها بالعربيّة الفصحى (كعُنَيزة هنا)، فقد فضّلت إثباتها بمنطوقها البدوي الملفوظ والمسموع.

تعامل بأصناف الخيول المختلفة لفترات في سنوات عدة، ولكن حتى لو عرف بقدر ما يعرف المربّون البدو أنفسهم، كان يعقد في بعض الأحيان صفقات سيئة. وقد اغتنى في إحدى المرات فابتاع لنفسه قطعة أرض قرب البصرة. ثم ألمّ به الفشل لثلاث سنين على التوالي مما اضطره إلى رهن أرضه وفي النهاية إلى اقتراض المال.

كانت الخيول والإبل التي يشتريها توسم بعلامته الخاصة والتي أصبحت تمثل العلامة الفارقة لاستقامته كبائع. وبعد عدّة سنوات بدأ يأخذ خيوله إلى سوق بومباي بدلاً من بيعها إلى الوسطاء في الزُّبير. لقد كانت كلفة رعايتها ونقلها بحراً ثم إيوائها في بومباي كبيرة جداً، وبالمغامرة في سوق متقلب لم يستطع دائماً أن يدفع مصاريفه.

لقد كانت الخيول العربية تباع وفق الحجم والحالة، من أجل أحصنة البولو أو السباق أو للامتطاء. كانت تلك التي يبتاعها من العراق وفارس تستخدم بشكل رئيسي كأحصنة عربات. كانت هناك تجارة كبيرة تصل إلى الهند عبر ممر خيبر من أفغانستان وبلوشستان. وفي مرة أو مرتين زار وليَمسون فيها هذه البلاد ليشتري أحصنة قوية للسير في الهضاب وكذلك الأحصنة التي يفضلها نواب وضباط الأفواج البريطانية. اعتمد النجاح والفشل في التجارة بالمقام الأول على الاجتهاد الفردي والمغامرة للبائع؛ ثانياً، على القانون القديم للعرض والطلب كما في السوق الهندية. كان للكثير من مواطني وليَمسون البريطانيين الوظائف الآمنة في الدوائر الحكومية الهندية، ولكنه لم يكن يتعامل معهم. بل كانت تجارة الخيول تزوده بكل ما يحتاجه من الأمور المادية.

لقد منحته هذه التجارة حرية التجوال من بيروت إلى بومباي، ملقياً التحية على أصدقاء له في كثير من عشائر البدو، وفي ذلك من الخطر الجسدي والمادي ما يكفي لدفع الملل عنه. ففي بعض الأوقات كان من الممكن أن تحيطه التجارة بإثارة أشدّ من طاولة روليت. وأكثر من مرة، تبدل وضعه من الفقر إلى الثراء بسبب تحوّل مفاجئ في دولاب الحظ.

لقد عرضت له ضربة حظ غير متوقعة عندما كان يزاول التجارة لعدة سنوات. فقد اشترى عدّة جمال من شيخ من العَنِزَة، وهو في طريقه عبر شمال جزيرة العرب إلى

دمشق وساحل البحر المتوسط. كان الشيخ متلهفاً لشراء بنادق مارتيني هنري التي كانت تفِد إلى جزيرة العرب عبر مسقط، بالرغم من نقص الموارد المالية لديه بشكل محزن في ذلك الوقت. صدف أن كان مع وليَمسون مال وافر، وإضافة إلى دفع قيمة الجمال نقداً وافق على إقراض الشيخ مبلغاً من المال. عندما تابع رحلته مع جمّاليه والقطيع، كان الشيخ مديناً له بثلاثمئة دولار ماريا تيريزا، أي ما يعادل ثلاثين جنيهاً استرلينياً تقريباً.

في طريق عودته بعد أن باع الجمال، مكث وليَمسون في مضارب بدوية متنوعة من أجل شراء الخيول. وكان من الطبيعي أن يضع في ذهنه أن يزور الشيخ العنزي لتحصيل الدين المستحق له. وأثناء شرب القهوة، شرح له زعيم القبيلة أنه لم يستطع تدبر أمره ليدفع له نقداً ولكن عرض عليه أن يسدّد الدّين بإعطائه جواداً أصيلاً. تم إحضار الحصان[1] حتى يتفحصا وليَمسون، وبعد معاينة سريعة اقترح أن يرى شيئاً أفضل. وافق الشيخ على ذلك بشرط أن يكون الضيف عازماً على محو الدين ودفع مبلغ إضافي معتبر.

لم يكن بمقدور الحاج وليَمسون أن يوافق. فقد استثمر في الخيول كل المال الذي كسبه من بيع الجمال، ولم يكن بحوزته أيّ منه ليستخدمه في دفعة جزئية من أجل شراء رأس آخر. فآلت الأمور إلى ما يلي: إما أن يقبل بالحصان المعروض لتسوية الدين، أو أن ينتظر بضع شهور حتى يتسنى له رحلة أخرى عبر أراضي العَنِزَة. فوافق على مضض على أن يأخذ الحصان ومعه شهادة النسب الموقعة.

اعتبر هو ورجاله هذه العملية صفقة رديئة. فعلى الرغم من كون الحصان أصيلاً فقد كان مطية متوسطة الحجم. لقد كان أكبر مما ينبغي لمضمار البولو، وأصغر وأنحل مما ينبغي لإثارة إعجاب أي مشتري يرغب بحصان للركوب. أصبحت المحاكمة العقلية

(1) من المجحف أنّ المؤلف لا يحدّد لنا إن كانت هذه فرساً أو حصاناً، لأنه يستخدم عبارة: horse وحسب، دون أن يحدّد mare (فرس) أو stallion (فحل) أو stud (حصان). لكن ممّا يرد أدناه حول كون اسمه the Cinderella horse يفترض أن تكون فرساً أنثى، ثم يتبيّن في النهاية بوضوح أنه حصان.

لدى وليَمسون ناضجة، وقد تنبأ بمشكلة عندما يصل الأمر إلى التخلص من الدابة. ومن الأرجح ألا يرغب بها أحد إلا بسعر ضئيل.

أبحر تلك السنة من البصرة إلى بومباي في سفينة ملكية بريطانية، وأخذ معه عدداً من الرّؤوس العربية الأصيلة، بما فيها الحصان سندريلا على أمل شبه ميؤوس منه بأن يستردّ كلفته الأصلية. كان يرتدي اللباس العربي: عباءة بنية وكوفية بيضاء وعقالاً من خيوط ذهبية وسوداء. لقد عرفه ضابط المحاسبة باسم الحاج عبد الله وافترض أنه بائع عربي مثل عدة آخرين على ظهر السفينة.

لدى وصوله إلى بومباي دبّر أمر إيواء الخيول في إصطبلات كان يملكها صديق عربي قديم يدعى ابن قِرطاس والذي كان يستخدم ثلاثة أو أربعة مساعدين هنود. أما هو فنزل مع بعض البائعين العرب في مكان قرب سوق كروفورد يديره مسلم هندي. لم تكن هذه المرة الأولى التي يعود فيها إلى بومباي مع خيول للبيع، ولم يكن لدى السلطات البريطانية أية شبهة بأنه هو نفسه وليَم وليَمسون الذي كان مرة مصدر خزي للحكومة.

كانت التجارة تلك السنة فاترة، ثم أصبحت شبه راكدة لدى إتمام استيراد الخيول وعندما صار مستعداً للمتاجرة. كان يتردد يومياً لمدة أسبوع على إصطبلات ابن قِرطاس ليبيع دابة أو اثنين بأسعار زهيدة غطت بالكاد نفقات نقلها وإيوائها. كانت النفقات تجري، وقد أتعبته القرفصة على عقبيه بالقرب من الإصطبلات متحدثاً إلى العرب القانطين وهو يدخن السيجارة تلو الأخرى. مع ذلك لم يجرؤ على ترك المكان خشية أن يفقد فرصة بيع.

في مطلع الأسبوع اللاحق، بلغ مرحلة أن راودته نفسه بأن يبيع بأسعار مغرية حتى ينفض الغبار الهندي عن صندله ويعود أدراجه إلى جزيرة العرب. وبينما هو في هذا المزاج القانط على نحو غير اعتيادي، إذا بضابطين إنكليزيين يدخلان الإصطبلات. كان أحدهما برتبة نقيب (كابتن) والآخر برتبة ملازم (لفتنانت)، ولدى سماع وليَمسون كلامهما مع ابن قِرطاس بالهندوستانيّة استنتج أنهما معيّنان في مركز عسكري للتزويد بخيل بديلة في أعلى البلاد وأنهما قد طُلب منهما شراء بعض الخيول لصالح أحد

الأمراء الهنود الأثرياء (راجا) بينما هما في مهمة مؤقتة في بومباي. بالطبع أثار الحديث اهتمامه، لكنه لم يأتِ بأية حركة توحي أنه فهم اللغة. لقد ظن ضابطا التزويد أنه بائع عربي، وبكل تأكيد كانا سيفاجآن لو علما أنه نتاج مدرسة إنكليزية.

بعد سماع طلبات الزوار، التفت ابن قِرطاس وتكلم مع البائعين بالعربية. دبّ النشاط والحيوية في الإصطبلات. وتم إحضار الخيول للمعاينة وجُعل بعضها يخطو في الفناء الواسع. تنافس وليَمسون مع البائعين الصاخبين الآخرين وقد أبرز مزايا خيوله المطهمة الجميلة، وكان من المفترض أن ابن قِرطاس يقوم بترجمة ادّعاءات المنافسين بشكل عادل بلغته الإنكليزية الركيكة ذلك أنه كان يحصل فقط على النسبة البسيطة نفسها كعمولة بيع حصان أي منهم.

في نهاية الساعة، اشترى الضابطان حصانين عربيين ومازالا يريدان ثالثاً. تم استعراض كل الدّواب التي يمكن أن تثير اهتمامهما، واقترح الملازم أن يذهبا إلى مكان آخر علّهما يجدا طلب الرّاجا. وافق النقيب، وبينما كان ابن قِرطاس يكتب الإيصال، تجوّل خلال الإصطبلات وألقى نظرة على الدّواب الأقل جاذبية.

على الفور، توقف وقال للسائس: «أحضر هذا الحصان خارجاً». لدهشة وليَمسون كان موضع اهتمامه الدّابة المتوسطة التي حصل عليها من الشيخ العنزي.

كان هو ذاته بالكاد ألقى بالاً لهذا الحصان السّندريلا. فبرأيه، لم يكن هناك أدنى فرصة أن يكون محل اهتمام هذين الخبيرين اللذين يزوّدان إصطبلات الرّاجا بخيول السّبق باهظة الثمن[1]. لقد كان مهتماً برؤية الكابتن وهو يتفحّصه بحرص كبير، لكنه لم يدهش من سماع ملاحظة الملازم: «ميّال للصغر...». لم يُدلِ رئيسه بأي تعليق، وبعد ملاحظة مزايا الحصان قفز على ظهره فهروله وخبّ به حول الفناء. أخيراً، ترجل عنه وناول الرّسن للسائس الهندي ثم أجرى حديثاً هامساً مع زميله الضابط.

---

(1) هنا أيضاً يحيّرنا الأمر، فقد جرت العادة أن تكون خيل السّباق أحصنة ذكوراً، لكن اسم (سندريلا) يدلّ على فرس أنثى. ومن الغريب أن وليَمسون الإنكليزي الهويّة واللسان يسمّي حصاناً باسم مؤنث، لكن في النهاية يتضح ذلك بغير لبس.

وقف ابن قِرطاس صامتاً على بعد مناسب بانتظار أن يناوله الوصل عن الدفعة التي سبق أن قبضها. حينئذٍ وبعد بضع دقائق التفت وخاطبه بالهندوستانية:

«من مالك هذا الحصان؟».

أشار صاحب الإصطبل إلى الحاج وليَمسون، الذي تقدّم من بين البائعين العرب وهو يلمس جبهته بأصابع يده اليمنى.

سأل الكابتن، وهو مازال يتكلم بالهندوستانية، عن السعر المطلوب للحصان. وعلى الرغم من فهمه، بقي الحاج وليَمسون صامتاً وهادئاً، وأعاد ابن قِرطاس السؤال بالعربية مضيفاً بصوت خفيض، «دع هذا الأمر لي». فهزّ كتفيه، وبرؤية الإيماءة، تكلم الضابط ثانية قبل أن يتمكن صاحب الإصطبل من أن يقترح سعراً.

«اسأله، يا ابن قِرطاس، إن كان يقبل عشرة آلاف روبية مقابل الحصان؟».

بصعوبة بالغة صدّق حاج وليَمسون أنه سمع بشكل صحيح. بطريقة ما استطاع أن يحافظ على وقفته كرجل عربي من العوام. لقد شعر برغبة بالهتاف: «نعم! نعم! الحمد لله!» عندئذٍ وليزداد ذعره، سمع ابن قِرطاس يجيب: «لا، لا يمكن أن يقبل صديقي الحاج عبد الله بعرض ضئيل كهذا!».

اغتاظ الضابطان كلاهما، كما شاركهما وليَمسون مشاعرهما، فدمدم الملازم: «يا للوقاحة! سيدي، برأيي إن ما تعرضه كثير جداً». كان رأي وليَمسون الخاص أنه أكثر بكثير مما ينبغي، وتمنّى من كل قلبه لو أن الوسيط ابن قِرطاس انتزع العرض مباشرة.

قال النقيب بوقار: «عندما أقدّم عرضاً فهذا أبعد ما أنوي الوصول إليه. أنا لا أماحك مثل بائعي السجاد على رصيف المرفأ». تلا ذلك سكون لم ينبس خلاله ابن قِرطاس ببنت شفة، والتزم وليَمسون الصمت رغم دافع للكلام كاد يتفجّر فيه. حينها أعطى الضابط قراره الأخير. «كما قلت، يا ابن قِرطاس، سأجعلها أحد عشر ألف روبية، ولا آنة[1] واحداً زيادة».

---

(1) الآنة anna وحدة نقد قديمة في بورما والهند وباكستان، تساوي 1/16 من الروبية.

كان من شأن هذه الصفقة أن تضع الحاج وليَمسون على الطريق السّهل لفترة طويلة من الزمن، لكن هذا الطريق السهل لم يكن أبداً يروق له. كان معناها ما يعادل ثمانمئة جنيه استرليني في حزامه، ولم يضنّ على ابن قِرطاس بالألف روبية التي ربحها لنفسه. لقد مجّد وبارك القدر الإلهي الرحيم الذي ساق خطوات هذين الضابطين الإنكليزيين إلى الإصطبلات مزوّدين بمال شخص آخر لينفقاه بلا قيد. وفي النهاية بدا النقيب راضياً تماماً بالشراء. ولكن هل سيكون الرّاجا مسروراً كذلك؟ إنه أمر فيه ريبة.

بعد فترة طويلة علم وليَمسون تتمة العملية. لقد كان حكم النقيب البريطاني في الخيول من الدّرجة الأولى. فالحصان السّندريلا، تم تدريبه وتطويره إلى أن فاز بسباقات عديدة في حلبة السباق الهندية وبيع في النهاية إلى راجا آخر كفحل لأغراض الاستيلاد بضعفي السعر الذي دُفع إلى ابن قِرطاس تقريباً.

* * *

خلال اثنتي عشرة سنة تعامل فيها الحاج وليَمسون بالخيول والإبل، لم يتكلّم الإنكليزية قط حتى في زياراته غير المنتظمة إلى الهند. وعندما تأمّل حياته السابقة في أعالي البحار ومزارع الماشية الغربية، كان يجد صعوبة باسترداد أي من الأفكار والعواطف التي عانى في تجاربها. كأنها مشاهد منفصلة تشبه تجارب أجنبي يفهم الإنكليزية بشكل ناقص، يستعيد بذهنه مجموعة من مسرحيات برودواي. لا شيء في الحياة السابقة بدا أنه قد حدث له. إن سنوات الترحال في جزيرة العرب قد حوّلت وجهة نظره بالكامل كأنه بدوي عربي. وهو لم يتكلم أية لغة سوى العربية، باستثناء الهندوستانيّة في قليل من الأحيان في بومباي. كانت عادات وعبارات العديد من قبائل الصحراء مألوفة لديه كما يعرف ملازم أول في فوج فرسان هندي لغة وقوانين لعبة البولو. لقد أصبح مشبعاً بعاداتهم وتقاليده،. وطغت لديه العفاريت والجن في بعض الأوقات على الواقع. مع ذلك بقي راسخاً في دينه الإسلامي.

ربما تكون مياه عُمان الزرقاء والنسمة الموسمية المضطربة على بحر العرب قد هيّجت فيه روح البحار النائمة. وعندما عاد من تلك الزيارة الأوفر حظاً لبومباي، كره

أن يغادر البصرة ثانية في رحلة طويلة مرهقة عبر الصّحارى. بل بدلاً من ذلك انجذب إلى الكويت على رأس الخليج العربي حيث كان لديه كثير من الأصدقاء ذوي السلطة والنفوذ بين التجار وبائعي اللؤلؤ. وفي كامل سنوات حياته البدوية، لم يعرف أبداً مسكناً خاصاً به عدا خيمة من شعر الجمل أو المعز. فإذا به فجأة الآن يشعر بالحاجة إلى مسكن مؤقت على مرأى من المياه المالحة، وكان لديه المال ليرفّه نفسه بمنزل حضري متواضع.

* * *

الجزء الثالث

الفصل الثالث والعشرون

ربّان الدّاو

عندما استقرّ الحاج وليَمسون في مسكن صغير في الكويت قبل الحرب العالمية الأولى، كان الميناء بدائياً نسبة لما هو عليه الآن. إن التغيّرات التي طرأت على بعض المدن البحرية العربية بالكاد يمكن إدراكها منذ مطلع القرن. والكويت استثناء بارز، إذ لم يشهد أي مكان على شواطئ الخليج العربي مثل هذا التطوّر الهائل في سنين قليلة نسبياً، وربما بضع كلمات على الموضوع لن تكون إطناباً، ذلك أنه سيكون للكويت أهمية خاصة لشؤون بريطانيا وأميركا في المستقبل.

إن كلمة الكويت في العربية تصغير للكوت، والتي تعني الحصن أو الحيّز المحاط بجدران، وقد شاع إطلاقها على كل قرية أو بلدة محاطة بجدار بالقرب من بحر، بحيرة أو نهر[1]. يقع ميناء الكويت على الشاطئ الجنوبي من لسان بحري ضخم عند الطرف الشمالي الغربي للخليج العربي، ولا تستطيع السفن العميقة أن تقترب لأقلّ من ميل منه. ويحيط بالمدينة القديمة سور بُني منذ أمد بعيد خلال حكم الشيخ سالم الصّباح لدرء البدو المغيرين. لقد حدث تحوّل عظيم في السنوات الأخيرة، فكويت اليوم العصرية التي تعدّ موطناً لحقول النفط الضخمة تختلف تماماً عن الكويت القديمة، الميناء الأم لمراكب تجارة أعماق البحار والأسطول الضخم لصيد اللؤلؤ. في حين

(1) من ذلك مثلاً: كوت العمارة بالقرب من البصرة.

ظل بناء مراكب الدّاو وصيد اللؤلؤ والمتاجرة مع بدو الصحراء حرفاً تقليدية - وإن تهريب الشاي والسكر إلى العراق هو التسلية المربحة للبعض، إن جاز القول.. أما الازدهار الحالي لبلد الكويت وحاكمها فيعود بالمقام الأول للنفط.

هناك قول بأن «جزيرة العرب عائمة على النفط». وأمّا الكويت التي عليها أن تستورد مياه الشرب فهي قادرة على تصدير كميات ضخمة من النفط الخام. لم يتم إنشاء مصافٍ هناك، ولكن حقول الخزانات الضخمة غيّرت مشهد الصحراء وانتشرت منشآت ومستودعات متنوعة بشكل واسع. وتقوم ناقلات النفط العابرة للمحيطات بتحميل الخام في فحيحيل، على بعد عدة أميال من البلدة القديمة، وتوجد تطورات مهمة أخرى في الشّوَيخ على الساحل إلى الغرب ومقوع Magwa والأحمدي في الصحراء. وعلى الرغم من أن الصحراء قد لا تزهر كالوردة، فإن رائحة النفط المربحة تتخللها.

على الرغم من فترات من الحرارة المقرِّحة في الصيف، فللكويت جوانب ايجابية إلا أنها ليست من النوع التي تجذب السياح. اللحم والخضار والفواكه - والسجائر - متوفرة وأرخص مما هي في العراق وفارس. ويزود الرعاة في الكويت البلد بالسّمن العربي بشكل جيد على شكل زبدة غنم مصفاة، كما تُستورد كميات ضخمة من السمن الهندي. هذا وإنّ الحليب والزبدة العادية متوفران أيضاً، والكثير من حليب الماعز. وتأتي أفضل الأسماك في الخليج إلى السوق، وتتضمن أنواع الموسى sole، والبوري mullet، والتن tunny، والترواتة البحرية sea-trout وفاكهة البحر pomfret التي تعتبر أفضل المذكور. يمكن الاستجمام والسباحة في البحر الرائق الضحل بأمان من أسماك القرش، والاستمتاع بالمراكب الشراعية التي تبحر حول اللسان البحري العريض. أما الطرقات فهي متصلة الآن بالبصرة والزُّبير، إلى القصيم في وسط جزيرة العرب، إلى الحَسا(1) والرياض في أدنى نجد وحتى إلى مكّة والمدينة في الحجاز. يمكن للسيارات في هذه الأيام أن تعبر الجزيرة على نفس الأثر الذي سلكه الحاج

(1) كذا باللفظ العامي، وهي في الفصحى: الأحساء.

وليَمسـون مع قافلة الإبل في التسـعينيات. وللميناء المضاء بالكهرباء مطار جوي يعجّ بالحركـة إلى البصـرة وعبادان والبحرين، وبتردّد أقل إلى الهند وعن طريق القاهرة إلى أوروبا وأميركا.

كانـت الكويـت علـى رأس الخليج العربـي مكاناً مختلفـاً تماماً عندما قـرّر الحاج وليَمسـون أن يقيم مؤقتاً فيها في السنوات المبكرة من القرن. ومع ذلك تبقى ميناءً لصيد اللؤلـؤ وتبقى بعض الملامح القديمة الرائعة مثـل رحبات بناء مراكـب الدّاو كما كانت عليه سابقاً. ولكن في تلك الأيام البعيدة، كان أسطول صيد اللآلئ هو المصدر الرئيس لازدهار الكويت، ولم يكن لناقلات النفط حتى أدنى وجود في مخيّلة الكويتيين.

كانـت كل الأبنية على النمط الإسـلامي، وكان للبيوت الفخمة فناءان ومجموعتان مـن الغرف وفق نظام الحجب الإسـلامي، وتطل الأبواب والنوافذ على الفناء. وكان هنـاك مظهـر عمرانـي آنئذٍ كمـا هـو الآن، عدد مـن الجـدران المصمتة (بـلا نوافذ أو أبـواب) تقف بمواجهة الشـارع العام. نقشـت الأبـواب الضـخمة لمداخـل البيوت أو الأفنية بشكل جميل ورُصّعت بشكل فني بالنحاس. أما الأسواق الشرقية فكانت مثيرة للاهتمام، ولدى كل من العرب والهنود الكثير من المواد المسـتوردة للبيع. كان السـوق الـذي تباع فيه المواشـي والأغنام والحبوب والأخشـاب مركز النشـاط، وعلى الجهة الصحراوية من الميناء كان هناك فسـحة واسـعة خيّم فيها بدو وسـط جزيرة العرب مع إبلهم للمتاجرة مع سكان البلد.

كان تجـار اللؤلـؤ يملكـون بعـض أفضل البيـوت في الكويـت، ومن بينهـم راعي وليَمسـون القديم الشـيخ يوسـف إبراهيم. كما اشـتهرت الكويت من بين أمور أخرى بكونهـا موطنـاً لعائـلات ذائعة الصيـت جنت ثرواتها مـن تجارة اللؤلـؤ. فقط موقعها الجغرافي والمياه الضحلة في اللسـان البحري منعاها من أن تكون سـوق اللؤلؤ الأكبر. ولقـد تبـوّأت البحريـن هـذا المركز الذي تُحسـد عليه بفضـل موقعها بيـن منحدرات اللؤلؤ، وكونها تقع على الخط البحري للبواخر الملكية البريطانية.

لم يكن يثير اهتمام وليَمسـون في الكويت شـيء أكثر من رحبات بناء مراكب الدّاو

قبالـة البحـر الأزرق. لقد كانت بدائية كما هو أسـلوب بناء القوارب نفسـها، وفي كثير من الأحيان كان هيكل السفينة يتم تشكيله على ضفاف البحر بينما لا يقي العاملين حرّ الشمس سوى ظل سعف النخيل.

ولمراكب الدّاو أنـواع متعـددة: السّـمبوك *sambuks* والبـوم *booms* والبَغلة *baghalas* والزّاروك *zarooks*. والاسـم يشـير إلى شكل جسـم المركب وليس إلى شـكل وعدد وترتيب الأشـرعة والصواري. لقـد كانت تُبنى آنئذ باليـد، كما هو الحال اليوم، من قبل حرفيين عرب دون مخططات أو أي هراء من هذا القبيل. إن مركب البوم الكبير بحمولة 200 طن، جميل ويمخر عباب البحر بسـلاسـة، وما يزال يتم إنشاؤه وفق تقليد عمره ألف عام، ويسـتطيع أن يقوم برحلات عبر المحيطات وعلى متنه مسافرون وحمولة إلى أماكن بعيدة مثل زنجبار.

كانت هذه المراكب فاتنة وهي على الهيكل؛ ثم أضحت سروراً مطلقاً عندما نزلت إلـى الماء ونُصبت عليها الأشـرعة. إن منظر مراكب الدّاو الكبيـرة العابرة للمحيطات وهـي تبحر خارج اللسـان البحري قد أثار مخيلة وليَمسـون الشـاب كمـا فعلت قافلة الجمال المتجهة إلى الصحراء. لقد استحضرا في ذهنه أفكاراً عن البحّار الأسـطوري سندباد، وعن جزر مسحورة ومرافئ غريبة، وعن الذهب والعاج والبنادق والعبيد. لم تكـفّ أبداً مراكب الدّاو الكبيـرة على المياه الزرقاء للخليج عن إثارة مشـاعره، ولكن هـذا لـم يمنعه من ملاحظة تفاصيل الأشـرعة وحبال الصواري بعيـن الملاّح الخبيرة. لقد أعجبته المنافع المتينة إلى جانب شاعرية جسم المركب بكوثله المرتفع، ومقدمته الطويلة من خشـب التـاج، وصواريه الأنيقة، وامتداد رأسـه المؤنـف كالحربة gaffs والانتشـار الواسـع لأشـرعته المثلثة. إن الدّاو العربي والينك junk الصّيني هما جدّين للغليون galleon الإسباني و«الجدران الخشبية» الإنكليزية القديمة.

أعداد لا تحصى من الصّبـيان الإنكليز والأميركان، ممن يقرؤون قصص المغامرات، لا بـّد أنهـم تخيلوا امتلاكهم لجواد عربي مطهم أو لهجين سـباق. الفتى وليَمسـون لم يتمناهما فقط بل، بمغامرة فردية، جعل الأمنية حقيقة. الآن، وقد استقرّ مؤقتاً في منزله

في الكويت مع واحد أو اثنين من مستخدميه، انصرفت أفكاره باتجاه البحر أكثر منها إلى الصحراء. وبذلك ولدت أمنية: التوق لامتلاك أحد مراكب الدّاو[1] الرائعة تلك. لم يكن منطقياً أن يتوقع امتلاك واحد من مراكب البوم boom الكبيرة أو حتى أن يصبح مالكاً جزئياً لها. وبإجهاد نفسه بالتجارة في هذا الميناء المزدهر، كان يأمل بتوفير ما يكفي لشراء إحدى تلك الأنواع الصغيرة من المراكب.

كان وليَمون يبقي هذا الطموح حاضراً في ذاكرته، لذلك قام بشراء نموذج رائع من الصناديق الكويتية المشهورة، كان اثنان من الملاحين العرب قد أمضيا أشهراً في تركيبه وزخرفته. كان بطول خمسة أقدام وارتفاع ثلاثة، تم صنعه من خشب التاج من داو قديم، حُفر باليد وحُلّي بمسامير النحاس بنقشات معقدة. لقد كلفه ستين روبية. ومنذ تلك الأيام، حلّق سعر الصندوق الكويتي الأصلي الجيد مرتفعاً.

في تلك الفترة من حياته، برز بوضوح حدث أو حدثان. لقد تخلى عن تجارة الخيول، ولاحقاً في غضون الحرب العالمية الأولى، برز كعضو مفيد في جهاز الاستخبارات التابع للجنرال مود Maude في بغداد. كما أنّ هناك أدلة على أنه تاجر بالبضائع الهندية، وقام برحلات شاملة حول الخليج، وتورّط بتمرد ضد الأتراك، واشترى مركب داو وقام بالقليل من تهريب الأسلحة والذخيرة، وأخيراً رسّخ موقعه كتاجر لؤلؤ.

أحاطت ببعض من ذهابه ورواحه هالة من الغموض. وبلغت شائعات رائجة بين العرب آذان الأتراك والبريطانيين أيضاً. في الحقيقة، لم يكن لمعظم الكلام أي أساس، ولكن حتى القصص الخيالية التي لا تحمل مثقال ذرّة من صحة، تجد أحياناً تصديقاً تلقائياً في جزيرة العرب. كل القيل والقال، سواء كان صحيحاً أم خيالياً، كان له تأثير محدّد وواضح؛ لقد أضاف إلى شهرته بين العرب، مما أثار فضول البريطانيين وأزعج الأتراك.

---

(1) يستخدم الرحّالون الأوروبيّون هذه التسمية Dhow (داو) للمراكب الشراعيّة المحليّة في منطقة الخليج، لكنها غير مستعملة لدى أبناء المنطقة، بل يسمّون كل قارب بنوعه: بوم، بغلة، شوعي، سَمبوك، زاروك، بتيل.. إلخ.

لم يكن هناك شيء تخريبي فيما كان يفعله سوى للمصالح الألمانية والتركية. كان الحاج ولِيَمسون يكره سوء الحكم التركي بنفس المرارة التي أحسّ بها أي من القاطنين المحليين لبلاد العراق (بين النهرين). لقد اكتسب في رحلاته الكثيرة عبر بلاد الشرق الأوسط، معرفة واسعة عن التآمر القبلي والسياسات الوطنية. وتوجد أدلة على أنه أضاف بشكل هام إلى موسوعته المعرفية بعد تخلّيه عن تجارة الخيول. كتاباته الوحيدة لهذه الفترة، المتوفرة للإثبات، تعطي أدق الأوصاف تفصيلاً عن الأشخاص والأماكن والأحوال. وفي الحقيقة، هي بالتحديد معلومات من النوع التي يمكن أن يطلُبَها فيما لو كان جنرالاً على وشك أن يشُنّ حملة عسكرية. صار ولِيَمسون من السكان الأصليين لأنه أحب دين العرب وطريقة حياتهم. وما إن عاد إلى ساحل البحر، حتى غدا يفكر بمواطنيه البريطانيين بلطف أكثر من ذي قبل. لقد محت السنوات امتعاضه منهم لتدخلات سابقة في خططه في عدن وبومباي. وكما تبين له، بعد أن طاف وجال بشكل واسع، أن الاستعمار البريطاني لم يتألف من «الاستغلال التجاري» فقط، إذ كانت الاتهامات توجه بشكل متواتر. لقد أدرك من خلال معرفة مباشرة، جزءاً من الفائدة العظيمة التي جلبها الحكم البريطاني للهند، والذي زاد من قيمة الهند للاقتصاد البريطاني. وقد فهم تماماً بناءً على ذلك، السبب وراء النفوذ القوي الذي مارسته بريطانيا على البحر الأحمر والخليج العربي، بوابتي الإمبراطورية الهندية.

انطلاقاً من مصلحة خيرية ذاتية، قامت بريطانيا بوضع «مندوبين سامين» في موانئ متعددة على جوانب الخليج العربي وخليج عمان. لقد كان هؤلاء ضباطاً في الخدمة السياسية الهندية، وكانوا في بعض الأحيان يافعين ومثاليين، ولكن دائماً متعدّدي اللغات بشكل ممتاز ومدربين بكفاءة لمهمات تتطلب أقصى درجات الحنكة والذوق والشجاعة الهادئة من الطراز الأول. تبوّأ أحدهم مركزه في الكويت، وقد تعرف ولِيَمسون على آخرين في البحرين والشارقة ومسقط وأماكن أخرى. وكان من بين واجباتهم تقديم النصح والمشورة للشيخ أو السلطان المحلي، ولا داعي لذكر أن نصائحهم لم تتعارض أبداً مع المصالح البريطانية. كان لولِيَمسون إلى حدّ ما أكثر

من إعجاب خفي بعملهم. وللتأكيد على حسّ الحماية الذي يمنحه وجود المندوب السّامي، كانت قوارب خفر السواحل التابعة للبحرية الملكية الهندية تقوم بزيارات دورية إلى الموانئ.

تجوّل وليَمسون، أثناء تجارته ونشاطاته الأخرى، بلباسه العربي واسمه المعروف بالحاج عبد الله، جنوباً إلى البحرين ومسقط وعرضاً إلى بلوشستان وعلى طول الساحل الفارسي وأقام مؤقتاً في بندر عباس وبوشِهر ولنجَه. كان يبحر بمركبه الخاص الكبير من نوع البَغلة *baghala*، برفقة معاون عربي كفؤ يدعى مصطفى. وبعد أن رسا مركبه في الشارقة ودبي في إحدى الرحلات، أمضى بعض الوقت يستكشف ساحل الهدنة[1] Trucial Coast. ولأغراضه الشخصية بذل الحاج وليَمسون الجهد الكبير لتعلم الكثير

---

(1) ساحل الهدنة أو الساحل المتصالح تعبير أطلق على المنطقة التي تقوم بها اليوم دولة الإمارات العربيّة المتحدة. كانت الهدنة البحرية في عام 1843 التي استمرت عشر سنوات (1843-1853) ذات تأثير كبير في توطيد سيادة الأمن والنظام في مياه الخليج، فأصدرت الحكومة البريطانية في بومباي تعليماتها إلى الكابتن كيمبال المقيم البريطاني في بوشهر ليقف على مدى رغبة شيوخ الساحل المهادن في تجديد الهدنة بعد انتهائها في 31 مايو عام 1853 على أسس دائمة أو لمدة محدودة. فأبدوا رغبتهم في تجديدها على أسس دائمة، وتم توقيع معاهدة السلم الدائم في الرابع من مايو عام 1853. ولقد اتفق الموقعون على 3 بنود، وهم: الشيخ سلطان بن صقر القاسمي زعيم القواسم، الشيخ سعيد بن طحنون آل نهيان زعيم بني ياس، الشيخ سعيد بن بطي آل مكتوم زعيم دبي، الشيخ حميد الثاني بن راشد النعيمي زعيم عَجمان، الشيخ عبد الله بن راشد المعلا زعيم أم القيوين.

البند الأول: التوقف التام عن الأعمال العسكرية في البحر من قبل كل الأطراف اعتباراً من مايو عام 1853.

البند الثاني: قيام كل شيخ بالقصاص من أي من رعاياه إذا اعتدى على رعايا شيخ آخر.

البند الثالث: ابلاغ المقيم البريطاني في الخليج ومقره بوشهر بأي اعتداء يقع في البحر. كما تقوم بريطانيا بمراقبة الأمور والعمل على تنفيذ بنود المعاهدة.

ومنذ ذلك التاريخ عرف ذاك الجزء من ساحل الخليج العربي باسم الساحل المتصالح أو ساحل الصلح البحري. ومما يلفت النظر في تلك المعاهدة أن الحاكم البريطاني العام في الهند قد وقعها بنفسه على عكس الأمر بالنسبة لجميع الاتفاقيات السابقة التي كان يوقعها المقيم البريطاني في الخليج العربي، ومقره بوشهر، نيابة عن حكومته.

عن المندوبين السامين البريطانيين في موانئ الخليج. بالمقابل، قام المندوبون الذين لديهم عيون وآذان أكثر مما في رؤوسهم، بتجميع ملف ضخم عن الحاج وليَمسون ونشاطاته. إنه ليس من غير الطبيعي، أن يمحصوا باهتمام مهني - وارتياب - مشهداً لشخص يسمى وليَم ريتشارد وليَمسون ويدَّعي أنه الحاج عبد الله فضل، عربي مسلم يبحر بمركبه الخاص حول الخليج العربي. كان واجبهم الدبلوماسي المحافظة على جريان ماكينة السياسة البريطانية بشكل سلس، وكانوا متيقظين جداً خشية أن يُسقط أحدهم جريشاً في الماكينة.

مع ذلك، كانت كل الشبهات لديهم دون أساس. كان وليَمسون وفياً بشدة للعرب، الأمر الذي لم يؤثر على ولائه لأرض مولده. ورغم أنه لم يكن دائماً على توافق مع الغايات البريطانية، فإنه لم يكن معارضاً للنفوذ البريطاني في الشرق الأوسط. وبسبب بغضه للحكم التركي، كان يفضل تدخل البريطانيين أكثر من الألمان الذين كانوا يخططون بشأن الكويت من أجل جعلها المحطة النهائية لخط سكة حديد برلين - بغداد باتجاه «مكان في الشمس» في الهند. لقد أدرك أن العرب لم يكن بمقدورهم لوحدهم أبداً التخلص من نير الأتراك، لوجود الكثير من الغيرة والعداوات القبلية. وإن اهتمامه بالسياسة والتمرّد يفسر اثنتين من الحلقات الأكثر إثارة، التي أصبح متورطاً فيهما بعد شراء البيت والدّاو المصنوع في الكويت.

كان لحدوث إحداهما صلة بانتشار تهريب الأسلحة والذخيرة إلى جزيرة العرب. فالآن، كان الحاج وليَمسون يمثل بشكل مصغر حكومتي بريطانيا والولايات المتحدة الأميركية؛ كان لديه معارضة أخلاقية قوية ضد توريد الأسلحة للأجانب باستثناء أولئك الذين وافق عليهم بنفسه. كان عنده بندقية مارتيني هنري رائعة، ولكنه لم يكن ينظر باستحسان إلى التسليم بالجملة لبنادق مارتيني هنري Martini-Henry ولي إنفيلد Lee-Enfield إلى شعب البلد التي تبناه. لكن إذا ما تم تحويل تدفق الأسلحة إلى قبائل محدّدة في بلاد مابين النهرين - هي الأكثر تبرّماً بالحكم التركي - فقد تحوز هذه التجارة على القبول من كل قلبه.

لـم يقم الأسـطول البحـري الملكي ولا البحريـة الهندية الملكية بمثـل هذا التمييز الدقيـق. وهـذه الخدمـات، مـن بيـن واجباتهـم الأخـرى، اتخذت شـكل مهمّـة درء تهريب الأسـلحة ولـم يتـردّدوا بالصعود على متـن مراكب الدّاو وتفتيشـها في كل من البحـر الأحمر والخليج العربي. وقد تدخلوا أيضا بتجـارة الرقيق التي زادت من حنق الملاحين العرب الذين كانوا يحاولون جني أرباح طائلة.

كثيراً ما سعت القـوة الوحشية إلى القبض على الأفارقة ونقلهم من قبل النخاسين العـرب، الذيـن لـم يكونوا أفضـل من روادهم في الغرب قبل إبطال العبودية في أميركا. ووجدت تجارة من هذا النوع على نطاق أضيق عند الأرمن والشركس، وكان كثير من الأطفال الهنود يُخطفون ويشحنون من مكان قرب كراتشي. عندما كان العبيد يـستقرّون فـي جزيـرة العرب أو العراق كانوا بشـكل عام يعاملون جيداً، وفـي كثير من الحالات بإفراط. لم يؤثر هذا على الناحية الأخلاقية، وكانت بعض مراكب الدّاو تحمل «شحنة سوداء» متملصة من خفر الأسطول البريطاني اليقظ في منطقة البحر الأحمر.

إن اسـتغراق الحاج وليَمسـون في حياة الشرق الأوسـط قد صبغ وجهة نظره حول قضية العبودية. وقد بدا موقف العرب منصفاً بما فيه الكفاية إذا أخذناه مقترناً مع الأوامر القرآنية في هذا الشـأن. لا يوحي هذا أنه كان يؤيّد اسـتمرار تجارة الرقيق، ولكنه رأى أن لا جـدوى من أي تجيّـش عنيف لنظام حفظ العبيد كما يمارس في البلاد المشـرفة على الخليج العربي.

تملـك وليَمسـون نفسـه عبيداً فـي عدة أوقات موسـرة مـن حياته، وقـد يكون من الأهميـة بمكان اسـتعراض وجهة نظره حول الموضوع. لقـد رأى أن العبيد في جزيرة العـرب والعراق كانوا في كثير من الأحيان أفضـل حـالاً مما لو كانوا خداماً مأجورين. كان لهم الحق بنفس نوع طعام أسيادهم، ولباس من نوعية شبيهة لما يلبس أفراد أسرة السـيد. وكان السـيد ملزمـاً بدفع كافـة المصاريف المترتبـة علـى زواج العبد، وبمنح الأولاد ثمرة هذا الزواج نفس مستوى التعليم كأولاده. يمكن للعبد أن يزامل من يشاء مـن العـرب الأحـرار دون أن يكون خجلاً مـن منزلته الاجتماعية. لـم تكن المناصب

الرسـمية محجوبة عنهم، ولم يكن من غير المألوف أن يصبح عبد أسود والياً (حاكماً) أو أن يحقق مراتب عليا أخرى. ووفق الأعراف العربية كان لأي عبد الحق بالتقدّم إلى السـلطات مطالبـاً بحريته وبإمكانه الحصول عليهـا. ولا واحد في المئة قام بفعل ذلك في الأيام التي كان وليَمسـون يجوب فيها الخليج.

مهما تكن الحجج التي يمكن تقديمها في صالح العبودية، يبقى النظام برمّته خاطئاً بشـكل جوهـري أينما تـم تطبيقه. وقـد التقى وليَمسـون في بعض الأحيـان في موانئ الخليـج العربـي، ضباطاً من البحريـة البريطانية الذيـن كانوا، وبعنف، ضد أي شـكل مـن العبودية. ولكن فـي حين وافق على براهيـن محددة قدموها، لم يتـردّد بتذكيرهم بالعبودية الافتراضية للأطفال في معامل إنكلترا منذ أمد ليس ببعيد.

بعد عدّة سنوات، اجتمع بأحد الضباط ثانية في مـسقط، وكان قادراً على سـرد تجربة شـخصية غريبة. بعد أن اكتسـب منزلاً وأرضاً بالقرب من البصرة أصبح مالكاً لجارية فـي منتصف العمر، أخذت تسـيطر علـى أمور المنـزل لدرجة أنه كان سـعيداً بمنحها حريتهـا. عـادت بعد مضي عدة أسـابيع وتوسّـلت إليه بشـدة أن يعيدها ثانيـة كجارية عنده فأعادها إلى مركزها السـابق. قبل مضي وقت طويل لم تكن تتحكّم بنسـاء وأولاد الأسـرة فحسـب، بل تدخلت في شـؤونه الخاصـة لدرجة أنه أصرّ علـى أنها يجب أن تذهـب حرة بعيداً. كان هناك الكثير من الجـدل. وأخيراً، كإغراء لجعلها تقبَل الحرية، دفع لها تسـوية سـخية.

* * *

الفصل الرابع والعشرون

مقالة في تهريب الأسلحة والذخيرة

على الأغلب لم يكن هناك عمليات تهريب رقيق في الخليج العربي في فترة ما قبل الحرب العالمية الأولى، ولم يكن لدى السفن المدفعية أيّ داعٍ للقلق بهذا الخصوص مادامت ترفع الرّاية البيضاء. لكن تهريب الأسلحة مسألة أكثرَ خطورة، وظهرت أدلة وافرة أن عُمان كانت تستورد الأسلحة بكميات كبيرة لتعيد تسليمها إلى أجزاء أخرى من جزيرة العرب. مسقط المحاطة بالصخور على خليج عُمان لها مظهر لطيف يجرّد الإنسان من كل الضغائن مثل الأوبرا الكوميدية، ولكن البريطانيين ثابروا في ريبة متجهّمة. ولدى قائد إحدى سفن الخفر التابعة للبحرية الملكية كان من الشكوك ما يكفي لوضع الحاج وليَمسون ومركبه على قائمة غير الموثوقين في الوضع العُماني.

لم يكن هناك حاجة لأحد أن يخبر وليَمسون أنه كان محل اشتباه من قبل مواطنيه. صحيح أنه لم يعد هناك أي حديث عن ترحيله بالقوة من الشرق الأوسط - إذ تم استبعاد مثل هذه الأفكار منذ أمد بعيد - لكن السياسيين كانوا يعرفون من هو وأخطروا رجال البحرية بأن يكونوا متنبهين. لم يكن لديهم أي شيء ضده، سوى أنه ببساطة لم يكن من اللائق أن يقوم بريطاني بالتجول في الأرجاء تحت غطاء قبطان داو عربي. أكثر من مرة زار القنصلية في مسقط وأعطاهم نصائح تنم عن حسن النية بغرض ضبط عمليات تهريب الأسلحة العشوائية. تم قبول ذلك بكل كياسة، وشكره المندوب البريطاني بسحره المعروف، ولكن في كل مرة خرج من عنده بانطباع أنه كان يحتفظ بتعليق: «أنت لا تظن يا عزيزي أنه يمكن خداعنا بسهولة؟».

اجتمع في أحد الأيام بقائد زورق مدفعي عائد للبحرية الملكية الهندية، الضابط الذي كان يشتبه به ولم يكترث بأن يخفي مشاعره تجاهه. كان الحاج وليَمسون على ضفاف البحر يتحدّث إلى تاجر أو تاجرين عربيين. وكان خليج مسقط، بين أجراف ناتئة ومتوجة بقلاع وحصون أثرية، يمتد أمامهم. خلال الشعاب بين تلك الصخور المرتفعة، كان البحر يرقص طرباً باللون الأزرق والذهبي. وقفت السفينة المدفعية، مطلية بالأبيض وظلّتها مفرودة، راسية تحت أحد الجروف الذي طلي عليه أسماء السفن الحربية والتجار الذين زاروا هذا الميناء الحار. وعن بعد كان الدّاو الرشيق، العائد للحاج وليَمسون بانتظار حمولته.

قدِم قائد السفينة المدفعية عائداً من القنصلية وتوقف ليلقي نظرة على المنظر الفاتن والملتهب. التفت وخطا بسرعة على طول الشاطئ، بقوام أنيق في بزّة بحرية بيضاء وقبعة هندية حيكت أطراف واقي الشمس فيها بخيوط كحلية من الحرير. كان متجهاً نحو وليَمسون، وبملاحظة هذا، انسحب التجار العرب ملقين التحيات الدينية.

«صباح الخير يا حَجّي»، حيّاه القائد بخفة. «لقد سمعت أنك كنت تقدّم بعض النصح لمندوبنا، حول تهريب الأسلحة، صحيح؟ أنا مهتم لأعرف لماذا أنت شديد التلهّف لإيقاف هذه التجارة».

تبتّم وليَمسون.

«ربما متفاجئ أيضاً؟».. دمدم. «هناك استخدام شرعي للأسلحة في بعض أماكن أستطيع أن أسميها. ولكنني أتوق كما أنت لضبط عمليات التهريب العشوائية للأسلحة النارية إلى جزيرة العرب. والمشكلة أن البحرية تتخذ منحى خاطئاً حول وضع حدّ لهذا».

«نعم، وبذلك أخبرت القنصل، أنا أفهم. لديك نظرية شاذّة حول هذه التجارة».

«قد تبدو شاذة بالنسبة لك»، أجاب وليَمسون بحسم. «ولكن ألا يبدو شاذاً أيضاً أنك لا تمسك بأي من مهربي السلاح في دورياتك النظامية؟ إن الأسطول البريطاني

يتصرّف على افتراض أن البنادق تأتي من أفريقية».

«تم الاستيلاء على مركب داو قبالة جزيرة مصيرة قبل ثلاثة أشهر فقط».

«الطائر الغريب، أيها القائد. أعرف عن سفينة شقيقة تهدر وقودها بالخفارة قبالة رأس الحد. إنه مسرب من أفريقية ولكنه ليس طريق تهريب الأسلحة».

«أعرف ذلك. لديك نظرية..».

«نظرية؟ أُدعها كذلك، إن أحببت. صدقني أنا أعرف عما أتكلم. وأعيد عليك ما أخبرت به القنصل. التجارة الرئيسية للبنادق هي من بلوشستان. وستؤدي سفينتك دوراً أفضل بالخفارة أبعد إلى الشمال».

نظر إليه الضابط البحري بتساؤل عبر نظارته المظللة لتقيه وهج الشمس الباهر.

«ليس لدي أدنى شك، يا حجّي»، عقّب معلقاً، «بعض هؤلاء العرب المخادعين سيكونون سعداء جداً في نهاية الأمر إذا علموا أن السفن المدفعية بعيدة تماماً عن عُمان. بصراحة، أميل إلى اعتماد وجهة نظري في الأمور. يتم تنزيل البنادق في أماكن مختلفة حول هذا الساحل. لا يمكننا تتبع كل داو، ومركب صغير يمكن أن ينسلّ في واحد من مئات المضائق البحرية الصخرية ويفرغ حمولته. أنا مطلع على ذلك، كما أنني مطلع على أنه يتم أخذ البنادق خارج مسقط، ولدي فكرة موثقة أن شحنة بنادق ستخرج قريباً.. على الأرجح إلى الكويت».

نظر وليَمسون بعينيه باتجاه الدّاو الأنيق الراسي بجانب سفينته في الخور، ثم قال مبتسماً:

«أستميحك عذراً أيها القائد (كوماندر)، لقد كانت وقاحة مني أن أعرض النصح. يقول العرب في المقاهي أنه ليس منذ أمد بعيد قد تم تعيينك على سفينة في محطة جزر الهند الشرقية. يجب على هؤلاء المهربين العرب أن يتنبهوا. لن يستطيعوا حجب الحقيقة عن عينيك».

«لا العـرب ولا غيرهـم»، قـال القائد بحدّة، ثـم أضاف: «لقد أعطيتنـي نصيحة، يا حجّي وسأردّ الإطراء. هناك سمك غريب في هذا الميناء - شخصيات مريبة يمكن أن تطلب من قبطان أي داو أن ينقل لهم حمولة من السّلاح والذخيرة إلى شاطئ العرب. لديـك مركـب ملائم هنـاك، فلا يغرينّك أحد أبداً بأن تخاطر بهـا في البحر وعلى متنها أية أسلحة».

«خطر؟».. ضحك وليَمسون. «أنـت حسن النية، أعرف ذلك. ولكن لن يكون هناك أي خطر. حســناً، أسـتطيع أن أنقـل حمولة بنادق من مسـقط ولن تـدري البحرية بأي شيء».

تفحّصـه الضـابـط البحـري مـن العقـال الذهبـي فـوق الكوفيـة وحتـى قدميـه في الصّـندل.

«لا تكـن أحمق يا رجل»، قال بعد برهة. «نحن نعرف ما يدور هنا أكثر مما تتصوّر. سـوف تبحر سفينتي في غضون ساعة. ولكن من تمام الحكمة أن تتخلى عن أي فكرة لنقل حمولة أسـلحة، إذا كنت تفكر بذلك. هـذا تحذير ودّي من أخ انكليزي، رغم أنه يبدو أننا قد سافرنا عبر طرق مختلفة لنجتمع في هذا البيت الزجاجي الحار. أتفهم؟ لا تدعنا نلتقي في البحر إذا كان معك أسلحة في مركبك».

«لا»، قال وليَمسـون؛ «اعتمد عليّ بتجنيـك هذا الإحراج».

افترقا بأسلوب ودّي وقد تبادلا التمنيات الطيبة. كان قائد السفينة الحربية من النوع المحبـوب أحياناً تلتقي بأمثاله في الخدمة البحرية.. هو رجل ذو تربية حسـنة، وسـيم المظهـر، ومتحمـس للانضبـاط وأداء الواجب. توقف وهو يتسـلق درجـات الزورق السّـريع الـذي كان يقوده بحارة هنـود ليلقي نظرة خاطفة على الشـخصية الغامضة في الرداء العربي. لقد كان متحيراً في أمره. وليَم وليَمســون، باسمه المستعار الحجّي عبد اللـه، كان بالنسـبة لـه عينة غريبة الأطوار مثل أي من الأسـماك العجيبـة التي تُصاد في المياه التي تعجّ بأنواع منها في خور مسقط. بالطبع، لا يمكن أن يكون وراء الرجل أمر

صالح. أن يتنكر كعربي مسلم ببساطة «أمر غير مقبول»، ليس من قبل مدني من الصنف المحترم. حسناً، لقد تلقى الرجل تحذيراً وافياً فلا يلومنَّ إلا نفسه إن وقع في الفخ.

عاد وليَمسون وانضم له بعض أصدقائه العُمانيين، كان يدخن ويتحدث بينما يراقب السفينة المدفعية وهي ترفع المرساة وتبحر بحذر خارج الخور. لقد حذره القائد البحري الأنيق، ويعني هذا في العرف البريطاني أن اللعب قد بدأ. لكن صادف أن الحاج كان على علم بلعبة أخرى تجري على قدم وساق، والتي كان واثقاً أن القنصل وراءها. كان بعض المستخدمين المحليين في القنصلية قد خرجوا عن طورهم لنشر خبر سفينة حربية ستذهب جنوباً لخفارة منطقة رأس الحد. دعا هذا الأمر وليَمسون إلى استنتاج أن المركب إما أن يطوف ضمن مجال الرمي من مسقط، أو يتقدم شمالاً ليكمن فيما بين الجزر في مضيق هُرمُز.

شكّل هذا الأمر مشكلة. كان أصدقاؤه العرب في الشمال متلهفين لاستلام بنادق المارتيني هنري ولي إنفيلد إضافة إلى الذخيرة الجاهزة في مسقط للنقل. تم إنهاء كل الترتيبات العملية اللازمة لضمان البضاعة، وتنبأ وليَمسون برحلة من أكثرها ربحاً باتجاه الشمال - إذا لم تتدخل السفينة المدفعية.

لم يستخفّ الرّجل بذكاء الخصم. لقد كانت لدى السلطات السياسية والبحرية مصادر عديدة للمعلومات من بين القراصنة السابقين وآخرين مختلطي الأعراق في مسقط. ولا يمكن تنظيم شحنة بنادق مخبأة في البلدة دون أن يتسرب الخبر لتنبيه البريطانيين. بناء على ذلك، إذا كان من الضروري تحويل البضاعة إلى الأراضي الكويتية من أجل تهريبها إلى العراق، وجب إيجاد الوسيلة لخداع المتطفلين والهروب من أعينهم. فعلى ذلك، وضع وليَم خططه وشرع بتنفيذها على أرض الواقع.

طوال اليوم التالي وخلال الليل تم تحميل حمولة مختلطة. ولم يبدِ أحد أي اهتمام خاص بالأحداث ما عدا العرب المنتقين والمستخدمين لنقل الصناديق المختلفة والأقفاص والأكياس والحزم إلى مراكب الدّاو الراسية. أما قبطان الدّاو نفسه فكلف معاونه الأول الكويتي بالإشراف على هذه العمليات بينما أمضى هو جزءاً من اليوم

القائـظ جالســاً على مقعد مظلل خارج أحد المقاهي. من بيـن الزبائن لاحظ واحداً أو اثنيـن مـن المحليـن معتمـري العمائم اللذين كانا جاسوسـيـن، ولديه أسـباب لاعتقاد ذلـك. رفـع صوتـه قليلاً مـرة أو مرتيـن عندمـا كان يتحدث مع تجـار عـرب، متباهياً بالحمولـة المربحة والمخبوءة في عنابره. في اليوم التالي أخبره أحد عملائه السـريين أن إشـارة بمصباح وامض أرسـلت من جبل أبو داوود جنوب شـرق الميناء إلى سفينة بعيدة في عرض البحر.

لأسـباب سـتظهر لاحقاً، لم يثنِ هذا الأمر الحاج وليَمـون عن الإبحار من مسقط مباشرة بعد إنجاز العمل. تولى الدفة بنفسـه، وما إن ابتعد عن الميناء، حتى أخذ يدخن النرجيلة بكل رضا تحت ظل سعف النخيل بينما كان يقود الدّاو إلى وجهته.

أخذت مسـقط تتلاشـى خلف مؤخرة الدّاو حتـى بدت الأبنية على طول الشـاطئ كالحصى الأبيض بين الصخور المكشرة المحيطة بالخور. كانت مسقط ذائعة الصيت بكونهـا أحرّ الأمكنة مناخياً في كل جزيرة العـرب، ومرتعاً للمؤامرات والخيانات إلى جانب كونها ميناء بحرياً لمركز تجاري مزدهر. لقد كان وليَمـون سـعيداً بمشـاهدتها فـوق امتداد مـن بحر أزرق متلألـئ، وبتنفس هواء أقـل تلوثاً من ذاك فـي البلدة. فقط بضع مئات من الذباب الضـخم، الذي ينمو في أسواق اللحم والسمك، رافق الدّاو إلى البحر. كان ذلك من التفاهة أن يزعجه، أو يزعج أحداً من بحارته الكويتيين الخشـنين الذين جثموا على ظهر المركب وسط الحبال الملفوفة.

حلّ سـكون شـامل عندما كانت مرتفعات عمان القاحلة على بعد حوالي اثني عشر ميـلاً فقط. انسـاب الدّاو بأشـرعته المترهلة ببـطء وتذمر على أدنى موجـة، فقام أفراد الطاقم باصطياد كل السـمك الذي احتاجوه من تلك المياه السـخية. عقب صلاة الظهر ووجبة الطعام أخذ الحاج وليَمــون قيلولة خلال حرّ بعد الظهر ثم اسـتيقظ ليجد أن المركب مازال راكداً.

بالنظـر إلـى جهة الميمنـة، رأى بياضاً وامضـاً وكأن ميلاً من البحر قـد تجمد. كان ذلـك رذاذاً متلألئـاً ناجمـاً عـن فـرار ملاييـن من الأسـماك الصغيـرة يطاردهـا باتجاه

الشـاطئ أعداد لا حصر لها من سـمك الباراكودا النهم الوثاب. لكن وليَمـون الذي كان متمرساً بالظواهر البحرية من هذا النوع، حوّل نظره باهتمام بالغ إلى مسحة دخان في الأفق. لقد كانت الاحتمالات أن يكون المسبب، إما ناقلة بضائع أو سـفينة عائدة للخـط الملكي البريطاني في الخليج، لكنه لم يكن متفاجئاً عندما برزت للعيان مدخنة صفراء برتقالية وبدن أبيض.

كان زوج من مدافع Q.F. قد سُدد باتجاهه ولو أن القذيفة التقليدية نحو المقدمة لم تكن ضرورية ذلك أن المركب كان قد توقف مسبقاً لاستنشاق النسيم.

سـارت السـفينة المدفعية حتى وصلت إلى مكان قريب، ثم ناداه القائد عبر مكبر الصوت من على منصة الربّان.

«أنزل أشرعتك. سأضع حرساً على ظهر مركبك».

شـرع الطاقم العربي برشـاقة بمهمة لف الأشـرعة نزولاً عند أوامر وليَمـون، في هذه الأثناء أُنزل زورق بحري من السـفينة المعترضة. ملازم شاب من البحرية الملكية وستة بحارة هنود مسلحون صعدوا على ظهر الدّاو. كان الاحتجاج عديم الفائدة، ذلك أن السـفينة المدفعية كانت قد تلقت خبراً أن أقفاصاً من البنادق وصناديق من الذخيرة قد تم تحميلها بين البضائع. أجرى الملازم تفتيشاً رسمياً للموجودات، ولم يفاجئه عدم وجود مهربات. إذ أنه لا يمكن إجراء فحوصات دقيقة في عرض البحر، وللمهربين العُمانيين أساليب مبتكرة في إخفاء الأشياء، والتي اهتمت بها البحرية البريطانية بحماسة زائدة.

احتجاج ساخط آخر أطلقه وليَمـون عندما أُخبر أنه كان سيؤخذ إلى خليج مَطرح. وتم تجاهل هذا أيضاً. ألقي حبل غليظ من السـفينة المدفعية على ظهر الدّاو ثم تم قطره إلى الميناء بضع أميال غرب مسقط. تم اتخاذ تدابير الاستقبال. وما أن أُلقيت المرساة حتى اصطفت الصنادل[1] إلى جانب الدّاو وبدأ الحمالون بالتفريغ.

---

(1) مراكب مسطحة لتفريغ الحمولة.

حتى يُظهر القائد البحري أنه لا توجد مشـاعر سيئة أرسـل دعوة إلى الحاج لزيارة السفينة وتناول المقبلات والغداء. ولدى تلقيه الرفض أتى إلى الدّاو ودخن السيجار البورمي مع المتهم بينما كانت الحمولة تؤخذ خارجاً وتعاين.

«أوقف هذه الاحتجاجات المزيفة، يا حَجّي»، قال القائد: «لا يتركون لي الفرصة للمجاملة. لقد وُضعت أسلحة على ظهر مركبك وسأقوم بتمشيطه حتى أجدها».

أجاب وليَمسون: «سنسمع الكثير من هذا. لقد رأيت بيان الحمولة وقد كتب بالإنكليزية خصيصاً لمثل هذه المشاكل. حمالوك الهواة هؤلاء سيتلفون جزءاً كبيراً من البضائع. كل ذلك البطيخ الممتاز في الأكياس الذي آخذه إلى أعلى الساحل سوف لن يكون صالحاً إلا للرمي في البحر بعد أن ينتهوا من تكويم الصناديق فوقه».

«ماذا بداخل تلك الصناديق الخشبية؟».

«تمر عماني خاص محشو بالفستق. وهي هدايا من السلطان إلى شيوخ بلدات الخليج الشمالي. افتح ما شئت. انظر في تلك الحزم من جلود الحيوانات. من السهل إخفاء عدة خراطيش بداخلها».

لم تُجدِ السخرية سوى أن جعلت الضابط البحري يبتسم.

«أعرف كيف تشعر، يا حجّي. بالرغم من تحذيراتي، قمت بتحميل أسلحة مهربة. إن للقنصل عيوناً حادة، ونحن في البحرية لدينا آذان طويلة. سوف يعاد تحميل كل بضائعك إذا كنا مخطئين، ولكنني على ثقة أن الحمالين لن يتعرضوا لتلك المتاعب. لقد كنت أحمق لعيناً، أيها العجوز، ويجب أن تدفع الغرامة».

تم فتح وفحص بعض الصناديق والحزم. ثم ذهب أحد الضباط من السفينة المدفعية إلى أحد العنابر المُفرَّغة برفقة بحارة يحملون الفوانيس المضيئة. لم يكن ممكناً أن يجدوا لا بندقية ولا خرطوشاً. في الصباح التالي عندما كانت كل الحمولة على الصنادل، أجري بحث حثيث للداو في ضوء النهار. تم فك الألواح الخشبية وإعادتها، وقاموا بالتنقير على الحواجز الفاصلة بحثاً عن حجيرات سرية يمكن أن

تخبأ فيها المهربات. كل الجهود باءت بالفشل. ولم يكن يوجد في الدّاو أي بندقية أو خرطوش.

تم إعادة تحميل البضائع. وفي تلك الأثناء عاود الضابط البحري، دون أدنى خجل، زيارة الحاج وليَمون وقدّم اعتذاره بصراحة. كان واضحاً، لقد اعترف بذلك، بعد أن رفض التمر المحشو والشراب، أن القنصل في مسقط قد أبلغه معلومات مضللة وسيقدم تقريراً يبين ذلك. إن لمسقط حصتها من الأوغاد الماكرين، وافق وليَمون، وبلا شك أحدهم قد تلقى هبة سخية مقابل معلومات زائفة. كان التأخير بالنسبة له سيئاً جداً. مع ذلك أقرّ بأن دوريات الأسطول البريطاني قد أنجزت عملاً باسلاً بالقضاء على القرصنة على طول الساحل العُماني، وتأسف على أنهم لم يفعلوا المزيد لضبط عمليات تهريب الأسلحة من بلوشستان. كل ما تمنى فعله آنئذٍ كان أن يستمرّ في رحلته البحرية القانونية، وأن يسلم هدايا السّلطان إلى الشيوخ المتعددين على الطريق إلى الكويت.

رافقت السفينة المدفعية الدّاو من مطرح ثم افترقا. ثم التقيا ثانية بعد ثلاثة أيام على مسافة من القُرنة بالقرب من مضيق هُرمُز. كان الدّاو ينساق بكسل بفعل أرق النسمات وهو يجر خيوط الصيد في المؤخرة عندما اقتربت السفينة البحرية بما يكفي للتعرف عليها. خفض الحاج وليَمون العلم الكويتي ثم رفعه، ورأى راية السفينة المدفعية تنزل تعبيراً عن التحية. عندئذٍ مر بسلام على طريقه إلى الخليج العربي.

في وقت لاحق، تلقى القائد البحري أنباءً مزعجة عن أن شحنة أخرى من البنادق والذخيرة قد دخلت بلاد ما بين النهرين عن طريق الأراضي الكويتية.

كيف استُخدمت هذه الأسلحة سيُروى ذلك آنفاً، ولكن لن يكون من المناسب في هذه المرحلة أن يُكشف عن كيفية وصولها هناك. بعد وقت طويل عندما أُقرّ الاستخدام الشرعي للأسلحة، التقى الحاج وليَمون بالقائد البحري ومازحه حول تبادل التحيات مع السفينة المدفعية لما كان مركبه متجهاً إلى مضيق هُرمُز. قال: «لقد فتشت مركبي، وتأكدت بنفسك أنه لم يكن هناك أي خداع. ولكن بعد التفتيش في

مطرح مررتُ بك وفي عنابري مخزون نادر من الأسلحة».

بصعوبة بالغة صدقه الضابط البحري. وبالتالي شرح وليَمون آلية العمل البسيطة للمكيدة. تم وضع بعض أقفاص الأسلحة على متن الدّاو في مسقط، ولكن تم نقلها بعيداً في جنح الظلام بعد تغليفها بأكياس. بعد ذلك أُخذت كل الأسلحة والذخائر في طرود مموّهة عبر الطريق الصخري بين مسقط ومطرح. ومن مطرح تم إرسالها بواسطة قطيع من الجمال إلى الخابورة على بعد مئة ميل أعلى الساحل حيث عرّج الدّاو لتسليم بعض من تمر السلطان. حُمِّلت الأقفاص على متن المركب ثم خُبئت بحرص تحت بعض البضائع الأخرى. عندئذ، وبدون إزعاج، تابع وليَمون طريقه إلى ميناء الكويت على الخليج العربي.

* * *

الفصل الخامس والعشرون

اختبار المحاربين

لم يمضِ وقت طويل على المأثرة البطولية لوليَمســون في تهريب الأسـلحة، حتى اندلع تمرّد ضد الأتراك في الجزء الأدنى من بلاد مابين النهرين. وقد حدث قتال متفرّق بين كوت العمارة على دجلة والناصرية أبعد إلى الجنوب على الفرات. من الواضح أن الوضع كان كما يهوى وليَمســون، ذلك أنه تخلى مؤقتاً عن تجارته في الخليج العربي، وهبّ لنصرة الشــيخ مجيــد Majid وابن أخيه عبد الله فلاح من الشَّــراهين Sarakhims (الشَّراهنة)، أحد أفخاذ قبيلة آل بدير[1].

كالعادة، اندلعت المشــاكل بـسبب الضـرائب، إذ كان من المفترض أن يأخذ الأتراك عشـرة بالمئة ضريبة من الرّعاة – وهي النسـبة المنصوص عليها في الشريعة الإسلامية – ولكن في الممارسـة على أرض الواقع كان يُسـلب خمس وعشـرون بالمئة تقريباً من رجال القبائل بــسبب الابتزاز والرّشـوة. ولما كان شـيوخ آل السّعدون قد أصبحوا محصّلـي الضرائب للأتراك، فقـد أخذوا يضغطون على المزارعيـن والرّعيان من غير قبيلتهم. لقد كان هناك الكثير من عدم الرضا، وأيضاً، في البلدات والقرى بين النهرين العظيميـن، تجلّت ثانيـة علة العرب القديمـة عندما دفعت العداوات القبلية بالسـكّان المحلييـن إلـى مضــارب مختلفة. وثمّـة قبيلة أو قبيلتـان من العرب وقفتـا مع الأتراك بسـبب تأثير سـعدون باشا ووجيه أخر يـسمى منصور. كان سوء الحكم التركي وفرض

---

(1) آل بدير في العراق من العشائر العربيّة التي تقطن محافظة القادسـيّة وعفك والدّغارة والشاميّة، وأصلهم من العشائر القحطانيّة التي نزحت قديماً من اليمن إلى جزيرة العرب والعراق.

الضرائب العالية موضوعين يثيران غيظ وليَمسون على الدّوام. وربما وصوله إلى الشطرة Shatrah بالقرب من الفرات الأدنى في الوقت الذي كان يجري فيه قتال من بيت إلى بيت على فترة أربعة أيام، كان بسبب سخط له مبرراته الأخلاقية. كان المزاج العام مفيداً دون شك، ولكن أيّ عراك جيد كانت له جاذبيته المغناطيسية، فبكل تأكيد رحّب بالتمرّد في أعلى البلاد. لقد فاتته جولات الغزو المثيرة، وكان سعيداً بأن يمدّ يد عون قوية إلى صديقه الشخصي الشاب عبد الله فلاح. ورجاه الشيخ الكبير، الذي ابتهج بوصوله في الوقت المناسب مع بعض أتباعه، أن يتولى القيادة. فما كان من وليَمسون إلا أن قبِل الطلب بكل حماس واستعداد، وهو ممتلئ ثقة بقدراته العسكرية.

كان الشَّراهنة (الشَّراهين) Sarakhims محاربين ذائعي الصيت لكنهم قليلو العدد نسبياً. كانوا خبراء في القتال القريب باستخدام الحراب والخناجر، كما كانوا الأكثر مهابة بسبب حيازتهم لبنادق جديدة ممتازة تم تهريبها عبر الخليج العربي. بعد الاشتباك في الشطرة، قادهم وليَمسون إلى المناطق المرتفعة في البلاد ودخل ثانية في المعركة ضد رجال قبيلة السَّعدون المعزّزين بالعسكر النظاميين الأتراك. في خضمّ القتال، تم الالتفاف والمناورة على الثوار وقطعهم عن موارد المياه. كانت فرصتهم الوحيدة بالاندفاع إلى قناة السقاية، وحاول بعض العرب في تحدٍّ سافر الجري تحت وابل من نار البنادق من أجل تعبئة قرب جلد الماعز بالماء. فقتل اثنان أو ثلاثة وجرح آخرون.

استلقى رجل جريح قد قتل أخوه آنفاً على حمّالة من قصب منسوج وتأمل وليَمسون بعيون محملقة. قال ساخراً: «أمرتنا بجلب الماء، أسألك بحق الله، لماذا لم تفعل ذلك بنفسك؟». عندما تجاهل وليَمسون ذلك التعيير، أخذ باقي العرب بالتذمّر والتشكي واقترحوا عليه أن يضرب أمثولة في الشجاعة. قال أخيراً: «اسمعوا ما سأقول لكم، أنا قائدكم المعيَّن. ما آمركم بفعله كنت لأفعله بنفسي لولا أن حياتي قيّمة لكم ولقضيتكم. ألا تحتاجون إلى معرفتي في المناورات الحربية، وتوجيهاتي في الهجمات على الأعداء؟».

رغم ذلك تردّد في إرسال رجل آخر في تحدّي نيران السَّعدون، ولهذا التردّد، وبَّخه الرجل الجريح ثانية.

تعاطف وليَمسون مع معاناته. لقد تعرّض إلى حرمانٍ قاس، وكان يُعاني العطش أكثر من معظمهم. شعر أنه يستطيع تجاهل تعليقاته، ولكن سخرية عدّة محاربين شباب أكفاء جعلته يستشيط غضباً. هكذا كان المزاج العام في فترة الهدوء بين المعارك الدامية حتى بدا أنه يمكن أن يفقد ماء وجهه وقدرته على الحفاظ على الانضباط التام. وبدون توبيخ آخر تناول قربتين من جلد الماعز وانطلق يمشي خارج المخبأ.

صمت العرب، وقبل أن يقطع وليَمسون كثيراً من الياردات تنبه رجال القبيلة الأعداء إلى المحاولة الجديدة وبدؤوا بإطلاق النار. أخذت الطلقات تندفع على مقربة بشكل كريه؛ واختلط الأنين الوحشي لارتطام الطلقات مع دويها. كان فم الحاج وليَمسون أشد جفافاً من الخنادق الرملية التي حجبت القوى المعادية. لقد أراد أن يجري، أن يسابق إلى قناة السقاية وأن يرمي بنفسه في حماها المغري. مزقت طلقة كم ثوبه وثلمت ذراعه بجرح كبير وعميق في اللحم. شد الخوف أعصابه، الخوف الذي يقاسي منه كل رجل طبيعي وشجاع عندما يعي حجم المخاطرة بحياته وأعضائه. لكن إرادته الحديدية قهرت أعصابه وعضلاته، وأجبرت قدميه على الخطو بتأنٍّ عندما حضّهما المنطق على الإسراع.

انضمت الأصوات التي كانت توبخه في جوقة مسعورة تنادي: «اجرِ! اجرِ، حَجّي عبد الله! كرمى لله.. اجرِ!». دغدغ هذا الاهتمام المفاجئ بسلامته روح الفكاهة لديه بالرغم من الخطر المحدق. أخذ إطلاق الرصاص يقل وحلّ شعور بأنه لن يصيبه أذى محل الخوف. وما أن وصل إلى قناة السقاية حتى جثم محتمياً في المجرى الضيق بين جنبيها وقام بتعبئة القربتين. عندئذٍ عاد أدراجه دون أن يطلق السّعدون طلقة أخرى.

مهما تكن العيوب والحماقات التي يمكن عزوها إلى العرب، فلا أحد ممّن يعرفهم يمكن أن ينكر نزوعهم إلى الشهامة إذا تآمرت الظروف على صنع المزاج. وبدون أي شك فإن الحاج وليَمسون مدين بحياته لهذه الخصلة الدونكيشوتية، ذلك أن السّعدون سمحوا له بالسّير ثلاث مرات أخرى دونما تعرّض إلى قناة السقاية لتعبئة قِرب أخرى. ولكن هذا التساهل يعدّ خطأً من وجهة النظر العسكرية، ذلك أن الهيبة التي اكتسبها

القائد الإفرنجي أثّرت بشكل كبير على الحملة التالية.

كانـت إحـدى المظاهر الغريبة فـي القتال هي ميل المقاتلين إلـى حمل الأعلام في المعركـة. كان الأتـراك وحلفاؤهـم يرفعـون النجم والهـلال[1]. بينما حمل الشَّـراهنة رايـات خضـراء، وزينوا أطراف أكبرها وأفضلها بأشـرطة حمراء. آخذين بعين الاعتبار تكتيكات النظام المفتوح، قام الطرفان كلاهما باندفاعات قصيرة وتغطية سريعة.. وقد استُحسـنت هذه الأسـاليب من قبل كل المدرّبين المسـتخدمين من قبل القوى الغربية العظمـى فـي عـام 1914 - لكـن بدا الأمـر متناقضاً أن تؤخـذ كل الأعلام إلـى الأمام، وبالتالي تظهر خطوط الهجوم بوضوح.

قدّمت قنوات الرّي القديمة غطاء جيداً في بعض الأحيان، وطبع وليَمسون في أذهان رجاله أهمية اسـتخدام الطيّات في الأرض. في إحدى المرات حثّهم على الهجوم في موجـات، ولكن لـم ينصحهم بعدم حمل الرايـات الخضراء لما لها مـن رمز ديني في مخزونهم. بدأ الشَّـراهنة في خضـمّ المعركة بإظهار بعض التردّد بعد عدّة إصابات. في هذه المرحلة لاحظ وليَمسـون بنتين قرويتين بين الجند. عندما أخذت أصوات الجند تخبـو، علا صياح هاتين الأمازونتـين الصغيرتين المسـلحتين بالعصي فقط: «لا إله إلا اللـه!». ثم قامتا بتمزيق خماريهما الأسـودين، وركضتا إلى أمـام الرّاية ذات الأطراف الحمراء وهما تلوحان بهما. وفيما هما تسـتحثان حميّة الرجال كانتا تصيحان: «هاتوا البنـادق لنسـتعملها وخـذوا أنتم خمارنـا». خجل المحاربـون من البنتيـن، فقاموا بلمّ شعثهم واتبعوا وليَمسون إلى الهدف الذي وضعه لهم.

كان الليـل هادئـاً ولكـن وردت أنبـاء بـأن حوالي ألفين مـن الفرسـان والمحاربين الراجليـن مـن قبيلـة معادية أخرى كانـوا قادمين من الشـمال يهدّدون بهجـوم جانبي.

---

(1) تتألف راية آل السّعدون شيوخ المُنتفق (المُنتفج) من مستطيل أحمر اللون يتوسّطه هلال أبيض وثلاثة أنجم، فالهلال يرمز لآل شبيب (الاسم القديم لآل السّعدون) والأنجم الثلاثة ترمز للقبائل الثلاث الرئيسـية في إمارة السّعدون: بني مالك، والأجود، وبني سعيد. وكانت تدعى هذه الرّاية: وارد.

شاور الحاج وليَمسون الشيخ الكبير وعبد الله فلاح. كانوا بحاجة ماسة إلى تعزيزات قوية، لكنها لم تكن متوفرة. وقد يضطرهم الانسحاب إلى الخوض في قتال المؤخرة ويمكن أن يشكل خطراً مهلكاً في تلك التضاريس.

بعد تمحيص عميق للمعضلة، استقرّ رأي وليَمسون على خدعة جريئة، وأصدر أوامر دقيقة لفلاح وواحد أو اثنين آخرين من المحاربين الفتيان. حينئذٍ انسحب هو وبعض رفقائه إلى خطوط الخيل في عمق المؤخرة، ثم افترقوا منطلقين إلى قرى متعدّدة في المنطقة.

كانت المنطقة تقطعها الكثير من قنوات السقاية والخنادق، مما اضطر وليَمسون إلى خوض بضع مجارٍ مائية للوصول إلى تجمّعات العرب التي أُرسل إليها. نتيجة هذا النشاط الليلي تجمع النساء والرجال من القرى المجاورة حاملين أسلحة أثرية وحراب صيد السّمك وأعلاماً، في المنطقة التي وجّه إليها وليَمسون شيخ ماجد بأن يرسل بضع محاربين من الشَّراهنة مع بنادقهم المارتيني هنري. شكل القرويون مجموعة كبيرة من الغوغاء، كباراً وصغاراً، لم يكن لأحدهم هيئة المحارب، ولكنهم اتّحدوا في امتعاضهم من الأتراك وحلفائهم.

لقد قبلوا أوامر الحاج وليَمسون بكل سرور. وكان هذا التجمع تحت النجوم بمثابة استراحة مرحب بها في وجود رتيب نوعاً ما. أخذوا مراكزهم بالطريقة الماكرة المطلوبة وكمنوا فيما بين القنوات والخنادق في المنطقة.

لمنع برود الحماسة بينهم، شجّعهم وليَمسون على سرد القصص المحلية الشائعة. واحتدّت المنافسة بين المجموعات المختلفة لتحديد من كان بوسعه أن يروي أكثر قصة منافية للعقل عن تدخل الجن في شؤون الإنسان. وهكذا بقي الجند المتنافرون في مكانهم سعداء حتى موّه الفجر الريف بين النهرين العظيمين بالذهب، ووثبت الإثارة كالشعلة لدى ظهور رجال القبائل المعادية. كانت الصعوبة التي واجهت وليَمسون هي كبح جماح أتباعه عن كشف أنفسهم بشكل مبكر. كان يجب اختيار اللحظة الحاسمة، وأخذ يراقب بحذر حشود الأعداء وهي تتقدم الآن بقيادة شيخهم للهجوم

على الشَّـراهنة. مع ذلك لـم ينخرطوا في المعركة قبل أن يعطـي الأمر إلى المجموعة الضخمـة تحت إمرته. تم إطلاق النار من قبل أولئك المجهزين بالبنادق؛ وبرز الرعاع من الكمائن يصيحون بأصوات قوية تمجيداً لله ويلوّحون بحرابهم وأعلامهم. لا تعد كلمة مفاجأة إلا تعبيراً معتدلاً للصدمة التي تلقاها العدو. إذ كان من المستحيل بالنسبة لهم على مسـافة متوسـطة تمييز النسـاء وسـط هـؤلاء المغيرين الجـدد أو حتى طبيعة الأسلحة غير المؤذية. كان الانطباع أنهم وقعوا في فخ، وأنهم بدورهم قد التُف عليهم في الخاصرة من قبل تعزيزات قوية من آل بدير Abudir. وعلى الرغم من أن خسـائرهم كانت قليلة، فقد انهاروا وفرّوا.

سـريعاً، بعـد هـذه الهزيمة النكـراء بغير دماء تذكـر لزمرة من حلفـاء الأتراك، عُقد مجلس وتم الوصول إلى اتفاق سـلام بشـروط لصالح قبائل آل بدير. في الليلة التالية لتلك، حدث أمر يتعلق بالحاج وليَمـسون الذي، ورغم عدم أهميته المادية، أسـر مخيلة العـرب أكثـر مـن نتيجة الحيلة العسـكرية. تـم إضرام نـار كبيرة في المخيـم، وجلس وليَمـسون مع الشـيخ مجيد Majid وابن أخيه فلاح وعدد من رجال قبيلة الشَّراهنة الذين كانـوا فـي إمرته. كان في هذا المجلس اثنان من محاربي آل السَّـعدون الأشـداء الذين وقعوا في الأسر خلال القتال ولكن، بسـبب الهدنة، منحوا منزلة ضيوف الشرف.

توافر كل شـيء ليمنح رجال القبيلة أشـد السـرور والمتعة، النار في الليل تحت النجوم، القهوة المرّة، التبغ والدردشـة الودودة. وفوق ذلك، أدرك الشَّراهنة بكل رضا أنهم قد نالوا بشـدة من الأتراك وحلفائهم. بقي السـجـينان مكتئبين ونأيا بنفسيهما عن الجمع. وقد شُعر مـن سـلوكهما المبكر بأنهما متألمان مـن الهزيمة ومتكدران من أن أجنبيـاً، كما عرفوا عن الحاج عبد الله وليَمسون، قد أدار وجهة النصـر العسـكري لقوم آل بدير[1].

تدريجيـاً، تـم جلب عنصر من المشـاحنة إلى الجمـع المرح عندما بـدأ محاربا آل

---

(1) هذا مع أنّ الذي سيجري لاحقاً أن الحجّي عبد الله الفضل سوف يصاهر آل السَّعدون، فإحدى زوجاته (سارة) منهم. حتى أنّ الشيوخ آل السعدون عدّوه منهم وأدرجوا اسمه في «الودي»، أي ما يناله الشيوخ من رسوم يدفعها أبناء القبيلة.

السّعدون بالحديث بصوت مرتفع بينهما. وسرعان ما تبيّن أن موضوع النقاش كان عن الجدارة القتالية لكل من العرب والإنكليز.

كان الأول يطرح نقطة مثل: «يذهب العرب إلى المعركة على الخيول والجمال معرّضين أجسادهم لطلقات البنادق وضربات السيوف والخناجر». في حين كان يردّ عليه الآخر: «ولكن الإنكليز مشهورون بالقتال في سفن كبيرة. تراهم يبقون خلف الجوانب الفولاذية العظيمة لهذه السفن خوفاً من التعرض للجروح».

كان الحاج وليَمسون جاثياً على الأرض بالقرب من النار يدخن التجائر حيث يشترك بالحديث العام فقط بين الفينة والأخرى. انقطعت الدردشة السارّة تدريجياً، وأصغت الآذان إلى الحديث الدائر بين الرجلين من آل السّعدون. أرضى هذا الاهتمام غرور الضيفين الفظين، واعتماداً على الكياسة التقليدية لمضيفيهم بعدم اعتبارها إساءة لهم، غدوا أكثر جرأة بتعليقاتهم. كانت وجهتا نظرهما ببساطة، وقد عبّرا عنها بسلسلة من التعريضات، أن الإنكليز بالمقارنة مع العرب الأبطال ليسوا سوى شذّاذ جبناء.

بالرغم من كون آذان الرجال ملتفتة إلى الرّجلين من آل السّعدون، فقد كانت أعينهم على الحاج وليَمسون وهو يدخّن في صمت دون أن يبدي أي امتعاض. وعلى الرغم من أن الضيفين كانا يتكلمان بتعابير عامة، فمن الواضح أنهما كانا يستهزءان بالإفرنجي الموجود. وتساءل رجال القبائل كم من الإهانات ضد عرقه سيحتملها قائدهم.

رمى عقب السيجارة وأخذ يلهو بتراخٍ بعدد من خراطيش المارتيني هنري كانت على حزامه. أعطت ملامحه الجامدة فكرةً خاطئة عن مشاعره الحقيقية، في حين كان يستشيط غضباً في داخله. وأخيرا قطع الحوار الدائر بين آل السّعدون بمداخلة هادئة.

«لقد قيل ما فيه الكفاية، يا أصدقائي، وقد بدا جلياً ما يدور في أذهانكم. أنتم من العرق العربي رجال شجعان؛ وأنا من مولد إنكليزي، وحسب أقوالكم، فرد من أمّة جبانة. سبحان الله، لا داعي للجدال. دعونا نضع الأمر قيد الاختبار، وسوف نرى إن كان ما تستنتجونه حقاً. سنرى إن كانت قلوبكم قوية كما ألسنتكم سليطة».

مدّ ذراعيه وأظهر كفيه المضمومتين المليئتين بالخراطيش الحية. عندئذٍ قذف بكل شيء في النار الملتهبة.

«ابقوا حيث أنتم يا أصدقائي»، وحذّرهم قائلاً: «أنتم قريبون من النار كما أنا. ابقوا جالسين على الأرض. ستبدأ الطلقات بالتطاير من هذه الخراطيش، في بضع ثوان أو ربما نصف دقيقة. أنتم العرب لا تخشون تعريض أجسادكم للطلقات، كما تزعمون؛ وأنا أيضاً، المولود كرجل انكليزي، سأبقى بهدوء هنا معكم لإثبات...» ولكن تلك الملاحظات الأخيرة الخفيضة أصابت جميع الموجودين. فإذا بمحاربَي آل السَّعدون وحتى الشيخ الكبير وابن أخيه وكل شجعان الشَّراهنة جعلوا يثبون بعيداً عن النار إلى الظلام في الخارج.

ما يدعو للسخرية هو أن وليَمسون كان بنفس التلهف ليغادر على استعجال، لكنه اضطر إلى البقاء حيث كان جالساً. فبعد كل ما قاله وفعله كان سيفقد ماء وجهه بالكامل بالانسحاب. تسلّل إليه شعور كريه أن الضحكة الأخيرة ستكون عليه، ولكن كبرياءه سمّره في مكانه ليتحمل المحنة. بدأت الألعاب النارية. انفجرت الخراطيش بتتابع سريع بسبب الحرارة، وترامت الطلقات خارج النار في كل الاتجاهات وليس فقط بضع جذوات ملتهبة. لكن الرعاية الإلهية تولّته ثانية، فالله يعتني بخواصه – أو ربما كان مقدراً للحاج أن يعيش إلى عمر متقدّم مشرف.

يقال إن النساء هنّ استجمام المحاربين وفق بديهيات نابليون. وفيما يخصّ الشرق الأوسط فإنه أقرب إلى الصواب أن تقول «محارب متزوج»، رغم أن هذا قد يكون مضللاً أيضاً. كذلك قد يظهر انطباع خاطئ أن وليَمسون، وهو تاجر رحّال ومقاتل، متديّن ومهرّب أسلحة، كان محصّناً ضد السحر الأنثوي. لم يكن الأمر هكذا بأي حال على الإطلاق وتتوافر البيّنات في أرجاء متعددة من جزيرة العرب والعراق كدليل على صحة عكس ذلك.

لقد أمضى فترات متعدّدة في بلاد المُتفق بين نهري دجلة والفرات، ولم يكن التمرّد المذكور سوى واحد من الثورات التي شارك فيها. لم يرَ بيته في الكويت إلا في

القليل النّادر، ثم تنازل عنه لبعض الأصدقاء. أما الدّاو فكان يُستثمر في التجارة بنجاح في الخليج تحت إشراف المعاون العربي مصطفى الذي رقاه ليصبح قبطاناً (نوخَذة). وكان جلياً للنساء والرجال أن الله قد حباه من نعمه. ونتيجة لمآثره في الصحراء والخليج العربي وضد الأتراك، بدأت الأساطير تحاك حول اسمه وأخذت الشائعات تكتسب مصداقية أنه ليس محارباً عظيماً فقط بل هو رجل غني جداً. كان ذلك مبالغة في أي مرحلة من حياته، ولكنه كان يحقق نجاحاً وثراءً فلاحظت النساء العازبات هذه الحقيقة كما ينبغي وفق سلوك جنسهن.

كذلك انتبه البريطانيون إلى ثرائه، لكنهم لم يعزوا ذلك إلى فضل الله وإحسانه. عزفت عقولهم المريضة على وتر واحد أنه حقق ثروته عن طريق تهريب الأسلحة فقط. ربما لأنهم مثل العرب، قد أولوا الكثير من الثقة إلى الشائعات. ونظراً لعدم قدرتهم على تقديم أي برهان، كان الرّجل موضوع هذه الشبهات غير الجديرة بالاعتبار قادراً على العودة إلى البصرة، والسير بحرية إلى جانب خليج العشار ملقياً بمباركات الولاء تحيّة لأي من أبناء الوطن صدف أن التقى به.

بينما في ميناء شاطئ العرب، من ناحية ثانية، لم يسلم أبداً من قنص أصدقائه القدامى من عائلة البسّام ومعارفه المحليين الآخرين. لماذا لم يتزوج؟ ألم تكن الفتيات العربيات جميلات بالقدر الكافي لذوقه؟ لقد كان ملتحياً، وباستطاعته تحمّل زوجة أو اثنتين. فماذا ينقصه حتى يستهتر بالاستمتاع بالنعيم الذي يمكن أن يمنحه الحريم؟

إن التنويه إلى اللحية كان بسبب اعتقاد العرب أن الشعر الكثّ في الوجه إنما يدل على امتلاك صفات رجولية أخرى. وبالفعل، يعدّ الرجل الحليق مشبوهاً عند بعض القبائل. فالنوع الحليق الوجه الناعم الذي يعدّ محل إعجاب في أرقى الأوساط البريطانية والأميركية هو موضوع سخرية إباحية في بعض أجزاء من الشرق الأوسط. ومما يحسن إضافته، أن الخوف من أن يُحسب شاذاً، قد حثّ كثيراً من ضباط البحرية على إطلاق لحاهم أثناء الخدمة في المياه الشرقية.

في الزُّبير حيث كان يفاوض لشراء مسكن، فكّر الحاج وليَمسون بمسألة الزواج

جدياً. كان لديه الوسائل المالية. وكان لديه الوقت ليسترخي. وكان لديه اللحية.

لم تكن لحيته وشاربه الأسودان الرائعان أقل الأجزاء جاذبية من مظهره الجسماني في عيون السيدات العربيات. أما هو بدوره، فكان لديه خيار نادر من الجمال بين الأكثر نحفاً ورشاقة، ذلك أنه لم يكتسب الذوق المحلي للنساء المكتنزات. كان أصدقاؤه على أتم الاستعداد لتقديمه إلى السيدات المناسبات، وخاصة عندما عرفوا أن لم يكن في نيته أن يأخذ السمينات ويدع الناحلات.

أتوا على ذكر فتاة نحيفة قاصرة، تُوفي أبوها وزُوّجت أختها إلى آل الزُّهير Zohir، إحدى العائلات المرموقة في البلدة. وكانت الفتاة تعيش مع أمها وأخيها الأكبر الذي ينبغي استئذانه.

عادة، يكون لقريبات الرجل المتقدّم إلى الفتاة المطلوبة الحكم على الفتاة بالنيابة عنه. لم يرَ وليَمسون الفتاة المقترحة للزواج أبداً على حدّ علمه، رغم أنها قد تكون مرّت بجانبه تحت الخمار في الشارع دون أن يعرفها. ولما لم يكن عند وليَمسون قريبات، أخبر أصدقاءه: «ليس لدي أحد ينوب عني»؛ وهكذا دبّروا أمر إرسال زوجاتهم كمبعوثات. أخذت هؤلاء السيدات المتفضلات هدية أولية من وليَمسون وهي عبارة عن ثلاث قطع من الحرير واثنتي عشرة ليرة تركية ذهبية، لصنع الحلي من أجل العروس المنتظرة.

كانت نتيجة معاينة الزوجات مرضية. وتم الحصول على موافقة الفتاة وأمها. وبدت الظروف مواتية لنشوء طبيعي لحياة زوجية وفق العُرف العربي. لكن الحَجّي عبد الله فضل الزُّبير لم يكن عربياً بالمولد رغم أنه يلبس كواحد منهم. لقد كان فيه مسحة كبيرة من وليَم ريتشارد وليَمسون عندما يصل الأمر إلى قرار صعب. ولم يبقَ تاجر خيول وإبل لسنوات طويلة دون أن يتعلم الحذر. لذلك، لم يرَ بأساً في طلبه بأن يرى الفتاة قبل اتخاذ القرار.

بحياء، نقل أصدقاؤه العرب طلبه هذا إلى أقربائها، ورغم أن ذلك هزهم دون شك،

وافقوا على رغبة الحاج. قال الأخ: «أحضروا الحَجّي عبد الله إلى بيتي. سوف أرتب جلوس أختي في الفناء بدون حجاب بحيث يستطيع رؤيتها من النافذة». وهكذا رأى وليَمسون وجه عروسه المنتظرة قبل الزواج، وكان مقتنعاً بأنها كانت جميلة جداً.

أجريت التدابير بخصوص المهر. وكان المبلغ المتفق عليه خمسين ليرة تركية ذهبية. هذا المال يصبح حقاً للعروس عند وفاة الزوج أو في حال الطلاق. عندما تم توقيع عقد الاتفاق هذا، أصبح الطريق سالكاً إلى مراسم الزفاف. وحدث ذلك في ديوان بيت الأخ حيث تم دعوة بعض الأصدقاء.

أرسل المُلا مبعوثين، قبل وصول العروس، لرؤية العروس المحجّبة بصحبة والدتها، وسؤالها هل وافقت على الزواج وهل توكل أخاها عنها؟ عاد الرجلان من حينهما، وأجابا المُلا بأن الفتاة سكتت عن السؤال الأول وأجابت بـ «نعم» عن الثاني. كان ذلك مرضياً. من المفروض أن العذراء العربية شديدة الحياء تقول «نعم» على الزواج في هذه المناسبة الرسمية. ولكنها إذا بقيت صامتة لدى سؤالها ثلاث مرات، أخذ ذلك على أنه موافقة ضمنية. بينما يُتوقع من الأرملة أو المطلقة أن تقول «نعم» أو «لا» بصراحة، ولكنها لو بقيت صامتة فإن ذلك كافٍ.

عندما دخلت العروس وأمها إلى الديوان، أجلس المُلا وليَمسون قبالة الأخ وطلب موافقته رسمياً. بعد أن أجاب العريس بالإيجاب، وجه المُلا الخطاب إلى أخ العروس: «هل توافق بالتفويض على هذا؟». وبعد تلقي الموافقة، التفت ثانية إلى وليَمسون وتكلم بكلمات لها نفس المغزى: «هل تقبل هذه المرأة الشابة زوجاً لك على مهر قدره خمسين ليرة تركية، وليكون هذا المبلغ باسمها؟ وبنكاحها، هل تعد برعايتها ومعاملتها كشريك لك في حياتك، وإذا لم تستطع معاملتها على نحو جيد وكشريك لك لسبب من الأسباب، هل ستعطيها المهر؟»، بعد إجابة وليَمسون بـ «نعم» أعاد المُلا الشروط للأخ وحصل على الموافقة النهائية على التفاصيل. حينئذٍ ختم بقوله: «كلكم شهود على ذلك. فلندعُ أن يبارك الله في عقد النكاح هذا».

وهكذا نال الحاج وليَمسون امرأة جميلة يافعة من الزُبير كزوجة له بمراسم قدّر له

أن يمرّ بها ثانية في المستقبل.

يوجد كثير من سوء الفهم في البلاد الغربية حول الزيجات الإسلامية، ونظام الحريم والپُردة purdah (الحجاب). من الواضح أن فقهاء المسلمين ليسوا على اتفاق كامل بخصوص الظروف التي يُسمح فيها بتعدّد الزوجات. تبيح الشريعة الإسلامية اثنتين وثلاث أو أربع زوجات، ولكن فقط في شروط خاصة. فإذا شك الرجل في قدرته على معاملتهن بالتساوي، وجب عليه التزوج من واحدة فقط - هذا وفق الأمر القرآني تماماً. وإنّ السلطات والنساء أنفسهن من يقرّر ذلك في معظم الحالات، وليس الرجل الذي، لأسباب جنسية أو أخرى، يرغب بإضافة زوجات إلى الحريم.

كم من الصعب أن نشَرِّع لأناس آخرين يعيشون في عوالم بعيدة كل البعد عنا! فلا يمكن لامرأة المدينة الغربية أن تفهم طريقة تفكير فتاة بدوية أكثر مما تستطيع الأخيرة فهم عقليتها. يعتبر الزواج الأحادي مستحسناً في المجتمعات الغربية، حيث يحاط الزواج بهالة مقدسة رغم أن الإنجيل قليلاً ما يذكر هذا الموضوع سوى أن يعد بأنه لن يكون هناك زواج أو رضوخ لزواج في الجنة. في حين أن القرآن لا يشجّع تعدّد الزوجات وإن أحد أهم الأسس الذي جُعل من أجله مباحاً هو منح الحماية والمأوى للأرامل والنساء الأخريات اللائي يصبحن وحيدات نتيجة الإصابات في الحروب بين السكان الذكور.

إن بريطانيا وأميركا تعاني مأساة الأعداد الزائدة من النساء، وكثير منهن يشعرن بالحرمان الشديد من الرغبة الطبيعية لإنجاب الأطفال. لقد كان وقع الحروب عليهم باهظاً في تعداد الرجال. ولكن الأعراف عندهم تجعل من المستحيل تغيير القوانين المتعلقة بالزواج الأحادي فيما لو اقترح ذلك. ولو أن كلا الفريقين من الأزواج البريطانيين أو الأميركيين يبديان نقيصة كونهما متأثرين، لأمكن وضع اللائمة إلى حدّ ما على الوجدانية السقيمة للعديد من الأفلام والروايات وأغاني الموسيقى الشعبية.

بينما نجد أن أسلوب الفرنسيين كان أكثر نضجاً؛ والعرب أيضاً - وخصوصاً البدو - بالحفاظ على مظهر عقلاني دون التضحية بالشاعرية الحقيقية. فمن الطبيعي أن

تبعث ظروف الحياة في الصحراء على تبني وجهة نظر عن الزواج مختلفة عن تلك السائدة في لندن ونيويورك. وبالتالي فالمرأة التي تصبح عاجزة أو متلهفة إلى مزيد من المساعدة في شؤون البيت أو تريد المزيد من الأولاد، كان من المألوف أن تناشد زوجها بأن ينكح زوجات إضافيات.

حسب فرضية الغربيين فإن كل النساء العربيات غير المتحرّرات يفترض أن يكنّ بالضرورة تعيسات. وهذا بعيد كل البعد عن الوضع في الصحراء. لقد حوّلت المزايا الغربية مثل الراديو والسينما بغداد وأماكن أخرى إلى مدن هجينة، وأخذ العديد من النساء يتمتعن بحرية أكبر ورُخص أكثر. وعدد منهن قد نبذن الحجاب ومارسن المهن. ويوماً ما بدون شك، سيصبحن ذوات امتياز، كما هو الحال في إنكلترا، كأن يدخنّ ويشربن الكوكتيل مع الرجال في التجمعات العامة.

بالرغم مما قد يبدو أمراً غريباً، تبقى حقيقة أن غالبية النساء المسلمات في جزيرة العرب يفضّلن الحجاب. فإذا كان نظام الحريم يوحي بالجواري للذهنية الغربية، فانه لا يفعل ذلك للفتاة العادية في الشرق الأوسط. على العموم، فهي تجد المتعة في مجتمع النساء وليس لديها تلك الرغبة الجامحة في صحبة الرجال عدا أولئك الخاصين بها.

مما يمكن اعتباره فكرة عجيبة عن المرأة الشرقية فيما يتصل بالپُردة (الحجاب) توضحه حادثة ثانوية عرضت بعد زواج وليَمسون الأول في الزُّبير. فإرضاءً لصديق عربي في البصرة، استخدم طاهياً هندياً مسلماً وزوجته اللذين وصلا في الميعاد على متن سفينة تابعة للشركة البريطانية الملكية. كان يتقاضى هذا الطاهي مقابل خدماته عشر روبيات شهرياً في كراتشي ثم رُفع راتبه إلى ما يعادل ثلاثين روبية شهرياً في البصرة. ابتهجت زوجته، وكانت غير محجبة، بذلك وسُرت سروراً عظيماً. فأرادت أن يكون لها مخدعها الخاص مثل النساء العربيات. وقالت لزوجها: «ستصبح الآن غنياً، وأستطيع الدخول في الپُردة (الالتزام بالحجاب).

مضى وقت طويل قبل أن يتخلى وليَمسون عن فكرة الزوجة الواحدة. وأضحت

عـادة بعد ذلـك. فاختار فتاة من آل شـمّا[1] Shemba زوجة ثانية لـه، وتزوج لاحقاً من قبيلة السّعدون وعندئذٍ أخذ ينوع في التشكيلة لديه من العرائس البغداديات الفاتنات.

على كل حال، فشلت هذه المغامرات الزوجية في تأمين سعادة لا يشوبها كدر. فعندما عاد إلى أعالي البلاد ليعيش حياة الترحال لفترة مع قوم عشيرة المُنتفق، رفضت فتاة الزُّبير اللحاق به، فطلقها وأعطاها صداقها. أما الثانية فقد كانت معتادة على النمط البدوي، ولكنها حسب قول وليَمسون «اغترّت كثيراً بجمالها» فنشأت المشاجرات. كانت الفتاة تغادر خيمة الحاج في أحيان وتذهب إلى خيمة والديها. وليحضّها على العودة كان وليَمسون يرسل لها الهدايا لكنه أخيراً طلقها بعد أن تعب من العناء والمصاريف. ومرة ثانية كان عليه دفع الصداق. «الطلاق» وفق قول النبي ﷺ: «أبغض الحلال إلى الله». ولكن المسلمين، خلاف كثير من المسيحيين، يعتقدون أنه حيثما انقطع الحب ولم يعد له وجود بين الزوجين، فمن الأفضل لهما أن يفترقا.

عاد الحجّي إلى الزُّبير قبل زواجه التالي، لكن الضغائن والعداوات كانت محتدمة في البلدة والصحراء. لقد قُتل شيخ إثر آخر ضحية للاغتيالات، ووجد الحاج وليَمسون نفسه متورطاً في نزاعات أصدقائه العرب، فقرر العودة إلى الكويت. عمل بين الفينة والأخرى في صفقات مستقلة كوكيل لحساب الشيخ يوسف وواحد أو اثنين من تجّار اللؤلؤ معارفه. وكان مازال يملك الدّاو، وتعاظمت عنده الرغبة بأن يغامر في السعي المحفوف بالمخاطر بالبحث عن اللآلئ وبيعها. فبهذه الفكرة التي استحوذت عليه، عَبَر الصحراء من الزُّبير وعاد إلى الكويت بجانب المياه الزمرّدية للخليج العربي.

* * *

(1) لست متأكداً من هذا الاسم، فما المقصود بـ Shemba؟ إن طريقة ستانتون هوب في كتابة الأسماء العربية بحروف إنكليزية غريبة وتؤدي إلى تشويه الأسماء.

الفصل السادس والعشرون

موسم الغوص الكبير

بسبب رحلاته البحرية في الخليج ومرافقته للبائعين، أصبح لدى الحاج وليَمسون معرفة جيدة باللؤلؤ وصيده. لم يكن خبيراً، ولم يكن هناك شيء يمنعه من خوض غمار هذه اللعبة سوى الخطر من أن يتعرّض إلى خسارة فادحة. من ناحية أخرى، كان هناك إمكانية كسب وفير وفرصة ضئيلة في تحقيق ثروة طائلة.

لقد رأى غواصي اللؤلؤ أثناء عملهم، لكنه لم يحاول أبداً تقليد أعمالهم المائية الفذة، والتي كان يكنّ لها أسمى الاحترام. ومع ذلك، فقد تمكّن قبل بدء الموسم من استئجار غواصين عرب وأفارقة بالشروط الاعتيادية. ولضمان توفّر رأس المال، باع مركب البَغلة واستأجر قارب داو بوزن 30 طناً اسمه «فتح الخير» *fatah-al-khair*. تولى قيادته بنفسه، وتراجع مصطفى العربي، الذي كان قد عيّنه قبطاناً (نوخَذَه)، من تلقاء نفسه إلى مركز معاون قبطان عندما علم بالمشروع الجديد. وعلى غرار مستخدمه، كان مصطفى مغامراً بالفطرة.

مرّة أو مرتين في أيام بحر الجنوب، راودته فكرة البحث عن اللؤلؤ. ولهذا الاهتمام بصيد اللآلئ نواة في طفولته عندما كان يتأمل في قصص المغامرات البحرية. فها هو ذا الآن ربّان داو يمخر عُباب الخليج العربي، الذي يوصف بأنه «مهد اللؤلؤ الرائع»، لذا كان من الطبيعي أن يتّقد فكره بهذه المهنة الشاعرية. بناء على ذلك وقبل موسم الصيف، رفع فتح الخير على المزالق، وقام بكشط البدن والهيكل ثم قام بطليه بطبقة خارجية جيدة من شحم الجمل والجير. أمّا الطاقم فقد تألف من بحّارة وغوّاصين

يافعين متحمسين، وكان المخزون الوافر الموجود على متن المركب يسمح لهم بالبقاء فترة طويلة حول حيود اللؤلؤ.

ليس من المفاجئ أن يتنامى لدى وليَمسون، الذي كان يجلس في كثير من الأحيان في مقاهي الكويت يستمع إلى قصص بائعي اللؤلؤ، اهتمام بالغ بالأحجار الكريمة. لقد افتتن النّاس بقيمة اللؤلؤ لآلاف من السنين قبل الميلاد. وتحفل المرويات التقليدية الصّينية والهندية بالإشارة إليه. ويُظهر التلمود مدى الاعتبار والتقدير الذي أكنّه قدامى اليهود لهذا الحجر الكريم؛ ويَعِد القرآن بمسكن من اللآلئ للمؤمنين؛ بينما يشير الإنجيل إلى «البوّابات اللؤلؤية» و«اللؤلؤة ذات الثمن العظيم».

إن اللؤلؤ ظاهرة فريدة من نوعها في أسمى معاني الكمال والتألّق، شيء يأخذ جماله بالألباب. وتقف مباشرة على باب بيت الحاج وليَمسون، إن جاز التعبير، وفرة من الفرص في المياه التي تنتج أنفس اللآلئ المتألقة في العالم. ولتجنّب خيبة الأمل، بأي حال، من الأفضل أن نبيّن في هذه المرحلة، بأنه على غرار الغالبية الساحقة لصيادي اللؤلؤ لم يتمتّع بحظ جيد يدعو للإثارة. ونجاحاته المالية القليلة حقّقها بالمتاجرة باللآلئ غير تلك التي اصطادها غوّاصوه الخاصّون. مثل هذه التجربة شائع في هذا المضمار كما هو الحال في كثير من مجالات الاستثمار. فبينما كان يتواجد الثراء بين الوسطاء وبائعي المفرّق، نادراً ما كان موجوداً بين المنتجين.

إن تجار المجوهرات والمتعاملين الآخرين بالأحجار الثمينة واللآلئ، الذين يعملون في لندن وباريس ونيويورك لا حاجة لهم إلى معرفة حميمة بالتنقيب والصيد، والكثير منهم لا يعرف سوى أكثر بقليل من رجل الشارع العادي. وما كُتب عن صيد اللآلئ، في كل من الحقيقة والخيال، اختصّ بشكل رئيسي ببحار الجنوب ومياه شمال أوستراليا والأساليب الدارجة هناك. وفي هذه الأماكن وبعض المناطق الأخرى، تُستخدم إلى حدّ كبير تجهيزات غوص عصرية، وتختلف الظروف بشكل عام عن تلك الموجودة في الامتداد من البحر الملفت للنظر بين ساحل فارس والسواحل العربية. ومما يثير الدهشة أنه لا يُعرف إلا القليل عن الأساليب المتبعة في الخليج العربي،

التي يعود عمرها إلى قرون عديدة والتي لها سجل فريد في واحدة من أكثر المغامرات الإنسانية إثارة وشاعرية. لذلك، قد يكون من الأهمية بمكان أن نلقي نظرة سريعة على تلك المياه وعلى المهنة النابضة بالحياة التي تحول إليها وليَمــون بعد تجديد مركبه الدّاو في الكويت على السّاحل العربي.

يمتدّ الخليج العربي من مصب نهر شط العرب في الشمال إلى مضيق هُرمُز في الجنوب، بمسافة طولها 600 ميل تقريباً. ويبلغ عرضه حوالي 200 ميل في أعرض جزء له بين الشواطئ العربية والفارسية. ورغم أنه لا يقع أي جزء من هذا البحر في منطقة مدارية، فهو يعدّ من أكثر مناطق العالم قيظاً في فصل الصيف. وتصل درجات الحرارة إلى 130 درجة فهرنهايت في الظل، كما تكون الرطوبة عالية جداً في بعض الأوقات. هناك فترات من يوليو وأغسطس عندما، على سبيل المثال، لا يمكن لسفينة أن تمرّ من مجرى إلفينستون Elphinstone على ساحل الهدنة في عُمان على الطرف الجنوبي من الخليج. تعكس الجروف الجرداء حرارة الشمس الملتهبة بتركيز مميت، حيث ترتفع الحرارة إلى درجات خيالية ويصير الهواء لا يحتمل.

تتحسن الظروف في بعض المواسم بواسطة «الشمال»، الرياح الشمالية الغربية السائدة، وفي بعض الأحيان تهب ريح تدعى «الشرقي» من الجنوب الغربي. وبين الفينة والأخرى تأتي أيضاً رياح بقوّة الإعصار من جزيرة العرب بكتل كبيرة – أو نحو ذلك كما يمكن أن تبدو لمن يقيم خارج الكويت، وتجلب معها غبار الصحراء، إضافة إلى الذباب والحشرات الأخرى، بشكل تبدو فيها كأنها حائط مُصمت قُذف على سفينة راسية. في بعض الأوقات قد يكون هناك شيء من التحذير باستثناء التغيّر المفاجئ إلى اللون البرونزي في السماء الغربية. والمناخ بشكل عام في الشتاء بارد باعتدال وصافٍ، ولكن لا أحد يمكن أن يدَّعي أن الخليج العربي منتجع صحي في أوقات الصيف. إلا أنه بالضبط خلال أشدّ الأجواء حرارة يتعيّن على صيادي اللؤلؤ أن يلبّوا الدعوة المحفوفة بالمخاطر.

يبدأ موسم صيد اللآلئ في مايو ويستمر حتى منتصف سبتمبر. وهذا ما يُعرف

بالغوص الكبير[1]. وهناك موسـمان آخران لكنهما ليسـا ذا أهمية حقيقية. أحدهما يقع في أبريل، ويمتد الآخر من منتصف سـبتمبر إلى الأسـبوع الثاني أو الثالث من أكتوبر. يُعـرف هذا الغوص المتأخر باسـم الرَّواح والذي يعني العودة. تقـسم عادة عوائد هذا الصيد الأخير غير المهم بين طاقم الصيـد بينما يأخذ صاحب الزورق والربّان ومعاونوه كلفة الإطعام.

تمتدّ حيود اللؤلؤ[2] (الهيرات) على كامل المنعطف في الطرف الجنوبي من الخليج العربي. ومن ناحية أخرى، هناك حيود منتجة في كل المنطقة الممتدة من الشـارقة في الجنوب الشـرقي إلى رأس مِشـعاب بعيداً شمال غرب البحرين، وهو امتداد في البحر يبلـغ طوله حوالـي 400 ميل. ويتواجد بعض أفضـل الحيـود بالقرب من مركز البحرين ومـا حولها: هير روق الصُّرّة Rug-az-surrah، هير العدلة Adalah، هير خورة الشـيخ عطا[3] Khaurah Shaikh Gata، وبو عمامة Abu Ommanah وعدّة حيود أخرى[4].

تـراوح أعمـاق المياه عمومـاً من ثماني إلى خمس عشـرة قامـة، وتصل في بعض الأجزاء من المنعطف إلى عمق خمس وعشرين قامة، أي 150 قدماً. ويوجد، في مناطق إنتـاج اللؤلؤ جنـوب جزر البحرين، أكثر مـن مئتي حيد معروفـة للصيادين المحليين. ومنـذ قديم الزمـان، كانت وما تزال مجانيـة لقاطني كامل المنطقة السـاحلية، رغم أن الحـدود القبَلية قد أُقر بها بشـكل مبهم. أحد هذه الحيـود العميقة والتي أنتجت بعض

---

(1) ويُعرف هذا الغوص الكبير في اللهجة المحليّة للخليج باسم: غوص العود، ومدّته أربعة أشهر. ويسمّى غوص آخر الموسم: غوص الرّديدة.

(2) تسمّى حيود اللؤلؤ أو مصايده في الخليج باللهجة العاميّة: الهيرات، مفردها: هير. وهذا ما سأثبته هنا بدلاً من: حيد، حيود.

(3) لست متأكداً من هذا الاسم، لكن هذا هو الأقرب إلى ما كتبه ستانتون هوب بالإنكليزية، وآمل أن يكاتبنا أبناء البحرين الأكارم بتصحيح ما يرد مغلوطاً.

(4) أشهر حيود (هيرات) صيد اللؤلؤ اليوم في البحرين ثلاثة: هير بولثامة، وهير بوعمامة، وهير شتيه، وهي تقع شمال البحرين. ورغم انتشار مصائد اللؤلؤ في الخليج العربي، فإنّ لؤلؤ البحرين تحديداً يمتاز بالنقاء بسبب كثرة الينابيع العذبة حول المصائد وفيها، حيث أنّ امتزاج المياه العذبة بالحيوان في المحار يلعب دوراً أساسياً في نقاء اللؤلؤ عند التلقيح.

أروع اللآلئ المُصادة حتى الآن هو قبالة جزيرة حالول Halul، التي تبعد ستين ميلاً تقريباً إلى الشرق من شبه جزيرة قطر.

يقع السوق الرئيسي للؤلؤ الخليج في المنامة، ميناء جزر البحرين، التي ازدادت أهميتها هذه الأيام لاحتوائها على قاعدة بحرية بريطانية وحقل نفط أميركي. وهناك أسواق أخرى في الكويت شمالاً وفي دبيّ والشارقة جنوباً. من هذه الموانئ وتقريباً من كل التجمعات الحضرية على الساحل العربي، تنطلق الزوارق إلى حيود اللؤلؤ (الهيرات) في موسم الصيف.

قبل النهضة النفطية في الخليج، كان شيوخ الأماكن التي تبحر منها زوارق الغوص يستمدّون مواردهم من جبي الضرائب المفروضة على طاقم الصيد. كان بعضهم يطالب بحصة غوّاص في صيد كل زورق. وأسلوب آخر في جبي الضريبة كان بفرض عشر إلى خمس وعشرين روبية عن كل غوّاص ومساعده في كل موسم. عندئذٍ قام الملك ابن سعود بجبي ضريبة قدرها خمسة في المئة عن كل لؤلؤة تؤخذ من مياه الخليج وتباع بعشرين ألف روبية فما فوق. وكل لؤلؤة قيمتها أقل من عشرين ألف روبية لم تكن تستوجب المكس.

يتحدّى حوالي ستين ألف رجل مغامر في كل موسم من الغوص الكبير، حرّ القيظ ومخاطر البحر وهم يَنشدون تحديداً «اللؤلؤة ذات الثمن العظيم». معظمهم من العرب الذين يتقاطرون من كل مكان، من البصرة إلى مسقط، معززين بكثير من الأفارقة السود بما فيهم عبيد كثيراً ما يكونون غوّاصين مهرة. وينضم إلى هذا التزاحم بلوشيّون من الهند، وصوماليون سود من عدن. ونادراً ما يوجد فُرس في زوارق صيد اللؤلؤ، ولكن يمكن رؤية بعضهم بين تجار اللؤلؤ الذين في كثير من الأحيان يجنون أرباحاً أوفر من الغوّاصين.

لا تعدّ الإحصاءات موثوقاً بها في مهنة ما زالت تُزاول إلى حدّ وفق الأساليب الدارجة لقرون خلت. ولكن قدر الحاج وليَمسون أنه في السنة التي جهّز فيها مركبه الدّاو لصيد اللؤلؤ، غادر الموانئ العربية والبلدات أكثر من أربعة آلاف زورق للمشاركة في المقامرة السنوية الضخمة.

تتنوع الزوارق بالحجم والشكل، ويُعد السّمبوك *sambuk* أكثر الأنواع شعبية لهذا العمل. وربما يحتاج البوم *boom* الكبير أو البَغلة *baghala* من عشرين إلى أربعين رجلاً لتشغيله، ويمكن أن تحتاج المراكب الأصغر إلى طاقم من ثمانية أو عشرة رجال فقط بما فيهم الغواصون ومساعدوهم. ويعتبر الدّاو بوزن 40 طناً المركب المتوسط المستخدم في صيد اللؤلؤ في الخليج.

يتألف الطاقم في بعض الزوارق من الربّان (النّوخذَة) dhow-master والمعاون maawan، والغوّاص (الغيص) qais، والمساعد (السّيب) saib، والرّضيف ratheef، والمبتدئين (التّبابة) tababah.

إن النظام الطبيعي هو أن يكون لهم نصيب من العمل، ويتقاسم الجميع الصيد بنسبة وتناسب. فأولاً، تطرح كلفة الطعام من ثمن بيع اللؤلؤ، عندئذٍ يُخصّص خُمس الباقي لصاحب الزورق. ويقوم الربّان ومعاونه عادة بسحب أجريهما اللذين يزيدان وينقصان وفق قيمة الصيد الإجمالية. بعد خصم الخُمس، يأخذ الآخرون حصصهم وفق النسب التالية: ستون بالمئة للغواصين[1]، عشرون بالمئة للمساعدين، عشرون بالمئة للرُّضفاء. أما المبتدئون فيحصلون على بعض الكلمات التشجيعية إذا استحقوا ذلك. يُعدّ عادة الطعام المجاني وفرصة تعلم الحرفة تعويضاً كافياً، وربما إذا كان الصيد جيداً بشكل استثنائي، يتم منحهم علاوة صغيرة.

هناك حوالي أربع وعشرين تشكيلة من اللآلئ المنتجة في الخليج العربي يميزها البائعون المحليون. وسبب اختلاف اللؤلؤ كثيراً في الهيئة واللون والبريق والتألق، ليس مفهوماً بالكامل بالرغم من أنه يُعتقد أن الطعام الضئيل الذي يقتاته المحار وطبيعة قاع البحر من بين العوامل المسؤولة عن ذلك. وتعد اللؤلؤة الكبيرة[2] الكروية ذات اللون الأبيض، اللون الأبيض - الوردي، والأصفر - الوردي المتدرّج بتألق تام، نادرة جداً

(1) تسمّى حصّة الغوّاص الماليّة في نهاية رحلة الغوص: اقلاطة.

(2) تسمّى اللؤلؤة في الخليج باللهجة العاميّة: حصباة، وجمعها حَصابي. أمّا الكبيرة منها فتسمّى: دانة.

لدرجة أن اكتشافها على الدوام يخلق إثارة فيما بين الأسطول. أي لؤلؤة لها مسحة لون أنيقة تعدّ ثروة، ولكن لؤلؤة عجيبة باللون الأزرق، الأخضر، الذهبي أو الأسود تعتبر غنيمة يُحسد عليها صائدها إذا كان لها شكل وتألّق جيدان.

إنّ محار الخليج العربي وحش قبيح المنظر له صَدَفة بقياس صحن الحلوى تقريباً. في الواقع، يمكن تقديمه على طبق مفضض جذاب للحلويات إذا أزيلت قشرته الخارجية الخشنة بدولاب جلخ. لحمه قاسٍ وليس له طعم أو أي من الخواص الصالحة للأكل مثل محار ويستابل Whitstable أو بلو پوينت Blue Point. ولكنه مُنتج صناعي لسائل عرق اللؤلؤ، الذي ينشره بشكل متكرّر داخل الصدفة، ثم يقسو بسرعة ليشكل لؤلؤة. في معظم اللآلئ، يوضع سائل عرق اللؤلؤ على شكل أغلفة كروية متحدة المراكز تلتف حول جُسيم دقيق من الرمل أو مُهيّج مجهري آخر. ولأن اللؤلؤ مكوّن من طبقة فوق طبقة من عروق اللؤلؤ المتصلبة، يستطيع جرّاح الأحجار الكريمة الخبير أن يبري الأغلفة الخارجية لتحسين التألق والقيمة في حالات خاصة.

تذكير إضافي ذو أهمية: في حين أن ملايين المحار تُصاد من الخليج العربي كل موسم غوص كبير، يتم إبادة عشرات الملايين منه كل عام من قبل أعداء شرهين في البحر. وتفقد المحارة التي تُفتح وتموت على قاع البحر لؤلؤتها - طبعاً فيما لو تشكلت واحدة. وبسبب الإبادة الطبيعية التي تحدث على حيود المحار والتي لا تراها عيون البشر، فإنه لتخمين مؤلم أن يحسب المرء النعم المذهلة من اللآلئ المفقودة إلى الأبد بين الرمل والصخور في قاع البحر. ويُعدّ تصوّر أي جزء من الخليج وقد فُرش قاعه باللآلئ خيالاً جامحاً، لكن بدون شك تنجرف ثروات خرافية من أصداف المحار سنوياً بفعل المدّ والتيارات المائية على أعماق قامات كثيرة.

مهما تكن الثروة السنوية الهائلة من الدُّرر المتجة من الخليج العربي، فإن فرصة أيّ من زوارق الصيد أن ينال حصة سخية منه إمكانية بعيدة جداً. كان الحاج وليَمسون مدركاً لذلك تماماً لأنه كان يعرف غوّاصين محليين في موانئ الصيد أمضوا سنوات طويلة على الحيود دون أن يصطادوا لؤلؤة واحدة تستحق الذكر أثناء دردشة المقاهي.

وقد عرف أيضاً، أن ربّان الدّاو، إذا سنحت له الفرصة النادرة، كان سيبيع بكل سعادة مئة من محار اللؤلؤ مقابل مئة روبية لأي ضابط أو رجل يخدم على متن مركب خفر بحري. على الأرجح، فرصة إيجاد لؤلؤة، غير تلك عديمة القيمة من بذور اللآلئ، في أي دفعة من مئة محارة كانت واحداً ضد ألف. على كل حال، لم يُعلم حتى تاريخه عن بحار بريطاني أو هندي منغمس في هذه المقامرة أنه استطاع أن يستمدّ أي شيء غير متعة البحث.

أعدّ وليَمسون نفسه للمغامرة التالية بحماس مرحٍ وجده طاقمه أمراً مُعدياً. لقد نما اهتمامه بهذه المقامرة ببطء. وفجأة أصبح الآن لصيد اللآلئ نفس إغراء التنقيب عن الذهب في أيام فتوّته، حيث كان لصيد اللؤلؤ أو الذهب هالة من المغامرة والشاعرية. كان عليه أن يترك الغوص الفعلي للخبراء المحليين، فاستخدم اثنين أو ثلاثة من النّخبة. لكنه علم بأن المهارة والخبرة والشجاعة والاستعداد الجسدي - الضرورية في المضمار - لم تكن كافية لضمان النجاح. بقي هناك العامل الذي لا يمكن حسابه، ألا وهو الفرصة.

أحد الطواقم الأكفاء، الذين كانوا يجدّدون مركب داو بالقرب منه في الكويت، كدحوا المواسم عدة فصاروا أفقر حالاً مما كانوا عليه عندما بدأوا. كان باستطاعتهم أن يكسبوا أكثر فيما لو عملوا في تجارة مملة ولكن حيود اللؤلؤ جذبتهم كالمغناطيس.

مثل وليَمسون، كان رُبّان الدّاو المحلي قد أدّى فريضة الحج، وكان حريصاً في مراقبته لأوامر الله. وقد برهنت مجريات الأحداث هذا العام على حسن إيمانه بالله. ففي يوم واحد، بعد بدء الغوص، سرعان ما أحرز هو وطاقمه ثروة من اللآلئ أعظم مما حصل عليه في كل السنوات السابقة مجتمعة.

* * *

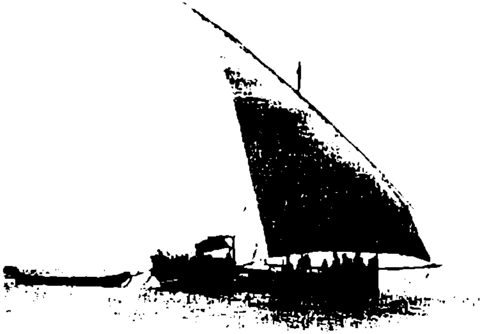

مركب داو عربي لصيد اللؤلؤ

دبيّ على الساحل المتصالح (ساحل الهدنة)

الفصل السابع والعشرون

عبيد في دبي

لم يكن الدّخلاء مرحّباً بهم على حيود اللؤلؤ، وكانت الحزازات تبدأ لدى محاولتهم عرض العضلات. إلا أن أحداً لم يعتبر الحاج وليّمسون من هذا الصنف. لقد أصبح معروفاً جداً في كل الخليج وكان له أصدقاء كثر من الشيوخ المسيطرين على طول الساحل من الكويت إلى الشارقة وجنوباً أيضاً من هُرمُز إلى مسقط. كان كل طاقمه من المعدودين بين صيادي اللؤلؤ المؤهلين، ولم تكن أية صعوبات لتنشأ بموافقته على الشروط الاعتيادية في توزيع الأرباح.

كانت أول مغامراته على شعاب جنوب جزيرة الجريد[1] Jaraid حيث تجمّع عدد من القوارب في الأسبوع الثاني من مايو. بدأ الغوص مع انبلاج الفجر واستمرّ طوال اليوم عدا فترتي الاستراحة لتناول الطعام والقيلولة القصيرة بعد الظهر. كان ذلك يستمر يوماً بعد يوم باستثناء عندما يتحرك الدّاو إلى حيد آخر أو يعود إلى الميناء ليستكمل نقص المستودعات.

كانت تلك الوتيرة المتبعة من قبل مركب وليّمسون فتح الخير، الذي كان مزوداً بمؤونة شهر. يتضمن هذا المخزون كلاً من الطحين والأرز والقهوة والسكّر والتمر وزاداً من دقيق ولحم مقدّد بيتي الصنع وجده وليّمسون مرضياً في حجته الأولى إلى مكّة. وعندما تنفد خزانات الماء العذب، لم يكن هناك داعٍ للعودة إلى الشاطئ للتعبئة. فقد كان غواصوه يستخرجونه من أعماق البحر. إنه مَعلَم رائع على الجانب العربي

(1) جزيرة تقع قبالة الجبيل على ساحل المنطقة الشرقية للمملكة العربية السعودية.

مـن الخليـج العربي وهو وجود ينابيـع مياه عذبة تفور من قاع البحـر. ويدل عادة على هـذه الميـاه الحلوة ظل ضـارب إلى الصفرة فـي البحر الأخضر الرائـق. حيث يذهب الغواصـون إلى الأسـفل ومعهم قِرب فارغة من جلد الماعـز فيقومون بتعبئتها بالقرب مـن مصدر المياه على القاع. كان هذا من حسـن حظ وليَمسـون فـي أول مغامرة صيد لآلـئ لـه، أن يتـاح له الوصول إلـى ينابيع باردة تحت البحر. وشـاهد فـي وقت لاحق مراكب داو مجهزة بخرطوم ومضخة ذات طراز حديث للحصول على المياه.

كان العمـل في شـعاب اللؤلؤ مصدراً دائماً للتشـويق بالنسـبة له. كان المشـهد في يوم صيف عادي لا ينسـى وقد توهجت الشـمس في السـماء مثل خزف أزرق مصقول مرسـلة ألسنة اللهب على الأسطول المتجمع. كان يقف على الحواف السـفلية من الدّاو الغواصون العراة، باللون الأسود والبني، مثل أصنام تقليدية منحوتة من البرونز والأبنوس. وكان يطغى علـى صرير الصواري والأشـرعة في الـدّاو المترنح لفترات فاصلة، صوت شـهيق الرجال وهم يتنفسـون كميات كبيرة مـن الهواء، وكذلك صوت دعائهم من أجـل أن يحفظهم الله ويرعاهم قبل أن يشـرعوا بالغوص. كان الغواص يشـق طريقه مطلقاً الرذاذ بشـكل متقطع، مخلفاً أثراً لبنياً في المياه الزمردية لبرهة وجيزة، هابطاً خلال الأعماق الصافية المتلألئة إلى القاع. كانت أسـاليب نوبي Nubi، الغواص الزنجي الممتاز المسـتخدم من قبل وليَمسون، نمطيـة من بين تلك التي صمدت إثر اختبار القرون في الخليج العربي. فحيث تكون المياه ضحلة كان يقفز عادة ومعه سـلة ثم يسبح إلى الأسفل. في الأعماق الطبيعية لحيود اللؤلؤ، مـا بيـن ثماني إلى خمس عشـرة قامـة، كان يتبع هذه الوسـيلة في النـزول: أولاً، كان يقف علـى جانب المركب ليتنفس الهواء. يفعل ذلك باستنشـاق الهواء بعمق عبر الفم، ثم بزفره بضجيج عدة مرات. ينفث أخيراً كل الهواء من رئتيه ويثبت ملقطاً على أنفه المفلطح. وكان عادة يمسـك بالسـلة بأصابع قدمه اليسـرى، لكن أحياناً كان معه شـبكة كوعاء للمحار يعلقها بواسطة حزام جلدي على رقبته[1].

---

(1) من بين مصطلحات الغوص على اللؤلؤ في الخليج العربي تعبير: الدّيـين، وهو اسـم الكيس أو الشـبكة التي يجمع فيها الغوّاص المحار.

ثُبتت أصابع قدمه اليمنى بإحكام على حجر خشن أو قضيب ثقيل من الرصاص يزن حوالي أربعة عشر رطلاً. وقد ربط هذا بحبل أمسك به مساعده بعد لفه نصف دورة حول المربط. كل شيء جاهز، ورئتاه مفرغتان من الهواء تماماً، أعطى نوبي الإشارة لمساعده ليحرّر الحبل. انطلق الزنجي فوراً إلى الماء وأعانه وزن الأربعة عشر رطلاً على الغطس بسرعة إلى القاع. هناك قام بتجميع كل المحار الذي يمكنه الوصول إليه، ثم تم سحبه بالحبل أو كان يطفو إلى السطح بدفعه الذاتي.

كانت مواطن المحار الذي بحث عنها تقع على قاع من رمل قاسٍ ومستوٍ يدعى الهير *heir*، أو في بعض الأماكن بين المرجان والصخور تعرف عند العرب بالفشت *fasht*. ومن دواعي الفخر والاعتزاز عند نوبي أنه كان يمكنه النزول عشرين قامة في مرة واحدة - 120 قدماً - إلى أغنى قاع في الخليج. وسواء كان هذا الزعم حقيقياً أم لا، فإنها حقيقة مثبتة أن القليل من أكثر الغواصين الفتيان خبرة بمقدورهم تحقيق هذا العمل الفذ. كانت تلك مقامرة بالموت من أجل كنوز البحر، فالضغط شديد جداً حتى عند نصف العمق، ويتجلى الخطر الذي يحف بحياة غواص اللؤلؤ بما قد يراه المرء من مشلولين في موانئ الخليج. إن الأمراض المهنية الأخرى التي يتعرّض لها الغواصون العرب[1]، من ناحية أخرى، شبيهة بتلك التي يتعرّض لها مصارعو الثيران الإسبان، بسبب شرب الكحول والنساء.

تم سرد قصص مذهلة عن طول المدة التي يمكن أن يبقى فيها غوّاص تحت الماء. فمتوسط المدة التي يمكن أن يقضيها خبير عربي أو زنجي تصل إلى حوالي الدقيقة في أعماق طبيعية. ويمكن لرجال أشداء بشكل استثنائي أن يبقوا تحت الماء لدقيقة ونصف - ونادراً جداً لثانية أطول من ذلك.

يقوم الولد البريطاني أو الأميركي الذي يشارك بسباق تحت الماء، وهو على وشك البدء، بملء رئتيه بالهواء قبل الغطس في البركة. وبواسطة حركة ذراعيه وساقيه يستطيع

---

(1) من بين أمراض مهنة الغوص على اللؤلؤ في الخليج العربي: بوكشاش (مرض يصيب أسنان الغواصين بسبب سوء التغذية)، وأم زليكة (مرض جلدي يصيب الغواصين بسبب حرارة الشمس.

أن يتقدم على عمق سطحي. هذه الحقيقة المعروفة قد تعلل جزئياً سوء الفهم الحاصل حول أسلوب غواصي اللآلئ باستنشاق الهواء ثم تفريغ الرئتين. فلو لم يفعل ذلك لما استطاع أن يغوص في العمق أكثر من بضع قامات حتى مع الحبل المثقَّل.

في أحد الأيام، بعد بدء موسم صيد اللؤلؤ، قام الحاج وليَمون بإثبات ذلك بشكل عفوي فكانت خيبة له وتسلية لطاقمه. كان فتح الخير يقف فوق عمق أربع قامات، عمق كان نوبي يشق طريقه فيه بلا اكتراث إلى تخوت المحار. شقت الشمس مياه البحر البلورية بحراب ذهبية بين أفواج من سمك الخرمان garfish ذي المنقار الأحمر وهي تنطلق مثل رَشاش الدم. أفاق وليَمون من قيلولته تحت ظلة من حصير النخيل وخلع رداءه الأبيض وصندله. كان الجو سائغاً للسباحة، ذلك أن البحر قرب الشاطئ لم تصل حرارته إلى خمس وثمانين درجة التي عادة ما تبلغها في الصيف. ورغم أنه في هذا اليوم لم يكن راغباً في الغوص أو السباحة، فقد بدت أربع قامات عمقاً سهلاً وأراد أن يجرب مهارته في الحصول على بضع محارات من اللؤلؤ.

أظهر نوبي أسنانه البيضاء العاجية بابتسامة عريضة وقدم له ملقط الأنف الخاص به[1]. وتحت أنظار مصطفى وباقي الطاقم، قام الزنجي بتولي دور المساعد شخصياً وحضّر الحبل المثقل. استنشق وليَمون الهواء وأعطى إشارة البدء المتعارف عليها لرخي الحبل. اندفع الثقل إلى الماء ومعه الحاج، ولكنه على عمق قامتين فقد ارتباطه بالحبل وطفا إلى السطح مثل الكرة. ضحك غواصوه الفتيان وكذلك الصيادون في الجوار بصخب. حاول مرات ومرات الغطس إلى قاع البحر وكان الغمّ يصيبه كل مرة كان يطفو فيها قبل أن تصل يده حتى إلى مسافة قامة من أي محارة لؤلؤ. حضّه نوبي وباقي الفتيان على نفث الهواء من رئتيه قبل الغوص. كان ذلك ما فعله بالضبط كل مرة حسب اعتقاده، ولكن فشله المتكرر أقنعه بأنه مازال عليه الكثير ليتعلمه حتى بالنسبة للزفير قبل أن يبدأ بمحاكاة مرؤوسيه.

---

(1) من بين مصطلحات الغوص على اللؤلؤ في الخليج العربي تعبير: العظام، وهو اسم المشبك الذي يضعه الغوّاص على أنفه ليمنع دخول الماء.

اتباعاً للممارسة النظامية لربابنة الدّاو، أبقى وليَمسون غواصيه على مخصصات ضئيلة من الطعام. كان ذلك أساسياً لأن التجربة أثبتت أن الغواص المتخم سرعان ما يصبح مريضاً. وخلال ساعات العمل الشاقة، لم يُسمح له بتناول أي طعام باستثناء بضع تمرات وقليل من السمن والزبد المصفى. كان أي ميل للشره يُضبط من قبل بعض ربابنة المراكب بأسلوب حاسم وخشن. على كل حال، كان يسمح للغواصين بالانضمام إلى وجبة المساء التي كانت على الأرجح تتضمّن الأرز ووجبة لذيذة من السمك المُصاد بعد الغروب.

من الطبيعي أن يصبح الغواص العربي أو الزنجي عرضة لإظهار ما يدعى بالحساسية الزائدة في حالة نجوم السينما، والذي يعرف بالمزاجية على ظهر السفن. في بعض الأحيان حتى نوبي، أشد الرجال تحملاً وأكثرهم لطفاً، كان يراقب النوتية عند تناولهم طعامهم بحملقة وحشية لذئب جائع. لقد تعاطف وليَمسون معه ومع الغواصَين العربيين الآخرين، ولكنه لم يكن يبدي أية تنازلات عندما يكون الغوص جارياً. كان أمراً قاسياً أن يُوضع أفراد من الطاقم الذين كانوا يقومون بأصعب الأعمال ويتعرضون لأشد المخاطر ويعانون من إجهاد عصبي عظيم، في حمية غذائية أشبه بالمجاعة إلى حلول الليل.

عندما كان فتح الخير موجوداً لعدة أسابيع على أحد حيود اللؤلؤ (الهيرات)، حدث تمرد على أحد المراكب لهذا السبب. من الواضح أن القبطان كان متحرّراً أكثر من اللازم في قناعته البدنية وقد نهج نظرية أن على الغواصين ممارسة ضبط النفس في الأكل حتى بعد نهاية عمل اليوم. فأخذ الغيظ بالغوّاصين العرب لدرجة أنهم رفضوا العمل مطلقاً إلا إذا وُضع كل الطاقم بما فيهم ربّان الدّاو في حمية مماثلة لحميتهم. وبعد كثير من المشادة، التي كانت مصدر تسلية للمراكب في الجوار، أذعن القبطان لمطلبهم وأجاز وجبة مائية كاملة لكل النوتية.

في بعض الأنحاء من العالم، يؤخذ المحار إلى الشاطئ ويترك تحت الشمس حتى يتفسخ قبل أن يُسبر اللؤلؤ. وهذا ليس بالنظام المتبع في الخليج العربي. حيث يخزن

المحار على متن المركب خلال النهار ويتم فتحه بالأيدي في المساء. وعندما تُصطاد أعداد كبيرة جداً يمكن أن يترك بعضها ليفتح في الصباح التالي، في هذه الحالة يؤجل الغوص لساعة أو ساعتين.

كان وليَمسون يهتم دائماً بالنشاطات المفعمة بالحيوية وسط أسطول صيد اللؤلؤ بينما كان الغوص جارياً. وخلال ساعتين من غروب الشمس كان يُجمع من المحار ما فيه الكفاية من قبل بعض المراكب وتصبح وتيرة العمل أقل حدّة. عندئذٍ ينشط اهتمام وليَمسون، ذلك أن الإثارة الكبرى قد أُرجئت لجلسة فتح المحار في المساء. وكان يشارك في هذا الانفعال إلى حدّ ما كل رجل في أسطول الصيد مهما كان وراءه من سنوات خبرة أو حتى إحباط.

لم يرحّب بهذا الحدث المسائي المطول أكثر من نوبي والغواصين الآخرين الذين لم يرتاحوا من الكدح خلال النهار سوى لبرهة قصيرة حينما كان المساعد يفرغ السلة ويضع الحبل المثقل محرراً استعداداً لغوص جديد. يعدّ المشهد الليلي على سطح فتح الخير أمراً شيقاً فيما كان يعالج الأخصائيون بالسكاكين[1] لفتح محارة بعد أخرى وسبر ما حول اللحم والصدف بحثاً عن الجواهر النفيسة.

كان وليَمسون ينضم باستمرار إلى معاونه والطباخ ومعاوني الغواصين بهذا العمل. يجلسون جميعاً وقد طويت أكمامهم إلى المرافق، وأطلقت الفوانيس وهجاً برتقالياً كافياً لإنارة جيدة. وكان نوبي ذو الجلد الأسود والغواصان العربيان يقرفصون على أوراكهم عادة، ينظرون بأعين حادة مثل الصقور، وعندهم دائماً نكهة من الشك في سلوكهم المُركَّز. كانوا في بعض الأحيان يشاركون بالجلسة إذا شعروا برغبة في ذلك. لم يكن أحد ينام أو يرتاح أبداً خلال عملية فتح المحار، إلا إذا كان مريضاً جداً حتى يراقب. إذ من الممكن أن ينطوي الأمر على لؤلؤة قيّمة تساوي ثروة، فكان كل رجل يطمئن نفسه بشهادة عينيه أن لا خديعة يمكن أن تسلبه من حقه الشرعي.

---

(1) من بين مصطلحات الغوص على اللؤلؤ في الخليج العربي تعبير: الجلاّس (تلفظ: اليلاّس) وهو من يقوم بعملية فلج المحار بالمفلقة (سكين غير حادّة).

كانت هذه اليقظة بالأعين المتنبهة سمة الجميع. وكان يسود دائماً جو متوتر من الإثارة عند بداية الجلسة، مع أنها تتلاشى بعد حين إذا وجدت المجموعة فارغة بشكل متكرر. ويمكن لأي محارة، من ناحية أخرى، أن تجلب مكافأة غنية، رغم ندرة هذا الاحتمال. إن أي تقرّح على الجدار الداخلي للصدفة كان بشكل مستمر يخلق اهتماماً بحيث توضع الصدفة جانباً حتى يعاينها جرّاح لؤلؤ خبير لدى عودة الدّاو إلى الميناء. بعض أروع اللآلئ التي اصطيدت في أي وقت مضى قد تم استخراجها بمهارة من بين الزوائد على الصدفة.

ثمّة لآلئ صغيرة ليست ذات قيمة تذكر كانت مكافئة للحاج وليَمسون وطاقم فتح الخير في الفترة الأولى التي أمضوها بعيداً عن الميناء. وبين الفينة والأخرى كان الدّاو يبحر إلى شعب آخر أو في حالة سكون البحر كان يُدفع بالتجذيف من قبل كل مساعدي الغواصين والطباخ والنوتية. في مناسبات نادرة كانت تنطلق إشارة من داو آخر مضفية الإثارة على جو العمل بإعلانها عن صيد عظيم. كانت هذه الإشارة تُطلق باستمرار في مناسبات بارزة من هذا النوع؛ كترتيب تقليدي بين أصحاب الزوارق والربابنة لإلهام الطاقم وتجديد حيويته وإبقاء الغواصين محفّزين على كدحهم الشاق.

مرة أو مرتين في النصف الثاني من الموسم رسا الحاج وليَمسون في الشارقة ودبيّ للإصلاح والتموين. في إحدى الأمسيات جلس على مقعد واضعاً رجلاً فوق رجل في مقهى في دبي مع تاجر يدعى حامد Hamid كان أسدى له عدة خدمات في الماضي. كان هذا العربي خبير لآلئ ويملك مركب داو صغيراً كان يقوده بنفسه خلال جزء من موسم الغوص الكبير. وارتبطت باسمه شهرة حسن الطالع في موانئ الخليج.

في الحديث مع وليَمسون ذكر حامد أنه كان سيغادر في صباح اليوم التالي مبكراً قاصداً صيد اللؤلؤ.

قال له: «لم يكن حظك جيداً يا عبد الله. الحمد لله، ربما يكون حظي أفضل. أنت صديقي، وإن في ذهني أن أقدّم لك أي مساعدة. هل أشتري لك لآلئ أو أحجز لك بعضاً مما أصطاد، إذا شاء الله وقدّر لي النجاح؟».

وافق وليَمسون على استثمار بضع آلاف روبيات نزولاً عند رأي مالك الدّاو، ثم ينسى الأمر بعد ذلك. في اليوم التالي، بعد أن ساوم على شراء مؤن لفتح الخير عاد في المساء إلى المقهى للاسترخاء. وممّا فاجأه وجود القبطان حامد هناك وقد بدت عليه الكآبة بشكل غير اعتيادي. أظهر تفسيره للسبب الذي منعه من الإبحار للصيد أنه قد تعرض لحالة هزليةGilbertian.

أخذ يندب حظه: «واحسرتاه! يا عبد الله. لقد أضرب كل عبيدي».

أضاف بعبارة صريحة أثناء تناول القهوة والتبغ أنه هو، حامد، كان الحرّ الوحيد بين أفراد طاقمه. غادر مياه الشاطئ في الصباح الباكر في قارب جذّف فيه بعض من زنوجه. ولما كان متعباً وغائب الذهن تقاعس عن غناء أنشودة البحر العربية[1] بينما كان الرجال يشدّون على المجاذيف. وعندما صعدوا على ظهر المراكب الراسية، دمدم العبيد بين أنفسهم قائلين: «النّوخَذَة لن يغني لنا؛ ونحن لن نغوص له».

يبين الأمر التالي بشكل أوضح موقف العُمانيين الغريب تجاه العبودية: فقد قام القبطان حامد بترجي الحَجّي وليَمسون واثنين أو ثلاثة من كبار تجار دبي للاتصال بعبيده المتمردين. ولم يمكن للدّاو الانطلاق في البحر إلا بعدما التمس الوفد له العفو.

إن الانطباع الذي خرج به وليَمسون هو أن العبيد الزنوج على الساحل العُماني كانوا قطاعاً حيوياً ومحباً للدعابة من المجتمع. كان معظمهم مرتبطاً بمهنة صيد اللآلئ أو في وظيفة لها علاقة بالسفر البحري. وقد جزم وليَمسون أن ما قاله له أحد الزنوج في دبيّ كان إلى حد ما يعبّر عن موقف الغالبية. فلقد سخر الرجل من فكرة الحرية عندما استطلع الحاج رأيه في الموضوع.

قال: «ولكن أنا حرّ. يجب عليّ أن أبذل جهداً أكبر كي أعيل نفسي وعائلتي. لدي زوجة وبيت خاص بي، وحصة في بيت عمّي أيضاً».

---

(1) من بين مصطلحات الغوص على اللؤلؤ في الخليج العربي تعبير: النهام (أو النهيّم)، وهو من يقوم بغناء الأناشيد على المركب لبثّ الحماس في نفوس البحّارة والغوّاصين وتشجيعهم على العمل.

استخدم كلمة «عمّي» كناية عن سيده، وهو المصطلح الذي يستخدمه العبيد بشكل شبه دائم عندما يشيرون إلى أسيادهم؛ بينما الخادم المستأجر - الرجل الحر - ينادي مستخدمه بشكل شبه ثابت بعبارة «سيدي».

ربت الزنجي على ظهر صديق بلوشي وأضاف: «هذا الرجل حرّ، يا حَجّي، ويعمل كمساعد لي على مركب لصيد اللآلئ. أنا العبد أعطيه الأوامر وينبغي له أن يطيعني. لديه حرية أقل مما لدي. نحن العبيد نزور البحرين في كثير من الأحيان خلال موسم صيد اللآلئ. وفي بعض الأوقات نزور بواخر أجنبية تمرّ من هناك، أليس ذلك صحيحاً؟ نحن نعرف أنه ليس علينا سوى أن نطلب من البريطانيين وسوف يحرّرونا. ولكن ماذا سيفعلون لنا أكثر من ذلك؟ إذا نلنا حريتنا، يجب علينا أن نبذل جهداً أكبر وأن نتولى مسؤوليات أكثر. والله، إنه لحق أن العبيد يُجلدون أحياناً على سوء عملهم. لكننا نشعر بالرّضا عندما نعلم أن المستخدمين الأجراء تنال جلودهم البلاء عندما يقترفون إساءة مشابهة».

إنها لعمري فلسفة غريبة سوف تستمر لتخدم بعض العُمانيين، حتى يغرس التقدم في عقولهم طموحا واحتراماً أكبر للذات.

* * *

الفصل الثامن والعشرون

المقامرة باللآلئ

بينمـا كانت أسـاطيل صيـد اللآلئ منتشـرة على الحيـود، راح التجـار يجولون في مراكبهـم الخاصـة من نوع السَّـمبوك أو في مراكـب أخرى بين مجموعـات الصيادين يسـاومونهم على ما كسـبوا من لؤلؤ حتى حينه. ولكن لأسـباب متعدّدة، لم يفلح أبداً هؤلاء الرجال المعروفون باسم طواش[1] *towash* (اللاقط)، بالحصول على أكثر من جزء يسير من الصيد.

كان تجـار آخـرون - وهم الطبقة الأفقـر من الطواش - يتجولـون بقوارب صغيرة مكشـوفة ليرتبـوا مواعيد مـع الصيادين خـارج المرفأ لدى عودتهم إليه لاسـتكمال ما نقـص من المـؤن. ويجلس التجار الأغنياء على الشـاطئ في الدواويـن والمقاهي مع الدلالين (السّماسـرة) الذيـن يطلعونهم على من يملك اللآلئ الرائعة ويسـاعدون في ترتيـب الصـفقـات. غالباً ما تتنقل لؤلؤة جيـدة من يد إلى يد عدة مرات في البحر أو في ميناء الخليج العربي قبل أن تصل إلى تاجر المجوهرات في باريس أو كالكوتا.

لا يمكن اكتسـاب خبـرة عميقة في اللآلئ بأنواعها المتعـددة من خلال تجربة عدة أشهر. كان التجار الذين أتوا إلى شعاب اللؤلؤ يعرفون عن قيمتها أكثر من الغوّاصين، وقد عزز حكمهم عليها معرفتهم بتقلبات الأسعار في الأسواق العالمية.

اعتمد الحاج وليَمسـون بشـكل رئيسـي على حنكة معاونه مصطفى في التعامل مع

---

(1) الطوّاش في لهجة الخليج هو تاجر اللؤلؤ، الذي يشتريه من مراكب الصّيد ويبيعه للتجار الأكثر مقدرة، والذين كانوا بدورهم يقصدون به التجار الكبار في الهند أو فرنسا.

الطـواش. فراح مصطفى يجري المفاوضات على النذير نسـبياً مـن اللآلئ القَيِّمة التي وجـدت فـي مياه شـمال البحريـن. وبالطبع، كان مـن مصلحته الخاصة انتـزاع أفضل سعر ممكن، ولهذا الغرض كان ذلق اللسـان فصيحاً وكان يدعمه في ذلك نوبي وأفراد آخرون مهتمون من الطاقم.

علـى أمل أن يتغير حظه إلى الأفضل، قام وليَمســون بالتزوّد بالمؤن في المنامة، ثم أبحر حول شـبه جزيرة قطر إلى بحر البنات. كانت نشـاطات كبيرة تجري في المنعطف بيـن قطر وسـاحل الهدنة العُماني[1]، حيث سُـجّلت عدّة حالات صيـد جيدة. في هذا الخصـوص عمـل القدر ضد فتح الخير، ولكن الدّاو نجا مـن إعصار[2] دمّر الكثير من المراكـب في منطقة شـمال البحرين. بيـد أن الغواصين لا يغرقون بسـهولة، فنجا كثير منهـم بمعجـزة من ضـراوة الريح والبحر، وفـي الصباح بعد العاصفة، تـم التقاط عدد منهم من المياه بعيداً عن مشهد حطام السـفينة.

ثمّة حظ سـعيد من النوع السّـلبي حالف موسـم وليَمسـون كقبطان لصيادي اللؤلؤ بسـبب ندرة أسـماك القرش. قد يتسـاءل الناس أحياناً كيف يمكن لغواص لؤلؤ عاري الجسـد وغير محمي أن يغطس مراراً في مياه الخليج العربي التي تعجّ بأسماك القرش وأفاعـي البحر والرّاي اللّسـاع والباراكـودا وأصناف أخرى تعد خطيـرة. يعدّ الغوص لاستخراج اللآلئ مهنة خطيرة، ولكن في الدرجة الأولى بسبب تأثير ضغط المياه على الرئتين والأذنين. لا يهاب العرب والزنوج العاملون في هذا الحقل أسماك القرش إلا قليلاً، وعملياً لا يخافون أبداً من الباراكودا والرّاي وأفاعي البحر السـامة التي قد ترى أحياناً بالقرب من السـطح.

تحتشـد أسـماك القرش في الخليج في بعض السنوات، ولا يرى لها أثر في سنوات

---

(1) كان جغرافيّو الإنكليز يطلقون على ساحل الهدنة في الخليج لقباً مغلوطاً هو: ساحل الهدنة العُماني، والنسـبة هنا إلى عُمان لـم تكن لدواعٍ سياسية ولا إدارية، بل هي تسـمية جغرافيّة محضـة، لـم يجدوا غيرها آنذاك. وكانت هذه المنطقةُ مسـتقلّة بطبيعة الحال ولا تتبع لعُمان.

(2) تسـمّى العاصفة البحرية في الخليج باللهجة العامية: سـايـة.

أخرى. لا يوجد تفسير علمي يعلل هذا حتى الآن. يدّعي العرب أن قرش رأس المطرقة من الأنواع السيئة، وأن قرش باسكينغ basking هو أسوأ من قرش النمر[1]. وعلى كل حال، يمكن رؤية أسماك القرش في المياه الرائقة ويتجنبها بسهولة سبّاحو الطراز الأول. لكن غواصي اللآلئ لا يعتمدون على مهارات مائية لتفاديها. إذ أن الاضطراب العام والجلبة أثناء الغوص من الزوارق المتجمعة على الشعب كافيان عادة لإبقاء القرش على مسافة آمنة.

في يوم من الأيام وبينما كان الدّاو يعمل على حيد لؤلؤ جنوب شرق جزيرة زركوة، تسنّى لوليَمسون أن يرى بأم عينيه ما كان يخشاه الغواصون أكثر بكثير من أي قرش. كان ذلك تجمّع أعداد ضخمة من مخلوقات بحرية صغيرة معروفة لهم باسم الدّوْل[2] *al Dol*. يتراوح قطر هذه الدّويبة المؤذية من ست إلى ثماني بوصات، لونها رمادي ومزودة بمجسات بيضاء بطول قدم أو أكثر. تُرى خلال غشاوة من زرقة ماء البحر، وتبدو بشكل خادع مثل قنديل البحر الذي يعامله الغواصون العرب والزنوج باحتقار. لكن نفس الغواصين يظهرون مراعاة بالغة للدّول، وإذا اجتمع الكثير من هذه الأصناف على شعب لؤلؤ عادوا إلى مراكبهم مسرعين وبقوا هناك.

إن السبب وراء هذا الفعل هو الخوف من أن تمسّهم تلك المجسات البيضاء. على ما يبدو أن هذه الدُّول سامة وليست مكهربة، وقد وقعت حالات تلقى فيها غوّاصون عرب صدمات كافية لشلّ أعضائهم.

توجد دويبة أخرى مكروهة تدعى اللوثي[3] *al Lowthi*، وهي مخلوق شبيه في

(1) تسمّى أسماك القرش في الخليج العربي: الجرجور، ولها عدّة أنواع يخشى منها الغوّاصون.

(2) الدّول في الخليج العربي تسمية عامة لقناديل البحر المؤذية بلسعاتها الحارقة، بسبب ما تفرزه مجسّتها من أحماض. ولذا كان الغوّاص (الغيص بلهجة الخليج) يلبس رداء خاصاً (يسمى اللباس، والقصير منه الشمشول) لاتقاء لسعاتها المؤذية.

(3) كذا بالأصل، والتسمية بحاجة إلى متابعة ميدانية بين أهالي سواحل الإمارات، إذ لم أجدها في أيّ مرجع بعد أيام طويلة من البحث في أنواع الكائنات البحرية، والسبب أنها تسمية عامية محليّة. وعلى أيّ حال فالمسمّى نوع من قناديل البحر.

الشكل والحجم للدّوْل البغيض ولكن لونه ميّال إلى الأحمر. لا يعدّ تأثيرها الضار على جسم الإنسان حاداً، ولكن يمكن أن تكوي مجساتها اللحم وكأنه يُحرق بأسلاك حامية. وقد أجبر الصنفان كلاهما في مناسبات مختلفة فتح الخير وصيادين آخرين بالانتقال عن أماكن صيد لآلئ منتقاة. أخبر نوبي وليَمسون أنه علاوة على كونها خطرة على الغواصين، فهي تفتح المحار وتتغذى عليه في قعر البحر. وقد أكّد هذا الخبر بعض العرب الذين ادّعوا أن بعض الأراضي الخصبة لتكاثر محار اللؤلؤ قد استنزفت من تعديات توأمي الشيطان، الدُّوْل واللوثي.

لم يجلب موسم الصيف ذاك في الخليج القائظ أي حظ جيد مثير للحاج وليَمسون، ولكنه شهد مرة أو مرتين تلك الحالات العجيبة في حسن الحظ التي تشجّع الرجال المتعبين على الاستمرار في المخاطرة بحياتهم من أجل ذلك المنتج المتلألئ للمحارة. حدثت إحداهن في ليلة التمام ضمن نصف طول كبلي لمركب فتح الخير الراسي. انعكس توهّج الفوانيس على صفحة البحر الهادئ في حين كانت جلسة فتح المحار جارية على قدم وساق. انحنى عشرة من العرب فوق صيدهم وهم في سَمبوك عندما تنبه وليَمسون ورجاله لاهتياج مفاجئ فيما بينهم. وثب أحد العرب إلى مياه البحر الفوسفورية الوامضة وأخذ معاونوه يعوون مثل النائحات. وبعد دقيقة حل محل العواء صرخات الفرح والشكر لله والثناء عليه.

سرعان ما أصبح الحدث معلوماً لكل الأسطول. وجد أحد الرجال لؤلؤة رائعة. تناولها من لحم المحار بيده، وفي لحظة انفعال رفعها عالياً ليريها لأفراد الطاقم الآخرين. وبينما كان يفعل ذلك انزلقت من بين أصابعه وإبهامه وسقطت في البحر. بسبب ذلك كان الاهتياج. ثروة وجدت وفقدت في غضون بضع لحظات. وبحضور يستحق الإطراء قفز أحد الغواصين بسرعة وسبح وراءها باتجاه الأسفل. وبما أن ضوء القمر القوي كان يخترق المياه لمحها وهي تتلولب ببطء إلى الأعماق. لقد كان حظاً مدهشاً أن رآها، ومن جرّاء ذلك اعتبر الطاقم المكروب استعادتها نفحة من الله الرحمن.

يقارب الحظ بعض الأحيان في صيد اللآلئ قصة مُنقِّب يوكون Yukon الذي فنيَ من الكدح والإحباط، فضرب بمعوله ساخطاً على صخرة ناتئة كان قد تعثّر بها، فبدا له عرق من الذهب. في المنطقة الجنوبية من الخليج العربي، تعرَّف وليَمسون على بدوي مسنّ وستة من رجال قبيلة القواسم Jawasim، الذين دخلوا التاريخ بضربة حظ عجيبة مثل سابقتها.

كان هؤلاء البدو السبعة يغادرون أبوظبي على ساحل الهدنة سنة بعد سنة لأجل موسم صيد اللآلئ الصيفي وأصبحوا أفقر وأفقر مع تعاقب المواسم من حيث النتيجة. في السنة التي التقى بهم وليَمسون، كانوا غارقين في الدّين. لقد رهنوا كل ما بقي لديهم من جمال وماعز للحصول على مبلغ يكفي بالكاد مؤونة نصف موسم الصيد. كان زورقهم غارقاً في الرهن. وكانوا يعودون إلى البحر في كل مرة وهم على أمل فرصة المقامر في التعويض. كان نصف الموسم هذا سيدمّرهم إلا إذا أسعفهم الحظ السعيد.

كانوا في حالة يائسة في أواخر يوليو، فلم يحصلوا على شيء مقابل عملهم سوى بضع بذور لآلئ لا قيمة لها. نفد المال القليل لديهم، ولم يبقَ معهم من طعام سوى ما يكفيهم بالكاد ليحتالوا العيش عليه ليومين وهي المدّة اللازمة للعودة من شعب اللؤلؤ إلى الميناء.

بعد أن فتحوا صيداً من المحار ولم يجدوا شيئاً[1]، قرفص الرجال في حلقة على سطح المركب وأخذوا يتباحثون في الوضع الذي آلوا إليه. أخذوا يسحبون بالدّور من النرجيلة التي في وسطهم وهي ما بقي لديهم من رفاهية قليلة وهم يتخيّلون مشهد حجز الزورق وجمالهم القليلة على أيدي دائنيهم. في النهاية تكلم البدوي المسنّ وهو قبطانهم في هذا الأمر وقال لهم: «لقد كنا فقراء لما شرعنا في هذه المغامرة، يا إخوان. وإذا عدنا إلى الميناء الآن، سوف نضع أقدامنا على الشاطئ كمتسولين. لن نجد لآلئ في رمال الصحراء. من ناحية أخرى قد يكون هناك لآلئ في الشعب

(1) يسمّى المحار الخالي من اللؤلؤ في الخليج باللهجة العامية: خرب، أو صلصلة.

تحت عارضة زورقنا. لذلك دعونا نغص ليومين حتى ينفد طعامنا. سنذهب جائعين في طريق عودتنا إلى الميناء، أوَلم نعرف الجوع من قبل عندما كان يُغار علينا في الصحراء؟ دعونا نأخذ فرصتنا الأخيرة وسيكافئنا الله إن شاء على عملنا».

كان الشبان أقل يقيناً بإحسان الآلهة، ولكن كان لديهم مزيّة العرب في احترام كبار السن والنصيحة الحكيمة. نشأ نقاش قصير ثم اتفقوا بالإجماع على الغوص في اليومين التاليين حتى تُستنزف كل مؤنهم ولو اضطرهم الأمر إلى العودة جائعين إلى أبوظبي.

عمل الرجال طوال اليوم التالي والذي يليه من الفجر إلى الغسق. تم فتح آخر محارة ولكن بقي النحس ملازماً لهم ولم يجدوا شيئاً. نفد الطعام؛ ولكن كان بمقدورهم صيد السمك وأكله نيئاً لأنه لم يبق لديهم وقود لطبخه. تمدد الغوّاصون على ظهر المركب، منهكين من الكدح وغارقين في الكآبة. كان الهلال يرتفع في ما بعد التوهج البهي للغروب. كان بانتظارهم رحلة يومين إلى السّاحل العُماني[1]، وعزاؤهم الوحيد أن إخوانهم في الدِّين لن يمنعوا عنهم الطعام عندما ينزلون البر.

عبث القبطان المسن بسبحته وقال بحزم: «غوصٌ أخير[2]، ثم نرفع الأنجر ونبحر عائدين إلى ديارنا».

ربما كان في قلوب إخوانه رجال القبائل الميل إلى أن يرفضوا. حملقوا إليه بينما كان جالساً بصمت وأصابعه البنية الكثيرة العقد تعد الخرزات. لم يتكلم أحد، إذ اعتاد الشباب في البحر على الطاعة العمياء لكل أمر من ربّ المركب. دفعوا أنفسهم آنئذٍ على العمل بفتور، ولكن وضعت الحبال المثقلة خارجاً، ونزع الغواصون الثلاثة

(1) ذكرت أعلاه أن جغرافيي الإنكليز كانوا يسمّون ساحل الهدنة في الخليج باسم: ساحل الصّلح العُماني، والسبب في ذلك عائد إلى اعتبار جغرافي محض، وهؤلاء الغوّاصون في القصة أتوا من أبوظبي تحديداً.

(2) من بين مصطلحات الغوص على اللؤلؤ في الخليج العربي تعبير: التبة، وهو النزول مرّة واحدة للقاع، ثم العودة.

المنهكـون أثوابهم وألقوا بالسّـلال علـى أكتافهم العارية. وللمرة الأخيرة غطســوا في البحر المظلم ثم خرجوا وفي كل سلة بضع محارات.

مرة ثانية وأخيرة، انشغلت السكاكين بالصيد. تم فتح محارة بعد أخرى دونما مؤشر لأي لؤلـؤة. بقي ثلاث محارات فقام أحد الشـباب خطأً بخلطهـا مع بعض الأصـداف وهـمَّ أن يرميها في البحر لولا أن تنبه له القبطان المسـّن فشـتمه وتنـاول حينئذٍ إحدى المحارات وببراعة فلق الصـدفة ثم نزع اللحم بسكينه[1].

علـى النصف الأسـفل من الصدفة كان هناك نامية بصلية الشـكل بـدت مثل لطخة طيـن. لـم يلقِ أحد بـالاً لها. ولكن قبـل طرح الصـدفة قام القبطان بكشـطها بالسـكين وإزاحـة بعـض الأوسـاخ عنهـا وبقطع غشـاء لحمـي كان يغطيهـا. هناك علـى صدفة المحـارة توهجـت لؤلـؤة تحت ضـوء الفانوس - كـرة بيضـاء زهرية ضخمـة ومضيئة لدرجة أن أفراد الطاقم المتعب جلسوا مثل الأصنام الهامدة.

أثناء روايته أثر اللقية للحاج وليَمـون في دبي لاحقاً، قال البدوي المسـنّ ذو اللحية الرماديـة: «جلسـنا بلا حـراك لمدة لا أدري كـم طالت. لقد خفنا أن نتحرك خشـية أن نوقظ أنفسـنا ويختفي هذا الحلم باللؤلؤة».

لـم تكـن اللؤلؤة حقيقية فحسـب بـل كانت أفضل مـا وجد في كل أرجـاء الخليج العربـي في موسـم الغوص الكبير ذاك. بعد سـنين من الكدح الشـاق والحظ السـيء، حصد رجال قبيلة الجواسـم السبعة ثروة في المحارة الثالثة والأخيرة التي عزموا على أخذها وفتحها. وفي ثوانٍ انتُشـلوا من أعمق درجات القنوط إلى ذروة الابتهاج. قاموا برفـع لافتة لإعلان اللقيـة، ولـم يخامرهم أي تردّد بشـراء بعض المؤن من أحد مراكب الدّاو الأكثر زاداً. تم بيع هذه اللؤلؤة التي تعد من الصنف ذي الجودة العالية إلى تاجر مـن دبـي بمئة ألف روبية تقريباً. ثم تناقلتها الأيدي في موانئ الخليج حتى تم شـراؤها بمبلغ مئة وسـتين ألف روبيـة (أكثر من 12000 جنيهاً إسـترلينياً) مـن قبل تاجر بحريني

(1) يسمّى من يقوم بفتح المحار في الخليج باللهجة العامية: الجلاّس (أو اليلاّس).

أخذها إلى باريس. أما بدو الجواسم فقد نال كل منهم حصة كافية لأن تجعل منه رجلاً ثرياً وفق معايير قبيلة الجواسم.

وقعت حادثة أخرى أكثر عجباً في ذلك الموسم. فقد اصطاد غواصون عرب من الشارقة لؤلؤة بشكل الإجاصة ذات تألق جيد من بحر البنات. وبعد عدّة أيام، أثناء عملهم على شعب قريب من الأول، اصطاد أحدهم لؤلؤة أخرى ذات شكل وحجم ولون وبريق مشابه لسابقتها.. وفرصة احتمال وقوع ذلك واحد في المليون. كان زوج اللآلئ مناسباً ليكون قرطي آذان متدليين، وقد زادت اللؤلؤة الثانية قيمة عظيمة لكليهما.

حالف القليل من الحظ جهود وليَمسون المديدة على الشعاب. وما حقق من أرباح في ذلك العام كان تراكماً من بيع وشراء اللآلئ. وقبل انتهاء الموسم الكبير، أبحر فتح الخير عائداً إلى الكويت حيث قام الطاقم بتجهيز الدّاو للردّة[1] (العودة)، نهاية الموسم القصير عندما يخوَّل الصيادون بأخذ كامل الصيد، وعادة ما يكون من نوعية رديئة.

وبينما كان هناك، شهد إحدى تلك المقامرات التي تضيف نكهة إلى حياة غواص وتاجر اللؤلؤ. كان هلال مطير[2] (المطيري) Hilal Amtar أحد أصدقائه، وهو تاجر لآلئ بارز اشتهر بكونه أحد أغنى الرجال في الكويت. في بعض الأيام، كان هذا الرجل وبضع سماسرة آخرون ينصبون خيمة كبيرة من شعر الماعز بالقرب من الرّصيف المائي. كانوا يجلسون على سجاد مع موازينهم وطاسات الفرز وأباريق القهوة لاستقبال أي عميل لديه لآلئ للبيع. كان وليَمسون ينضمّ إليهم في قليل من الأحيان ولكنه لم يكن قادراً على الاستمرار مثل الآخرين.

بينما كان هناك في أحد الأيام، جاء ثلاثة إخوة من قبيلة الظفير قرابة المساء ومعهم

(1) يسمّى غوص نهاية الموسم في الخليج باللهجة العاميّة: الرّديدة.

(2) هو تاجر اللؤلؤ الشهير هلال بن فجحان الدّيحاني المطيري الملقب بـ «ملك اللؤلؤ» (1855-1938).

ما اصطادوه من اللؤلؤ ليبيعوه. لقد كانوا ناجحين بشكل ملحوظ بالرغم من أن ثلاثتهم كانوا يؤلفون كامل طاقم زورق صغير. تم شراء اللآلئ من قبل التجار بثماني آلاف روبية ونيف، إنه مبلغ من المال يكفي كلاً منهم لشراء قطيع من الماعز، واتخاذ زوجة له وأن يصبح شخصاً ذا شأن في المجتمع الصحراوي.

انتهى العمل لذلك اليوم، على ما يبدو. وبقي وليَمسون ليدخن ويلغو مع هلال مطير وباقي التجار. بينما عدّ الإخوة الثلاثة المال بتأنٍّ، لكنهم ترددوا بالمغادرة. وبعد أن جرى بينهم حديث هامس، أخرج أحدهم صدفة محار كبيرة من غلاف من سعف النخل، ثم أشار إلى بثرة على عرق اللؤلؤ من الجهة الداخلية وسأل باهتمام إن كان أحد مهتماً بشراء الصدفة.

لم يجب أحد حتى عرض وليَمسون، الذي لم يكن كسبه سيئاً جرّاء عدة صفقات عقدها، مئة روبية. كان بإمكانه تحمل فرصة المقامرة تلك رغم أن احتمال متاجرته في لطخة طين هو عشرة ضد واحد. كان يوجد عادة طين فقط أو مادة عديمة القيمة تحت غلاف عرق اللؤلؤ الرقيق من ناميات الصدفة. في مناسبات نادرة يمكن أن تحوي البثرة لؤلؤة، وإذا حدث ذلك، فعلى الأرجح تكون اللؤلؤة من النوع الجيد.

ضحك البدو، وعادت نصف الصدفة إلى غلافها من سعف النخل. صاح أحد التجار: «هيا! أعطنيها، يا صاحبي. لقد حالفني حسن الطالع اليوم، والحمد لله. هذه خمس مئة روبية لك».

اتضح أن وليَمسون قد بدأ أمراً ما. زاد تاجر آخر المبلغ المعروض، وفي وقت قصير كان مزاد مرتجل يجري لأجل صدفة المحار. لم تكن هذه تجارة، بل كان يعتبرها فئة من التجار المتعنتين محض رعونة. كانوا كلهم رجالاً أثرياء، باستثناء الحاج وليَمسون الذي أصبح مشاهداً متسلياً. لقد أربوا كثيراً على الرقم الذي تاجروا به في ذلك اليوم، وكان أحدهم يزايد ضد الآخر بجذل وبنفس الروح الرياضية لأصدقاء يستمتعون بلعبة بوكر.

جلس الإخوة الثلاثة أصحاب الصدفة على أوراكهم وقد بدت عليهم علامات الذهول، وارتفعت المزايدة إلى الآلاف. وحتى يُسكت المتنافسين الآخرين قام هلال مطير بعرض خمسة آلاف روبية، ولكن ذلك لم يكن كافياً. تاجر غني يدعى بسام، رجل بدين ومرح ينتسب إلى عائلة معروفة في البصرة، رفع المزايدة فوراً إلى ستة آلاف روبية وهذا ما وضع حداً للمزاد.

التفت هلال مطير إلى رجال القبيلة معلقاً وهو يبتسم: «الله الجواد قد سدّد خطاكم إلى هذا الديوان. وستنالون الآن بضع آلاف من الروبيات زيادة، وعلى الأغلب مقابل لا شيء أكثر من قطعة من الطين أو الطحلب».

استدعى الرجل الثري بسّام أحد سماسرته الحاضرين وأمره بدفع المبلغ مع مراقبته وهو يعدّ المال. في تلك الأثناء، تشاور البدو فيما بينهم. وللمرّة الثانية، قام الرجل الذي سبق أن أظهر صدفة المحارة بتولي دور الناطق، فخاطب الجمع قائلاً: «لدينا بحوزتنا ثمانية آلاف روبية من بيع لآلئنا. والآن سوف نجازف بأخذ الفرصة سواء كانت هذه البثرة تحمل لؤلؤة أم لا».

صُعق الحضور بهذا.

صاح هلال مطير «هل أصابتكم الشمس بالجنون؟ خذوا العرض الذي قُدّم لكم. هذا التاجر رجل غني. سوف يدفع لكم ستة آلاف روبية نقداً. اقبلوها كعطية سخية، ودعوه يتلذذ متعة المقامرة».

أجاب البدو: «سوف نقوم بأنفسنا بالمقامرة».

«اسمعوني»، ألحّ هلال مطير. «أنتم رجال فقراء بالمقارنة مع أي من هؤلاء الرجال. وقد ضمنتم ستة آلاف روبية من صديقي بسّام. باستطاعته أن يخسر هذا المبلغ مقابل ساعة من التسلية. أما أنتم، الفقراء، فستقامرون بهذا المبلغ مقابل فرصة احتمال بعيد في أن تجدوا لؤلؤة في تلك الصدفة. حتى ولو كان هناك لؤلؤة، الأمر الذي يُعدّ مستبعداً، ربما لن تساوي نصف ما عرض عليكم مسبقاً».

تشاور الإخوة الثلاثة ثانية.

أعلن الناطق: «سوف نقطع الصدفة بأنفسنا. وسنقبل بحكم القدر شرّاً كان أم خيراً».

لم يكونوا ليكترثوا بأي نصيحة خلاف ذلك، مع أن بتام حاول بنفسه أن يثنيهم عن الأمر. قال هلال مطير لمّا رآهم عازمين: «لا تكسروا البثرة لتفتحوها. فلو قدّر الله أن فيها لؤلؤة، ربما خدشتموها بأيديكم الخرقاء. ها هو خادمي علي وهو فائق المهارة في هذه الحرفة. أعطوه خمس روبيات وسيقوم بشق هذه البثرة».

تم الاتفاق على هذا، وراقب الحاج وليَمسون والتجار العرب بينما شرع جرّاح اللآلئ بعمله بواسطة سكين نحيلة النصل[1]. جلس البدو في صف واحد، بوجوه خالية من الأحاسيس، ولكن عيونهم الغامقة كانت تراقب كل حركة خفاقة من السكين.

تم قشر الطبقة الخارجية الرقيقة للصدفة. نسي الرجال التدخين. وربما كان الجميع يشعرون بنفس إحساس الحاج وليَمسون، وهو موتور بالإثارة وكأنه يتوقع أن تذهب طعنة السكين التالية بستة آلاف روبية من نقود حزامه الخاص. تابع علي جرّاح اللآلئ العمل. وفجأة انحنى المشاهدون إلى الأمام بتعجب وتوق. فسطع جلياً ضياء متلألئ بديع كأنه قمر مجهري قد حُبس في ثنايا الصدفة. بعد بضع دقائق نزع علي برفق لؤلؤة بيضاء زهرية ذات جمال لا شك فيه.

لم يكن بمقدور رجال القبائل إدراك الفحوى الكاملة لهذا الحظ المدهش - وهو أن باستطاعتهم الآن العودة إلى الخيام السود وتملّك قطيع من الإبل. ابتاع هلال مطير اللؤلؤة مقابل ستة عشر ألف روبية. وفي غضون أسبوع أو أسبوعين تلياً، مرّت اللؤلؤة على يد ستة تجار وسماسرة. ابتاعها يهودي فرنسي كان يقوم بجولته في موانئ صيد اللؤلؤ في الخليج مقابل ثلاثين ألف روبية، ولدى عودته إلى الوطن باعها إلى باريسي

---

(1) ذكرنا أعلاه أنّ اسمه في الخليج باللهجة العاميّة: الجلاّس (أو اليلاّس)، والسكين التي يفتح بها المحار تسمّى: المفلقة.

غني بما يعادل أربعين ألف روبية.

من خلال زمالته مع تجار اللؤلؤ في الكويت، حصل وليَمسون على معرفة لا بأس بها عن تجارة تتطلب البراعة وقام بتوسيع مداركه فيها، إذ يجب أخذ العديد من النقاط في الحسبان. فكلما كان السبب المحرّض الذي جعل المحارة تنشر عروق اللؤلؤ أصغر، كلما كانت اللؤلؤة أفضل؛ ولكن كان لبعض اللآلئ سطح ناعم ولبعضها سطح خشن جداً. وكانت اللآلئ تُفرز وفق حجومها من قبل التجار العرب والفرس بواسطة طقم من الطاسات النحاسية فيها ثقوب بداخلها.

مزوداً بالتجربة وعدد من اللآلئ، عاد الحاج وليَمسون إلى البصرة حيث، بعد سنين مديدة، بدأ يتصل بالأوروبيين والأميركيين المقيمين في العشار. وأصبح بعضهم معدودين من بين زبائنه، لكنه لم يقم بأي مخالطة اجتماعية معهم.

وقبل بضع سنوات من اندلاع الحرب العالمية الأولى، تزوج ثانية وأمضى العديد من الفترات بين قبائل البدو مع زوجته وأولاده. لقد كان يمتلك الموارد المالية، ووجد الوقت للذهاب إلى سوريا ليدرس الشريعة في مدرسة إسلامية في دمشق حتى يصبح متمكناً من فقه أهل السنة. وبذلك زاد من هيبته التي لم تزل عظيمة بين العرب.

* * *

الفصل التاسع والعشرون

صيّاد الجواسيس

ذُكر اسم الحاج عبد الله وليَمـــون في عديد من المناسبات بين الحربين العالميتين فـي الصحـف البريطانية، وقد تحـدث المحاضرون عنه بوصفه من أكثر الشـخصيات الجديـرة بالملاحظة. كما اتفقـت أيضاً التقارير المكتوبة والشـفهية على أن في جعبته الكثيـر من المغامرات الغريبة والرائعة فـي الحرب العالمية الأولى، ولكنه كان متكتماً إلـى أبعد الحـدود. كان التكتّم بسـبب كونه عميـلاً لمخابرات الحلفاء السـرّية معظم الوقت.

قام وليَمـــون بشـراء منزل وبسـاتين نخـل بالقرب مـن البصرة، وقضـى جزءاً من وقتـه هناك خلال السـنوات الثلاث التي سـبقت اندلاع الحرب في سـنة 1914. كانت المنازعات العائلية طاغية في تلك الفترة، وأضحت حياة البلدة خطيرة نتيجة الاغتيالات والمؤامرات التي لا نهاية لها. فرأى وليَمـون، الذي كان مختلطاً بالمجتمع العربي في ذلك المكان، أنه من الآمن أن يأخذ عائلته للبقاء مع صديق على بعد سـبعة أميال على طريـق النهـر. كان في منزلـه المؤقت هذا عندمـا أُعلنت الحرب ضـد تركية في أواخر أكتوبر، 1914.

مـن جهـة أخـرى، لا تضيف هذه الصفحـات أية قيمة إلـى الكتابـات الكثيرة حول الحملة على بلاد ما بين النهرين، لكن ذكراً مقتضباً لها يعد جوهرياً لتفسـير تلك الفترة مـن حياة وليَمـــون بين عامي 1914 و1918، ويوفر لمحة عـن الأحوال المبكرة خلف خطوط الأتراك. لقد أحكم إغلاق شفتيه حول الكثير من إنجازاته كعميل سـري وصيّاد

للجواسيس. تم الكشف عن بعضها ولكن لأسباب خاصة به أصرّ أن يكون هذا خارج السجلات تماماً. رغم ذلك، ولإنصافه، يجب الاعتراف بأنه كرجل انكليزي يعيش كعربي لم يقصّر بالاستجابة عندما كان لبلد مولده حاجة لخدماته.

إن أي ذكر للعرب بخصوص حرب 1914 - 1918 يَستحضر حتماً ذكريات الكولونيل توماس إدوارد لورَنس Colonel T. E. Lawrence (لورنس العرب)، الذي نالت مآثره بحق شهرة عالمية واسعة. كانت المناطق والعوالم التي عمل فيها لورنس بتألق، هي تلك المألوفة لوليَمسون الذي طاف في البلاد لسنوات طويلة. عاش وليَم ريتشارد وليَمسون، المعروف باسم الحاج عبد الله فضل، كواحد من السكان الأصليين في جزيرة العرب وبلاد مابين النهرين لأكثر من عشرين عاماً. تكلم العربية بطلاقة بكل لهجاتها المختلفة وكان يستطيع الكتابة بالعربية بشكل جيد، ولديه معرفة موسوعية عن سياسات الشرق الأوسط والعادات القبلية والمكائد؛ كان لديه أصدقاء لا يحصى عددهم بين القبائل من الخليج العربي إلى البحر الأحمر ومن جنوب جزيرة العرب إلى شمال سوريا.

قد يبدو أمراً مفاجئاً في هذه الظروف أن وليَمسون لم يشارك في ثورة الصحراء الموصوفة في رواية لورنس الأدبية الكلاسيكية «أعمدة الحكمة السبعة» *Seven Pillars of Wisdom*. عندما أعلنت الحرب ضد تركية، عاد الحاج وليَمسون مع عائلته إلى البصرة ووجد ملاذاً حيث يُستبعد أن يتعرضوا لاعتداءات من قبل الأتراك. هنا في بلاد ما بين النهرين إذن، على بعد بضع أميال من الحدود مع جزيرة العرب، وُجد رجل إنكليزي بمعرفة لا نظير لها عن العرب وتجربة عملية في قتال الصحراء؛ رجل سبق وأن حارب ضد الأتراك عندما تمرّدت بعض القبائل العربية. لم يكن لديه الثقافة الجامعية ولا الاتصالات البريطانية ذات النفوذ المتاحة للورنس، الذي بدأ ببني حرب المرموقين، ووحّد كثيراً من القبائل العربية ضد العدو التركي.

ليس هناك أي تلميح في هذه الصفحات بأنه كان بمقدور وليَمسون أداء مهمة لورنس بنفس الجودة أو حتى نصفها. وكل ما يمكن أن يقال يقيناً أن شيوخ العرب لم يكونوا ليثروا على نحو فاحش بالذهب البريطاني لو تم توزيعه بمعرفة الحاج

وليَمسون. أي شيء أكثر من ذلك سيكون تنظيراً عقيماً. ولم تكن المهام التي أدّاها حين كان مرتبطاً مع الاستخبارات استعراضية مذهلة، ويستحيل تقدير إلى أي مدى أعانت جهود الحرب في بلاد ما بين النهرين.

انتشرت الأعمال العدائية في كل أرجاء الشرق الأوسط، ولكن من المؤكد أن مكتب الحرب في لندن لم يعطِ اعتباراً جدياً لحقيقة أن لدى وليَم وليَمسون، المعروف باسم الحاج عبد الله، تجربة فريدة في جزيرة العرب، هذا إن علموا بوجوده فعلاً. لقد اكتشفوا أمره في الوقت المناسب. حينئذٍ، وخلافاً لكل الممارسات المسلّم بها في حرب 1914-1918، قامت السلطات العسكرية البريطانية باستخدامه في العراق حيث كانت معرفته الخاصة قيّمة بدلاً من تعيينه كضابط مواصلات للسكك الحديدية في فرنسا.

كانت الجالية البريطانية في العشار عند اندلاع الحرب مع تركيا في حالة ارتباك، فكانوا يلتمسون نصيحة وليَمسون في الأمور المتعلقة بإخلاء منازلهم. كان من المفروض أن يغادر القنصل البلدة، ووافق الوالي سليمان باشا على أن يذهب المواطنون البريطانيون معه. تمكن البعض من الفرار إلى عبادان بالقوارب، ولكن اختار بعض ممثلي الشحن وآخرون البقاء.

قامت السفن الحربية البريطانية بقصف الفاو في مطلع نوفمبر، وبعد عشرة أيام سرّعت معركة الزّين[1] Zain انسحاب الأتراك إلى أعلى النهر. كما جرت محاولة من قبل الأتراك لسدّ قناة شاطئ العرب ذات المياه العميقة عند نقطة بالقرب من المُحمَّرة ولكن المهمة نفذت على نحو رديء.

في غضون ذلك، أمر الوالي سليمان باشا كل المجموعات التجارية البريطانية بالبقاء تحت الحراسة في بيت أحدهم، هو السيد نايت Knight. وقد أخبرهم والعرب أيضاً

(1) المقصود معركة كوت الزّين التي جرت بين الإنكليز والأتراك في 7 نوفمبر من عام 1914 وأدّت إلى انسحاب الأتراك رغم أنهم كبّدوا الإنكليز خسائر فادحة جداً، وأعقبها احتلال الإنكليز للبصرة في 22 من الشهر ذاته.

أن كل الجنود البريطانيين قد ذبحوا وغرقت السفن الحربية البريطانية بفعل القصف المدفعي التركي. ربما كانت تلك البيانات أكثر مصداقية لولا أن الجنود الأتراك كانوا ينسحبون على عجل من خلال البلدة في ذلك الوقت، وكثير منهم قايضوا بنادقهم مع العرب بعباءة أو كوفية وصندل لغرض التنكر والتمويه. عندئذٍ، وعقب الإعلان عن إبادة البريطانيين عن بكرة أبيهم، قام الوالي في نفس الليلة بانسحاب سريع بالقارب إلى أعلى النهر برفقة بعض الأتراك البارزين.

رغم أن الحاج وليَمسون قد جعل مكانه معروفاً لبعض من مواطنيه، فإنه، وبحذق، نأى بنفسه بعيداً عن الأتراك الذين كانوا يعرفون جنسيته. لقد نُظم بحث عنه دام عدة أيام، فغادر هو وعائلته أحد المخابئ في البلدة واختفى عن وجه الأرض في قرية مجاورة. عرض الأتراك مكافأة مقابل معلومات تقود إلى أسره، ولكن أحداً لم يفشِ سر مكان وجوده.

عندما أخلى الأتراك المنطقة، اغتنم عدد من المجندين العرب والأكراد الفرصة للفرار من الجندية، وتركت البصرة بلدة مفتوحة.. وكانت في الحقيقة مفتوحة على مصراعيها. تركوا السراي (البلدية) مفتوحاً دون حماية، وعدداً من المباني الأخرى المحتلة سابقاً، بما فيها ترسانة الأسلحة التي خُزن فيها أكثر من 20000 بندقية ووفرة من الذخائر.

لم تسنح فرصة في الذاكرة الحية أبداً بإغراء إلى هذه الدرجة. مباشرة بعد مغادرة الأتراك، أرسل النقيب وراء وليَمسون يلتمس نصيحته في أمور عديدة، فجاء الحاج إلى أعلى نهر شط العرب بواسطة مركب بَلَم ومن ثم إلى البلدة القديمة عبر خليج العشار. عمّت الفوضى العارمة في كل مكان. من الممكن أن يكون الأتراك قد أمّلوا حين تركوا الترسانة زاخرة، أن يسلح العرب أنفسهم ليقاوموا الغزاة البريطانيين. كان تقديرهم مخطئاً حول المقاومة، إذ كان أهالي البلدة في أشد السعادة بحصولهم على بنادق مجانية.

انتشرت أخبار الفرصة الذهبية على جناح السرعة. كان على رجال قبائل الصحراء

إما الشراء أو القتال من أجل البنادق والذخيرة المرتجاة. بينما يمكنهم الآن أن يأتوا ويخدموا أنفسهم دون عرقلة أو عائق. سمع عرب الأهوار (الشّباخ) Marsh Arabs الغريبون بالأنباء السارّة، فغادر الكثير منهم قراهم فوق القُرنة، وقفزوا في قواربهم وجاءوا بأقصى سرعة ممكنة إلى أسفل الفيض البني لنهر شط العرب للمشاركة في الغنائم.

قبل ردح من الزمن، خطر على بال بعض رجال البلدة الجامحين أن عنابر الجمارك ومستودعاتها على طول الرّصيف المائي قد تكون زيارتها مجزية جداً. كانت تشكيلة واسعة من المستوردات في الحجز وتكومت في المخازن البضائع التجارية بتنوع واسع. رأى الرُّعاع من سكان البصرة الفرصة سانحة لإغناء أنفسهم دونما عقاب وعلى حساب التجار فاغتنموها بكلِ نَهم. كان النهب والسلب للمحلات في أقصى حدّ له عندما مرّ الحاج وليَمسون في البَلَم ببطء قريباً من ضفاف النهر بمرأى من المشهد المذهل عن كثب.

انضمّ النساء والأطفال إلى الرجال. رجال قبائل همجيون من الصحراء، غجر من القرى المجاورة وقاطنو الأهوار (الشّباخ) غريبو الأطوار رموا بأنفسهم في الحشود المشاغبة متلهفين لنيل حصة الأسد من النهب. في خضم الجلبة والفوضى كانت رزم وصناديق ومخزون من شتى الأنواع تحمل أو تلقى خارج المخازن. أطلق العرب الذين سبق أن سطوا على الترسانة، طلقات بنادقهم من أجل كسر الأسلاك الموجودة على صُرر البضائع، وأخذ أحدهم يثب على قدم واحدة وهو يزأر من الألم والغيظ بعد أن أطلق النار على قدمه الأخرى. بينما تبنى عدد من البدو وغجر البصرة دور الخاطفين، وأخذوا ينهبون الناهبين.

لاحظ شيخ مسن وغد من معارف وليَمسون الحاج في الزورق فصاح قائلاً: «سلام يا حاج عبد الله! الله كريم! دعني أُحَمِّل بَلَمك. أنت واحد منا.. فماذا ترغب؟ باستطاعتك أن تأخذ ماكينة الخياطة هذه، أو هذه المضخة الصغيرة. أما تلك القطع فأحتاجها لحريمي».

التمس العذر بأن لديه عملاً ملحّاً في مكان آخر، وواصل وليَمسون مهمته التي كانت الاتصال بالسيد نايت ورجال التجارة الآخرين في البلدة. بعد أن اطمأن بنفسه أنهم لم يصابوا بأذى، حضر اجتماعاً نظمه عدّة تجار ومُلاك أراضٍ رئيسيون. سبق أن سلّح العرب الميسورون فلاحيهم متوقعين مصاعب خطيرة. وكان البدو يتوافدون إلى البلدة أكثر فأكثر كما أبناء آوى إلى الوليمة. وقد عبّر أحد أصحاب بساتين النخل الواسعة عن مخاوف كل الوجهاء في الاجتماع إذ قال ما فحواه: «عندما ينتهي هؤلاء الرُّعاع اللصوص من نهب الجمارك، سيلتفتون إلى البلدة وينهبون بيوتنا».

لم يرغب أحد باحتلال عسكري آخر للبلدة، ولكن بما أن مئات المتوحشين قد سلّحوا أنفسهم من الترسانة، لم يكن هناك خيار إذا قُدّر للنظام أن يستعاد. بيّن الحاج وليَمسون رأيه بأن الغاية من غارة البريطانيين على شطّ العرب ستتحقق حالما يكون ميناء نفط عبادان محمياً بشكل ملائم. في الحقيقة، كانت هذه هي النيّة الأساسية عندما دخلت السفينة الحربية الملكية H.M.S. *Espiegle* والزوارق المدفعية الأخرى إلى النهر. لكن الظروف تضافرت على توريط البريطانيين في حملة رئيسة. كان القرار المتخذ في الاجتماع الذي حضره مالكو الأراضي بما فيهم الحاج وليَمسون لدعوتهم إلى احتلال بلدة البصرة أمراً ذا عواقب في الأيام المبكرة.

في رحلته النهرية في البَلَم، عانى وليَمسون من نوبة أخرى من الملاريا ونزل به المرض أثناء المناقشات المطولة. كانت نصيحته للعرب أن ينتخبوا وفداً مفوضاً ليذهب إلى أسفل النهر ويتصل باللفتنانت جنرال (العقيد) باريت Barrett قائد القوى الغازية. علاوة على ذلك يجب أن يذهب السيد نايت مع المجموعة في قاربه السريع الذي تركه الأتراك في مرساه.

تم تنفيذ الخطة، حيث غادر وليَمسون ونايت في القارب السريع يصحبهما صلاح بك، وأحمد صنع Sanaa واثنان أو ثلاثة آخرون من رجالات البلدة البارزين. لسوء الطالع أصبح وليَمسون منهك القوى من الملاريا فاضطروا إلى إنزاله في أحد النُّزُل العربية على بعد عدّة أميال من مجرى النهر. لذلك لم يسمع بنتيجة البعثة إلا في تاريخ

متأخر. وبعد أن اطمأنوا أنّه ليس هناك أي كمين، تقدّم البريطانيون إلى أعلى النهر عبر قرى رفعت الأعلام البيضاء بشكل واضح، واحتلوا البصرة.

تم الاستيلاء على القُرنة عند ملتقى النهرين دجلة والفرات في ديسمبر 1914، وتراجع الأتراك إلى أعلى البلاد عقب معركة شَيبة في أبريل اللاحق. خلال هذه الفترة تعافى الحاج وليَمسون من الملاريا، وبقي على اتصال وثيق مع السلطات العسكرية البريطانية. بعد معركة شيبة، انضمّ إلى الاستخبارات المتقدمة التي كان قائدها البريغادير جنرال (العميد) بيتش Beach. لقد رفض تقلّد منصب رسمي، ولكن رغم بقائه مدنياً تم منحه أجر ومكانة الرتب المفوّضة.

حتى نهاية الحرب، كانت خدماته للقوات الملكية البريطانية عظيمة بسبب معرفته للأرض والقبائل والقواد الأتراك، وما أصبح يدعى في تاريخ لاحق بالطابور الخامس. كان معظم عمله، وخاصة التجسس المضاد، يجري في السر. فقد كان يُرى بين البريطانيين في قميص وسروال قصير خاكي. وخلف خطوط العدو كان يرتدي أثوابه العربية ويتنكر في بعض الأوقات وهو يبحث عن معلومات معرضاً نفسه لخطر الأسر والإعدام.

كان يقيم أحياناً في قرى عرب الأهوار (السّباخ) في المستنقعات بين النهرين العظيمين. وكان قادراً على الحصول من رجال القبائل البدائيين أولئك على كميات كبيرة من الدجاج والبط والبيض والدّحل *dahl* التي تبدو من حيث المظهر مثل حب البسلة الخضراء الصغيرة والتي يقدرها الهنود جداً. كان أفضل الدجاج يكلف ما يعادل أربعة دراهم للواحدة، بينما كان البط أرخص. العرب أنفسهم لم يحبّوا البط، لأنهم لم يعلموا كيفية تحضير الطائر ليكون ذا مذاق مستساغ.

في سياق خدمته في الاستخبارات السرية، استطاع وليَمسون إعاقة عدد من البدو اللصوص الذين شُكّلت لأجلهم إحدى المحاكمات العسكرية خلال حملة ما بين النهرين. ويقال أن بإمكان هؤلاء الخبثاء سرقة الكحل من على أجفان عيون النساء دون علمهن. تعقب وليَمسون إحدى العصابات التي قطعت الأسلاك الشائكة

المحيطة بمخيّم عسكري ولم يقوموا بسرقة مخزون ثمين فقط بل تطفلوا على بغلين للجيش ليأخذوا السلب بعيداً متجاوزين الحراس. وقد سرقوا خيمة الضابط الطبي في المعسكر ومعظم أغراضه الشخصية، وتركوه نائماً على الأرض تحت النجوم.

كان الحاج وليَمسون في الناصرية عندما قام الملازم كاولي Cowley (الذي مُنح وسام V.C. بعد موته[1]) بمحاولته المتهورة لأخذ باخرة مليئة بالمؤن عبر خطوط الأتراك إلى الحامية المحاصرة في الكوت. وفي الناصرية أيضاً اجتمع لاحقاً بالجنرال مود Maude الذي قام بالتالي بتعيينه في صفوف موظفيه في بغداد.

كان الضابط الأول في الناصرية ذلك الوقت هو الميجور (الرائد) فليتشر Fletcher الذي كان لديه أفكار غير تقليدية حول الزي المناسب لحملات الطقس الحار. عندما وصل الجنرال (اللواء) مود Maude على متن طائرة بمقعدين، كانت ملابس الرائد لذلك اليوم تتألف من سروال تدريب واسع باللون الأبيض المغبرّ ورداء رقيق باللون الأزرق الفاتح مع فتحات للتهوية وصندل وخوذة شمسية باللون الخاكي وقد وضع عمامة هندية حول الخوذة مع ريش حجل على المحيط. حملق اللواء مود Maude، المعروف بشدة تمسكه بالنظام والشكليات، بالقائد المحلي وصاح قائلاً: «أنت الضابط القائد هنا. هل هذه هي الطريقة التي على ضابط بريطاني أن يلبس بها؟ سوف أرى بأي إجراء تأديبي سوف آخذ». وقبل أن يغادر اللواء سوَّى وليَمسون الأمور معه بإخباره على نحو غير صادق أن الرائد كان بشكل مؤقت في مهمّة خاصة لفرع الاستخبارات معه، ولأنه كان يعتزم زيارة قرية بعيدة، فقد اختار هذا اللباس المزخرف لإخفاء رتبته وهويته.

لما أصبحت بغداد بيد البريطانيين أخيراً، طلب اللواء مود Maude من الحاج وليَمسون ابتكار وسائل للتعامل مع الجواسيس الأتراك الكثيرين الذين بقوا بين

(1) هو وسام صليب فيكتوريا Victoria Cross، أرفع وسام عسكري للشجاعة يمنحه الجيش البريطاني. سمّي نسبة للملكة فيكتوريا التي تولّت عرش بريطانيا بين 1837-1901، وأول مرّة استحدث فيها الوسام كانت عام 1856 في حرب القرم.

السكان. طُوقت المدينة بالحراس والأسلاك الشائكة، وتُركت ثلاثة مسالك تحت الحراسة متاحة لحركة المرور دخولاً وخروجاً. وتم تأسيس مكتب للجوازات وتنظيم إحصاء للقرى المحيطة. فوقع في شراك شبكته المنتشرة بشكل واسع عدّة جواسيس، ولكنه أيضاً نجح في تأمين الإفراج عن كثير من الناس الذين وقعوا ضحايا مخبرين كاذبين أو تم اعتقالهم نتيجة تشابه في الهوية. في أحد الأيام، بعد التحقيق، قام بتحرير لا أقل من خمسة من العرب والأكراد وآخرين تم اعتقالهم ظلماً كمتهمين من قبل السلطات العسكرية.

أثّر الاختلاط مع البريطانيين بعد سنين طويلة من الحياة مع العرب على شخصية وليَمسون دون ريب، وخاصة خلال الأشهر الأولى من احتلال بغداد. فبينما كان ما يزال شديد التمسك بشعائر عقيدته الإسلامية كالصلاة والصيام، تراخى إلى حد كبير بموقفه المتزمت حول المشروبات الكحولية. ففي المناسبات السعيدة كان يختلط بحرية مع الضباط البريطانيين، والآن في منتصف العمر، مال إلى استحضار التجارب البعيدة في الغرب الأميركي بدلاً من المغامرات العربية التي تعدّ أقرب لذهنه وتبدو الأكثر ابتذالاً له. كانت بغداد في تلك الأيام الناشطة خاناً تجمع فيه العديد من رجال المغامرات، من بينهم معاون قائد الشرطة العسكرية فيكتور ماك لاغلين Victor McLaglen المشهور كملاكم من الوزن الثقيل، وقد صار معروفاً لاحقاً على نطاق أوسع كنجم سينمائي من نجوم هوليود.

لا بدّ أن مئات الجنود البريطانيين المتمركزين في بغداد أو المارين إلى الخطوط الأمامية قد رأوا الحاج وليَمسون بلباسه الخاكي دون أدنى معرفة لحياته وشخصه الجديرين بالملاحظة. وحتى تحت النظام العسكري في مهامه الحربية كان متفرداً، فارتأت السلطات العليا أنه من الملائم عدم التدخل بشؤونه. غير أنه تعرّض للتوبيخ في أحد الأيام من قبل ضابط أركان متقدّم عندما عدا بالفَرَس إلى أسفل الشارع الجديد حتى لا يتأخر على بعض الأعمال المهمة، وبفعله هذا سبّب بعض الإرباك بين مرافقي اللواء مود Maude من الفرسان الهنود. لكن اللواء، رغم أنه ضابط صارم، كانت لديه

روح الدعابة. فعلق مبتسماً وهو يلتفت إلى ضابط أركانه: «لا نفع من إخبار وليَمسون أي شيء عن ركوب الخيل. فهو ما يزال «الغرب المتهوّر»، ولن تستطيع ترويضه».

كانت هناك نوبات من الإثارة والخطر، لكنه سرعان ما أصبح متململاً عندما اضطره الواجب إلى البقاء في بغداد لفترات طويلة. هذا الرّجل القوي والمفعم بالحيوية، شعر بنداء الفضاء الواسع للصحراء أو البحر المكشوف، حيث يمكنه العيش حياة جسدية نشطة. فما برح يفكر بزوجته بحب متزايد - زوجته الثالثة من آل السّعدون التي تركها في البصرة. أرسل لها خبراً بأن تأتي إلى بغداد بعد أن استقرّ هناك قطعياً، لكنها رفضت ذلك. كتب لها عندئذٍ أنه بحاجة إلى رفقة زوجة، وأنه ينوي الزواج من فتاة بغدادية جذابة اجتمع بها. فأجابت سارة Zara أنها موافقة تماماً على الفكرة، وهكذا تزوج وليَمسون مرة أخرى وفق الشريعة الإسلامية. ولاحقاً غيّرت سارة رأيها فجاءت إلى بغداد وعاشت مع الوافدة الجديدة إلى الحريم بغاية السعادة.

كان الواجب يضطره أحياناً إلى عبور الصحراء والذهاب إلى أسفل دجلة في أحد الزوارق الحربية إلى كوت العمارة وأماكن أخرى. ومن بين الأصدقاء العرب الذين استغل الفرصة لزيارتهم اثنان من أروع الرّجال المسنين في البلاد. أحدهم كان أبو سريح Abu Saraih الذي كان دائماً يرفل بأناقة بثوب أبيض، وهو من المحاربين القدماء الذي عرف بحمله السلاح ضد قوات إبراهيم باشا المصرية عندما استولوا على الرياض. أما الآخر فكان صديقه حَمَد لفيّة[1] Hamad Lafie الذي كان يلبس عباءة سوداء، وعندما يكون الاثنان الأثريان مع بعضهما يمكن أن يُكوّنا موضوعاً لإعلان شرقي عن علامة تجارية مشهورة للويسكي السكوتلندي Scotch Whisky. لقد أمضيا معظم حياتهما وهما جاهلان أن الوقت ينقسم إلى دقائق وساعات. لقد كانا يعرفان فقط تقسيمات الليل والنهار، ومواقيت الصلوات ووجبات الطعام.

جاءت التتمة المسلية لهذه المعرفة بعد عدة سنوات من الحرب. ادعى أبو سريح

(1) الاسم غير مؤكد، حاولت فيه رسم ما كتبه المؤلف بالإنكليزية، بطريقته العوجاء في كتابة الأسماء العربية.

أن عمره 140 سنة، وتم تقدير ذلك من خلال تصريح أدلى به أحدهم يدعى إبراهيم المنديل الذي توفي عن عمر ناهز الثمانين في عام 1895. ادعى المنديل أنّ أبا سريح جاء إلى نجد كطفل وبعد برهة وجيزة صار خادماً في عائلته الخاصة. ولمّا لم يكن للعرب نظام تسجيل للمواليد، كانوا يستنتجون العمر نسبة إلى الأحداث. ووفق جميع الأدلة كان عمر أبي سريح 140 سنة.

تكلم الحاج وليَمسون إلى المفوض السير پرسي كوكس Percey Cox عنه. وكان فحوى الكلام أن الحكومة العراقية منحت أبا سريح معاشاً تقاعدياً بأمر مباشر من الملك فيصل. حتى ذلك الوقت اعترف حَمَد لفيّة Hamad Lafie أن عمره 130 سنة فقط. ولكن بعد منح التقاعدية لأبي سريح، فجأة اكتشف أدلة أنه في الحقيقة أكبر بعشر سنوات من صديقه الموقر. ضحك وليَمسون قائلاً: «صبي هرم بعمر 150 سنة مؤهل للتقاعدية». لذلك أخذ يحتال للحصول على واحدة أيضاً للعبقري حَمَد.

من خلال بضع وقائع، أثبتت عملية صيد الجواسيس أنها عمل بسيط وقد عالج الحاج وليَمسون مثل هذه الحالات ببرود. مثال نموذجي وقع عندما جاءه خبر في أحد الأيام في بغداد أن ضابطين تركيين معروفين بلجوئهما إلى التجسس متنكرين، قد التمسا الحماية في خيام لقبيلة عربية أقامت بالقرب من الهلال على الفرات غير بعيد عن آثار بابل. وكانت الخطوط التركية آنئذٍ عند الرَّمادي.

لدى بلوغه النبأ، انطلق وليَمسون مع اثنين من رجاله للقبض على الجاسوسين. وعندما دخل إلى المخيم ممتطياً فرسه آخر المساء، خرج الشيخ لاستقباله - سيد كهل يرتدي عمامة خضراء يلبسها أحفاد الرسول - وبعد تحيات المجاملة الاعتيادية، جلسا وقام الحاج بالإفصاح عن طلبه.

«لقد جئت لاعتقال ضابطين تركيين مطلوبين للتجسس».

قال السيد: «إنهما هنا، ولكن عشيرتي ستقتلك إذا حاولت أخذهما. أنت واحد منا، يا حاج عبد الله، وأنت تعلم جيداً أنه من الإهانة أن تطلب مني تسليمهما إليك».

أدرك وليَمسون الوضع تماماً. فكل من هذين التركيين كان ضيفه وبالتالي دخيلاً ذا حرمة لا يمكن هتكها. كان هذا محرجاً، وحاول التغلب على الظرف بالحوار المنطقي. علق وليَمسون: «هناك أوقات، يا سيد، يجب عندها وضع الشرف - حتى شرف حسن الضيافة العربية - جانباً. ما يجب علي أن أفعله هو من أجل أمن البلاد. وهذا شرعي في هذه الظروف».

أجاب السيد بحدة: «ليس هناك مثل هذا القانون، نحن بالشرف ملزمون بحمل أنفسنا على الموت، الواحد والجميع، قبل أن نسمح لوجوهنا بأن تسوَدّ بتسليم أي ضيف».

نهض وليَمسون قائلاً: «ائذن لي بالتحدث مع هذين الضيفين التركيين».

أجاب السيد: «يمكنك فعل ذلك، سوف نذهب إليهما».

انتقلوا إلى الخيمة الكبيرة المصنوعة من جلد الماعز حيث كان التركيان يستريحان. كان الأعلى رتبة بين الاثنين النقيب فهمي، كما عرف وليَمسون، فوجه الخطاب له.

قال بالعربية: «اسمع كلامي، يا فهمي، أنا من سلك الاستخبارات البريطانية، وفي قبضتنا قريب لك وهو بانتظار المحاكمة في بغداد. وقد جئت لاعتقالك ورفيقك هذا أيضاً بتهمة التجسس».

أجاب فهمي: «لا تستطيع فعل ذلك، فقد استجرنا بهؤلاء القوم وفق شرائع قبائل العرب».

«في زمن الحرب هناك شرائع أخرى»، قال وليَمسون بجفاء. «أنتم في ورطة خطيرة، وتجازفون بتعريض هؤلاء الرجال إلى مصاعب خطيرة أيضاً. لا يعترف البريطانيون بالدّخيل عندما يهدّد جواسيس مصالحهم العسكرية. نصيحتي لك هي أن تستسلم أنت ورفيقك وتسلما نفسيكما كسجناء حرب. وبهذه الطريقة ستحافظ على ماء وجه هذا السيد الفاضل، مضيفك. وإلا، سوف يكون عرضة لعقوبة قاسية لإيوائكما، وباستسلامكما الطوعي ستنجيانه من العقوبة».

قال فهمي: «لكن إذا استسلمنا فإننا بذلك نخرج إلى موتنا المحقق».

«غادرا خيام هذا السيد»، شدّد وليَمسون. «وإذا فعلتما ذلك بدون متاعب، سوف أبذل كل ما لدي من نفوذ لأنقذ كليكما من فرقة الإعدام».

في هذه اللحظة الحاسمة اندفع أحد أبناء السيد إلى الخيمة. وتبعه عدد من رجال القبيلة لكنهم بقوا خارج البيت. انتشرت الأخبار عما كان يجري في أرجاء المخيم وحملت الشحناء المثارة نذير شؤم لعملاء الاستخبارات الذين جازفوا بأنفسهم بالذهاب إلى هناك.

كان ابن السيّد يستشيط غيظاً بسبب الإساءة للأعراف العريقة في حسن الضيافة. واجه وليَمسون وهدده بالقتل، وهو يرتجف في ثورة غضبه. وفقاً لعرفه، كان هذا عدلاً بما فيه الكفاية ذلك أن العملاء الوافدين من بغداد لم يقبلوا كضيوف. فوق ذلك، عزم على تنفيذ التهديد في الحال فاستلّ خنجره ذا النصل العريض من غمده. وعندها، ظلّت يده مشلولة إذ ظهر مسدس الخدمة في قبضة وليَمسون وكأنه أُتي به إلى هناك بطرفة عين من قبل جني خيِّر. قال الحاج: «اجلس والتزم الصمت».

نزع الخنجر من يد الشاب وأعطاه إلى السيد. همد الولد على فراش مغطى بجلد ابن آوى، وبقي مروعاً وعاجزاً عن الكلام وهو ينظر إلى فوهة المسدس الثابتة.

بإيماءة بائسة، أبدى السيّد ملاحظة إلى ضيفيه التركيين: «هل في نيتكما أن تستسلما؟ أنا أعرف هذا الرجل عبد الله فضل. لقد هدّد ابني بقتله. كان ذلك حديثاً كريهاً. لقد فعل ذلك ليحميكما، وأنا الآن أخشى على حياته. هذا الرجل يَعتبر أن من واجبه أخذكما من خيامنا. أنا لا أقول إنه يجب عليكما الذهاب. القرار لكما. إذا ذهبتما معه بإرادتكما، سوف أدعو الله لكما أن يبسط رحمته عليكما، لأنه بذهابكما ستجنّب الكثير من إراقة الدّماء».

ناقش النقيب فهمي الوضع مع زميله همساً. وفي النهاية أعلنا: «نحن موافقان»، فتنفس العرب الصعداء. تفرّق رجال القبيلة عن مقدمة الخيمة المفتوحة لإطلاع

الآخرين على القرار. كان سيتبع ذلك نقاشات حول صحة ذلك الترتيب، تنبأ وليَمسون بهذا فطلب من السيّد أن يُعِد له أربعة أفراس وأن يلاقي رجاله في مكان محدّد بالقرب من المخيم. على أن يبقى الولد رهينة ويرافق التركيين عندما يتم أخذهما.

بعد مضي برهة كافية من الوقت، غادر وليَمسون والتركيان وابن السيّد من خلال فتحة خلف الخيمة. قادهم الطريق إلى ما وراء خيام النساء حيث لا يقترب أحد من الرجال إلى هناك، وزحفت المجموعة بصمت بعيداً تحت جُنح الظلام. عشر دقائق خلت وكان الجميع على السّروج منطلقين إلى الشمال بعيداً عن هلال.

أخيراً نادى الحاج وليَمسون للوقوف.

«اسمع كلماتي يا فهمي»، قال للنقيب التركي. «لقد وعدتكم في خيمة السيّد باستخدام نفوذي لإنقاذ كليكما من فرقة الإعدام. لكن المزاج العام في بغداد في الوقت الراهن على نحو أشك فيه أن أي شيء أقوله سيكون له أي أثر. وإذا حُكم عليكما بالإعدام سيؤرق ذلك ضميري. بناءً عليه، أنا مستعد لأن أطلق سراحكما بشرط أن تقسما أغلظ الأيمان المقدسة للمسلم ألا تعبرا أبداً إلى أراضٍ تحت سيطرة البريطانيين بغرض التجسس».

أقسم الضابطان المتنكران اليمين فأرسلهما وليَمسون مشياً على الأقدام بحيث يمكنهما أن يتوقعا بشكل معقول أن يعودا إلى الخطوط التركية. كانت نهاية مرضية للقصة من وجهة نظر السيّد وابنه اللذين عادا إلى المخيم بمزاج راضٍ. أعطى التقرير المكتوب عن القضية وليَمسون حيزاً من العبقرية، واستُقبلت عودته صفر اليدين إلى مركز القيادة ببرود. لم يندم على قراره الإنساني، فقد استسلم التركيان لأجل إنقاذ رجال القبيلة العرب من تحمّل الجزاء. ولذلك السبب، وفق نظام وليَمسون، استحقا فرصة النجاة.

* * *

الفصل الثلاثون

مأدبة عيون الغنم

أثّرت الخدمة في الحرب العالمية الأولى مادياً على حياة الحاج وليّمون بعد الهدنة. تم تحقيق النصر، ولقد أدّى ما عليه دون أن تسلط أضواء الشهرة على نشاطاته. وفيما عدا عمله المضاد للجاسوسية، أمضى أوقاتاً في الصحراء مع قبائل البدو، ليبقيها إلى جانب الحلفاء لأطول قدر ممكن، وقام بتنظيم مجموعات إغارة ضد الأتراك وقاد بنفسه غارات ناجحة. سمع أحدهم تعليقات في الأوساط الرفيعة بعد الحرب، أن معرفته الفريدة، التي استُثمرت بمهارة وجسارة، كانت لا تقدّر بثمن للسلطات العسكرية البريطانية. لم يكن راغباً بأيّة أوسمة ونأى بنفسه عن الظهور والشهرة. وممّا لم يشكّ فيه أحد أنه شارك في مغامرات استثنائية كثيرة وكان الأمين لكثير من الأسرار. ولو أعطي القدرة والميل في سنة 1919 لكتابة تاريخه الداخلي الخاص لحملة بلاد ما بين النهرين، لما أخفق العمل في إبداء عناصر الأهمية المترابطة مع التاريخ الذي دوّنه لورنس حول الثورة العربيّة[1].

قادت خدمته في الاستخبارات السرية في عام 1919 إلى منصب سخي الراتب كمساعد ومعاون لجامع الرّسوم الجمركية. وقد فرضت الحرب بالضرورة بعض القيود على طبيعته البدوية، لكن لم يتسنَّ أبداً اكتشاف قدرته على التكيف بشكل

---

(1) وذلك في كتابيه الشهيرين: أعمدة الحكمة السبعة *Seven Pillars of Wisdom* وثورة في الصّحراء *A Revolt in the Desert*. ولقد أنجزتُ ترجمة الثاني وسأعدّه للنشر قريباً في هذه السلسلة، ثم يليه الآخر إن شاء الله.

مذهـل أكثـر من خـلال عمله بعـد الحرب في طبقـة الموظفيـن. فالمتجـول الحرّ في الفضاءات الواسعة العريضة، صفدته رزمة الأجر الشهري، فتشبث بسلاسل الحضارة المدنيـة حتى تضافرت الأحداث الوطنية على كسـرها. تلـك الكلمة المباركة «بلاد ما بين النهرين» خرجت من التداول. لقد أصبحت البلاد اليوم تُدعى «العراق» ويحكمها الملـك المدعوم بريطانيـاً، أي الملك فيصل، الذي جاء من نجد وكان غريباً عن عرب العراق كالإيطالي بالنسبة للفرنسيين. وليس قبل مضي وقت طويل - في 1922 - أصبح وليَمسون والكثير من الموظفين البريطانيين «فائضاً على مؤسسة الدولة»، وسرعان ما تم استبدالهم بعراقيين.

لقـد كان سـعيداً بأخذ عائلته إلى الصحـراء وبالعودة إلى الحيـاة البدوية حتى حين كان هنـاك الكثيـر من الاعتبـارات ضد إعادة توطيد نفسـه في تجـارة الخيل والإبـل أو في نقل الشـحنات في الخليج العربي. لقد كانت المهنتان كلتاهما خطيرتين ولا تناسـبان رجلاً في الخمسين من عمره تواقاً لأن يمنح أبناءه تعليماً جيداً والفرصة لاستغلال الظروف الجديدة في بلد تخلّص من سـوء الحكم التركي. لقد كان نمط الحياة البدوية صحّياً ومكّن الأولاد مـن أن يألفوا تمامـاً العادات واللغة العربية. كمـا أرادهم أيضاً أن يتعلمـوا اللغة الإنكليزية ومـواد أخرى تدرَّس فـي أفضل مدارس البصـرة، ويمكنهم لاحقاً أن يقرّروا بأنفسـهم أمر مستقبلهم. وحتى يؤدّي واجبه تجاه عائلته، كان من الضروري أن يكسـب أجراً ثابتاً وكافياً، فجاءته فرصة سانحة من الدرجة الأولى بعد عامين من تركه العمل في الجمارك.

حدث ذلك من خلال اتصالات مفيدة أجراها مع مواطنين بريطانيـين خلال الحرب وبعدهـا بقليـل. صديـق في أيـام الحرب أكـنّ له عظيـم الاحترام، كان ذاك الشـخص الجدير بالاحترام أرنولد ويلسـون - اللفتنانت كولونيل (المقدّم) السـير أرنولد تالبوت ويلسـون Sir Arnold Talbot Wilson - الذي كان المفوّض المدني بالوكالة والمندوب السـامي السياسـي فـي الخليج العربي مـن عام 1918 إلـى 1920. بعد عـام من التخلي عن هذا المنصب، التحق بشـركة أنكلـو پرجان النفطية[1] وأصبح لاحقـاً المدير العام

(1) بالإنكليزية: Anglo-Persian Oil Company شـركة النفط الإنكليزية الفارسـية.

التضامني في عبادان لعدة سنوات؛ بعدئذٍ انتقل إلى المركز الرئيسي في لندن وبقي هناك حتى تقاعده في 1932. بشكل عرضي، قام بتأليف كتب كثيرة، ورغم كونه في الخامسة والخمسين من عمره في عام 1939، فقد التحق بالاحتياط التطوعي للقوى الجوية الملكية كمدفعي جوّي، وقد قتل في المعركة في مايو 1940.

بقي أرنولد ويلسون، بعد الحملة على بلاد الرافدين، على اتصال مع الحاج وليَمسون، معتقداً أن معرفته الفريدة في الصحراء وقبائل الخليج والأحوال ربما مازالت ذات نفع للمصالح البريطانية. وقد ضغط عليه بشدة في إحدى الفترات لكتابة مغامراته، لدرجة أن الرّحالة الهرم بدأ بجمع ملاحظاته عن سيرته المفعمة بالمغامرات. فقدها بعد ذلك بحريق شب في الخيمة، وبِعبارة: «الحمد لله إنها قسمة» هجر أيّة فكرة للعمل من جديد في ذلك الاتجاه.

علاقتان أخريان مفيدتان كانتا الأدميرال سلَيد Slade والسيد كادمان Cadman – فيما بعد اللورد كادمان، رئيس مجلس إدارة شركة أنكلو إيرانيان النفطية – الذي وصل إلى الكويت عقب الحرب مباشرة لزيارة الشيخ. لكن أرنولد ويلسون هو الذي، في عام 1924، أرسل وراء وليَمسون وعينه مفتشاً على وكلاء الخليج لحساب الشركة. دامت هذه الوظيفة لمدة ثلاث عشرة سنة حتى عام 1937 عندما بلغ سن التقاعد في الخامسة والستين، فمنحته الشركة راتباً تقاعدياً سخياً. كان عمله خلال تلك الفترة يشمل تأسيس وكالات بيع للنفط ومستودعات، ومعاينة الموجودة سابقاً في أراضي الخليج المتعددة بغرض ضبط المخزون والسيولة، ونقل التعليمات من المركز الرئيسي في عبادان. نتيجة لتجاربه المتنوعة وقابليته الميكانيكية كان قادراً على الإشراف على إنشاء المستودعات والخزانات الصغيرة وتركيبات أخرى طبقاً للمخططات والمواصفات. تم تخصيص بيت ريفي له ولعائلته في عبادان، لكنه لم يعش حياة منزلية نظامية هناك. لقد كان يمضي معظم وقته على الجانب العربي من الخليج، وكانت زياراته للوكالات الفارسية محدودة نسبياً.

قد يبدو ذلك كلّه مملاً. ولكن من خلال الممارسة، كان بعيداً كل البعد عن ذلك.

كانت حياة ذات تنوّع كبير ومنحته فرصاً سارة لتجديد صداقاته في أماكن صغيرة وكثيرة على شاطئي الخليج. كان يسافر بواسطة الناقلات، والزوارق السريعة والدّاو، وكان في أحايين كثيرة يتحوّل إلى استعمال الخيل أو الإبل. وفي بعض المناسبات، عندما يُستدعى فجأة إلى عبادان، كان يتسنّى له ركوب الطائرة. كان يرافقه في بعض الأحيان فرد بريطاني أو أكثر من موظفي الشركة النفطية في هذه الرحلات القصيرة. كانوا بشكل دائم يندهشون بالترحاب الذي يلقاه الحاج من رجال القبائل بشتى فئاتهم والراحة التي كان يشعر فيها كأنه في بيته فيما بينهم. وقد قيل على سبيل المزاح - وصدّقت بعض الجهات ذلك - إن الحاج وليَمسون كان قريباً لنصف المجتمعات العربية على طول ساحل البحر وأنه نفسه ساهم بزيادة عدد السكان.

الحجّي وليمـــون، وكيل شركة النفط الأنكلو إيرانية في الخليج

لـم تكن خدماته لشـركة أنكلو إيرانيان النفطية (التي عُرفت حتى عام 1935 بشـركة أنكلو پرجان النفطية) محدودة بعمل مندوب المبيعات المذكور آنفاً. في الوقت الذي بـدأت فيه جزيـرة العرب تعتبر أرضاً ذات إمكانيات وافرة لإنتاج النفط، برهن أنه دليل لا يقدّر بثمن وحام لمجموعات التنقيب، وكان عوناً نافعاً في المفاوضات مع الحكّام المحليين والشيوخ من أجل الامتيازات النفطية.

بمبـادرة شـخصية قام بمســح جزيرتي حالـول Halul وداس Das وجـزر أخرى في الخليـج. وقـد تحطمـت السـفينة ذات مرة وألقـي به على سـاحل جزيـرة صغيرة غير مأهولة، فكان ما أبقاه على قيد الحياة صيد الأسـماك الصغيرة بواسـطة عباءته العربية. وجـده قطاع الطرق فـي المناطق النائية من فارس زبوناً قوي الشـكيمة صلباً واحترموا خبرتـه في التعامل مع المسـدس. لم يرقَ العديد من هـذه التجارب إلى كونها أكثر من مصدر إزعاج بتقدير وليَمسون، ولكنه اهتم بشكل كبير باختراق المناطق الحصرية في جزيرة العرب مثل بعض الأجزاء غير المكتشفة والخطرة من عُمان.

بعد عدة أشـهر من الالتحاق بشـركة النفط، ذهب وليَمسـون إلى البحرين للاجتماع بخبراء من عبادان الذين كان عليهم اسـتقصاء الإمكانيات في شبه جزيرة قطر. وحتى يصلـوا الدّوحة التي تقع على الجانب الشـرقي من قطر، قام باسـتئجار وتموين قارب سـريع بحمولـة 35 طنـاً. في تمام السـاعة الحادية عشـرة، انضم إليهـم كضيف ضابط بريطانـي شـاب من الفـوج الهندي المرابط في الجـزر. كان الكاپتن (النقيب) الشـاب سـميث قـد قضى ثلاث سـنوات فـي مقاطعـة البنجاب وفـي بومباي، ويعـرف بعض الأشياء عن الهنود. لم يمضِ عليه أكثر من ثلاثة أشـهر في جزيرة العرب ولكن ذلك لم يمنعه من التحدث بثقة مماثلة عن العرب. استمتع وليَمسـون بالاستماع إليه بمظهر من الاحترام المبالغ فيه.

أحبط الطقـس السـيء رحلـة كانت مقترحة إلـى جزيرة حالـول Halul. وهروباً من خطر الغرق، أسـرع القارب يسـابق الريح والتمس ملاذاً في النهاية على طول الشاطئ. كم كان الجميع سـعداء لما وطئت أقدامهم شـاطئ الدوحة، عاصمة قطر، المحكومة

آنئذٍ من الشيخ عبد الله آل ثاني. لم تكذّب البلدة مقولة پالغريف Palgrave بوصفها «عاصمة متواضعة لمقاطعة متواضعة». لقد وجد وليمسون أنها مثيرة للاهتمام أكثر مما وجدها باقي أفراد المجموعة، ولكن حسب رأي رفاق قدامى في المقهى، لم يعد المكان مزدهراً جداً كما كان وقت زيارة پالغريف.

حلّ الصحب ضيوفاً على جابي الجمارك المحلي، وهو عربي من لنجَه، فقام بإرسال رسول إلى الشيخ الذي ضرب خيامه في مكان على بعد ثلاثين ميلاً في البر. كان هذا العربي قد أقنع الحاكم بشراء عدد من السيارات والشاحنات العسكرية القديمة من طراز فورد وتحسين الطرق الداخلية. لم يواجه وليمسون أيّة صعوبة باستئجار بعض هذه الناقلات، وتقدّم الجمع أولاً إلى الريّان على بعد اثنى عشر ميلاً من الدوحة، حيث تقع بساتين الشيخ من أشجار النخيل واللوز. كانت المياه الحلوة، القريبة من السطح بشكل ملائم، تُرفع من أجل الري بواسطة القرّاد *karrad* وهي رافعة مياه بدائية من الحبال والدلاء من جلد الماعز، يسيّرها حمار يهبط إلى أسفل منحدر ثم يصعد ثانية. مازال هذا الأسلوب القديم قدم الزمن دارجاً في أجزاء كثيرة من الشرق الأوسط، حيث تستخدم الحمير أو الثيران المخصية إن لم تكن الآبار عميقة، والجمال إذا كانت المياه على عمق أكثر من ثلاثين قدماً تحت سطح الأرض.

كان يحيط بالآبار في الريّان أشجار من اللوز والكرز الأسود البري. في الظل اللطيف للأشجار، كان الفلاح يسوق سربة من الحمير، وامتزجت أغنيته المتكررة مع الصّرير الخفيض للعجلات الخشبية أثناء تدوير الحبال لها. لقد كان مشهداً توراتياً[1] ذا سحر صامت عمره أربع آلاف سنة كأنه أتي به من مسرح برودواي. في عهد الشيخ الأب، جاسم الثاني، تم تدمير بساتين في بعض أجزاء من قطر لأن أحدهم أخبره أن الكوليرا والطاعون الدبلي والجدري المستوطنة في الهند، كان سببها كميات الخضرة الكثيرة في تلك البلاد. وعليه أصدر جاسم قانوناً يقضي بتدمير البساتين القائمة وعدم

---

(1) يرد التعبير بالإنكليزية: It was a biblical scene، وهو تعبير شائع لدى الكتّاب الإنكليز يستخدم لوصف المشاهد التي تذكّر بالماضي القديم، حتى لو لم يكن له صلة بالتوراة.

زرع أخرى. وقد ألغي هذا القانون من قبل الشيخ عبد الله الأكثر تنوّراً بعد وفاة والده. لكن مازال وليَمسون يجد الكثير من العرب في قطر الذين يعتقدون أن ذلك كان يفتح الطريق أمام المرض.

وصل أحد أبناء الشيخ، وهو فتى يدعى أحمد، إلى الريّان مع جمال ركوب لمرافقة المجموعة الزائرة من الأصحاب إلى المكان الذي نصب فيه والده وعدة مرافقين من أبناء القبيلة خيامهم للرماية والصيد بواسطة الصقور. توجب إيقاف السيارات ذلك أنه لا يمكن قطع باقي الطريق إلا بالجمال أو الحمير. في الواقع، استغرق المسير في الأراضي الوعرة غالبيّة اليوم، وقد أتى آخر النهار قبل وصول المسافرين إلى مخيم الشيخ عبد الله.

بعد إلقاء التحية على الشيخ، أُخذ الجمع إلى خيام كانت قد أُعدّت لهم. توضؤوا، ثم وصل الخدم عقب المغرب بقليل مع أطباق من جبن الماعز والتمر. من الواضح أنه لم يكن هناك وقت كافٍ لجلب وتحضير وليمة مثل التي ذاع صيت الشيخ بتقديمها لضيوفه. كان الطعام المقدّم مخيباً للآمال، فقد كان الجميع جائعين بعد الركوب الطويل من الريّان وكانوا متلهفين لدعوتهم إلى حصير من سعف النخيل الدائرية بدلاً من الطاولة.

بعد بعض التأخر جاء خادمان آخران يحملان طبقاً عليه كومة من الأرز. جعلت رائحته الشهية لعاب وليَمسون يسيل. عندئذٍ، وزيادة في قنوطه، تعثر أحد العرب بحبل الخيمة، فمال الطبق واندلقت معظم الكومة على الأرض الرملية. بشكل فطري، أشار إلى رفاقه بالتظاهر بعدم الملاحظة. كانت الأخلاق الحميدة للأخوة العربية مطبوعة فيه، ولكن تم استعراضها في هذه الحالة بشكل خاطئ. قام الخدم الذين افترضوا أن أحداً لم يرَهم بتعديل وضع الطبق المقلوب في عجالة وجرفوا معظم الطعام إلى الطبق بأيديهم.

بالطبع، كانت محاولة الأكل من الكومة أمراً ميؤوساً منه بسبب الرمل الذي فيها، وبالتالي تناول وليَمسون وأصدقاؤه وجبة من الأطباق الجانبية. لما شارفوا على الانتهاء جاء أعرابي وترجّى الحاج أن يأتي معه فوراً لينقذ كبير الخدم. كان الشيخ عبد الله قد اكتشف أمر العمل الأخرق الذي حدث، فأمر بجلد كبير الخدم جلداً مبرحاً بسبب تقديم

الطعام الملوث بالتراب للضيوف. أسرع وليَمسون إلى خيمة الشيخ وقاطع اعتذارات عبد الله بوضع اللوم على نفسه. قال: «يا شيخ عبد الله، الذنب ذنبي، لقد كنا جائعين جداً فأصررت على تقديم الطعام بدلاً من الانتظار حتى يتم طبخ وجبة غيرها».

بدوره كمترجم، كان بجعبة الحاج وليَمسون الكثير من الأسئلة لتطرح على الشيخ بالنيابة عن الرجال من عبادان. كان ذلك يحتاج إلى وقت، فوافق كامل الفريق على قبول الدعوة للبقاء في المعسكر عدة أيام. كان النقيب سميث على الأخص سعيداً بتمديد الإقامة، وقد أخذت بلبّه إمكانية ركوب الخيل والصيد بالصقور مع رجال القبيلة. بقي الشيخ عبد الله في المخيم في اليوم الذي تلا وصولهم، وقد شابَ تعامله مسحة من الاعتذار فأدرك وليَمسون أن السبب وراء ذلك كان الكدر الباقي من تصرفات الخدم السيئة في المساء السابق. غير أنه جعل من المعلوم للجميع أن الأمر سيُسوّى بتحضير مأدبة تليق بشهرة حسن الضيافة عند القبيلة.

اقتيدت الخرفان داخلاً من قبل البدو ثم قاموا بذبحها من أجل وجبة المساء. وعندما عاد النقيب سميث من نزهة على جواد مطهم عربي، شرح له وليَمسون طبيعة التحضيرات. لدهشته قال النقيب: «يا إلهي! هل قاموا بقتل كل ذلك الغنم لأجلنا؟ سيكون ذلك فظيعاً».

«لماذا؟ ألا تحب لحم الضأن؟».

«أحب الضأن المشوي أو المسلوق – مقدماً بشكل جيد. لا أحب الطريقة التي يقدم فيها هؤلاء الرجال الطعام. فهم يقدّمون الخروف بالكامل، وينتظرون منك أن تأكل العيون وكل شيء».

«إن الشيخ يبدي مجاملته لنا بعرضه السخي للطعام»، علق وليَمسون. «ولا حاجة لأن تأكل عيون الغنم».

نفض النقيب الشاب الغبار عن سرواله المعد لركوب الخيل، ثم قال: «لن تستطيع خداعي بتلك القصة، يا حاج، كل من كان بين العرب أو قرأ عنهم يعلم تماماً أن عيون

الغنم هي قطعة الحلوى الرئيسية وفق آرائهم[1]. وإذا كنت ضيفاً وعرض عليك الشيخ عين خروف، وجب عليك أكلها بكل تأكيد. هذه هي طريقته بتكريمك وتشريفك - وإنه لخلق سيء مذموم أن لا تقبل هذا الشيء القذر».

لقد اعتبر وليَمون أنه من الحكمة أن يضفي قليلاً من الإرشاد على قواعد التشريفات، فأعدّ العدة لذلك.

سأل وهو يتبسم: «من لقنك هذه القصة؟ كل هذا هُراء. على كل حال، لا حاجة لأن تزعج نفسك بشأن حضور الوليمة، ولا يتوقع أحد منك أن تأكل عيون الغنم».

«أنت تقول ذلك فقط لتؤكد على وجودي هناك»، ردّ سميث. «لا داعي للقلق يا شيخ. لن أخيب ظن الفريق. ولكنك تعلم تمام العلم أن هؤلاء الرجال العرب يستطيبون عيون الغنم ويقدّمونها لضيوفهم، ذلك شيء معروف».

من الواضح أنه قد حصل على هذه المعلومة الخاطئة من مصدر يعتبره لا يرقى إليه الشك. وبالرغم من أن أسلوبه الدّعي بمعرفة كل شيء يمنح وليَمون مقداراً من التسلية، فإن الحاج، بتجربة خمس وثلاثين سنة مع العرب، شعر الآن بشيء من الغيظ بسبب مكابرته.

«حسناً أيها النقيب»، قالها بابتسامة ملطفة، «أؤكد لك، لن يستطيع أحد أن يسحب صوف الغنم على عينيك ليحجب عنك الحقيقة».

بعد قليل، ذهب لزيارة الشيخ عبد الله في خيمته وبقي هناك ليدخن النرجيلة معه. حوّل الحديث إلى البريطانيين الذين جاءوا إلى قطر، وسمح لنفسه بالكثير من الترخص في وصف وضع النقيب سميث. هذا الضابط الإفرنجي، كما أخبر الشيخ، كان لورداً نبيل المولد في موطنه وقد اعتاد أن يستضاف كضيف الشرف. تأثر الشيخ ووافق على أن مثل هذه الشخصية الرفيعة يجب أن تتبوأ مكان ضيف الشرف في الوليمة القادمة. هل للورد

(1) الواقع أنّ عامّة الإنكليز لديهم هذه القناعة، وكنت أنا شخصياً أُسأل في كامبردج هذا السؤال مراراً: أصحيح أنكم أيها العرب تأكلون عيون الخرفان؟

الأجنبي أي شـراب أو حلوى مفضلة؟ أجاب وليّمـسـون أن اللورد مولع بالتمور المحشـية بالفستق الحلبي. وكذلك يعتبر أن العيون هي الأجزاء الغضة في الخروف.

«سوف آخذ هذه الأمور بعين الاعتبار»، قال الشيخ. «والله، إن لهذا اللورد الإفرنجي ذوقاً شاذاً!».

فـي ذلك المسـاء، استقبل العرب ضيوفهـم البريطانيين في الخيمـة الكبيرة. وكان العبيـد جاهزين بجرارهم لصبّ الماء على أيديهم. أحضر رتل من الخدم أطباق الأرز والخضـار وخبز الشـاپاتي chapattis وجبـن الغنم وتموراً منتقاة وحلـوى وأباريق من شراب زهري وأخضر. ظهر بدو جسام، أربعة في كل مرة، يحمل كل رباعي طبقاً هائلاً فيه خروف كامل مشـوي. تم وضع اثني عشـر طبقاً على حصير السّـعف - اثني عشـر خروفاً كاملاً، إنه طعام كافٍ لمأدبة من ست جلسـات.

ضرب الشيخ عبد الله مثالاً بنفسه ورفع أكمام عباءته عالياً فوق مرفقه الأيمن. فعل وليّمسون مثله وأرسل إيماءة بسيطة إلى النقيب سميث وهو جالس بالقرب من الشيخ، وهو غير عارف أنه يتبوأ موقع ضيف الشـرف في عيون العرب. فك اللورد أزرار سترة التدريب وكفّ كمّه اليـمين استعداداً للوقعة.

تمهّل الجميع هنيهة، وسادت نظرة ترقّب على وجوه العرب. غرس الشيخ عبد الله قبضته في رأس الخروف المشـوي الأقرب إليه ثم نزع العين بانتصار وناولها وهي بين أصابعـه وإبهامـه إلى الضيف الرئيـس. ألقى النقيب نظرة جانبية تعنـي «لقد قلت لك» باتجـاه الحاج، وقبل العرض بابتسـامة مصطنعة من الامتنـان. غمغم العرب بإعجاب لمّا صدر صوت ازدراد مدوّ وابتلاع العين كأنها محار.

كان إصدار أصوات فظة مختلفة أثناء الأكل يعد من الدماثة عند العرب. ودرجة الحيوية التي كانت تصدر فيها تلك الأصوات إن دلت على شيء فهي تدل على مدى تقدير الضيـف للوقعة. كان الحاج وليّمـسون مصيباً في هذا الشكل من الكياسة، والنقيب سميث الذي كان يعرف دون أن يقول له أحد ماذا يتوقع في الوليمة العربية، تصرّف بحماس إلى حدّ ربما هزّ

كيان عقيده عالي التربية إلى العظم. غير أن استمتاعه بالمأدبة أُفسد عندما، وبعد أن تناول اللحم والأرز بحرية بيده اليمنى، قدم له الشيخ العين الأخرى للخروف. وبقي يُمنح شرفاً مشابهاً على نحو متقطّع حتى جُرّد خروفان آخران من عيونهما[1].

أطلقت الشمس الغائبة إنارة ملتهبة في الخيمة الطويلة المفتوحة حيث كان العرب والضيوف منهمكين بالطعام، مخصصين القليل من الوقت للكلام. انعكست أشعتها بلمعان ضارب إلى الحمرة من عيون الخرفان المشوية الباقية، وتلقّى النقيب التحديق المروّع بفزع متفاقم.

«لماذا لا يعطي هؤلاء الرجال الآخرين بعض العيون؟». دندن من طرف فمه.

ابتسم الحاج وليَمسون قائلاً: «أنت في اللباس الرسمي، ويعتبرك الشيخ من ذوي الرتب العليا، وحسب العرف - كما تعلم طبعاً - فانه يدّخر الشرف لك».

تأوّه سميث.

«حسنٌ، لقد عرفت ما أتوقع. أخبره أيها العجوز، أنني بقدر ما أقدّر لطفه، أود أن ينال هؤلاء الرجال الآخرين معنا حصة عادلة».

همس وليَمسون خافتاً: «قد تسيء لمضيفنا الكريم، إذا قيلت بتلك الطريقة. وأنت لا تحتاج إلى من يخبرك بأي شيء عن طباع العرب». توقف عن الكلام لأن الشيخ كان يتمدّد فوق الأطباق الملوثة بالدهن لينتزع عيناً أخرى للورد الإفرنجي ذي الشهية الغريبة. قبلها النقيب الشهم بوقار على نحو يضيف مصداقية على حسن تربيته، لكنه استطاع بخفة يد متقنة أن يسلها أسفل قميصه الخاكي بدلاً من حلقه.

قال وليَمسون: «دع هذا الأمر لي، أنا سأرتبه».

استدار باتجاه الشيخ عبد الله وقال: «إن اللورد مبتهج جداً بحسن ضيافتك. لم يذق أبداً مثل تلك العيون الريّانة. وهو يأمل لو أنه بالإمكان الاحتفاظ بباقي العيون

(1) يا للكابتن سميث تعيس الحظ.. ويا لها من حيلة فظيعة من قبل وليَمسون الماكر.

حتى يستمتع بها كوجبة أخيرة خفيفة قبل النوم».

«ليكن ذلك، أيها الصديق»، قال الشيخ متهللاً. «نحن لا نفهم هذا النهم الشديد لعيون الغنم، ولكن دماثة اللورد الإفرنجي بادية، مثل الشمس، يراها الجميع».

بعد برهة من الزمن، انتهت الوجبة وتم إزاحة أطباق الطعام لتجهيز وليمة أخرى لخدم المخيّم، وبقيت المجموعة المتخمة في حالة شبه سبات. أشعلت النراجيل والسجائر وصُبّت القهوة، ولكن لم تكن المحادثة بنشاطها المعتاد. نظر الضيوف الممتلئون باستجداء إلى الحاج وليَمسون الذي أثنى على الشيخ بالعربية واستماحه عذراً بالانسحاب إلى الخيام. بضع دقائق خلت ثم لحق بأصحابه البريطانيين من المقعد *mukaad* وأخذ يشاهدهم وهم يتهادون تحت النجوم الوامضة في طريقهم إلى النوم. برز خادم عربي وهو يحمل طبقاً مغطى بأشرطة من سعف النحيل بينما همّ النقيب بإشعال شمعته. «ما هذا؟»، سأل النقيب بصوت أجش. قال الرجل شيئاً بالعربية ثم رفع السعف. أشعل النقيب عوداً من الثقاب وانحنى إلى الأمام حاملاً الشعلة ليرى ما كان في الطبق. سبع عشرة عين غنم، تومض بتقطع مع انعكاس الضوء وتحدّق فيه بأسى.

صدرت ضحكة خامدة عن الحاج وليَمسون الذي كان قريباً منه، وعندها حزر أنه كان ضحية لمقلب مضحك. «اخرج من هنا!»، صاح وهو يستشيط غضباً، مما جعل العربي يدور حول نفسه، «وخذ تلك العيون اللعينة معك!».

اتفق خدم المخيم على أن الله فقط هو من يمكنه فهم طرق الفرنجة الإنكليز. غادر وليَمسون وجماعته مع مرافقة من قبل الشيخ عبد الله آل ثاني بعد عدة أيام من الاسترخاء، للقيام بمسح موسع على شبه جزيرة قطر. بعد أكثر من عشر سنوات، تم الحصول على امتيازات نفطية في هذا الجزء من جزيرة العرب، حيث وُجد أنها تحوي حقولاً نفطية شاسعة.

* * *

الفصل الحادي والثلاثون

في براري عُمان

في أواخر نوفمبر من عام 1925، تقدمت حاملة نفط صغيرة، هي السفينة خوزستان S.S. *Khuzistan*، جنوباً عبر الخليج العربي متجهة إلى الشارقة على ساحل الهدنة Trucial Coast العُماني. كانت تابعة لشركة Tanker البريطانية، فرع من شركة أنكلو إيرانيان النفطية، وكانت تحمل أفراداً من فرع أخر يهتم بشؤون أخرى، شركة دارسي D'Arcy للاستكشاف. تألف الركاب من عالمي الجيولوجيا السيد ج. م. ليز G. M. Lees والسيد واشنطن غراي Washington Grey، وعالم النبات السيد فرنانديز Fernandez، والدليل والمترجم الحاج عبد الله فضل وليَمسون. كان الغرض من الرحلة إلى جنوب شرق جزيرة العرب استكشاف أجزاء من عُمان لا يُعرف عنها سوى القليل والقيام بمسح أولي بحثاً عن مؤشرات لطبقات حاوية على النفط.

في الشارقة، أقلوا خان بهادور عيسى العميل السياسي، ومن ثَم تقدمت المجموعة المُزادة إلى رأس الخيمة. كان هذا المكان مشهوراً على طول الساحل في ذلك الوقت لأن السيارة الوحيدة في ساحل عُمان كان يمكن رؤيتها هناك. حثّ الأصدقاء العرب وليَمسون لتفقد هذا الشيء العجيب مباشرة عندما حطّت قدماه على الأرض. كانت سيارة فورد قديمة - خردة بالية تستخدم من قبل الجنود البريطانيين في بلاد ما بين النهرين، وقد استُبدلت إحدى عجلاتها بقطعة من حبل سفينة. أصر المالك العربي الذي اشتراها بدافع من الفضول، على قيادتها لمسافة قصيرة. وعندما أظهر وليَمسون بوضوح نفوره من سيرها الراجف، قال العربي مازحاً: «ولكن لا أحد يستطيع أن ينكر

أنها تنفع كأي جمل أعرج».

انطلق الفريق من الخيمة لاستكشاف أجزاء من رأس الجبل الذي أُشير إليه على بعض الخرائط برأس شبه جزيرة مُسندم. كانت بعض القبائل الهمجية إلى الشمال عدائية، فتجنبها وليَمون وقاد المسير عبر الأراضي الوعرة إلى خصب Qassab. لم تقدّم الجبال ولا الساحل المسنّن بالصخور إلا مناظر كالحة، ولم يوجد شيء يثير الاهتمام ما عدا لعلماء طبقات الأرض.

عاد الفريق إلى الشارقة في غضون أسبوعين، ثم ركبوا، باستثناء العميل السياسي، على متن خوزستان للذهاب إلى مسقط. كان الحاج وليَمون يتطلع للعودة إلى هناك، حيث كان لديه الكثير من الأصدقاء في ذلك الميناء الرائع، وللمكان نفسه الكثير مما يُنصح بزيارته في الموسم المعتدل.

كانت الرحلة عبر مضيق هُرمُز ونزولاً إلى خليج عمان هادئة. عرضت مسقط سحرها المثير الدائم بينما كانت الناقلة تبحر ببطء إلى داخل الخور. أبرز أحد الضباط الأغرار بفخر الارتفاع البالغ 400 قدم الذي طلي عليه اسم خوزستان على الجرف الصخري. إن هذا التقليد في استخدام الصخور الداكنة الشاهقة المطلة على خور مسقط كأنه سجل للزائرين قد أدى إلى كثير من التنافس فيما بين البحارة لتسلق الأجراف الخطيرة. تفوق بحارة الناقلة في رحلة سابقة على معظم الفرق من السفن الأخرى حيث تم وضع اسم خوزستان عالياً ولم يزل مرئياً في ذلك السجل الغريب لفترة ما بعد الحرب العالمية الثانية.

ما إن رست السفينة حتى ذهب وليَمون إلى الشاطئ وبدأ بالمهمة المعقدة في ترتيب حملة استكشاف في الداخل. تطلب ذلك عدة أيام. كانت أماكن الإقامة للزوّار الأوروبيين شبه معدومة في الميناء، فاستخدم عالما الجيولوجيا ليز وغراي وعالم النبات فرنانديز السفينة كفندق.

بسبب التدخل البريطاني، فقدت مسقط مصدرها القديم للثروة من نشاطات تهريب

الأسـلحة بالجملة. بقي الميناء المحاط بالجدران على حاله، وما زالت حرفة السـحر والشـعوذة مزدهرة تحت القلاع والحصـون والأبراج الكالحة التي ألقت بظلالها على البلدة.

اشـتهرت مسـقط منذ القديم بسـطوة سـاحراتها، ومن الواضح أنهنّ أخذن يعملن بسـحرهن أكثر منـذ آخر زيارة لوليَمسـون. ولما أصبح الناس أكثـر تمدناً أو بالأحرى تغرباً سُمح بمحلات بيع الكحول وأصبح بعضها ملاذاً للنصابين والشُّذّاذ.

لقـد كان يُعتقد لدى الكثيرين بشـكل راسـخ أن عـدداً من هؤلاء النسـوة في البلدة كـنّ سـاحرات عتيقات في الخفاء ويمتلكن قوى خارقـة. فالرجل الذي فقد نقوده، قد يتعـرّض لخطر مهلك فـي أن يتحول إلى كلب أو حمار. هـذا الاحتمال، ربما افترض أحدهـم، كان يمكن أن يشـكّل رادعـاً فعالاً عن الاقتـراب من أي نوع مـن الطفيليات اللواتـي يتـردّدن على محـلات بيع المشـروبات. غير أن الكثير مـن أصحاب الأرواح الجريئة تحدّوا القدر، وهذا بالرغم من الأدلة العينية لسـحر السـاحرات.

كانت الدموع تذرف من عيون الكثير من حمير مسقط. وأكّد أحد المواطنين للحاج وليَمسـون حالفاً بأغلظ الأيمان أن حماراً، ودموع الندم تنهمر من عينيه، اقترب منه في محاولة لمنع دخوله إلى الحي سـيء السـمعة في البلدة. في مثل تلك المجالس، اعتبر وليَمسـون أنه من غير المجدي أن يقدم أسبابا أخرى راجحة عن عيون الحمار المريضة غير أن هذه الحيوانات كانت أناساً تحوّلت أشكالهم بفعل السحر.

في مثل هذا الوقت من السـنة، أول الشـتاء، كان من الممكن أن تتجوّل في مسـقط أو حتى أن تتسـلق بعـض المرتفعات المحيطة بمقدار مقبول مـن الراحة. لقد كان من المستحيل أن يُشرع في الصـيف في حملة استكشاف من النوع التي اقترح وليَمسون أن يقودها. لفترات من يوليو وأغسطس، جعلت الحرارة الشديدة الرطبة الحياة في مسقط لا تحتمل. اشـترك الميناء مع أنحاء أخرى من سـاحل الهدنة بالسـمعة التي لا يحسـد عليهـا بكونه من بين أحرّ البقاع على سـطح الأرض. من المـزاح المقيت حول حرارة مسـقط أنه عندمـا كان يُحَضر أحد الأوروبييـن المتوفين للدفن في يـوم خانق، أحضر

واحـد ممن كانوا يسـاعدون فـي الطقوس بطانية سـميكة وقال: «لفّه بهذه، المسـكين سيشعر بالبرد في جهنم بعد هذا المكان».

لعقـود كثيرة، كان الجند في سـلطنة مسـقط يُجلبون من بين العقيـلات، المرتزقين من الشـرق. حيـث ذاع صيت رجال القبائل هؤلاء بولائهم لمن يسـتأجرونهم، سـواء كان دورهـم كجنـد أو مرافقيـن للقوافل. رغم ذلك، تم تسـريح جنـد العقيل، وأصـبح السـلطان تحـت حماية المجندين المسـتمدّين من البلوش وقبائل عُمـان. كانوا تحت قيـادة الضـباط البريطانيين والهنود المعارين مـن الحكومة الهندية، وقد التحق الضـابط القائـد النقيب إكلز G. J. Eccles بحملة دارسـي D'Arcy عنـد بيت الافلاج Beit-al-Fallaj (بيت اليـنابيع) حيـث كان مقرّ قيادة المجـندين.

بدوي ظُفاري

بدوي عُماني

كان أحـد المسـالك من بيت الافـلاج Beit-al-Fallaj يؤدي إلـى جبال الخضراء، فسـلكت الحملة هذا الأثر لاستكشـاف جزء من السلسـلة التي تفصل سـاحل الباطنة عن الظاهرة. وتمتدّ هذه الجبال جنوباً إلى الأراضي الخصبة من الرّبع الخالي العظيم، والذي ما يزال يتضمّن أحد أكبر الأرجاء المجهولة في العالم[1].

استحصل الحاج وليَمسـون، بينما كان في الميناء، على رسائل لكثير من زعماء القبائل في البر وولاة البلدات على طول السـاحل. لقد كان ضرباً من الغرور أن يظن السـلطان أن قبائل الداخل ما زالت تحـت حكمه، ولكن من الجليّ أن قليلاً من الناس خارج مسـقط يشـاركونه الرأي. على كل حال كانت الرسـائل عملياً عديمة الفائدة. توقع وليَمسـون ألا تحمل أي وزن، فلجأ في أسفاره إلى الأسلوب الذي وجده الأكثر نجاحاً في الماضي. كان ذلك نظاماً متدرجاً ومصنفاً بعناية من الهدايا والدفعات للشيوخ وللآخرين الذين مروا من أراضيهم. على أنه يجب أن يتوخى الحرص الشـديد في هذا الإنفاق لتجنّب الغيرة بين الشيوخ المتنوّعين الذين زوّدوهم بالمرافقة من أجل الحملة.

كالمعتـاد، كان الحـاج وليَمسـون يرتـدي اللبـاس العربـي النجدي في أسـفاره، ولدى نصبهـم الخيام فـي مكان يدعى بوشَـر Boshar، أوى النقيب إكلز إلى خيمته وغيّر ملابسـه من اللباس الرسـمي إلى الأثواب العربية العُمانية. جاء الشـيخ المحلي ووزيره وبعض من رجال قبيلته في زيارة خاطفة. خرج إكلز Eccles خلال الاسـتقبال غير الرسـمي، فمدّ عالم الجيولوجيـا غـراي يـده، وكان حسـير النظر قليلاً، ليصافـح إكلز ظناً منه أنـه كان عربياً من

(1) طالما أنّ هذا الكلام كان في عام 1925، فمن الصحيح أن الرّبع الخالي كان ما يزال آنذاك في حكم المجهول بالنسبة إلى الرّحالين. لكن هذه الغاية والمغامرة العُظمى لبثت تتردّد في أذهان رحّالي الإنكليز كافّة، إلى أن تمكّن منها في النّهاية المغامر الجسور برترام توماس Bertram Thomas الذي كان وزيراً لدى سُلطان عُمان، فتوجّه إلى ظُفار عام 1928 ثم اجتاز الرّبع الخالي عام 1930. ودوّن وقائع رحلته هذ في كتاب نفيس له بعنوان: *Arabia Felix* (قمت بترجمته لهذه السلسلة). تلاه هاري سنت جون فيلبي Harry St. John Philby في عام 1932، ثم ولفريد ثيسجر Wilfred Thesiger الذي اجتازه مراراً بين 1946-1948، فكان بحقّ آخر جيل رحّالي أوروبا الأصيلين في جزيرة العرب (توفي مؤخراً 2005).

رجال الشيخ. غير متوقع لهذه التحيات الرسمية من رجل ما انفك يعيش معه كل يوم، لم يستجب إكلز للمبادرة مفاجئاً إياه. عندئذٍ التفت غراي إلى وليَمسون ظناً منه أنه عربي لا يعرف الإنكليزية قائلاً: «من هو صديقنا الفظ؟ هل هو أحد المتعصبين الشيعة الذي يعتقد أني غير طاهر؟».. فسبّبت الملاحظة ضحكاً عارماً شارك فيه إكلز.

تبع الفريق مسلكاً آخر قادهم عبر مَطرَح والسّيب إلى بَركاء حيث زودهم الوالي بالجمال كوسيطة نقل. لكن كالمعتاد، وجد وليَمسون أن البدو العُمانيين غير مرضيين في أداء مهام القافلة – غير أكفاء مقارنة مع بدو مُرّة من شمال جزيرة العرب ومع رجال قبيلة جوادة من العراق.

بعيداً على طول ساحل الباطنة عند السّويق، استقبل الحملة ابن والي بركاء البالغ من العمر أربعة عشر عاماً والذي كان يقوم مقام حاكم محلي تحت توجيهات والده. أعدّ الصبي الذي كانت والدته زنجية، وليمة عظيمة إكراماً لهم وتشريفاً. فُرشت أرض مجلس الضيوف بالحصر، ووضع عليها أطباق اللحم والسمك والأرز والخضار وأنواع متعددة من الحلويات. اضطجع الزوار والمضيفون على الأرض، وقام العبيد بإحضار قدور ملونة تحوي طبيخاً خاصاً من دجاج وطيور أخرى وخضار – قدر ممتلئ لكل اثنين من الحضور في المأدبة.

رفع وزير الوالي، الذي جلس بجانب الحاج وليَمسون، أحد القدور المليئة بالطبيخ من مقبضه وعرضه بفخر كبير. ثم أسرّ بوقار قائلاً: «هذه الأواني الجميلة تُرى فقط عندما يكون لدينا ضيوف ذوو شأن عظيم».. «إنها لتكريمك، يا حاج عبد الله، وهؤلاء الفرنجة النبلاء أصحابك». ربما سيكون وليَمسون أكثر تأثراً بهذا التكريم لو لم يمضِ طفولته في إنكلترا ويرى قدوراً مشابهة تحت السرير.

شق الفريق طريقه مبتعداً على طول الساحل، ووصلت الحملة إلى الخابورة حيث شارك وليَمسون ذات مرة بحمولة أسلحة على ظهر مركبه. في تلك الأثناء انضم إلى الفريق شخص هو والي المظافير Madhafir الذي كان عبداً ابن عبد، بيد أنه غدا حاكماً لمقاطعة كبيرة من السلطنة. كان هذا الرجل نموذجاً عن السلطة التي يمكن أن يحوز

عليها عبد بالمولد، وقد عارض في مناسبات عدة أخا السلطان، السيّد أحمد، وهو والي مقاطعة مجاورة. كان يعيش حياة ملكية مقارنة مع مئات العبيد الأفارقة في عمان، ومن وجهة النظر نفسها، مع آلاف من رجال القبائل العرب الأحرار.

تم ترتيب اجتماع عند الخابورة مع شيخ وادي الحواسنة الذي طلب دفعة مقابل إعطائنا رفيق (حماية) قبل أن تسير الحملة بأمان عبر واديه. ولما تم تدبير ذلك بعد الكثير من النقاش، حث وليَمسون والي المظافير Madhafir ذا السلطة على السفر في البرّ مع القافلة، ذلك أن نفوذه يمتد عمقاً في الداخل.

ضُرب المخيم التالي في الغيضين Gaidh-ain (أي النبعين) عند مدخل الوادي حيث جاء الكثير من البدو لمشاورة وليَمسون حول أفضل العلاجات للعلل التي تصيب إبلهم. فقد اتضح أن سمعته بلغت حتى الأجزاء النائية من عُمان، وقد أكنّ رجال القبائل الرحّالة أعلى الاعتبار لسنوات خبرته المديدة في صحارى وسط جزيرة العرب.

بعد مغادرة الوادي، قامت الحملة بالعبور الشاق لخب النّجد Khab al Nejd، وهو ممرّ على علو 4000 قدم يفصل أرض قبيلة الحواسنة عن أرض بني عمرو. ومن أرض بني عمرو توغلوا عبر الجبال، على مسالك عالية وشديدة الانحدار، إلى منطقة بني علي. إجمالاً، تم استكشاف مناطق واسعة من عُمان الداخلية، وقد حصل كل من علماء الجيولوجيا والنبات على عيّنات كثيرة، وكمّ كبير من المعلومات ذات الأهمية العلمية.

لم تكن الجمال المستأجرة من القبائل المختلفة تصلح للاستخدام إلا في مقاطعات محددة. لقد اضطرت الدروب المسلوكة الرجال إلى الكثير من المشي والتسلق، ولم يكن وادي نخشة Nakhas (الوادي المنحدر) سوى إحدى العقبات التي كانت تتطلب قدرة رياضية عالية للعبور. كان جزء من الطريق عبر الوادي بقعة تعطي المسافرين خياراً إما بالتسلق على طول صخرة غادرة تحتها هاوية بعمق ثلاثين قدماً إلى الأرض، أو عبور المسيل يداً فوق يد على طول سلسلة عالية فوق بركة مياه عميقة.

بعض المرافقين العرب الذين بإمكانهم التسلق حفاة مثل القطط، أرادوا العبور على

الصخرة الصّلدة. أما الحاج وليّمسون فقال لمواطنيه البريطانيين: «خذوا بنصيحتي، اعبروا عن طريق السلسلة، وإذا وقعتم فلن يصيبكم شيء سوى مغطس بارد».

بدأ بنفسه ليكون مثالاً لهم لكنه وجده أكثر مشقة مما افترض. كانت السلسلة المعلقة فوق البركة منقرة بالصدأ ورديئة في أماكن لدرجة أنها تخدش الجلد. تقدّم وليّمسون وهو يتلفت ويتلوّى على طول السلسلة وهي تصدر صريراً مخيفاً. كان سائر المكان مخيفاً وبارداً إلى أقصى حد؛ ذلك أن هذا الجزء من الوادي كان وادياً ضيقاً كئيباً بجدران من الصخور ترتفع مئات الأميال على كل من جانبيه. ولم تكن الشمس تخترقه أبداً عدا وقت قصير في منتصف النهار.

تبع عالما الجيولوجيا، ليز وغراي، مثال الحاج؛ ولكن خلاف النصيحة المسداة، اختار النقيب إكلز المسلك فوق الصخرة وسرعان ما وجد نفسه غير قادر على التحرك إلى الأمام أو الوراء. أسرع عربيان لنجدته، وبينما كان باقي الفريق يراقب بقلق، ساعداه ليعبر بأمان.

بعد الكثير من التجوال، أقيم مخيم في الرّوضة Rodhar على أرض مكشوفة على بعد ثمانية أميال من بلدة يَنقَل Yanqal. أكثر من مرة خلال الرحلة، توقف رجال القبائل ليناقشوا أمر تقدم الفريق، وقد أُجبر وليّمسون في بعض الأوقات على استخدام كل ما أوتي من عبقرية في التفاوض مع الزعماء للحصول على حق المرور. كانت الأحوال حول يَنقَل خصوصاً تتوعّد بالخطر، وبدا أن البلاد بأي لحظة يمكن أن تشتعل بحروب قبلية. كان شيخ بني علي جاهزاً لقتال حاكم الجبل الأخضر الذي استولى على بلدة عبري قبل عدة أيام فقط من وصول المستكشفين.

في اليوم الذي نُصب فيه المخيم في الرّوضة Rodhar، جاء أخ للشيخ مع كثير من رجال قبيلة بني علي ومعهم خيول وجمال ركوب لمرافقة الفريق إلى البلدة. بالقرب من يَنقَل التقوا مع المزيد من المحاربين الركبان الذين قدموا عرضاً مرتجلاً في الفروسية كان يمكن أن يفخر به فرسان القوزاق Cossack. عندئذٍ بأسلوب رائع تمت مرافقتهم إلى البلدة، وتقديمهم في حفل استقبال إلى الرجالات البارزين هناك. شابَت صوت الشيخ أثناء تحيتهم بحّة ثقيلة فسأله وليّمسون إن كان قد أصابه زكام، لكنه بيّن

أنـه فقد صوته بسـبب اضطـراره إلى التحدّث مـع رجال قبيلته لعدة سـاعات في اليوم السـابق حول موضوع الزعامة.

في الصباح السابق، بيّن أيضاً، أن ثلاثة من أقربائه المقربين حاولوا اغتياله والاستيلاء على السـلطة، ولكن لحسـن الطالع، نجح بعـض أتباعه بالقبض عليهـم. تدخّل والي المظافيـر[1] Madhafir، الذي كان حاضـراً أثناء هذا الحديث، لسـؤال الشـيخ عما حلّ بالأسـرى. فيمـا يبـدو أن الأوغاد قـد صُفّدوا ورُمي بهم في السـجن، لكـن الزعيم لم يستقر رأيه بعد على كيفية الخلاص منهم.

أثناء احتسـاء القهوة في الديوان المفتوح، عاود الشيخ الحديث عن موضوع أقربائه المضللين، وأخبر الحاج وليَمسـون ووالـي المظافير Madhafir عـن الطرق المتنوعة المقترحـة للتخلص منهم. كانت كلها مؤلمـة ومميتة وبعضها مبتكرة تماماً. لقد ناقش الموضـوع بتلـذذ بينما كانـت فناجين القهوة المـرة تُقدّم، وطلـب رأي الضيوف حول طريقة الإعدام الأكثر مناسبة للظروف. استقبل الشيخ اقتراح وليَمسون بصمت حائر إذ رأى أن يرافق السـجناء الثلاثة إلى البراري ويفكّ أسرهم هناك. بعد هنيهة من الصـمت، أجابه والي المظافير (المولود عبداً): «كلا. قطع الرأس ينهي كل المتاعب».

فـي آخـر المطاف عندما سـلكت الحملـة الطريق إلى السـاحل، كان ذلـك لإعادة التنظيم فقط استعداداً لرحلة شـاقة طويلة أخرى إلى أنحاء أخـرى من الظاهرة. أخيراً تمت العودة إلى مسقط حيث ودّع النقيب إكلز الفريق. وقد سبق أن هُيئت سفينة من قبل شركة النفط، فاستقلها وليَمسون مع عالمي الجيولوجيا والنبات قاصدين عبادان.

* * *

(1) كذا ترد الكلمة في الأصل، وكنت ذكرت أن طريقة ستانتون هوب في كتابة الأسماء العربية بحروف إنكليزية غريبة وتؤدي إلى تشويه الأسماء. وفي ولاية ينقل بـسلطنة عُمان عدّة قرى قد تتشابه أسماؤها مع هذه التسمية، لكن تحديدها يبقى أمراً لا دليل فيه، لأنه لا يحدّد مكانها جغرافياً، بل يكتفي بذكر واليها. وكذلك ففي المنطقة الشرقية من سلطنة عُمان قرية تعرف بالظاهر، وتتبع ولاية بدية.

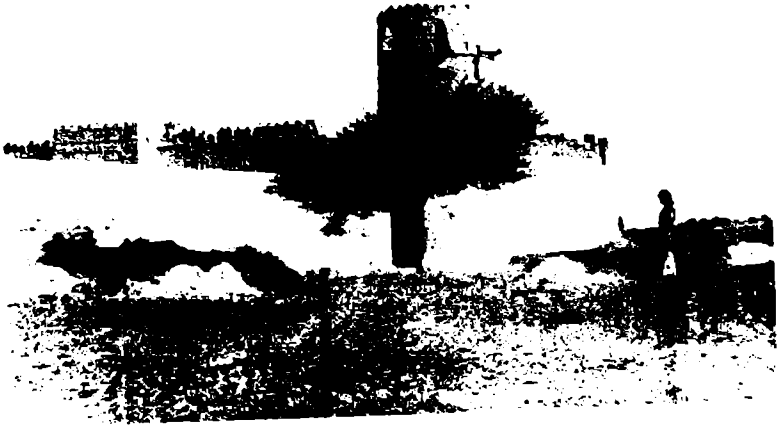

واحة البريمي في عُمان

الفصل الثاني والثلاثون

على «ساحل القراصنة»(1)

ظُفار هي إحدى الأجزاء النائية والمهمّة من جزيرة العرب التي عاد الحاج وليَمسون لزيارتها بدور الدليل والمستشار لعلماء الجيولوجيا النفطية، والتي تبعد خمسمئة ميل جنوب مسقط ومسافة قصيرة جنوب شرق جزر كوريا موريا التابعة لبريطانيا في بحر العرب. وقد زُعم أن هذه البلاد هي أوفير Ophir المذكورة في الكتاب المقدس، وقيل إن للأطلال الأثرية صلة بمملكة الملك سليمان الحكيم.

من بين خليط السكان الذي يتضمّن الزنوج والبلوشيين هناك البدو الظُّفاريون الذين هم عرب من أعرق السلالات. يقال إن قبيلة حِميَر هي أصل سكان جزيرة العرب. وبعض هؤلاء الحِميَريين، حسب تجربة وليَمسون، بدوا وكأنهم خرجوا مباشرة من عصر قبل سيدنا محمد ﷺ. كان نمط حياتهم بدائياً، ويعمر عالمهم كائنات خارقة يجب احترامها واسترضاؤها في كل الأمور.

في أحد الأيام بين هؤلاء الرجال، اقترب وليَمسون من زعيم حِميَري أشعث أغبر لأخذ صورة له. وبعد أخذ اللقطة بجزء من الثانية، أحس بحركة خاطفة من المعني

---

(1) تسمية ساحل القراصنة The Pirate Coast التي روّج لها الأوروبيّون تسمية مغلوطة وجائرة. فلم يكن أهل الخليج قراصنة، ولم يكن السّلب والنّهب صنعتهم، بل أثارت حفيظتهم نشاطات الإنكليز، فراحوا يدافعون عن مياههم ويستهدفون مراكب الإنكليز فعدّوهم قراصنة. وخير دراسة لتفنيد هذا الادّعاء هي أطروحة الشيخ الدكتور سلطان بن محمّد القاسمي حاكم إمارة الشارقة بعنوان: «أسطورة القرصنة العربية في الخليج» (بالإنكليزية):

Al-Qasmi, S.M.: *The Myth of Arab Piracy in the Gulf*, London, 1986.

فرمى بنفسه جانباً في الوقت المناسب تماماً لتجنب ضربة قاصمة من سيفه ذي النصل المستقيم. فوراً، ردّ ولِيَمسون بتوبيخ لاذع بلهجة الحِميَري الخاصة، ممّا جعل الزعيم يقف صامتاً خجلاً أمام عصبة من رجال قبيلته. استحضر الحاج القانون القديم قدم الزمن عن حصانة الضيف ومنعته ليسوّد وجه المعتدي.

تجاهل عذر الزعيم أن ضربة السيف لم يُقصد بها إيذاؤه بل تحطيم «صندوق السحر» الذي أخرجه لصنع تعويذة سحرية. كان عدد من عرب الساحل الذين يعرفون الكاميرا حاضرين، فلاقى عذره استقبالاً غير مرغوب فيه. ولضمان سلامته وسلامة الآخرين بشكل أفضل، طالب ولِيَمسون أن يعطيه السيف. عبّر الزعيم عن عميق أسفه ودلّ على ودّ القبيلة تجاه الزائرين بتسليم السلاح. وأصبح ذلك السيف زينة على الجدار في بيت الحاج في كوت الحجّاج بالقرب من البصرة وكان يتقلّده في جميع المناسبات باللباس الكامل.

كان الكثير من الأعمال في قرى ظُفار يُنجز على أنغام الموسيقى - أو ما يعتبره أبناء البلدة كذلك. كان ولِيَمسون يرى في بعض الأحيان الفتيات العربيات يجتمعن بجرارهن الفخارية في السوق، ومن ثم ينطلقن بتشكيلات شبه عسكرية إلى الآبار بقيادة بضع رجال مع الطبول والمزامير. وفي أماكن أخرى، كانت الجمال تستخدم لرفع المياه للسقاية. لكن الزراعة كانت ضئيلة حتى في الأراضي التي يمكن جعلها منتجة، ويعود السبب المعيق إلى العديد من ثارات الدم بين القبائل.

بالرغم من أن ولِيَمسون وأصحابه لم يجدوا ذهباً في أوفير Ophir الأثرية، فقد اجتازوا أميالاً في البلاد إلى النجود المغطاة بأشجار تنتج الصمغ والراتنج العربي المشهور. كان أفضلها - ويذكر ثانية بالعهد القديم - frankincense (اللّبان، وهو البخور النقي) والمِرّ myrrh.

كانت قيادة مثل هذه الحملات وتأسيس وزيارة الوكالات على طرفي الخليج العربي وخليج عمان، والإشراف على بناء حقول صغيرة للصهاريج لتخزين النفط، كانت الأعمال التي أنجزها الحاج ولِيَمسون خلال خدمته في شركة أنكلو إيرانيان

النفطية بين عامي 1924 و1937. وقد مكنته معرفته الخاصة بالسواحل من الاختيار والمسح والمساعدة بتحضير عدد من المدارج الجوية للهبوط الاضطراري، في الأيام الأولى قبل وجود الممرّ الجوي النظامي إلى الهند. عندئذٍ في مايو ويونيو عام 1932 أعدّت الترتيبات ليعمل كدليل ومترجم للكوماندر (المقدّم) ب. و. غالپين B. W. Galpin، من الخطوط الجوية الملكية (وهو الآن مسؤول بارز في شركة الخطوط الجوية البريطانية الخارجية) الذي رغب بمسح المداخل المائية على ساحل عمان من أجل إنشاء قواعد طوارئ للقوارب الطائرة التي تعمل على خط الهند.

صعدوا على متن «رانغون» "Rangoon" القارب الطائر العائد للقوى الجوية الملكية في البصرة، وطاروا مباشرة إلى الخور في رأس الخيمة على ساحل الهدنة شمال دبي والشارقة. وكان الذكور من سكان البلدة البالغ عددهم 5000 نسمة، كانوا كلهم تقريباً أفراداً من قبيلة الجواسم يعملون في صناعة البحر. يحكم ذلك المكان شيخ مستقل كان سابقاً تحت ولاية شيخ دبي. كما جرى عليه العُرف، لم يضيّع وليَمسون الوقت في السعي لأداء واجب الاحترام وتقديم هدية مناسبة.

لقد صيّر هذا الشأن الهام من تقديم الهدايا ودفع الأعشار إلى فن جميل. سنوات من الخبرة صبغته بالرأي والفطنة في التعامل مع رؤساء مئات القبائل الذين تنوّعت أعرافهم. كل الموانئ على طول ساحل عمان والذي يُدعى ساحل القراصنة كانت ذات حماية. فلا يمكن لأحد أن تطأ قدماه الشاطئ في رأس الخيمة أو الشارقة أو دبيّ أو أبوظبي دون تصريح من الشيخ المحلي. وبكل تأكيد لا يمكن لأجنبي أن ينزل إلى اليابسة بأمان دون إذن، ورغم أنه معروف للشيوخ وعامة الناس، كان الحاج وليَمسون حريصاً على العمل وفق العادات المحلية المتبعة.

لم يكن في رأس الخيمة بين البحيرة وسفوح الجبال سوى القليل جداً من الأبنية الحجرية، أو البنى الطينية. كان أكثر الأماكن هيبة الحصن الذي يستخدمه الشيخ للإقامة، والذي كان الساسيون البريطانيون يدعونه تلطفاً «القصر». كانت مساكن أخرى، بغالبيتها على طول ساحل عمان، مبنية من عريش أغصان شجر النخيل وحصر

أشجار التمر. كانت إقامة قصيرة تكفي لإعطاء البرهان أن ساحل القراصنة، الذي شاع فيه تهريب الأسلحة والتعامل بالرقيق، لم يسمع أبداً بتخطيط المدن. فما قُصد به طرقاً في رأس الخيمة لم تكن إلا مسالك تتلوّى بين المساكن الفقيرة وكأنها صُمّمت كمتاهة للإيقاع بالغرباء الغافلين.

لم يكن أحد يضع العقال في عُمان، وهو حبل الرأس في جزيرة العرب والعراق، سوى البدو الذين كانوا يستخدمون لفافة سوداء دقيقة يمكن استخدامها رسناً يربط على حلقة في خطم البعير. كان معظم العرب يفضلون الوشاح المعقود على أبسط شكل كعمامة، ومن ناحية أخرى كانوا يرتدون قميصاً قطنياً مطرزاً يصل إلى الركبتين وعباءة ملقاة فوق الكتفين وخفين في الأقدام. كانوا كلهم تقريباً يحملون خناجر معقوفة، وفي كثير من الأحيان كانت تُطعّم بشكل فني بالذهب أو الفضة. بينما كان البلوشيون يتباهون بسراويل بيضاء فضفاضة وعمائم قطنية فوق شعورهم التي تدلّت في ضفائر طويلة. أما الفُرس فكانوا ظاهرين للعيان في نوع من السترات تبلغ الركبتين وسروال ضيق من قماش قطني رقيق وعمامة ملوّنة وحذاء. وبشكل عام، اكتفى العبيد الزنوج بوضع قلنسوة صغيرة وارتداء صدارة، أما العمال اليدويون الذين ارتدوا قمصاناً فكان ينظر إليهم أنهم قد فضّلوا كبرياءهم على راحتهم.

وجد وليَمسون في رأس الخيمة مكان إقامة له وللمقدّم وبدأ بالمساومة لاستئجار مركب داو. ولا يمكن استعجال هذه المفاوضات دون أن يتأتى من ذلك خسارة مالية، ورافق الحاج وليَمسون صاحبه لزيارة أصدقاء عرب قدامى.

كان البيت تقليدياً في هذه البلاد، مقسماً كالمعتاد إلى مسكن للرجال ومسكن للحريم. وقد مُدّت عدة حُصر وسجّاد فارسي على أرض الديوان ليجلس عليها الحضور، وضعت وسادة قاسية أو اثنتان قبالة الحائط لتكون متكأً للظهر. كما نُسّق عدد من قدور القهوة العُمانية المزينة بأحجام مختلفة على موقد مكشوف حيث كانت القهوة تُعدّ.

تم جلب الفال *Fa'al* (تيمناً بحسن الطالع)، وتتألف من فطيرة رقيقة مقلية بالسمن يُرش عليها السكر، والحلو الشائع «حلاوة». بعد شعائر الفال، قدم عبيد نوبيّون للجمع

فناجين صغيرة من القهوة غير المحلاة والمنكهة بشكل فائض بالهال والقرنفل. لدى مغادرة الضيوف، ارتقى الوداع إلى احتفالية ثانوية وذلك بتمرير محرقة بخور صغيرة من الفخّار في ما بينهم حتى يُستنشق الأريج ويتخلل طبقات ثيابهم. في بعض الأحيان، بدل هذا، كان من العرف على الساحل العُماني أن يُرش ماء الورد فوق أيدي الضيوف المغادرين وأثوابهم.

أكثر من مرة خلال الإقامة في رأس الخيمة، حذّر وليّمسون الكوماندر غالپين Galpin من خطر التغلغل في الأزقة البحرية المحاطة بالجُروف الصخرية على ساحل الهدنة. وقال له: «لا يمكنك الاعتماد على رجال القبائل في هذه الأرجاء. إنهم أناس معظمهم جامحون ومتقلّبون.. وهم قساة وجاهلون. ولدى بعضهم ريبة بالأجانب إلى حد التعصّب، وطرق بشعة لعينة في إظهارها».

«نعم، نعم. أعلم ذلك تماماً، يا حاج»، أجاب القائد. «النقطة الأساسية هي، متى نشرع بالعمل؟».

أخيراً، أجريت ترتيبات مُرضية. واستقل الحاج وليّمسون والكوماندر غالپين Galpin الدّاو المجهز بطاقم عُماني شديد المراس وأبحروا على اتجاه شمال شرقي على طول ساحل الهدنة.

كان الطقس حاراً لكنه ليس بالمرهق بعد. إلى الميمنة كانت هناك أرض ذات حرارة خانقة خلال أشهر الصيف، وإنه لمن الحمق حقاً أن يُشرع بحملة من هذا النوع في يوليو وأغسطس. كان الساحل مثلماً بالعديد من الخلجان والمداخل المائية، والكثير منها ضيق ومنغلق لدرجة أن حرارة الصيف المتقدة المنعكسة عن الصخور أهّلت هذا الساحل لأن يحوز على لقب عالمي هو: «غرفة الانتظار لجهنم».

قبل أن تجعل الزوارق الحربية البريطانية القرصنة[1] وتهريب الرقيق أعمالاً غير

(1) لم يكن أهل الخليج قراصنة أبداً، ولم يكن التسلب والنّهب صنعتهم، بل أثارت حفيظتهم نشاطات الإنكليز العسكرية وتدمير سفنهم الحربيّة لمراكبهم وسيطرتهم على الإبحار في مياه الخليج، فراحوا يدافعون عن مياههم ويستهدفون مراكب البحرية الأنكلو هندية فعدّوهم قراصنة.

مربحة، كانت هذه المداخل مخابئ مناسبة ومحجوبة عن الأنظار للدّاو خلال المواسم المعتدلة. لا يمكن لضابط المحاسبة البحري أن يجري بحثاً فعالاً في ذلك الساحل المسنن. ولكن بالرغم من عدم وجود مزيّة الطائرات للاستطلاع، فقد كانوا فعالين بشكل جدير بالملاحظة بالتعامل مع تجّار الرقيق ومهرّبي السّلاح والقراصنة الذين أعطوا سمعة سيئة لهذا الجزء من السّاحل العُماني.

بقي الدّاو ساكناً لليلتين متاليتين. ولاحظ وليَمسون الذي أصبح شبه أصلع، أن العُمانيين كانوا في بعض الأحيان يلقون إليه نظرات مناشدة، فتذكر الأسطورة القديمة لهؤلاء الملاحين، كانوا يعتقدون أنه فقط الأصلع الذي يجب عليه الدُّعاء من أجل ريح جيدة، ولكن لضمان الاستجابة، يجب على المتضرع أن يظهر بشكل رثّ ومثير للشفقة أمام وجه الله. والطريقة التقليدية هي أن يفرك الرأس الأصلع بالرّمل وقماش القنّب حتى يدمي صاحب الرأس وينوح من شدة الألم. مع ذلك فالراكب معفى من هذه المعاملة إلا إذا كان مستعداً للتضحية بنفسه من أجل الصالح العام، وفضل الحاج تجاهل لمحات المناشدة من البحارة.

أُحرز بعض التقدم بواسطة التجديف في واحد أو أكثر من الأزقة البحرية بما فيها خور إلفينستون Elphinstone (أي المدخل المائي). كان طاقم الجواسم يحسنون التصرّف، لكن وليَمسون لمس توجساً خفياً فيما بينهم، ذلك أنه لم يكن جميع قراصنة عمان قد تقاعدوا عن العمل. لقد كان الحاج يعلم ذلك. لم يمضِ وقت طويل مذ رأى في رحلة سابقة مركب داو جانحاً ومرتطماً بالأرض، كان قد هاجمه أربعون أو خمسون زورقاً صغيراً عليها رجال قبائل من القفار الساحلية.

قد تكون الأسلحة في كثير من الأحيان أكثر خطورة على مستخدميها من استعمالها ضد المعتدين. كان ذلك صحيحاً خصوصاً في عُمان. عندما تكون البنادق في متناول اليد، يكمن الإغراء دائماً لاستخدامها، وتحقيق نصر أوّلي قد يجرّ سلسلة من الفواجع الناتجة عن متابعة الثارات الجديدة. آخذاً بعين الاعتبار جميع الظروف، أوصى وليَمسون بعدم حمل السّلاح في الدّاو فوافق المقدّم بالكلية. من جهتهم، كانت هذه

رحلة استكشاف سلمية، ومهما حدث، كانوا عازمين على تجنّب الأعمال العدائية.

على الرّغم مـن ذلك، قبل مضيّ العديـد من الأيام، تعرّضـت حكمة هذه السياسـة لامتحـان قـاس. فقد انحرف الـدّاو في أحد الأخـوار المائية الكبيرة، الـذي يتفرّع منه الكثير من الأزقة البحرية الصغيرة المحاطة بالجُروف الصخرية على الجانبين كليهما. فوقـف الكومانـدر غالپين Galpin بسـروال قصير وقميص أبيض وبيـده منظار مقرّب، بجانـب وليَمسـون على السـطح العلوي الخلفـي للمركب يلقي نظـرة عامة على خط الشـاطئ. حينئـذٍ، وكأنه بموجب إشـارة متفق عليها مسـبقاً، إذا بالخـور يصبح حافلاً بالحياة بزوارق بسيطة على متنها رجال سُمر من السكان الأصليين..

صـاح العرب من طاقم الدّاو في ذعر. لقـد رأوا الكثير من البنادق والحراب تلوح، وعلامات أخرى تدلّ على نوايا عدوانية. لم يكن هناك ريح في هذا المكان المحصور لتعبئـة أشـرعة الـدّاو المثلثـة، ولا يمكن دفـع المركـب إلا ببـطء بواسـطة المجاديف الطويلـة. بالمقابل، بإمكان السـكّان المحليـين أن يجدّفوا بمراكبهم الخفيفة بسـرعة، كما يمكن لطلقات البنادق أن تنطلق بسـرعة أكبر بكثير! كان بحّارة الجواسـم يذكرون اللـه عند الأزمات الطارئة، فاختلطت صلاتهـم من أجل الرعاية الربّانية بعويل الرجال الجامحين، إلى أن صرخ بهم وليَمسون بالعربية بغضب ليهدأوا ويستلقوا أرضاً.

نظر الكوماندر غالپين Galpin إلى المغيرين القادمين دون انفعال، وغمغم قائلاً: «يا لهم من رجال شرسين بالفعل».

«إنهم من رجال قبيلة الشّـحوح»، أخبره الحـاج. «لقد كانت هناك متاعب كبيرة مع هؤلاء الرّجال مسـبقاً».

كان الـدّاو فريسـة سـهلة، ويمكن الاسـتيلاء عليه مـن قبل مجموعة مسـلحة دون عواقب تقريباً. كانت الأسـلحة الوحيدة لديهم بضع خناجر معقوفة وأوتاد وما شـابه، مع ذلك لم يندم وليَمسـون على ترك البنادق والمـدسـات في رأس الخيمة. لقد كان هـؤلاء المغيـرون عازمين علـى الإغارة والقتل، ومن سـوء الطالع أنهـم كانوا في هذا

الموسم بالقرب من الساحل بدلاً من معتزلاتهم الجبلية. انطوى الوضع على خطر شديد وكان بحاجة إلى دهاء في التعامل معه.

وقف الحاج وليَمسون على المؤخرة المرتفعة للمركب في أثوابه العربية، وأخذ ينادي رجال الشّحوح بلهجتهم الخاصة.

حذّرهم قائلاً: «لا تقتربوا منا! فلدينا مدافع رشاشة والكثير من البنادق. وبكلمة أمر واحدة مني، سيطلق رجالي النار على أول زورق يقترب منا».

كان لذلك أثر بإيقاف الزوارق وتنفّس الصعداء، لكن التهديد مع ذلك مازال باقياً. ومن النقاش الشرس فيما بين رجال القبيلة والإيماء المضطرب بالبنادق، أدرك وليَمسون أنه على الأرجح ستكتشف خدعته. فلو صدّقوا أن الدّاو مسلح بشكل ملائم، لكان بإمكانهم الانسحاب إلى الشاطئ الصخري وإطلاق النار من وراء حواجز دون الخوف من ردّة فعل شديدة. لا بدّ من فعل أو قول شيء ما.. ولكن ما هو؟

بينما كان وليَمسون يتأمل في هذه المعضلة، وقف محارب رائع المظهر على مقدّمة أحد الزوارق وذراعه مرفوعة، وصاح يطلب أن تُعقد بينهم جلسة.

كان الرّجل يرتدي ثوباً خفيفاً عليه حزام صيغ من قطع ذهبية، ودلّ مظهره وأسلوبه التسلطوي بوضوح على أنه زعيم الشحوح.

بعد أن كبت بعض أكثر أتباعه صخباً، طالب بمعرفة رُبّان الدّاو ومن أين أتى هذا المركب.

أجاب وليَمسون: «أنا الحاج عبد الله فضل الزُّبير، وهذ الدّاو من رأس الخيمة ومهمتي سلمية».

«لقد سمعنا بالحاج عبد الله»، ردّ الزعيم ثم التفت قائلاً. «ومن هذا النصراني الأبيض؟ ما الذي أتى به ليتجسّس على ساحلنا؟».

كرّرت الأصوات الشرسة السؤال من الزوارق المنساقة على المياه الزرقاء الداكنة

للخور. لقد كان الأجانب البيض - البريطانيون بمساعدة معاونيهم الهنود - مسؤولين عن الكثير من المحن بين قوم الشحوح، حيث كانت السّفن الحربيّة البريطانيّة تشنّ هجمات عدائيّة كثيرة في المنطقة، ممّا أدّى إلى إثارة مشاعر البغض ضدّهم. فهم وليَمسون تماماً نمط تفكيرهم، وأدرك عزمهم المؤكد على مصادرة الدّاو رغم تهديد المواجهة. كان من شبه المؤكد أن الهجوم سيحسم مصير كل من على ظهر الدّاو، لأن الشحوح كانوا يعتقدون بثبات بالقول المأثور القديم «الموتى لا يخبرون أيّة حكاية».

وقف وليَمسون بلا حراك على المؤخرة المرتفعة للداو بانتظار أن تنحسر الضوضاء. وأدّت أثوابه البيضاء ولحيته السوداء وشارباه المفتولان إلى الأعلى قليلاً، إلى صبغ هيئته البدينة والقصيرة بوقار الشيوخ. وإن وقفته ويده اليسرى على مقبض الخنجر المعقوف في حزامه أشاعت جواً مؤثراً من التحدّي. كان في قرارة نفسه سعيداً بالمهلة نتيجة فورة المغيرين عقب سؤال الشيخ، ممّا منحه الوقت ليرتب أفكاره ويقرّر أيّة الوسائل أفضل لتخليص جماعة الدّاو من هذا المأزق الخطير.

أمّا بأن يخبر رجال قبيلة الشحوح بأن الرجل الأبيض جاء إلى هنا لمعاينة الطرق المائية من أجل تحديد أماكن للهبوط الاضطراري للقوارب الطائرة، فلم يكن ليجدي نفعاً. إذ أنهم لم يكونوا يعرفون مثل هذه الأشياء. كان الأمر سيبدو منطقياً أكثر إذا قال إنهم جاؤوا ليتحرّوا خبراً مفاده أن شيطاناً مجنّحاً يعيش في قاع البحر بالقرب من الشاطئ. كان عليه أن يفكّر بسرعة، مدركاً أن حياة الآخرين إضافة إلى حياته الخاصة تعتمد على محادثاته مع هذه القبيلة الشديدة البأس والخطيرة.

رفع إحدى يديه. فأعاد الشيخ السؤال بفارغ الصبر، ثم تكلم الحاج وليَمسون بوضوح وأناة.

«يا شيخ، هذا الرجل الأبيض يأتي كصديق لنا جميعاً. فلنحمد الله العليم على هذه النّعمة».

سكت برهة فصاح الشيخ بنبرة مستهزئة: «نحمد الله لأننا كشفنا هذا الدّاو. أمّا هذا

الإفرنجي فجاسوس».

أجاب وليَمــــون بحزم وهـو يتحدث بلهجـة الشـحوح بطلاقة: «إنـه صـديق. إنه لورد نبيل في بلاده عبر البحار وقد اشـتهر بحكمته ومعرفته العجيبة لأسرار كثيرة. كن صبوراً لتـسـمع عن هذا اللورد الإفرنجي، لأنه جاء كضيف إلى ساحلكم لجلب الخير للجميع».

عندئذٍ حشـد كل بلاغته التي كان مقتـدراً فيها، ووجه الانتباه إلى صيد اللآلئ، التي كانت تؤثر على حياة معظم رجال قبيلة الشـحوح بطريقة أو بأخرى. لقد أصبحت حيود اللآلئ بالقرب من الشارقة شبه عديمة القيمة، وذكّر الحاج وليَمــون مـستمعيه بالسبب.

كان ذلـك أمراً يمكن أن يقدّره الشـحوح. وبعد أن اسـتحوذ علـى اهتمامهم بتذكير جليّ بالحقائق، تابع ببلاغة مماثلة ليشبك تعاطفهم مع قصة خيالية.

أخبرهـم أن النـاس في البلاد البعيدة للورد الأبيض - مشـيراً إلى الكوماندر غالپـن Galpin - لديهـم معرفـة في أمور كثيرة على الأرض وفي السـماء وفـي أعماق البحار مما يخفى على رجال قبيلة الشّحوح. ومن بين كل حكماء الغرب لا أحد يملك معرفة أعظم من «اللورد الأبيض» نفسه.

عندهـا عاد وليَمــــون ثانية إلى موضوع صيد اللآلئ. إن معظـم رجال القبيلة كانوا يمضون جزءاً من موسم الغوص الكبير على الحيود الأقرب والأفقر بعيداً عن الأجزاء الشـمالية مـن سـاحل الهدنة. هـذه الحيود، وبعـض من تلـك الأكثر غنى بيـن الجزر الجنوبية في بحر البنات قد تم اسـتنزافها من المحار في الموسـم السابق بسبب إتلاف حيوان الدُّول[1] *al Dol* لها - ذاك المخلوق البحري ذو المجسّات التي تصيب بالشلل - والذي كان بمثابة الغول لغوّاصي اللآلئ.

فبعـد بلوغـه الأخبـار المفجعة خلال إقامتـه في عبـادان، تطوّع «اللـورد الأبيض»

---

(1) ذكرنا أعلاه أن قنديل البحر الضخم في الخليج يسمّى: الدّول.

للمجيء إلى عُمان لاستقصاء الأسباب من أجل مصلحة جميع العرب الذين اعتمدوا على صيد اللآلئ لكسب العيش. لقد جاء ليرى الأحوال بنفسه، وليكتشف أراضي تكاثر الدُّول، ثم ليصف علاجاً لتخليص حيود اللؤلؤ من هذه الآفة البحرية. كانت البلاغة والصّدق الظاهر تتأتى من خلال قناعته القسرية بأن حياة كل من على الدّاو تتوقف على نجاح مداخلته. لقد كان يعرف هؤلاء القوم القساة الجبليين؛ ويعرف كم كان الغضب عظيماً بالنسبة لهم أن يروا رجلاً بريطانياً يقتحم مناطقهم. كانت الفرصة الحقيقية الواحدة لتجنّب المهاجمة هي بإقناعهم أن عدم التعرّض لفرقة الاستكشاف سيجلب لهم منافع جمّة أكثر من القبض على رجال الدّاو.

بقي «اللورد الإفرنجي» جامداً دون انفعال. لم يكن بمقدوره فهم كلمة واحدة من شرح الحاج القوي بلسان الشّحوح. لذلك لم يشعر بأي حرج نتيجة رفعه إلى مصاف الزمالة الحصرية لعلماء العالم العظام، لكنه أدرك بسرعة تغيّر مزاج المغيرين في زوارقهم. كانت هناك أحاديث مختلطة بعد شرح وليَمسون المعقول، وأخيراً، قدّم الزعيم بروح دعابة عالية التأكيدات على دعم القبيلة وحمايتها للحملة ضد الدُّول.

بعد أن تم توطيد علاقات مواتية، دعا وليَمسون الزعيم إلى الاقتراب من الدّاو. وبعد تبادل رسمي للطعام والإطراء، بقيت العلاقات ودّية طوال فترة بقائهم في الخور.

امتدّت الرحلة الاستكشافية مع الكوماندر غالپين Galpin حول رأس شبه جزيرة مُسندم إلى الساحل الشرقي من عمان. واستغرقت معاينة المدخل المائي المسمّى خور مالكوم Malcolm أربعة أيام، حينئذٍ أبحر الدّاو باتجاه الجنوب حيث رسا في أماكن متعددة بما فيها دِبا Diba وكلباء Kalba. كان الشيوخ لطفاء مما حدا بالقائد إلى أخذ الانطباع بأن الحاج وليَمسون كان يُعَدّ في بعض المجتمعات العربية الصغيرة ذا قرابة وثيقة وعزيزة.

في رحلة العودة، اجتمع الدّاو بقارب سريع كبير عند نقطة جنوب خور مالكوم[1]

(1) المقصود به خور سيفة الحجّاج إلى الجنوب من رأس مُسندَم. أمّا اسم «خور مالكوم» "Malcolm Inlet" الشائع لدى الإنكليز والذي أثبتوه على الخرائط الأوروبيّة، فهو يعود إلى

Malcolm مباشرة. وقد تم ترتيب ذلك مسبقاً من قبل وليَمسون الذي طلب من خان بهادور عيسى Khan Bahadur Isa، العميل السياسي في رأس الخيمة، أن يرسل القارب متى أصبح متاحاً. انتقل إليه هو والكوماندر غالپين Galpin حيث تم أخذهما من خلال مضيق هُرمُز مروراً بجزيرة قِشم إلى لِنجَه على الجانب الفارسي. ومن هناك استقلا الطائرة إلى عبادان على الخطوط الجوية الملكية، وبالمصادفة كان أحد ركاب الطائرة وزير الاتصالات الفارسي، الذي كان مطلعاً بشكل غريب على نشاطاتهم على طول الساحل العُماني.

في ذلك الوقت، وضع رضا شاه، الذي ارتقى من القوات المسلحة ليصبح حاكم بلاد فارس، العراقيل أمام تجديد عقد احتلال البريطانيين للمدارج الجوية على الجانب الفارسي للخليج العربي. من الواضح أنه كان يعتقد أنه لا وجود لأماكن بديلة لهبوط طائرات على الممرّ الهندي، وأضحت طلباته - في رأي البريطانيين - ابتزازية لمّا كان عقد إيجار هذه الحقول الجوية قد شارف على الانتهاء. لم يطالب بمبلغ من المال أكبر بكثير فحسب مقابل تجديد العقد، بل طلب من البريطانيين أن يطلقوا رحلات جوية نظامية بين بغداد وطهران.

لدى سماع الحاج وليَمسون عن المصاعب، ناقش احتمالات وضع المدارج الجوية على الجانب العربي للخليج. من الواضح، أنه ما من أحد فكّر في هذا الأمر بجدية، ولكن من خلال معرفته الوثيقة بالساحل كان قادراً على الإشارة إلى حيث الصحراء مناسبة أو يمكن جعلها مقبولة دون تكاليف باهظة. ووفقاً لذلك، تم تجهيز الحقول الجوية في مواقع متعددة على الجانب العربي من الخليج إلى الشارقة، وتلك التي على الجانب الفارسي تركت للهجر والبطلان. حتى أن بعض المواقع العربية التي اختارها وساعد في تحضيرها ما تزال قيد الاستعمال حتى وقتنا هذا.

اسم ضابط المستعمرات الإنكليزي الكابتن جون مالكوم Captain John Malcolm، الذي قام في عام 1800 بالنّيابة عن شركة الهند الشرقيّة بتوقيع معاهدة ما بين سلطان مسقط وإنكلترا. وكفلت هذه المعاهدة امتياز إنكلترا على هولندا وفرنسا على أراضي سلطنة عُمان. انظر: رحلة عبر الخليج العربي من البصرة إلى مسقط، للرحّالة الألماني هرمان بورخارت، ص 179.

بعد وقت قصير من إشعار البريطانيين لحكومة رضا شاه أن عقد الإيجار الفارسي لن يُجدّد من قبلهم، كان الحاج وليَمـــون يقترب من بوشِهر في داو لزيارة إحدى وكالات النفـط، عندما اعترضته باخـرة بريطانية ملكية صغيرة، حيث قام الكاپتن (النقيب) مون Moon بتسـليمه رسالة وقال إن الســيد غاس Gass، مساعد المدير العام في عبادان، قد طلب منه أن يسلمها له إن أمكن.

نصّت الرسالة على أن بيت وليَمـــون في عبادان قد تم اقتحامه وتفتيشه من قبل الدّرك الفارسي أثناء غيابه. لقد كان الطاغية الفارسي غاضباً بسبب فقدانه المال والاعتبار بعد إلغاء عقود إيجار المطارات، وقد صُبَّ بعض من هذا الغضب ضد وليَمـــون لاقتراحه الحقول البديلة على الجانب العربي من الخليج ومساعدته في تأسيسها. وعليه (نصت الرسالة) قد تم إلغاء إذن إقامة الحاج في فارس من قبل البوليس، ومن المستحسن أن يبقى بعيداً عنها إلى أجل غير معلوم من أجل سلامته.

في ضوء هذا التحذير، وجّه وليَمـــون مركبه في الاتجاه المعاكس، وغادر بوشِهر مُدبراً، عائداً بملء أشرعته إلى الشاطئ العربي.

* * *

الفصل الثالث والثلاثون

الثروة النفطية

من خلال عمله في شركة أنكلو إيرانيان النفطية، صار الحاج وليَمسون معروفاً على نطاق واسع في طول وعرض الخليج العربي. تسرّبت الحقائق والأساطير عن حياته البدوية السابقة في الصّحارى إلى عرب السّاحل، وبلغت قصصه آذان البريطانيين والأميركان بشكل مشوّه. انتهت حياته بين العرب باحتلال البريطانيين لبلاد ما بين النهرين في الحرب العالمية الأولى، وقد منعته ظروف ما بعد الحرب من العودة إلى حياة السكان الأصليين ثانية كما كان عليه في السنوات الخالية. بعد أن كان متساهلاً في بعض الالتزامات الإسلامية في بغداد بين الطاقم العسكري، سرعان ما أعانه المزاج العام في الخليج على أن يستعيد توازنه الديني بما في ذلك تجنب شرب المسكرات بتشدّد صارم.

لدى وصول بارجة الأدميرال المتمركزة في جزر الهند الشرقية إلى الخليج العربي، أعدّ وليَمسون الذي كان لديه مسكن في الكويت، مأدبة عربية على شرف الأدميرال دَنبار نايسميث Dunbar-Naismith والعديد من ضباطه. كما رتب لضيوفه من البحرية الذين كان بإمكانهم الحصول على إجازة مطولة نوعاً ما، أن يذهبوا للصيد بالصقور والبنادق في الصحراء.

كانت زياراته الدورية لوكالات الخليج مغامرات حافلة بالمخاطر أحياناً. تم تأسيس بعض المخازن على ساحل البلوش، وكان يكره اضطراره في أحيان قليلة إلى التنقل بحراً على داو يمخر به رجال بلوشيون، الذين كانوا بحارين سيئين وميالين للفزع. كان اتجاه الريح عادة إما مقابلاً أو معاكساً لجهة الساحل. ومن شبه الثابت، أن

تتبع السكونَ التامَ عاصفة.

حدث ذلك ذات مرة عندما كان برفقته محاسب من عبادان. كان لدى هذا الزميل، وهو شاب من سكوتلندا، رفض متأصل للإبل والمراكب ذات الهيكلين المنفصلين (العوّامة) التي كان وليَمسون يجدها أكثر يسراً في زيارة بعض الوكالات الصغيرة. كان كلاهما راكبين على داو بلوشي عندما كسرت عاصفة عنيفة الصاري وألقت به محطماً على السطح. ارتفع عويل الطاقم المحلي من شدة اليأس. مقيدين بإحكام إلى الميمنة، أخذ الدّاو ينذر بالغرق تحت غضب الريح والبحر. هكذا كان مقدّراً، كما يعتقد البلوشيون.. ومن يمكنه تحدّي القدر؟

سرعان ما استفاقوا عندما صار وليَمسون نفسه بينهم. وبالتالي تشجعوا وبادروا إلى مساعدته بقطع الحبال المتشابكة وتحرير الصاري المجرور من على جانب المركب. ساعدوا بارتجال مرساة بحرية للنجاة من العاصفة، ولاحقاً عملوا صارياً وأشرعة مؤقتة. أصبح لدى المحاسب بعد هذه الرحلة نفور عنيف من مراكب الدّاو، بالإضافة إلى الإبل والمراكب ذات الهيكلين المنفصلين كوسيلة للمواصلات.

تمّ تأسيس وكالات نفطية في كل المرافئ الصغيرة على طول ساحل البلوشي الوعر. لكن السفن البخارية المتوسطة التي كانت تتردّد بين كراتشي وموانئ الخليج كانت قليلة النفع له. بعد أن حطّت إحداهن به في إقليم غوادار Gwatar، لم تكن هناك أي سفينة أخرى لأخذه أبعد من ذلك إلا بعد أسبوعين. عند السفر بغير إعاقة زميل معيّن من عبادان، كان يستأجر الجمال والرجال ويتابع مسيره بين المرافئ عبر المسالك البرية. وهذا، أيضاً، منحه الفرصة بين الفينة والأخرى بأن يخوض البراري والوعر لصيد الماعز الأقرن والغزلان والحبارى.

أقام مخيماً في أحد الأيام، في رحلة صيد باتجاه الشرق من پَسني Pasni، تحت تلال سمراء تشبه الجروف في امتداد من البلاد من الواضح أنه غير مأهول. وبينما كان البلوشيون يُعدّون الطعام، مشى مسافة قصيرة في اتجاه البر على طول حافة وادٍ جاف. كان يرتدي لباساً بلوشياً يتضمن سروالاً واسعاً وعمامة – لباسه المعتاد في أسفاره إلى

شمال غرب الهند - ولم يكن بارزاً بين الجمالين المحليين وهو يضرب في الأثر ولم يعانِ من أي متاعب حتى الآن على الشاطئ.

أما اليوم فقد تفاجأ على نحو مزعج عندما تردّد صدى طلقتي بندقية في التلال، وأدرك أن ما أنقذه من الأذى كان قلة مهارة في الرماية فحسب. صاح به كبير البلوشيين في قافلته الصغيرة أن يعود أدراجه إلى المخيم. لم يضيّع وليَمسون الوقت باتّباع تلك النصيحة، وسرعان ما حضّه على التعجّل أكثر طلقتان أخريان أثارتا الغبار بالقرب منه. هاجت الجمال خلف الخيام، وانبطح الرجال على الأرض خلف نتوء صخري.

«هناك رجال قبائل مختبئون بين الصخور البعيدة»، قال كبير البلوشيين لوليَمسون. «إنهم أناس سينون ولهم معي ثأر».

«ثأر؟ كان يجب عليك أن تخبرني بذلك في پَسني[1] Pasni».

«لم تكن لتستخدمني مع جمالي، أيها الحاج»، قال كبير البلوشيين. «ولكني أرسلت خبراً لأعدائي أني سأكون مسافراً كحماية شخصية لصاحب أبيض. ووفق القانون والعُرف يجب عليهم احترام الهدنة. لكن ربما لم يصلهم الخبر».

بدأ المخيم يتعرّض لإطلاق نار من قبل رجال القبائل البلوشيين، فأمر وليَمسون أحد الجمالين بالذهاب إلى الأمام حاملاً ما يعادل علم الهدنة. تألف العلم من شجيرة كبيرة محمولة بشكل بارز، ومشيراً حسب العادات في القفار الموحشة إلى أن حامل العلم غير مسلح ويتوقع الحصانة من الهجوم.

أثناء ذلك، أسرع وليَمسون إلى خيمته وبدل ثيابه إلى سروال واسع وسترة وقبعة شمسية. لابدّ أن يترك ذلك أثراً، كما كان متأكداً، إذا علموا أن صاحباً بريطانياً كان مسافراً مع القافلة. في الواقع، كان هناك القليل من الأرجاء في الهند حيث لم يكن البريطانيون محترمين ولا حرمة لحياتهم. كان المناوئون بعنف أعضاء من حزب

---

(1) پَسني بلدة وميناء صيد سمك تقع في مقاطعة غوادار Gwadar في بلوشستان بباكستان، إلى الشرق من ساحل مكران.

المؤتمر الهندوسي، أقلية صغيرة، بما فيهم النوع الشنيع إلى حد غريب من الطلاب السابقين الذين تم تعليمهم بسخاء في بريطانيا ولكنهم حافظوا على كرههم المليء بالحقد والنقد لكل شيء بريطاني إلى حين عودتهم إلى الهند. على الأقل، لم يكن هؤلاء الرجال منغمسين في نفاق مشابه، واستقبلوا ولِيَمسون دون ضغينة عندما لحق بالرجل إلى مخبئهم بين الصخور.

سلقهم الحاج بلسان حاد لإطلاق النار عليه. اعتذروا منه وشرحوا له أنهم حسبوه واحداً من المحليين الذين لهم معهم ثأر. لكنهم أخبروه أن الرجال المسافرين معه لن يُسمح لهم بالمرور عبر أراضيهم دون اعتراض، وأدرك ولِيَمسون أنه من الضروري حتى يتجنب سفك الدماء أن يعود إلى پَسني Pasni ويستخدم حماية أخرى ليست متورطة في النزاع مع هؤلاء الناس. ساعده في اتخاذ القرار منظر البنادق التي كانت بحوزتهم - لي إنفليد، مارتيني هنري وبعض البنادق الأفغانية الطويلة المزيّنة على نحو باذخ بزركشة مخرّمة فضية.

عندما اعتذر البلوشيون، أعطاهم شيئاً أو شيئين صغيرين كهدية. كان حيثما سافر تقريباً يتبنى هذا المبدأ: في أوقات الخطر والنزاع مع رجال القبائل الرُّحَّل، لم يعرض مالاً أو هدايا أخرى أبداً حتى تسوّى الأمور شفهياً وإلا قاموا بانتهاز الفرصة، ذلك أنهم كانوا يفترضون أن مهادنة سهلة ورشوة هما حصيلة الخوف. لم يكن هذا الافتراض من البدو الرحل غير مألوف بين الغربيين. فلو كان عدد دعاة السّلام والتهدئة أقل فيما بين الأمم المحبة للسلام، وعدد الداعمين للمبادئ التي وجدها ولِيَمسون فعالة في تعاملاته مع الأصناف الأكثر عدائية، لكان من الممكن جداً تجنب رعب الحرب العالمية الثانية وفواجعها.

لم تستلزم العودة إلى پَسني Pasni سوى القليل من الإعاقة بتأخر عدة أيام. لقد كانت الثارات بين القبائل لعنة متفشية في سائر أرجاء الشرق الأوسط، وكان ولِيَمسون يحصل عادة على معلومات بشكل مسبق حول مثل هذه المسائل قبل الشروع في أي رحلة في الصحراء. لم يكن ذلك ممكناً بالسؤال دائماً، لكنه كان قانوناً غير مكتوب لكثير من القبائل أنه يجب أن تعطى معلومات عن ثاراتهم القبلية الخاصة لكل مسافر يستأجر الرجال والجمال منهم.

مـع مرور الوقت، اتخذت صيانة وتأسـيس الوكالات النفطية على طول الشـواطئ العربيـة أهميـة ثانوية مقارنة مـع التطورات الجديدة وغيـر المتوقعة. قـام البريطانيون والأميـركان بمسـح أجـزاء من أراضـي جزيرة العـرب الرئيسـية وعدة جـزر بحثاً عن مؤشـرات لوجود النفط، وقدموا تقارير سلبية. عمل الحاج وليّمـون كدليل ومسـتشار ناصح لبعض علماء الجيولوجيا، وكما سُـجّل: كان إجماع الآراء بين خبراء الشركات الأوروبيـة والأميركية على أن جزيرة العرب لن تكـون منتجة للنفط بالكميات الكبيرة اللازمة لجعل الاستثمار التجاري مجدياً.

افتـرض معظـم النـاس أن الشـاعرية والمغامرة اللتيـن كانتا حاضرتين فـي التنقيب عن النفـط فـي الأيام الماضية في أميركا وأماكن أخرى، قد ولت بلا رجعة. مؤسسـات ضخمة مثل أنكلو إيرانيان وشِـل وسـتاندرد أويل اسـتخدمت وسـائل علمية: الاسـتطلاع الجوي والمؤشرات الجيولوجية واستكشاف الزلازل والمسح بالجاذبية الأرضية (بواسطة تسجيل تغيرات قوى الجاذبية الأرضية) والله أعلم ماذا.. قبل استثمار أي من أموال مالكي الأسهم فـي عمليـات الحفر. ولدى كل من هذه التكتلات الضـخمـة مدّخرات تزيد قيمتها على مئة مليون جنيه استرليني وبإمكانها تصفية ونقل وتسـويق النفط ومنتجاته.

بـكل الظروف والأحوال، فـإن الأيام الرائعة لرواد النفط الأفـراد قد انتهت، وليـس هنـاك أماكن واعدة حقاً على سـطح الأرض لم يبحث فيها خبـراء التكتلات الضـخمة بكل الموارد والوسـائل العلميـة.

إلا أنـه، بيـن الحربيـن العالميتيـن، وقعت أحداث فـي الخليج العربي شـابهت في الشـاعرية والحظ العجيب مـا حدث للمنقبين الفرديـن في أيـام التنقيب عن النفط في تكســاس وكاليفورنيا. في هذه التطورات الاستثنائية، أصبحت معرفة الحاج وليَمـون للعربيـة ونفسـيات العـرب ذات قيمة خاصة لشـركة أنكلو إيرانيان النفطيـة التي كانت تسـتخدمه. وفي إحدى المناسبات واجه صعوبات من شخص أربكت مبادرته الفردية الخبراء ووضـعت جزيرة العرب على خريطة الدول العظيمة المنتجة للنفط.

مـن وقت إلى آخر، كانـت مآثر هذه الشـخصية الجديرة بالذكـر، الرّاحل الميجور

(الرائـد) فرانـك هولمـز Frank Holmes، تدوّن في الصحف والمجـلات. ولمّا كانت بعـض الروايـات المنشـورة خياليـة أكثـر منها واقعيـة، فإن نظـرة موجزة إلـى التاريخ الحقيقي لاكتشاف النفط العربي قد تكون في محلها.

إن إعطاء انطباع وليَمســون عن هولمز سيكون تشويهاً إضافياً للصورة. فقد جعلت الظروف منهما أعداء، وحتى وإن لم يلتقيا إلا بشـكل محدود في مناسـبات اجتماعية فقـط، فإن وليَمســون من دون أدنـى ريب كان ينفر من هولمز وكانت المشـاعر متبادلة بالقـدر ذاتـه. ويمكن للمرء أن يتصوّر أنه لا توجد مسـاحة كافية في الصحراء الواحدة لمثل هذين الشـخصين العنيـدين والشـديدين.

كان هولمز، وهو من أصول نيوزلندية، مهندساً ميكانيكياً ومنقباً عن المعادن بالمهنة، وخدم في البحرية الملكية في الحرب العالمية الأولى. وخلال خدمته العسـكرية أُرسل إلى أرض الصومال لشراء بغال للقوات البريطانية والهندية، وبينما هو في هذه الحملة، التقى بعربي قال له إن هناك دلائل على وجود النفط في جزر البحرين.

لم تكن هذه المعلومات أسراراً شاعرية من النوع الذي يُسرد في قصص المغامرات. لقـد كان للبحرين تاريخ يعود إلى احتلال ملوك الفرس قبل الإسـلام، وكان في الزمن المعاصـر تحـت العلـم البريطاني فرص وافـرة للبحث عـن جميع الثـروات المعدنية والتجاريـة الكامنة. كان الباحثون المتمرّسـون من شـركة سـتاندرد أويـل أوف أميركا وشـركة أنكلو إيرانيـان يعرفون كل شـيء عن البحرين، أو ظنوا كذلك. لم يكن هولمز خبيراً نفطياً، ولو كان كذلك، لكان حرياً به ألا يلقي بالاً لحكايات العرب. لكن ما كان ينقصـه في المعرفـة الجيولوجية والعلميـة الأخرى، عوّضه بـإرادة هائلة وقابلية لإدارة العمل على مسـتوى كبير.

بعد تسـريح الجيش وإنهاء النفير العام في إنكلترا، تم توظيفه من قبل شـركة تدعى الرابطة الشـرقية والعامة، التـي تهتمّ بالتنقيب عن المعادن وأعمال أخرى في الشـرق، مثـل الحصـول على امتيازات نفطيـة أو معدنية وبيعهـا بربح. لدى عودته إلى الشـرق الأوسـط، أحرز امتيازاً نفطياً في اليمن، الذي لم يرغب به أحد آخر. كانت طريقته هنا

وفـي أماكن أخرى هي شـراء حق الخيار على الامتياز لمدة ثلاث سـنوات بشـرط ألا يتفاوض السلطان أو الشيخ أو مالكون آخرون للأرض مع أي أحد آخر وأن يمنح خيار التمديد لمدة ثلاث سـنوات أخرى. بهذا الترتيب حصل هولمز والرابطة الشرقية على وقت كافٍ لاستكشافات إضافية وفرصة مواتية لبيع هذه الحقوق.

بعـد أن تذكّـر ما قاله له العربي في الصّومـال، اعتقد هولمز أن الحصول على امتياز مـن شـيخ البحرين قد تكون فكرة جيـدة. لم يكن الشـيخ مهتماً لكنه وافـق في النهاية شرط أن يحاول البحث عن المياه في الجزر أولاً.

ممـا يثيـر الفضول، أن كل ما كان متاحاً للعرب في تلك الأنحاء من مياه عذبة وبكميات كبيرة وجد له منافذ عن طريق ينابيع تحت البحر. إن اسم البحرين يعني بحرين اثنين. لكن كلمة بحر في العربية لا تعني بحراً فقط بل أي مجرى مائي ضخم، وعلى الأرجح يشير اسم البحريـن إلـى «المائين»: البحر الأُجـاج وينابيع المياه الحلوة في أعماقه. كان من مسـاوئ الجـزر عـدم وجود مياه عذبة يسـهل الحصـول عليها، فقامـر فرانك هولمز بحظـه بالعثور على بعض المياه. نجح بهذا فحفر عدة آبار أرتوازية، وفي بعض الأحيان كان يحصل على ثلاثين ألف روبية للبئر الواحد. اسـتخدم المال لشـراء امتيازات، ولم يكن الامتياز النفطي في البحرين يكلفه سوى عشـرين ألف روبية في السـنة تقريباً.

أدّت الرابطـة، بفضـل السـيد هولمـز، خدمة ممتازة لهـا إضافة إلى خدمة الشـعب البحرينـي. وحتى عـام 1928 لم تفعل الكثير سـوى حفر آبار أرتوازيـة بأثمان مرتفعة، ولـم يخاطـر أحد بالحفر بحثـاً عن النفط إلى أن اسـتحصل ثري من أبنـاء البلد يدعى خليـل كانو على آلات حفر وقام بحفر آبار المياه بعُشـر سـعر الرابطـة. بالتالي، تدخّل آخرون في الأمر وصاروا يحفرونها مقابل 600 روبية.

فـي أثنـاء ذلك، خلال السـنوات، بـدءاً من 1921 عندمـا حصل هولمز علـى امتياز البحريـن، بذل جهـداً جباراً للفت أنظار التكتلات النفطيـة الكبرى. وقد لمَّحت مجلة دورية أميركية واسـعة الانتشـار إلى أن البريطانيين فشلوا باغتنام الفرصة السـانحة لهم، حيـث فاقهـم الأميركان بعيـدو النظر بانتهاز الفرصـة وجمع الثـروات. إلا أن الحقيقة

تلقي ضوءاً مختلفاً على ما حدث.

عرض فرانك هولمز تحويل الامتياز بشروط مربحة للرابطة إلى معظم شركات النفط العملاقة، بريطانية أو أميركية على السواء. رفضت شركة أنكلو إيرانيان العرض، كما فعلت ستاندرد أويل أوف أميركا.. ولم يرغب به أحد. في جميع الأوساط، كان الخبراء يقولون إنه لا وجود للنفط بكميات تجارية كافية في البحرين أو أي مكان آخر في تلك الناحية من العالم. كانت شركة أنكلو إيرانيان تأتيها إمدادات ضخمة إلى عبادان من المنطقة الكلسية المسامية في مسجد السليمان ومن حقول نفطية فارسية أخرى. ولسنوات طويلة، لم تكن الشركات الإنكليزية أو الأميركية تلقي بالاً إلى الامتيازات التي حصل عليها رجل كانوا يعتبرونه مجرد مغامر ومقامر في لعبة النفط. ذهب أحد المدراء التنفيذيين البارزين إلى حدّ القول لزملائه أعضاء مجلس الإدارة بأنه كان مستعداً لشرب كل النفط المنتج في أي وقت من جزيرة العرب. أعفته وفاته في الوقت المناسب من واجب تزييت حلقه بالكثير من آلاف ملايين الجالونات في السنة!

لم يكن هناك أدنى ريب أن هولمز، بخلاف الخبراء العلميين، كان يعتقد بإمكانية وجود النفط في البحرين. وعلى أيّ حال، فقد كان رجل أعمال مفعماً بالثقة بالمكاسب التي يمكن أن يحققها بدفع الامتيازات للفت انتباه أصحاب رؤوس الأموال الضخمة اللازمة لعمليات الحفر الشاملة، وذلك لحسم الخلاف. وبعد سنوات من الجهود المخفقة، وجد شركة، هي ستاندرد أويل أوف كاليفورنيا، مستعدة للتوصّل إلى تفاهم والمراهنة على هذه الفرصة.

قامت الشركة بإرسال الرجال والآلات إلى البحرين في عام 1929 وبدأت بالبحث على أساس مبدأ التنقيب عن النفط على الطريقة الأميركية القديمة «القط البري».. أي حفر الآبار بضربة حظ. كان خبراء التكتلات البريطانية والأميركية العظمى ينظرون إلى الجهود المبذولة بتسامح مُسلٍ، غير متفاجئين على الإطلاق بالنتائج السلبية. ثابر المنقبون على البحث. عندئذٍ وفي عام 1931 أصيبت الصناعة بأكملها بالصدمة من جراء خبر اكتشاف النفط المفاجئ في البحرين. بذلك تم تبرئة فرانك والرابطة وحققوا

ثروة من عوائد حقوق الملكية.

لقد كان من المفترض أن يكون هناك الكثير من الوجوه المحمرّة خجلاً في صفوف خبراء التكتلات العظيمة. إضافة إلى تلك المعرفة المغيظة بأن كل العلماء كانوا على خطأ والهاوي النسبي على حق، كان الخوف من أن يتخلفوا عن الركب إذا كان هناك نفط في أماكن أخرى على الجانب العربي من الخليج. وأصبح الطلب المفاجئ للامتيازات في الأراضي المجاورة، والتي كانت تُعدّ سابقاً عديمة القيمة، ممتعاً إلى حدّ كبير للشيوخ العرب.

قامت شركة نفط الخليج في بنسلفانيا بتعيين فرانك هولمز كممثل لها في الحصول على امتياز في الأراضي الكويتية. أما شركة أنكلو إيرانيان فقد أرسلت السيد تشيزَم A. H. T. Chisholm من عبادان إلى الكويت، حيث التقى بالحاج وليَمسون الذي استدعي من البصرة حيث كان يقيم حينها.

في الكويت، جلس الشيخ السيد أحمد بن جابر الصّباح، الحاكم الدّاهية، بعين متقدة على الفرصة الرئيسة. بدأت المفاوضات في صيف 1932 وتطورت إلى معركة مطولة بين المفاوض الدّمث والحاذق من عبادان مدعوماً بالموارد الهائلة والحنكة من شركة أنكلو إيرانيان، والرائد الحصيف المفعم بالثقة ممثِلاً المؤسسات الأميركية الكبرى، بكل ما أوتي من فتنة وفخر كونه قد وضع جزيرة العرب على الخريطة النفطية بمفرده؛ وقد ذاع صيته آنذاك بين العرب باسم «أبو نفط».

كان الحاج وليَمسون مترجماً ومفسراً ومؤدياً لكل المهام اللازمة في مفاوضات السيد تشيزَم Chisholm. وكلما ابتكر بطلنا سبلاً جديدة للتأثير على الشيوخ أو قدّم شروطاً أكثر إغراء، قدّم الآخر الطعم الذي كان يعدِل جهود المنافس. وبإعداده الولائم الضخمة للوجهاء المحليين على النمط العربي ليعاون في قضية رئيسه، كان وليَمسون في محيطه الملائم تماماً. من غير المستبعد أنّ عداوة هولمز الشخصية تجاهه كانت على الأغلب بسبب عدم الثقة بمدى تأثير الحاج على الكويتيين. كان الميجور يعلم أنه قد عاش سلفاً في هذا الميناء وأنه كان شخصاً مرغوباً فيه بين العائلات ذوات النفوذ والسلطة.

الحجي (إلى اليمين) ويوسف في الزُّبير

الحجي عبد الله فضال والبحسون بعمر [illegible] عاماً

للمرء أن يحكم أن وليَمســون، الذي عاش أربعين ســنة ونيّفاً في الشــرق الأوسط، اعتبر هولمز حديث نعمة. كانت أســاليب الميجور الخشـنة ونمطه الفظّ على نقيض ما كان عليـه الحـاج، المعتاد على أخلاق العرب. كانت تلك بـذور الغيرة لدى الطرفين. لم يكن بمقدور هولمز أن ينظر برباطة جأش إلى صداقة وليَمـسون اللصـيقة بالكويتيين وتواصلـه بطلاقة معهم وبلســانهم. ولـم يكن لدى وليَمســون ســبب ليشـعر بالسـرور أن هولمـز، القادم الجديد نـسـبياً إلى الخليـج العربي، قد حقّق ثروة فـي البحرين التي افترض الحاج أنه يعرفها مثل باطن كفه. معتبراً نفسه حجر عثرة صعبة خصيصاً لخطط هولمـز في الكويـت، تحرّك وليَمســون وعينه ترقب فـوق كتفه يتوجس خيفـة كأنّ يد سـفاك تظلله. كان سـيُطبع على وجه الميجور هولمز ضحكة خافتة لو علم بذلك؛ بيد أن فكرة أن تنتهي المنافسة بضربة خنجر لم تكن رائعة في نظر الحاج الذي كان مطلعا تماماً طوال سنين على النظام الفاسد من الثارات والاغتيالات.

اسـتمرّت هذه المفاوضات التنافسية على امتياز النفط الكويتي لأكثر من عام. نحو ذلك الحين أخذت المفاوضات بين المؤســسـتين البريطانية والأميركية تحتدم بشـكل متزايد بينهما، وكان الشـيخ في تمام الرّضا بأن يعبث ويستمع إلى المزايدة وهي تحلّق عالياً. إلى أن قرروا قرابة نهاية عام 1934 أن يوحّدوا قواهم وأن يفاتحوا الشـيخ بطلب امتياز مشـترك. تابع هولمز وتشيزَم Chisholm المفاوضات سويّة، وصارا حليفين بدلاً من متنافسـين بين عشـية وضحاها. تكللت الجهود بالنجـاح بعد مفاوضات صعبة مع الشيخ الحاذق طوال عام 1934 حيث تم توقيع الامتياز قبل عيد الميلاد تماماً. لكن لم يكـن للحاج أي دور فـي المرحلة الأخيرة هذه، ذلك أن المشـاعر بينه وبين هولمز قد تفاقمت في فترة التنافس إلى حدّ كبير، وكان كمٌّ ضخم من التراكمات في عمله العادي بانتظاره في أماكن أخرى.

بالرغـم مـن أن مفاوضات الامتيـاز الكويتي كانـت المحصّلة المنطقية لاكتشـاف النفـط فـي البحرين 250 ميـلاً إلى الجنوب، لم يكـن هناك آمال مشـجعة بالعثور على النفط في الأراضي الكويتية؛ فالمسـح الجيولوجي المطوّل في السـنوات العشر السـابقة

انتهى بنتائج سلبية واستلزم الأمر أربع سنوات إضافية من البحث المكثف قبل العثور على النفط في عام 1939. بعد ذلك، كانت التطوّرات سريعة رغم إعاقة الحرب لها، وقد ثَبُت أن هذه المنطقة الصغيرة تحتفظ بموارد نفطية هائلة. بلغ الإنتاج في بداية 1949 معدل مليون طن شهرياً، بنتائج مرضية لكل من الشيخ والشركتين المهتمتين باستثماراتهما.

بعد عدّة سنوات إضافية من الخدمات المتنوعة، أحيل ولسون، ذو الخمس وستين عاماً آنذاك، إلى التقاعد من الخدمة لدى شركة أنكلو إيرانيان في أغسطس من عام 1937.

تقاعد الرّجل إلى حياة عربية نمطية في كوت الحجّاج بالقرب من البصرة وقد أحاطت به عائلته. سنحت له الفرصة للإشراف الشخصي على العمل بين أشجار نخيل التمر وأشجار البرتقال في مزرعته المنعزلة. وقد قابل اعتزازه بأبنائه الرائعين حبّهم العميق له. كما كان يجد التسلوى باستقبال وزيارة أصدقائه العرب، بالسير خلال بساتين التمر إلى العشار والبصرة القديمة وبالركوب عبر بضع أميال في الصحراء إلى الزُّبير حيث مازال البدو يتحدّثون في المقاهي عن مآثره.

فلاح يعمل في روضة نخيل الحجي

الدرب الآخذ إلى كوت الحجاج

كان لاندلاع الحرب العالمية الثانية انعكاسات على العراق كما في كل مكان، ممّا أفسد على وليَمسون مغزى تقاعده، وزادته نذر العمى هماً عظيماً على همّه. في عام 1941 دخل المشفى الحديث العائد لشركة النفط في عبادان لإجراء عملية إزالة الساد من عينيه والتي تمت بنجاح. وقفل عائداً إلى كوت الحجّاج عقب تماثله للشفاء.

منذ ذلك الحين، استنفدت السنون العابرة القوة الجسدية للمحارب القديم، ولكنها عوّضت ذلك بإعطائه صفاءً للذهن لم يعهده من قبل أثناء عنفوان رجولته وفورة نشاطها. وقد قيل إن الأحمق دائماً على وشك أن يبدأ بالعيش. في السابعة والسبعين من عمره، كان وليَمسون مازال نشيطاً نوعاً ما وبعقل سليم غير معتلّ، وكان بمقدوره أن يفكر ملياً في أنه بدأ بالحياة حقاً في الثالثة عشرة من عمره عندما ركب البحر، ومن بعدها عاش كل لحظة من حياته. لقد كان حراً أيضاً، إلى درجة أنه عاش الحياة التي كان يتمنّاها، والتي في كثير من الأحيان تطلّبت شجاعة من الطراز الفردي الرفيع. لم تفسد عليه أي آفة من الإحباط سنواته الآفلة، ولم يكن لديه أيّ ندم.

ربما لم يُظهر في أي وقت من الأوقات تكيفه في التعامل مع الظروف على نحو أكثر إبهاراً من تلك المرحلة. لقد تجذّرت نزعة الارتحال في طبيعته، وكيّف نفسه مع مرحلة السن المتقدم بوقار هادئ لرجل مثقف. قد يبدو من التنافر أن المرء الذي عاش حياة مفعمة بالحيوية، وبالعنف أحياناً، قد ينقل أي انطباع عن سحر العالم القديم. من ناحية أخرى، منحه التقاعد الرغبة والوقت للدراسات الدينية، والحضور المنتظم لصلاة الجمعة في مسجد العشار. ولكن من الممكن أن نعزي السحر الذي زيّن شخصية الحاج وليَمسون إلى ما اكتسبه من أسلوب العرب الأصيلين وأخلاقهم أكثر منه إلى كونه مسلماً صالحاً.

حيّ الخدم في كوت الحجّاج

بعـد مغـادرة عبادان فـي ١٩٤١، نأى بنفسـه ثانية عـن مجتمع أبناء جنسـه. وثمّـة الكثير مـن الجاليات التجارية الأوروبية والأميركية الذين عاشـوا في الأجزاء الأرقى من العشـار والماركيـل علموا به من خلال الـسمعة فقط. وربما قابل بعضهم حاجّـاً رمادي اللحية في الأسـواق الشـرقية، غير مدركين أنهم احتكوا مع رجل ولد في بيـت إنكليزي رفيع المنزلة بتاريخ أكثر تنوعاً وتشـويقاً من أيّ مـستعرب حي. وكانوا لينظرون ملياً إلى ذلك الشـخص النحيل في العباءة والكوفية والعقال لو كان بإمكانهم تخيل مشهد ماضيه الشامل.

عُـدْ بالسـنين إلـى الصبي المفعـم بالحيـاة وهو يتحدى السـلطة علـى ظهر مركب بريسـتول ذي الصـواري الثلاثـة، إلى راعي البقـر (الكاوبوي) الشـاب، والمنقب عن الذهـب والطـواف فـي مـزارع كاليفورنيا وحقـول الذهـب فـي نيڤادا، إلـى العامل في قنـاة پنما، إلى البحار المجبر على ظهر سـفينة صيد الحيتان في القطب الشـمالي، إلى المتاجر في بحر الشـمال، وسـجين الإسپان في مانيلا، إلى الشـرطي المتديّن في شـرطة عدن، وربان الدّاو، ومهرب السّلاح والذخيرة وصياد اللآلئ؛ في خدمة الاستخبارات العسـكرية البريطانيـة في الحـرب العالمية الأولـى؛ وبين الحربيـن، والوكيل المحلي والمـستكشف لصالح الشركات النفطية المشـهورة عالمياً.

لقد كان وهج وحيويّة تلك الأيام الأولى الحبلى بالمغامرة مخبوءاً حتى عن المقرّبين إلـى الحاج في أيام تقاعده. وصا فتئت مآثر الحاج عبد الله فضل الزُّبير تُروى عند نيران المعسـكرات في الصحراء، ولـكن قليلين من أهل الحضـر والبادية هم من يعرفون الكثير عن وليَم ريتشارد وليَمسون القـرّي أدار ظهره لما يدعوه الناس بالحضارة، ليصبح طوّافاً فـي البحر ومرتحلاً في الصحـراء. لكن كثيراً ما كان الحاج وليَمسـون الجالس في ظل ديوانه المنعش يلقي نظرة علـى المشـاهد البعيـدة فيجد المتعة، كأنه صاقل مجوهرات يتفحّص لآلئ ذات تألق نادر.

قـد يبدو أن نجاتـه من أخطار لو وُزّعت على مئة رجل لكفتهـم، أمراً جديراً بالملاحظة بالنسبة لبعض الناس - ولكن ليـس بالنسـبة له. هكذا إرادة الله. غير أن الإيمان الحيّ برعاية الله الحافظ، لم يُعِق (كما يُفترضـ) الثقة الغزيرة في حُسـن بلاء الحاج وليَمسـون.

المحتويات

سلسلة روّاد المشرق العربي 5

هذا الكتاب 7

سيرة الحجّي وليَمسون كما يلخّصها حفيده 11

مقدمة 23

افتتاحية الكتاب: أسطورة تتحوّل إلى حقيقة 25

الجزء الأول

الفصل الأول: إلى البحر على مركب شراعي 57

الفصل الثاني: بلوغ اليابسة في كاليفورنيا 67

الفصل الثالث: ساحل بلاد البربر 81

الفصل الرابع: صيد الحيتان في القطب الشمالي 93

الفصل الخامس: تمرُّد في بحار الجنوب 105

الفصل السادس: محنة السجن 113

الفصل السابع: خطة للفرار 121

الفصل الثامن: مأوىً في مانيلا 129

الفصل التاسع: عبر الشرق الأقصى 139

الفصل العاشر: زاوية في جزيرة العرب 151

الفصل الحادي عشر: السفر سراً على متن السفينة 165

الجزء الثاني

الفصل الثاني عشر: مكيدة في الكويت 177

الفصل الثالث عشر: موكب الحج 191

الفصل الرابع عشر: المدينة المنورة........................ 201

الفصل الخامس عشر: في مكّة المكرمة 211

الفصل السادس عشر: تأثيرات الجن........................ 227

الفصل السابع عشر: غارة صحراوية........................ 241

الفصل الثامن عشر: جَمالٌ خطير 259

الفصل التاسع عشر: ضيوف غير مرحّب بهم 273

الفصل العشرون: الدفاع عن الواحة 283

الفصل الحادي والعشرون: جِمال وكوليرا........................ 291

الفصل الثاني والعشرون: صفقة خيول في بومباي 307

الجزء الثالث

الفصل الثالث والعشرون: ربّان الدّاو 319

الفصل الرابع والعشرون: مقالة في تهريب الأسلحة والذخيرة 329

الفصل الخامس والعشرون: اختبار المحاربين 339

الفصل السادس والعشرون: موسم الغوص الكبير 353

الفصل السابع والعشرون: عبيد في دبي........................ 363

الفصل الثامن والعشرون: المقامرة باللآلئ 373

الفصل التاسع والعشرون: صيّاد الجواسيس 385

الفصل الثلاثون: مأدبة عيون الغنم........................ 399

الفصل الحادي والثلاثون: في براري عُمان 413

الفصل الثاني والثلاثون: على «ساحل القراصنة»........................ 425

الفصل الثالث والثلاثون: الثروة النفطية........................ 439

منتدى إقرأ الثقافي
للكتب (كوردى - عربي - فارسي)
www.iqra.ahlamontada.com